بسمه تعالى

تعدّ مهمّة نشر وإشاعة معارف (الثقلين) الأصيلة من الواجبات التى لا يمكن بأىّ حالٍ من الأحوال تبرير الغفلة عنها أو التقصير فيها، وهى مهمّة من الضخامة والاتّساع بما يجعلها تتجاوز القدرات الفرديّة المحدودة والإمكانات المتاحة أمام كلّ واحدٍ من العاملين فى ميادين الثقافة الدينيّة.

من هنا تبرز ضرورة تعاون المؤسّسات والمراكز الثقافيّة والتنسيق فى ما بينها باعتباره خطوة مباركة لا يخفى ما لها من الآثار فى تقديم الثمار اليانعة لعشّاق العلم والثقافة وطالبيهما.

ومن تلك الثمار القيّمة كتاب «مناهج البيان فى تفسير القرآن»، وهو تفسيرٌ ألّفه آية اللّه الشيخ محمّد باقر الملكى الميانجى، وقامت مؤسّسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامى فى العام ١٤١٧ هـ بطباعة ألف نسخة منه ضمن الطبعة الأُولى.

وسعيا من «مؤسّسة عالم آل محمّد (عليهم السلام) العالميّة» و «مؤسّسة معارف أهل البيت(عليهم السلام)» و «مؤسّسة النبأ الثقافيّة» إلى توفير هذا السفر التفسيرىّ القيّم بين يدى القرّاء المهتمّين فقد صمّمت هذه المؤسّسات على التعاون وتشريك جهودها فى سبيل طباعته طبعةً ثانيةً عسى أن تسهم فى تلبية بعض ما

ينشده طلاّب المعرفة من البحوث والدراسات الأصيلة.

وهنا نجد لزاما علينا أن نتقدّم بالشكر والتقدير إلى سماحة الأُستاذ حسين الدركاهي الذي تفضّل بالموافقة على تجديد طباعة الكتاب، متمنّين له مزيد التوفيق ودوام الصحّة.

مؤسسة عالم آل محمد الثقافية
مؤسسة معارف أهل البيت
مؤسسة النبأ الثقافية
شبكة الفكر
alfeker.net

الفهرست

المقدّمة ٥
فضل القرآن ٦
حجيّة ظواهر القرآن ٩
تفسير القرآن بالقرآن والحديث ١٥
المحكم والمتشابه ١٩
التأويل والتفسير ٢٨
التفسير بالرأي ٤٥
الناسخ والمنسوخ ٥٤
تحدّي القرآن وإعجازه ٥٧

▣ سورة الفاتحة (١) ٧١
فضائل سورة الفاتحة ٧٣
الاستعاذة ٧٥
تفسير البسملة ٧٩
معنى لفظ الجلالة واشتقاقه ٨٣
الاشتراك اللّفظيّ في أسمائه تعالى وأنّ الواضع هو الله تعالى ٨٩
معنى الرّحمن والرّحيم والفرق بينهما ٩٥
معنى الحمد ١٠٤
معنى الربّ ١٠٩
معنى العالمين ١١٣
معنى المالكيّة ١١٦
معنى المُلك وحقيقته ١١٩
العبادة وإخلاصها ١٢٣
الهداية ١٢٧

▣ سورة البقرة (٢) ١٣٣

الغيب ١٣٦

الكفر بالله تعالىٰ وأقسامه ١٤١

حقيقة الإيمان ١٤٧

الفرق بين الإيمان والإسلام ١٥٣

هل الكفّار مكلّفون بالفروع أم لا؟ ١٦٤

تحدّي القرآن ١٧٥

الجنّة والنار مخلوقتان اليوم أو لا؟ ١٨٠

جعل الخليفة في الأرض ١٩٣

سجدة الملائكة لآدم عليه السّلام والإشكال في جواز السجدة لغير الله تعالى والجواب عنه ٢٠٠

سكنىٰ إسماعيل عليه السّلام وبنيه في الحجاز ٢١٦

معنى الصلاة ٢٢١

بحث في الشفاعة ٢٢٥

معجزات موسىٰ عليه السّلام ٢٥٠

التقليد ودلالة قوله تعالىٰ: «ومنهم أُمّيّون لا يعلمون الكتاب إلّا أمانيّ» عليه ٢٦٢

خلود الكفّار في النار ٢٦٥

روح القُدس ٢٧٩

السحر والفرق بينه وبين المعجزات ٢٩٥

معنى النسخ ٣٠٠

نسخ قوله تعالىٰ: «فاعفوا واصفحوا حتّىٰ يأتي الله بأمره» بآية السيف ٣٠٩

معنى قوله تعالىٰ: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» ٣١٩

معنى البديع ٣٢٤

الإرادة ليست بمعنى العلم ٣٢٦

إمامة إبراهيم عليه السّلام ٣٣٨

معنى البيت ٣٦٠

مقام إبراهيم عليه السّلام ٣٦٤

كون البلد آمناً ٣٦٧

معنى الصبغة ٣٩٣

المقدّمة

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

أحمدك اللّهمّ يا من أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً. أحمدك اللّهمّ يا من أنزلته لعبادك نوراً وهدًى وضياءً وشفاءً، وجعلته مهيمناً على كلّ كتاب أنزلته وفضّلته على كلّ حديث قصصته.

وصلّ اللّهمّ على أشرف أنبيائك وأكرم أحبّائك؛ محمّد الخطيب به، وعلى آله الأوصياء الخزّان له؛ سيّما وليّ أمرك القائم المؤمّل والعدل المنتظر. اللّهمّ عجّل فرجه، وألن جانبه لأوليائك، وابسط يده على أعدائك.

وبعد فيقول أقلّ الخليقة محمّد باقر الملكيّ الميانجي: إنّ هذا تفسير للجزء الأوّل من القرآن العظيم الّذي تحرّيت في توضيح الآيات وتحليلها بكلّ جهدي، وبذلت في تفسيرها وتحقيقها غاية سعيي استناداً إلى محكمات الكتاب وظواهره والرّوايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام. وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا اليسير منّي خالصاً لوجهه الكريم. وأشكره على ماوفّقني وأيّدني عليه.

وقد ساعدني في تنظيم هذه المجموعة الكريمة قرّة عيني صفوة الفضلاء الكرام، الورع البرّ التقيّ الشيخ محمّد البياباني الأسكوئي ـ أيّده الله تعالى وسدّده.

وقد ساعدني أيضاً قرّة عيني، الفاضل الجليل، الورع البرّ التقي السيّد بهلول السجاديّ المرندي ـ وفّقه الله تعالى وسدده.

وأقدّم خالص شكري وتقديري إلى أخي الفاضل المكرّم آقا حسين دركاهي ـ زيدت توفيقاته ـ لإشرافه وجدّه الحريّ، وهمّته البالغة. والحمد لله ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

١ ـ فضل القرآن

قد تكاثرت النصوص والأخبار في فضل القرآن وقراءته والتدبّر فيه والاتّعاظ به، والتمسّك والائتمام به والاستضاءة منه. لاسيّما عند تراكم الفتن وتهاجم الظلمات وعروض الفترات. قال تعالى:

«كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب» [ص (٣٨) / ٢٩]

«إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم» [الإسراء (١٧) / ٩]

«ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتى بل لله الأمر جميعاً» [الرعد (١٣) / ٣١]

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله» [الحشر (٥٩) / ٢١]

والآيات في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية.

وأمّا الروايات ففي الكافي ٥٩٨/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن السكوني، عن أبي عبدالله عليه السّلام، عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

... فإذا التبست عليكم الفتن كقطع اللّيل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع وماحل مصدّق. ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومن جعله خلفه ساقه إلى النّار. وهو الدّليل يدلّ على خير سبيل... فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة...

قال في لسان العرب ٦١٨/١١: الماحل: الساعي... والمَحل: السعاية من ناصح وغير ناصح... وماحل مصدّق: قال أبو عبيد: جعله يمحل بصاحبه إذا لم يتّبع مافيه، أو إذا هو ضيّعه.

وفي الكافي ٦١٣/٢، عن العدّة مسنداً عن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

قلت له: جعلت فداك إنّي أحفظ القرآن على ظهر قلبي فأقرأه على ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف؟ قال: فقال لي: بل اقرأه وانظر في المصحف فهو أفضل. أما علمت أنّ النظر في المصحف عبادة.

وفي النهج، الخطبة ١٧٦، قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الّذي لايغشّ، والهادي الّذي لايضلّ، والمحدّث الذي لايكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدًى أو نقصان من عمًى. واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنًى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاءً من أكبر الدّاء: وهو الكفر والنفاق والغيّ والضّلال. فاسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبّه. ولا تسألوا به خلقه إنّه ماتوجّه العباد إلى الله تعالى بمثله. واعلموا أنّه شافع مشفّع وقائل مصدّق. وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه. ومن مَحَل به القرآن يوم القيامة صُدّق عليه... وإنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنّه حَبل الله المتين وسببه الأمين وفيه ربيع القلب وينابيع العلم. وما للقلب جلاء غيره...

وفي البحار ١٠٧/٩٢، عن الصادق عليه السّلام قال:

لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنّهم لايبصرون.

أقول: القرآن الكريم مؤسّس على الذّكر والتذكرة والبرهان. ومعنى كونه ذكراً وتذكرة وبرهاناً، أنّه يدعو الناس إلى ربّهم الظاهر بذاته. وأنّه أجلّ مكاناً وأرفع مقاماً من أن يحتاج في إفادة مقاصده ومراميه إلى التشبّث بعلوم من سواه. فعليه القرآن أعظم مذكّر وأجلّ هاد للغافلين والناسين، يذكّرهم بعدما غفلوا عن ربّهم ويهديهم ويرشدهم بعدما أعرضوا عنه تعالى فيتوب الله سبحانه على عباده الغافلين ليتوبوا إليه.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام في النهج، الخطبة ١٤٧:

فبعث الله محمّداً صلّى الله عليه وآله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن قد بيّنه

وأحكمه، ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه، وليقرّوا به إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه. فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوّفهم من سطوته.

والقرآن لمكان إعجازه فرقان وهو المرجع الأصيل المعصوم بذاته لأهل العالم اليوم وهو الحجّة بذاته على ذاته، الفارق بحجّيّته بين الحقّ والباطل، والصّدق والكذب، وبالجملة كلّ ما اختلف فيه الناس في شؤون دينهم ودنياهم. وضروريّ أنّ الفرقان بما أنّه فرقان بين الحقّ والباطل حجّة وبرهان على نفسه أنّه الحقّ المبين وأنّه كتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين. وكيف يمكن أن لايكون ما هو برهان بالذات على تفريق الحقّ من الباطل، برهاناً على نفسه؟! وقد وصف الله تعالى القرآن بأنّه نور وهداية وذكرى وبيّنة وبصائر وضياء وغيرها. قال تعالى:

«تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» [الفرقان (٢٥) / ١]

«يا أيّها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً» [النساء (٤) / ١٧٤]

والمراد من البرهان بحسب اللّغة هي الحجّة القاطعة والدليل النوريّ:

قال تعالى:

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» [المائدة (٥) / ٤٨]

أقول: الظاهر أنّ معنى كونه مهيمناً على الكتب الّتي بين يديه، هو كونه مراقباً ومراصداً وحافظاً عليها من أن يزاد عليها شيء. فما صدّقه القرآن منها فهو الحقّ وما كذّبه منها فهو الباطل، وليس منها مالم يكن القرآن مصدّقاً له.

في الصحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه عليه السّلام عند ختم القرآن قال عليه السّلام:

اللّهمّ إنّك أعنتني على ختم كتابك الّذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كلّ كتاب أنزلته.

وفي البحار ٢٩٢/٩، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

إنّ الله جعل كتابي المهيمن على كتبهم، الناسخ لها.

وفي تفسير العيّاشي ٥/١، عن أبي عبدالله عليه السّلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحزان، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدّنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم. فهذه صفة رسول الله صلّى الله عليه وآله للقرآن وما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النّار.

وفي العيون ٨٧/٢، عن البيهقي مسنداً عن الرضا، عن أبيه عليهما السّلام أنّ رجلاً سأل أبا عبدالله عليه السّلام:

ما بال القرآن لايزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة؟ فقال: لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة.

٢ ـ حجّيّة ظواهر القرآن

من الواضح أن لا إشكال في حجّيّة محكمات القرآن الكريم وكذلك لا إشكال في حجّيّة الظواهر عند المحققين. فانّ المتسالم عليه في تفسير القرآن هو الاعتماد على الدلالات اللّفظيّة، نصّاً كانت أو ظاهراً. فإنّ ظواهر الألفاظ حجّة عند العقلاء في تبيين مراداتهم وإفهام مقاصدهم ولم يتّخذ الشارع طريقاً خاصّاً ومنهجاً جديداً في تعاليمه وبلاغاته. ولا فرق في ذلك بين الكتاب والسنّة. ولا يتنافى ذلك مع ما قرّروه في علم الأصول من جواز تخصيص العامّ بالخاصّ وتقييد المطلق بالمقيّد. فعامّ الكتاب ومطلقه يخصّص ويقيّد بالخاصّ والمقيّد من الكتاب والسنة المعتبرة. ويؤيّد ذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قام بالدعوة الإلهيّة بهذا القرآن. فهذه دعوته الحقّة إلى قومه من أوّل قيامه إلى آخر عمره الشريف. وهو صلّى الله عليه وآله تحدّاهم بالقرآن

وبارزهم به أشدّ المبارزة. وجدّ المشركون واجتهدوا كلّ الاجتهاد في إطفاء نوره وإبطال دعوته، ولم يتيسّر ذلك لهم وقاموا بتكذيبه والمكابرة والعناد في قباله ورموه بالسحر والتمويه وأنّه أساطير الأوّلين وقالوا: «لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون» [فصّلت (٤١) / ٢٦] فأعجزهم الله تعالى بهذا البرهان النوري وغلبهم وجعل كلمته هي العليا وكلمة الّذين كفروا السفلى. ولم يتمكّن المنكرون مع شدّة غيظهم وحرصهم على المكابرة وإبطال نوره، أن ينالوا من عظمة القرآن ومجده الباهر شيئاً قليلاً ولا كثيراً.

وبديهيّ أنّ قوام هذه المعارضة والمبارزة وهذه الدّعوة الحقّة ليس إلّا بالكلام. ولو أنّهم لم يفهموا ما ألقي إليهم من الحقائق وما أبطل به عاداتهم الوثنيّة الجاهليّة لما كان هناك دعوة ولا مبارزة ولا تعجيز، ولم ينجرّ الأمر إلى بغيهم وعنادهم وقيامهم بالسيف ومبادرتهم إلى القتال وإزهاق النفوس، وثباتهم في الموقف إلى آخر ما استطاعوا.

على أنّ القرآن الكريم حجّة بين الله سبحانه وبين خلقه؛ وهو حبل ممدود بينه تعالى وبين عباده عند من عرف لغة القرآن، اللّغة المقدّسة العربيّة. فهو في مرتبة دعوته العامّة يذكّر الناس ويهديهم إلى جميع العلوم الفطريّة الّتي فطر الله الناس عليها، من معرفته تعالى ومعرفة توحيده سبحانه. وكذلك يذكّر الناس بآياته المخلوقة المصنوعة ويسوقهم إلى التدبّر فيها ومعرفة أسرارها.

وحيث إنّ القرآن هداية وإرشاد إلى جميع العلوم الفطريّة الّتي يتمكّن النّاس من نيلها ودركها، وما ألهمهم الله تعالى من فجورهم وتقواهم، فعند مخاطبة الله تعالى إيّاهم بما يعظهم ويرشدهم يتذكّرون بضياء المعرفة وشعاع العقل، ويستنيرون بها فيستأديهم الله سبحانه ميثاق فطرته، ويثير فيهم دفائن عقولهم، فيأخذهم تعالى بالإيمان والإقرار بما وجدوا وعلموا ببداهة عقولهم؛ من الحقائق والمعارف والمحسّنات والمقبّحات والمنكرات الضروريّة، وبالجملة المستقلّات العقليّة المصطلحة عند الفقهاء على عرضها العريض؛ وخاصّة الانتهاء والاجتناب من كلّ فاحشة وقبيحة، والقيام بكلّ أمر معروف حسن.

ويبشّرهم سبحانه بجنانه ووفائه لأهل الوفاء له تعالى من المحسنين والمتّقين،

وبما وعدهم من مواهبه الكريمة وعطاياه الهنيئة، ويهدّدهم بانتقامه وسطواته ونقماته على الظّالمين والمتكبّرين والمستكبرين في الدّنيا. ويبيّن لهم ماتؤول إليه عاقبة أمر المتّقين والمحسنين، والطّاغين والظّالمين والمستكبرين، في ضمن قصص وأمثال. ويحذّرهم جلّ مجده عن إساءة الأدب في حريمه، وإضاعة حقوقه الحقّة في السرّ والعلانية. ويزكّي ويطهّر بذلك ظاهرهم وباطنهم.

وواضح أنّ النّاس يختلفون في نيل هذه المعارف ودرك هذه الحقائق. فيستشرقون على قدر بصيرتهم، ويستنيرون على سعة نور فطرتهم، سيّما بعد ملاحظة تقواهم وقيامهم بالعمل بما يعرفون ويعلمون. فيزيد الله الّذين اهتدوا هدًى ويؤتيهم تقواهم.

وهذا الموقف يحتاج إلى بيان أوسع من ذلك إلّا أنّ هذا المقدار كاف في تذكّر ما نحن بصدده بهذه المرتبة العامّة الّتي يخاطب بها تعالى عقلاء الأمم ويكلّمهم بما يعقلون ويعرفون.

وهذا الّذي ذكرناه أمر لاريب فيه ولايحتاج إثبات ذلك إلى إقامة دليل عقليّ أو نقليّ. وإنّما الكلام في أنّ القرآن المجيد، هل تنحصر علومه ومعارفه وحقائقه بهذه المرتبة العامّة الّتي يشترك فيه العالم والجاهل؛ كي يكون القرآن شرعة لكلّ وارد؛ يردها واحد بعد واحد، أو أنّ له ماعدا هذه المرتبة معارف وعلوم وقوانين وعبادات ومكارم وكرائم اختصّ بحملها وفهمها أولو الألباب والأبصار. وهي أجلّ وأعلى من أن تنال العقول الساذجة العامية. كيف؟! والكلام الّذي تكفّل بجميع التعاليم العالية بالنسبة إلى جميع الأشخاص في كلّ عصر ومصر، من الكمالات الربوبيّة والأسماء والصفات، وجميع العوالم العرضيّة والطوليّة، وشرائعهم وقوانينهم بالنسبة إلى دنياهم وعباداتهم وتكاملهم ورقيهم إلى أقصى الكمالات الممكن نيلها، متأبّ ومقدّس عن التقيّد بفهم عصر وقوم. وإنّما يفهمون بمقدار عقولهم ويستضيئون على حسب مقدار أنوارهم لا على حسب أمواج الأنوار المودعة فيه. فعلم القرآن بجميع شؤونه وشعبه الوسيعة، لايعلمها إلّا الله والراسخون في العلم. وهم الهادون والمعلّمون لعلوم القرآن، وهم المسؤولون عن تربية الأمم والملل في كلّ عصر وزمان. وعلم القرآن بهذا المعنى خاصّ برسول الله صلّى الله عليه وآله فهو المعلّم المكمّل، والسائق المصلح ومن بعده

يرث هذا العلم الخاصّ بمقام الرسالة، أوصياؤه بعنوان الخلافة والإمامة، فمن ادّعى علم القرآن بهذا المعنى مع جميع جوانبه وجوامعه فهو كاذب أو خابط، إذ ماورث هذا العلم إلّا الخاصّ من ذرّيّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله وأمّا غيرهم فما ورثوا منه حرفاً لا قليلاً ولا كثيراً.

خلاصة الكلام: إنّ مَن علم علوم القرآن في مرتبة دعوته العامّة فقط، وإن صار واجداً لأشياء من شرائط الفقاهة، إلّا أنّه لايصير بذلك جامعاً لشرائط الإفتاء والقضاء، ولايكون عالماً بتفصيل علوم القرآن وشرائعه وأحكامه، والعلم بكيفيّة ابتداء خلق العوالم من عالم الغيب والشهادة. وكذلك لايكون عالماً وعارفاً بالمعارف الربوبيّة من توحيده تعالى وعلمه وقدرته وحياته وغيرها من معاني أسمائه ونعوته سبحانه وكذلك العلم بعود الإنسان ورجوعه إلى الآخرة بعد انقضاء الدنيا وانحلالها. فلابدّ في جميع ذلك من الرجوع إلى الرّسول الأكرم والتعلّم والأخذ منه صلّى الله عليه وآله على قدر ما شاء الله وشاء رسوله، حسب لياقة المتعلّمين له.

وواضح أنّ سيرته صلّى الله عليه وآله في زمان حياته في نشر العلم، ليس إلّا مثل قضيّة إفتاء الفقيه للعوامّ المقلّدة، في الحوادث الجارية. وليس هذا من باب تعليم العلم من حيث جميع جوانبه ونواحيه. نعم، لاينكر أن يكون تعليم العلم وبيان القرآن على هذا النحو، بالنسبة إلى بعض الأشخاص من أفاضل الصحابة؛ مثل عليّ عليه السّلام ومن دونه من أكابر الصحابة مثل سلمان ونظرائه.

فيجب الالتزام والتديّن بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد قام بهذا الأمر الخطير، وبيّن بياناً شافياً، وعلّم تعليماً كافياً بالقرآن المبين بجميع نواحيه وأبعاده، بما يحتاج إليه الكلّ من المعارف والأحكام إلى انقضاء الدنيا، وماترك شيئاً من ذلك، وأودعه عند رجل معصوم من أهل بيته، مؤيّداً بروح القدس، وعالماً بالعلم الحقيقيّ المصون المعصوم بذاته؛ وهو عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام وميراث العلم والنبوّة عنده صلوات الله عليه يرثه أوصياؤه المسومون صادق بعد صادق، ويكنزونه كما يكنز الناس ذهبهم وفضّتهم، وما ضاع عنهم شيء، ولا يسقط عنهم ألف ولا واو. فمن ادّعى علم القرآن جميعه غيرهم، فإنّما هو مفترٍ كذّاب.

وقد صرّح الأئمّة من أهل البيت بجميع ما ذكرناه في أبواب من الرّوايات

المتكاثرة فوق التواتر؛ منها الرّواية المتواترة عند الفريقين: «إنّي تارك فيكم الثقلين...» الصّريحة بأنّ خلافة القرآن والعترة، خلافة اجتماعيّة. ومنها الرّوايات الواردة في أنّهم يرثون علم القرآن دون غيرهم.

في علل الشرايع / ٨٩، عن أبيه ومحمد بن الحسن مسنداً عن أبي زهير بن شبيب بن أنس، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السّلام... فقال (لأبي حنيفة):

> أنت فقيه أهل العراق؟ قال: نعم، قال: فبما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنّة نبيّه (ص). قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حقّ معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علماً، ويلك ماجعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذريّة نبيّنا (ص) ماورّثك الله من كتابه حرفاً...

والأحاديث في هذا الباب كثيرة فمن أراد، فعليه بجوامع أحاديث الشيعة.

فتحصّل أنّ لعلوم القرآن مقامين: مقام مخاطبة عامّة الناس، ومقام يختص برسول الله صلّى الله عليه وآله ومن بعده ورثه أهل بيته عليهم السّلام. والباحثون في العلوم القرآنيّة ـ حيث لم يفرّقوا بين هذين المقامين ـ اضطربت آراؤهم وكلماتهم في ذلك؛ فمنهم من قال بالاستقلال في علوم القرآن مطلقاً ومنهم من قال بعدم حجّيّة ظواهر القرآن. والروايات الواردة في هذا الباب ناظرة إلى المقامين. وما يمنع منها عن الاستقلال بالقرآن وعدم جواز التمسّك به، إنّما هو ناظر إلى المقام الثاني أي العلوم القرآنيّة الّتي تختص برسول الله صلّى الله عليه وآله وأولاده المعصومين عليهم السّلام. وما يرد منها في الحثّ والترغيب إلى التدبّر والتفكّر في آيات القرآن الكريم، ناظر إلى المقام الأوّل أي: مرتبة دعوة الكلّ. ولو تأمّل متأمّل حقّه في هذه الروايات لوجد أنّه لاتنازع ولا تعارض بين كلا الفريقين.

فتلخّص من جميع ماذكرنا أمور:

الأوّل: حجّيّة القرآن لجميع الناس في مرحلة الدّعوة العامّة ووجوب التدبّر والتبصّر والاهتداء والاستضاءة والائتمام به، والتماس غرائبه وعجائبه. وذكرنا أنّ هذه

المرتبة من العلوم والحقائق ما يبهر العقول، ولايمكن تحديده لسعة أطرافه وانتشار مراميه. فالقرآن بهذا الاعتبار إمام يقود إلى الجنّة ويهدي للّتي هي أقوم؛ وهو بصائر وذكرى، وضياء ونور، وهدى للمتقين والمخبتين وأولي الأبصار، وغيرها من نعوته الجليلة. وفيه أمّهات المسائل الأخلاقيّة وتحديد رسوم العبوديّة بأجلى بيان وأنور برهان.

الثاني: عدم جواز اختلاط مرتبة الدّعوة العامّة بمرتبة علومه الخاصّة للرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السّلام. وتبيّن أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله وخلفاءه ليسوا مع الناس في مرتبة سواء، فهو صلّى الله عليه وآله المعلّم السائق والمكمّل الهادي. والآية الكريمة مثل قوله تعالى: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب» [الرعد(١٣)/ ٤٣] أريد منها الخاصّ. إذ لايكون كلّ من كان له نصيب من علم القرآن في مرتبة البلاغ والدّعوة العامّة، عالماً وشاهداً بجميع ما أمر الرسول صلّى الله عليه وآله ببلاغه. فلا يتمكّن من الشهادة على صدق الرسول صلّى الله عليه وآله في جميع ما أتى به إلّا من كان عالماً بعلم الكتاب كلّه، ظاهره وباطنه، وجميع جوانبه ونواحيه. وكذلك نظائره من الآيات مثل قوله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» [البقرة(٢)/ ١٤٣] وقوله: «فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» [النساء(٤)/ ٤١]

الثالث: إنّ سنّة الفقهاء ـ قدّس الله أسرارهم ـ هو الالتزام في موارد استنباط الأحكام، بالسّنن المعتبرة. وقد صرّحوا بعدم جواز العمل بالعمومات والمطلقات قبل الفحص عن مخصّصاتها ومقيّداتها. وكذلك الكلام في غير باب الأحكام في العلوم والمعارف الّتي يختصّ العلم بها برسول الله صلّى الله عليه وآله وأولاده المعصومين عليهم السّلام.

وكذلك صرّحوا بجواز تخصيص عمومات الكتاب بالخبر الواحد الواجد لشرائط العمل، فعلى هذا لا إشكال للاستناد في تفسير الآيات الراجعة إلى الأحكام على أخبار الآحاد المعتبرة، والإفتاء على مفادها وبعد الفحص عن القيود والشرائط واليأس عن الظفر بها تكون الآية حجّة، ويجب العلم على طبقها.

٣ ـ تفسير القرآن بالقرآن والحديث

لايخفى انّ القرآن الكريم قد فُسّر بأطوار مختلفة وأنحاء متباينة والحقّ أنّ الأحسن والأفضل في باب التفسير هو الاعتماد على التفسير الاجتهادي بحسب العقل والكتاب والسّنة.

وامّا تفسير القرآن بالقرآن لو كان المراد منه الاستغناء عن بيان رسول الله (ص) وآله المعصومين (ع)، كما ذهب إليه بعض أهل السنّة ففي نهاية الضعف.

وأمّا ما ذكره في تفسير الميزان ٣/٨٨، حيث قال: فالحقّ أنّ الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، وأنّ البيان الإلهي والذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادي إلى نفسه؛ أي: إنّه لايحتاج في تبيين مقاصده إلى طريق، فكيف يتصوّر أن يكون الكتاب الّذي عرّفه الله تعالى بأنّه هدًى وأنّه نور، وأنّه تبيان لكلّ شيء مفتقراً إلى هادٍ غيره ومستنيراً بنور غيره ومبيّناً بأمر غيره؟

ففيه أوّلاً أنّ للقرآن الكريم كما ذكرنا مقامين: مقام مخاطبة عامّة الناس، فنعم إنّ الطريق إلى فهمه غير مسدود. وأمّا المقام الذي يختص برسول (ص) وأئمة أهل بيته (ع) فلابدّ عن الالتزام به وعدم جواز العدول عنه. قال تعالى:

«لاتحرّك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه * ثمّ إنّ علينا بيانه» [القيامة (٧٥) / ١٦ ـ ١٩]

وقد وعد ـ سبحانه ـ أنّ يبيّن القرآن ويعلّمه رسوله (ص)، والرّسول أمّته. فهو ـ سبحانه ـ صادق الوعد ونافذ العدة؛ وقد فعل. ولابدّ أن يكون ذلك البيان لأمّته بتعليم الرسول (ص) وآله المعصومين (ع). قال تعالى:

«وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون» [النحل (١٦) / ٤٤]

«ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم» [البقرة (٢) / ١٢٩]

«كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم

الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون» [البقرة (٢) / ١٥١]

«لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» [آل عمران (٣) / ١٦٤]

«هو الّذي بعث في الأُمّيّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» [الجمعة (٦٢) / ١]

أقول: قوله تعالى: «يعلّمهم الكتاب والحكمة» أصدق شاهد على أنّ المراد بالتعليم هو بيان الحكمة والحقائق الراجعة إلى دين الله، لا بيان قراءة ألفاظها وحروفها. وقد قام رسول الله (ص) في حياته بهذه الوظيفة الخطيرة الّتي أمره تعالى بها واصرّ أيضاً على ذلك في ارجاع الأمر إلى أهل بيته والأئمة المعصومين من آله بعد وفاته حيث قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، ...» وفي روايات قطعية كثيرة.

وثانياً أنّ ما ذكره في الميزان من أنّ القرآن نور وفيه تبيان كل شيء وأنّ النور لا يستبين بغيره وأن الهدىٰ لا يُستهدىٰ من غيره، يرد عليه أيضاً أنّ السنّة عديل للقرآن وأحد الثقلين نور كالقرآن فيكون نوراً على نور.

وثالثاً ما ذكرنا من البيان، لا ينافي عدّةً من الآيات المباركة الدّالة على أنّ القرآن بيان وتبيان وشفاء وهدى وهداية للعالمين وغيرها.

واضح أنّ هذه الآيات مسوقة لبيان فخامة شأن القرآن وجامعيته وموقعه في المجتمعات البشريّة، وكونه قولاً ثقيلاً لا يوازيه ولا يوازنه ولا يساويه ولا يدانيه شيء. بل هو أكبر الثقلين؛ ولبرهانيّته على ذاته بذاته وعلى جميع محتوياته وكونه مهيمناً. تصريح بحاكميّته على تصديق جميع ما ينسب إلى الوحي السّماويّ من أوّل الدّنيا إلى يوم القيامة. وقد أشرنا إليه في ما ذكرنا في فضل القرآن وشؤونه.

ورابعاً لايصحّ الاستشهاد والاستدلال في تفسير القرآن بالقرآن بما ورد عن أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة الخطبة ١٨، حيث قال:

ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه. ثمّ ترد تلك القضيّة بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله. ثمّ يجتمع

> القضاة بذلك عند الإمام الّذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً. وإلهُهُمْ واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد. أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه ؟! أم نهاهم عنه فعصوه ؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ؟! أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى ؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً تامًّا فقصّر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن تبليغه وأدائه. والله سبحانه يقول: «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» وفيه تبيانٌ لكلّ شيء، وذكر أنّ الكتاب يصدّق بعضه بعضاً، وأنّه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» ...

وفيه أنّ الخطبة الشريفة سيقت في توبيخ الجاهلين الّذين تصدّوا لمقام القضاء والفتوى واختلفوا في فتياهم وقضائهم، لجهلهم بالكتاب ومدارك الأحكام. وهو صلوات الله عليه يحتجّ عليهم بأنّ كتاب الله سبحانه ليس فيه مايوجب اختلافهم، وأنّ البيان الإلهي منار الحجّة وواضح المحجّة. وأنّ كتاب الله أجلّ شأناً وأرفع مقاماً من أن يتوهّم التناقض والتخالف فيه. وفيه كمال الملاءمة وتمام المناسبة في مقاصده ومراميه. ويشهد بعض الآية على صدق ماتضمّنته الأخرى، فأين فيه التناقض والتكاذب.

وكذلك قوله عليه السّلام في الخطبة ١٣٣:

> كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض....

فإنّ الشهادة والتصديق بين آيات القرآن لايتحقّقان إلّا إذا كان للآية المصدِّقة ـ بالكسر ـ والمصدَّقة ـ بالفتح ـ ظهورٌ في مفادها. فلولم يثبت لها ظهور ولم يتبيّن المراد منها لما يكون موضوع لتصديق إحداها للأخرى وشهادة واحدة منها على الأخرى. فتبيّن أنّ مورد التصديق والشهادة إنّما هو بعد تثبيت الظهورات وتبيين المرادات. وهاتان الخطبتان تدلّان على أنّ للمفسّر بعد الأخذ بمفاد آية أن يشهد عليها من آيات أخرى، لأنّه إذا ظفر على هذه الشواهد وتيسّر له كسب تلك القرائن كان تفسيره أسدّ بنياناً وأوثق برهاناً. فإنّ على كلّ حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً.

فلولم يصب في تفسير آية على آية تؤيّدها وتصدّقها فهي حجّة على مفادها أيضاً. وأين هذا من تفسير القرآن بالقرآن؟! وتسمية هذا تفسيراً ليس في محلّه، إذ التفسير ـ كما سيجيء ـ عبارة عن كشف القناع والاستظهار من اللّفظ. وهو مقدّم رتبةً على شهادة آية على آية وتصديقها بها، فإن التصديق والشهادة ـ كما قلنا ـ يتحقّقان بعد الاستظهار وبعد تحقّق الظهور.

وكذلك ما ورد في الروايات من إرجاع المتشابه إلى المحكم، ليس المراد منه تفسير المتشابه بالمحكم، إذ لاوجه للقول بأنّ ما أريد من المتشابه هو عين ما أريد من المحكم، وماهو إلّا رجم بالغيب، بل المراد منه هو أنّ المحكم يدفع الظهور البدويّ العاميّ عن المتشابه ويبطله، فعلى هذا يكون العمل والايمان بالمحكم والسكوت عن المتشابه إلى أن يأتي له بيان آخر.

هذا إن كان المراد من تفسير القرآن بالقرآن هو ما قاله عليّ عليه السّلام من تصديق بعض القرآن بعضاً وشهادة بعضه على بعض. وأمّا إن كان المراد منه أنّه يمكن استفادة ظهور آية من آية أخرى أي: إذا كانت آية مطلقة أو عامّة وآية أخرى مقيّدة أو خاصّة، تكون الآية الخاصّة والمقيّدة بياناً وتفسيراً للآية المطلقة والعامّة، فنقول: هذا صحيح ولكنّه ليس مؤيداً لتفسير القرآن بالقرآن لأنّ فحص المفسّر عن القرائن والمقيدات في القرآن سواء كان في الأحكام أو غيرها من المعارف والحقائق شرط لازم وليس بكاف فإنّا قد ذكرنا أنّ الفحص كما يجب عن القرائن والمقيّدات في القرآن كذلك يجب الفحص عنها في السنّة المعتبرة أيضاً. والأخذ بأحدهما وترك الآخر إبطال لحقّه واسقاط عن مقامه وموقعه وحجّيته.

وكذلك يجب أيضاً ضمّ القرائن العقلية التي يجب الالتزام بها في هذا المقام.

ولايخفى أنّ القرآن والسنّة حيث إنّهما المرجعان في العلوم الشرعيّة والمعارف والعقائد الإسلاميّة، فمن ادّعى أمراً أو أحدث حدثاً في الدّين لابدّ من استيضاح حجّته من مسلّمات الكتاب والسنّة، فلو خالفها فالّذي جاء به فهو أولى به، يضرب به وجه صاحبه. مثلاً ينادي القرآن الكريم بندائه العامّ على قدس الحقّ تعالى عن آثام العباد وجناياتهم. وينادي أيضاً أنّ له تعالى سخطاً على المعاصي ورضى للطّاعات والحسنات، فلايجوز أن ينسب إليه تعالى جنايات الكافرين والطّاغين. فمن ادّعى ذلك

وقال بالجبر في أفعال العباد والتوحيد الأفعالي فلايقبل منه.

وهكذا من جاء بحديث أو انتحل بآية من كتاب الله واستظهر منها برأيه مايخالف صريح القرآن وضرورة السنّة فهو كذب باطل لايصغى إليه.

٤ ـ المحكم والمتشابه

قال تعالى:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخَر متشابهات فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلاّ أُولو الألباب»

[آل عمران (٣) / ٧]

أقول: الإحكام والتشابه من نعوت الألفاظ والدّلالات لامن نعوت المعاني والمرادات. والمحكم حيث إنّه لاخلل في دلالته على المراد، يجب اتّباعه والتديّن بمفاده، ويجب تحكيمه على جميع الشؤون الدّينيّة وردّ جميع الأقاويل والأنظار المبتدعة وإرجاعها إليه. ويجب تحكيمه على جميع المتشابهات الواردة في الكتاب والسنّة على تفصيل يأتي في طيّ الأبحاث الجارية ـ إن شاء الله ـ.

قوله تعالى: «هنّ أمّ الكتاب».

قال في لسان العرب ١٢/ ٣١: أمّ كلّ شيء: أصله وعماده... وأمّ الكتاب: أصل الكتاب.

أقول: تقسيم آيات الكتاب إلى المحكم والمتشابه إنّما هو بلحاظ وجوب الأخذ والاتّباع وتحريمها، فلا محالة يتوجّه التقسيم إلى الألفاظ الهادية إلى المرادات والمعاني، ومع قطع النظر عنه لايعقل وجوب الاتّباع وتحريمه.

والتشابه هو أنّ اللّفظ له وجوه متعدّدة أو وجهان لم يعلم ولم يتعيّن واحد منها في مقام الإفهام والتفهيم، وتعيين واحد منها يحتاج إلى الدّليل. وهذا التشابه والترديد بين الوجوه إنّما هو راجع إلى المعاني الكلاميّة لا الإفراديّة، فإن المفردات في مثل قوله

تعالى: «وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرة» [القيامة (٧٥) / ٢٢ و ٢٣]، ظاهرة في معانيها الإفراديّة إلّا أنّ القرينة قائمة على عدم إرادة تلك الظواهر. فمعنى النظر والربّ مثلاً لا إبهام في دلالتها على معانيها لغة، ولولا قيام القرينة العقليّة على استحالة النسبة وكذلك مخالفة محكمات الكتاب والسنّة على استحالتها، لما كان في دلالة الجملة على مفادها، ترديد واشكال. فالمتشابه مايقابل المحكم من حيث عدم حكاية الألفاظ عن معانيها ومراداتها ولابدّ في تعيين ما أريد من اللّفظ من دليل بخصوصه.

في الاحتجاج ٢٧٦/١، في احتجاج عليّ عليه السّلام على زنديق في آي متشابهة، قال عليه السّلام:

> ثمّ إنّ الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كتابه، قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لايعرفه إلّا من صفا ذهنه، ولطف حسّه، وصحّ تمييزه ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لايعرفه إلّا الله وأمناؤه والراسخون في العلم. وإنّما فعل ذلك لئلّا يدّعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلّى الله عليه وآله من علم الكتاب، ما لم يجعل الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الإئتمار لمن ولّاه أمرهم فاستكبروا عن طاعته تعزّزًا وافتراءً على الله عزّ وجلّ، واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله جلّ اسمه ورسوله صلّى الله عليه وآله ....

وفي الكافي ٢٤٨/١، مسنداً عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

> قال الله عزّ وجلّ في ليلة القدر: «فيها يفرق كلّ أمر حكيم» يقول: ينزل فيها كلّ أمر حكيم، والمحكم ليس بشيئين، إنّما هو شيء واحد....

أقول: مراده عليه السّلام من تفسير الحكيم بالمحكم هو أنّ علومهم الّتي أفيضت عليهم من الله تعالى مصونة بالذّات عن الخطأ والزّلل، ولا تقبل الاختلاف والتناقض. وكلّ علم لايكون فيه اختلاف ولا تناقض فهو آية الإمامة وبرهان الخلافة. ومن الممكن جدًّا أن يكون مراده عليه السّلام من المحكم، الآية المحكمة فإنّ مفاد الآية المحكمة واحد عند الله الّذي أنزلها بعلمه، وواحد عند الرسول صلّى الله عليه

وآله وعند أوصيائه الحفظة عليهم السّلام.

وفي معاني الأخبار / ١٩١، عن أبيه مسنداً عن ابن سنان وغيره، عمّن ذكره قال:

سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن القرآن والفرقان: أهما شيئان أم شيء واحد؟ قال: فقال: القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به.

وفي تفسير العيّاشي ١٦٢/١، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام يقول:

إنّ القرآن محكم ومتشابه، فأمّا المحكم فنؤمن به ونعمل به وندين به. وأمّا المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به؛ هو قول الله «فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه...».

أقول: هذه الرواية الشريفة تدلّ على حرمة العمل بالمتشابه ووجوب الإيمان به على ماهو عليه. وصريحة في إبطال القول برفع التشابه عن المتشابه بقرينة المحكمات؛ إذ المقام، مقام بيان فالسكوت عن بيان رفع التشابه والتصريح بحرمة العمل بالمتشابه، كاف في عدم قرينيّة المحكمات للمتشابهات، بل يجب الإيمان بالمتشابه على ماهو عليه والعمل بالمحكمات إلى أن يجيء في تفسير المتشابه دليل خارجيّ.

وفي الكافي ٢٨/٢، عن عليّ بن محمّد مسنداً عن محمد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

إنّ [أ]ناساً تكلّموا في هذا القرآن بغير علم وذلك أنّ الله تبارك وتعالى يقول: «هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات...» فالمنسوخات من المتشابهات والمحكمات من الناسخات...

أقول: الظاهر أنّ كون المنسوخات من المتشابهات بلحاظ حرمة العمل بها.

وتفسير القمي ٤٥١/٢، عن محمد بن أحمد بن ثابت مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سمعته يقول:

إنّ القرآن زاجر وآمر، يأمر بالجنّة ويزجر عن النار، وفيه محكم

ومتشابه. فأمّا المحكم فيؤمن به ويعمل به ويدبّر به[1]. وأمّا المتشابه فيؤمن به ولايعمل به وهو قول الله: «فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ...» وآل محمّد عليهم السّلام الراسخون في العلم.

في الوسائل ١٤٧/١٨، عن عليّ بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه، عن تفسير النعماني مسنداً عن إسماعيل بن جابر، عن الصادق عليه السّلام قال:

إنّ الله بعث محمّداً فختم به الأنبياء، فلا نبيّ بعده. وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده... ثم سألوه عن تفسير المحكم من كتاب الله، فقال: أمّا المحكم الّذي لم ينسخه شيء. فقوله عزّ وجل: «هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات» الآية. وإنّما هلك الناس في المتشابه، لأنّهم لم يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء، ونبذوا قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وراء ظهورهم.

أقول: فيه تصريح أنّ مرجعيّة المحكم للمتشابه في إبطال ظاهره، وتفسير المتشابه وتوضيحه لابدّ من مسألة الأوصياء.

وفي الاحتجاج ٧٥/١، مسنداً عن علقمة بن محمّد الحضرمي، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليهما السّلام عن النّبي صلّى الله عليه وآله في حديث قال:

معاشر الناس تدبّروا القرآن وافهموا آياته، وانظروا إلى محكماته ولا تتّبعوا متشابهه فوالله لن يبيّن لكم زواجره ولايوضح لكم تفسيره إلّا الّذي أنا آخذ بيده ومصعّده إليّ وشائل بعضده.

وفيه إشعار قويّ أنّ المرجع في تفسير المتشابه هو عليّ عليه الصلاة والسّلام.

وفي العيون ٢٩٠/٢، عن أبيه مسنداً عن أبي حيّون مولى الرّضا عليه السّلام، قال:

---

١ ـ في البحار ١٩٦/٢٣، يدين به.

من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم. ثمّ قال: إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها إلى محكمها ولا تتّبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا.

أقول: صرّح عليه السّلام أنّه لايجوز اتّباع المتشابه وترك المحكم كما هو دأب أهل الزيغ. وسيجيء ـ إن شاء الله ـ في البحث عن التأويل والتفسير، إنّ الله تعالى لم يكلّف العباد الفحص عن تأويل المتشابه إلّا عن مجاري الوحي خاصّة وإن كانت الآية المبحوث عنها والروايات الجارية مجراها، ساكتة عن هذا الحيث، إلّا أنّ هذه الوظيفة إنّما هي بحسب الدليل المنفصل.

وفي الصحيفة المباركة السجاديّة في دعائه عليه السّلام عند ختم القرآن، قال عليه السّلام:

فاجعلنا ممّن يرعاه حقّ رعايته، ويدين لك باعتقاد التسليم لمحكم آياته ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه وموضحات بيّناته.

أقول: صرّح عليه السّلام أنّ الوظيفة الأوّليّة والمفزع والملجأ في المتشابهات والبيّنات الموضَحة ـ بالفتح ـ هو الإيمان والإقرار.

الآراء والأقوال في المحكم والمتشابه

الأقوال في هذا الباب كثيرة ذكرها السيوطي في إتقانه ٢/٣ والشيخ محمد عبده في المنار ١٦٣/٣:

الأوّل: ما روي عن عكرمة وقتادة وغيرهما أنّ المحكم الّذي يعمل به والمتشابه الّذي يؤمن ولايعمل به.

وفيه أنّ هذا ليس بياناً للمحكم والمتشابه وتعريفاً لهما بل هذا بيان لما يترتّب عليهما من الحكم القطعي العقلي وإرشاد به، من وجوب الاتّباع والعمل للمحكم وتحريم الأخذ بالمتشابه؛ وهي عين مفاد الآية الكريمة والوظيفة المقرّرة الأوّليّة بالنسبة إلى المتشابه، وهذا البيان، بيان إرشادي كما لايخفى.

الثاني: المحكم ماعرف المراد منه إمّا بالظهور وإمّا بالتأويل. والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدّجال والحروف المقطّعة في أوائل السور.

وفيه أنّه إن أريد بالظهور في تعريف المحكم النصّ فهو كذلك أو مايقابل النصّ من الظهور الاصطلاحي فهو وإن لم يكن محكماً إلّا أنّه في حكم المحكم من حيث وجوب الاتّباع. وعلى التقديرين فلا محصّل لقوله: «أو بالتأويل» إلّا أن يقال: إنّ مراده من التأويل هو التفسير، لكنّ من الواضح أنّ اعتماد المفسّر في التفسير المشروع على دلالة الألفاظ، وتحصيل القرائن وكسب الشواهد على تلك الدلالة بحيث يصير اللّفظ بلحاظ هذا الاستظهار ظاهراً أو قطعيًّا في المعنى المستظهر، فلا موقع بعد هذا لقوله: «أو بالتأويل» الظاهر في الترديد والتغاير بين شيئين.

وأمّا تفسيره المتشابه بما استأثر الله بعلمه ففيه أنّ المتشابه وإن كان من الغيب المحجوب مثل سائر الغيوب إلّا أنّه قد جرت سنّته تعالى في عدّة من هذه الغيوب سيّما المتشابه أن يطّلع عليه الراسخون في العلم من أوليائه الطاهرين. وهل يتفوّه عالم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يعلم مانزّل عليه من متشابهات الكتاب؟! ولم يقدر على تعليمها لأحد من أفاضل أمّته وأهل دعوته؟! وهذا جزاف من القول. والعجب تمثيله المتشابه بقيام الساعة وخروج الدّجّال. إذ وقت قيام الساعة من جملة الغيوب الّتي لانهاية لعددها فالقائل لابدّ أن يلتزم أنّ كلّ غيب، متشابه. فلو عقل وتفكّر ليعلم أنّ المتشابه من الغيوب لا أنّ كلّ غيب متشابه. وجمعه بين قيام الساعة وخروج الدجّال وبين فواتح السور، يدلّ على أنّ القائل يعتقد بأنّ الغيوب كلّها متشابه.

الثالث: إنّ المحكم من آي الكتاب مالم يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً. والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهاً.

وفيه أنّ حقّ العبارة أن يقول: إنّ المحكم مايدلّ على معنى والمتشابه مالم يكن ظهوره جائز الاتّباع. وقوله: «ما لم يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً»، ليس بصحيح لأنّ مفاد المحكم ليس من باب التأويل في لسان الكتاب والسنّة. فلوكان مراده أنّ المحكم ماكان واضحاً في معنى واحد والمتشابه مايقابله فهو عين ماذكرناه.

الرابع: المحكم ماكان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان.

وفيه أنّ الظاهر من قولهم: «معقول المعنى»، غير التعبّديّات ويكون المراد من المتشابه هي التعبّديّات. وحيث إنّ التسليم في مقابل التعبّديّات واجب بالضرورة،

وكلّ مايجب التسليم في قباله تعبّداً فهو متشابهٌ. ويحرم اتّباع المتشابه قبل نيل معناه ومفاده، فعليه يحرم اتباع التعبديّات لأنّها من المتشابهات الّتي معناها ليس معقولاً. وبالجملة هذا القول أجنبيّ عن البحث في المحكم والمتشابه الّذي في باب دلالات الألفاظ.

الخامس: المحكم ما تأويله تنزيله، والمتشابه مالايدرك إلّا بالتأويل.

أقول: المراد بالتأويل هٰهنا التفسير والتشريح والتوضيح. فعلى هذا المحكم هو ما لاترديد في دلالته على مفاده. والمتشابه مالايمكن الأخذ بظاهره لقيام القرائن العقليّة والنقليّة على خلافه وسيأتي لذلك مزيد توضيح في البحث عن التأويل ـ إن شاء الله تعالى ـ.

السادس: المحكم ما استقلّ بنفسه والمتشابه مالايستقلّ إلّا بردّه إلى غيره.

وفيه أنّ الاستقلال وعدمه لامعنى له في باب دلالة الألفاظ. فمن الكلام مايحتاج إلى شرح وقرينة ومنه مالايحتاج إلى ذلك. وهذا عمل عاديّ في المحاورات العرفيّة ويترتّب عليه أغراض العقلاء بحسب اختلاف المقامات.

السابع: المحكمات مافيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه متشابه يصدّق بعضه بعضاً.

وفيه أوّلاً أنّه لادليل على نفي المتشابه ممّا فيه الحلال والحرام. وثانياً القول بأنّ ما سوى ذلك متشابه، خلاف الضرورة والعيان. كيف؟! وفي غير الأحكام أصول الدّعوة وأساس الأديان والحقائق الفطريّة والمستقلّات العقليّة، وأمثال ذلك. وثالثاً أيّ محصّل في أنّ المتشابه يصدّق بعضه بعضاً.

الثامن: المحكمات مالم ينسخ والمتشابهات ما نسخ.

وفيه أنّ من الممكن أن يكون المتشابه من النواسخ يحرم العمل به قبل تفسيره ويجب العمل عليه بعد تفسيره.

التاسع: المحكم مالم تكرّر ألفاظه ومقابله المتشابه.

وفيه أنّ التكرار وعدمه أجنبيّ عن معنى التشابه والإحكام. على أنّه لامعنى لنسبة التكرار إلى القرآن الكريم. وما كان من القضايا والقصص في المواقف المختلفة إنّما

هو لأغراض شتّى. وعلى عهدة المفسّر تعيين الغرض المسوق له الكلام والعناية الملحوظة فيه.

العاشر: إنّ المتشابه هي آيات الصفات أي: صفات الله خاصّة.

وفيه أنّ لازم ذلك حرمة الاعتقاد والتديّن بالتوحيد ونعوت الله الكماليّة والجلاليّة. على أنّ الآية الكريمة صريحة في أنّ الإحكام والتشابه من صفات الكلام لامن صفات مفرداته.

وههنا أقوال أخر أعرضنا عن ذكرها.

قال في الميزان ١٨/٣: «وأمّا التشابه المذكور في هذه الآية ـ أعني قوله: «وأخر متشابهات» فقابلته لقوله: «منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب»، وذكر اتّباع الّذين في قلوبهم زيغ لها ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، كلّ ذلك يدلّ على أنّ المراد بالتشابه، كون الآية بحيث لايتعيّن مرادها لفهم السامع بمجرّد استماعها بل يتردّد بين معنى ومعنى حتّى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعيّن هي معناها وتبيّنها بياناً. فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمةٌ بنفسها، كما أنّ قوله: «الرّحمن على العرش استوى» [طه / ٥]، يشتبه المراد منه على السامع أوّل مايسمعه، فإذا رجع إلى مثل قوله تعالى: «ليس كمثله شيء» [الشورى / ١١] استقرّ الذّهن على أنّ المراد به التسلّط على الملك والإحاطة على الخلق دون التمكّن والاعتماد على المكان المستلزم للتجسّم المستحيل على الله سبحانه... وكذا إذا عرضت الآية المنسوخة على الآية الناسخة تبيّن أنّ المراد بها حكم محدود بحدّ الحكم الناسخ. وهكذا.»

وقال في ص ٤٣ في معنى كون المحكمات أمّ الكتاب: «فإنّ في هذه اللّفظة ـ أعني لفظة الأمّ ـ عناية بالرجوع الّذي فيه انتشاء واشتقاق وتبعّض. فلا تخلو اللّفظة من الدّلالة على كون المتشابهات ذات مداليل ترجع وتتفرّع على المحكمات، ولازمه كون المحكمات مبيّنة للمتشابهات.

على أنّ المتشابه إنّما كان متشابهاً لتشابه مراده لا لكونه ذا تأويل. فإنّ التأويل كما مرّ يوجد للمحكم كما يوجد للمتشابه، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً. فللمتشابه مفسّر وليس إلّا المحكم؛ مثال ذلك قوله تعالى: «إلى ربّها ناظرة» [القيامة / ٢٣]. فإنّه

آية متشابهة وبإرجاعها إلى قوله تعالى: «ليس كمثله شيء» [الشورى/ ١١] وقوله تعالى: «لاتدركه الأبصار» [الأنعام/ ١٠٣]، يتبيّن أنّ المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسّيّ، وقد قال تعالى: «ماكذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على مايرى» إلى أن قال: «لقد رأى من آيات ربّه الكبرى» [النجم/ ١٨] فأثبت للقلب رؤية تخصّه، وليس هو الفكر فإنّ الفكر إنّما يتعلّق بالتصديق والمركّب الذهنيّ، والرّؤية إنّما تتعلّق بالمفرد العينيّ فيتبيّن بذلك أنّه توجّه من القلب ليست بالحسّيّة المادّيّة ولا بالعقليّة الذهنيّة. والأمر على هذه الوتيرة في سائر المتشابهات.»

أقول: فيه، أوّلاً: إنّ الأُمومة والاصالة للمحكمات أجنبيّة عن معنى الفرعيّة والمفسريّة بالكلّيّة.

وثانياً: لاتناسب بين رؤية الآيات وبين النّظر إلى ذاته المقدسة. فتفسير النّظر بالرؤية في الآيتين مجازفة واضحة.

وثالثاً: إنّه لا إشكال في أنّ المتشابه مايقابل المحكم. ولا إشكال في حجّيّة المحكم عند أحد من أهل العلم، وكذلك في حجّيّة الظواهر عند المحقّقين. وأمّا المتشابه هو الّذي لم ينعقد له ظهور فلا موضوع للحجّيّة فيه أصلاً، وردّ المتشابه إلى المحكم ليس إلّا لإبطال الظهور البدوي لا لتعيين المراد من المتشابه. وليست المحكمات قرينة عرفيّة منفصلة لتعيين المرادات من المتشابهات مثلاً قوله تعالى: «لاتدركه الأبصار...» في مقام تنزيهه تعالى عن رؤية الأبصار وتمجيده تعالى بإدراكه وإحاطته سبحانه بالأبصار، وليس قرينة عرفيّة بين المخاطبين والمتكلّم على المراد من النظر إليه تعالى. وغاية مافي الباب نفي النظر الحسّي وإثبات إحاطته تعالى وإدراكه النظر الحسّي فلايكون مدركاً بالنّظر الحسّي ولا محاطاً به، وأمّا تعيين المراد من النظر إلى ذاته المقدسة الكريم فالتماسه من الآية مجازفة واضحة.

فتلخّص أنّ الغرض الأصيل من المحكمات ليست قرينيّتها للمتشابهات وتفسيرها بل لها شأن آخر أصيل؛ وهو أنّها أمّ الكتاب وعماده وأصوله. ومن تديّن بها وعمل بها لم يسأل الله عنه ولم يؤاخذه بترك المتشابهات. فالعمل بالمحكمات والتديّن بها ومن جملة العمل بها عرض المتشابهات عليها وتحكيمها عليها والسّكوت عنها. والمتشابه لايصير ظاهراً بردّه إلى المحكم فضلاً عن أن يكون محكماً ولابدّ في

تشريح المتشابهات من أدلّة أخرى سيقت لبيان هذا المتشابه بخصوصه مستقيماً أو غير مستقيم. وهكذا الأمر في متشابهات الأخبار فلابدّ من عرض متشابهاتها على محكمات الكتاب والسنّة ثمّ شرحها بأدلّة أخرى من الكتاب والسنّة.

ولايخفى أنّ الغرض الأصيل من تقسيم الآيات إلى المحكم والمتشابه، هو التوطئة إلى انقسام الناس في العمل بالقرآن إلى الزائغين والراسخين، وبيان حال الآخذين به، وأنّ الآخذين والتابعين بالمتشابه يريدون إضلال الناس وإغواءهم، والآخذين بالمحكم والراسخين في العلم سنّتهم في قبال المتشابهات، هو السّكوت وإرجاع العلم به إلى الله والايمان به على ماهو عليه في الواقع.

فاتّضح من جميع ماذكرنا أنّ معنى الروايات الّتي وردت في ردّ المتشابه إلى المحكم، هو الأخذ بالمحكم والسّكوت عن المتشابه والايمان به على ما هو عليه في الواقع. فللمحكم مقام المرجعيّة والحاكميّة، يحتجّ به على علوم القرآن ويحتج به على أهل الآراء الباطلة والأهواء المبتدعة.

٥ ـ التأويل والتفسير

اختلفت الكلمات واضطربت الأقوال في تفسير التأويل. منها ما في الميزان ٢٥/٣، قال: إنّ التأويل ليس من المفاهيم الّتي هي مداليل الألفاظ بل هو من الأمور الخارجيّة العينيّة. واتّصاف الآيات بكونها ذات تأويل من قبيل الوصف بحال المتعلق.

وقال في ص ٢٣، في بيان هذا المعنى: ويدلّ على ذلك قوله تعالى في قصّة موسى والخضر عليهما السّلام: «سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً» [الكهف (١٨) / ٧٨] وقوله: «ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً» [الكهف (١٨) / ٨٢]

وقال بعد نقل مافعله الخضر عليه السّلام في الموارد الثلاث، وسؤال موسى عليه السّلام والّذي نبّأ به الخضر من التأويل، وكذا بعد نقل ماورد من لفظ التأويل في عدّة مواضع من قصّة يوسف الصدّيق عليه السّلام: فقد استعمل التأويل في جميع هذه الموارد من قصّة يوسف عليه السّلام فيما يرجع إليه الرؤيا من الحوادث، وهو الّذي كان يراه النائم فيما يناسبه من الصورة والمثال. فنسبة التأويل إلى ذي التأويل نسبة

المعنى إلى صورته الّتي يظهر بها، والحقيقة المتمثّلة إلى مثالها الّذي تتمثّل به. كما كان الأمر يجري هذا المجرى فيما أوردناه من الآيات في قصّة موسى والخضر عليهما السّلام، وكذا في قوله تعالى: «وأوفوا الكيل إذا كلتم ... وأحسن تأويلاً» الآية [الإسراء (١٧) / ٣٥]

ومنها ما قال في المنار ١٧٤/٣، بعد نقل الآيات الّتي ورد فيها لفظ التأويل وبيان معنى التأويل فيها: فتبين من هذه الآيات أنّ لفظ التأويل لم يرد في القرآن إلّا بمعنى الأمر العملي الّذي في المآل تصديقاً لخبر أو رؤيا أو لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل، فيجب أن تفسّر آية آل عمران بذلك. ولايجوز أن يحمل التأويل فيها على المعنى الّذي اصطلح عليه قدماء المفسّرين؛ وهو جعله بمعنى التفسير ـ كما يقول ابن جرير: القول في تأويل هذه الآية كذا ـ ولا على ما اصطلح عليه متأخّروهم من جعل التأويل عبارة عن نقل الكلام عن وضعه إلى مايحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ماترك ظاهر اللّفظ، ومثله قول أهل الأصول: التأويل صرف اللّفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل.

أقول: قد تقرّر في محلّه أنّ استعمال اللّفظ في مورد لايدلّ إلّا على كونه من مصاديق المعنى اللّغويّ له أو من الموارد الّتي استعمل فيها اللّفظ بضرب من التجوّز والعناية، فاستظهار معنى في مورد من استعمال لفظ التأويل في الآيات الكريمة لايدلّ على كون هذا المعنى هو المراد في غيره من موارد استعماله. وسيجيء معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما في ضمن المباحث ـ إن شاء الله تعالى ـ.

قال تعالى:

«هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلّا أولوا الألباب» [آل عمران (٣) / ٧]

قد تقدّم البحث في معنى المحكم والمتشابه والآراء والرّوايات الواردة في ذلك.

قوله تعالى: «فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة

وابتغاء تأويله».

أقول: صرّح تعالى بانقسام الكتاب إلى المحكم والمتشابه. وصرّح أيضاً بأنّ الآخذين بالكتاب والمتمسّكين به بلحاظ الاعتقاد به والعمل به قسمان: منهم أهل زيغ وأهواء وانحراف يبغون بسبيل الحقّ وصراط الصّدق عوجاً وليس من الدّين بشيء.

قوله تعالى: «فيتّبعون ماتشابه منه» أي: من الكتاب.

قوله تعالى: «ابتغاء الفتنة» أي: طلباً للفتنة. والفتنة، الكفر ومادونه من البِدَع والضّلالات، فسنّة هذه الفرقة الضّالّة اتّباع المتشابهات وترك المحكمات لأجل ابتغاء الفتنة وتأسيسها وإقامتها.

قوله تعالى: «وابتغاء تأويله». هذا بغية اخرى لهم أسوأ عاقبة وأشدّ ضرراً على الدّين وأهله؛ وهي التعرّض لتأويل الكتاب محكمه وظاهره ومتشابهه، يؤوّلونه حسب ميولهم وطبق آرائهم ويحرّفون الكلم عن مجاري الإفادة والاستفادة، ويغيّرون مناهج الإفهام والتفهيم بالمغالطات كي تنطبق على ما أخذه من المتشابهات فيقيمون بذلك عماد ضلالهم وزلّتهم. ولو أنّهم بعد أخذ المتشابهات لم يرتكبوا تأويل الكتاب وأبقوا محكمات الكتاب ونصوصه وظواهر الدّين، لما كان ضررهم على الإسلام بهذه المثابة، ولم يتمكّنوا من إغواء الضعفاء وإضلال العوام. فهذه المصيبة التي هي أعظم مصيبة في الدّين وهو باب الضلالات ينفتح منه ألف باب من الضلال. وقد ابتلى القرآن الكريم بهذه البليّة العظمى وباشتداد هذه البلوى صار أمر التأويل شائعاً رائجاً، جائزاً عاديّاً، فما بقي في القرآن أصل محكم إلّا أصابته بليّة التأويل. منها تأويل المعاد والجنّة والنّار بالمثل الخياليّة المنشأة بإنشاء النفس. ومنها نسبة الفجور والفسوق والكفر والضلال إلى الله سبحانه وأن نسبة فعل المجعول والمعلول إلى الجاعل أوّلاً وبالذات وإلى المجعول ثانياً وبالعرض. ومنها تأويل الخلود. ومنها تأويل حدوث العالم وإثبات قدمه. ومنها تأويل معجزات الأنبياء. وغير ذلك من الأمور. والعجب أنّهم رموا من كان معتقداً بهذه النصوص والمحكمات من الفقهاء والمتكلّمين والمحدّثين، وحملة الدّين بالقشريّة ونسبوهم إلى الجهالة والبلادة. وهذه النسبة خلاف الانصاف والحق والتحقيق.

وفي مرجع الضمير في قوله تعالى: «ابتغاء تأويله» بين المفسّرين اختلاف.

والظاهر من سياق الآية صدراً وذيلاً أنّ الضمير راجع إلى الكتاب لا المتشابه فقط. والشاهد على ذلك قوله تعالى: «يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا».

ولايخفى أنّ المراد من لفظ التأويل والظاهر منه هو المعنى المصدري وهذا لاينافي ما سيجيء من أنّ الكتاب كلّه ظاهره ومتشابهه له تأويل واقعاً مراد لله سبحانه وله بطون وتخوم إلى سبعة أبطن. فإنّ مايناسب عمل الزائغين من التأويل هو التحرّي لصرف الآيات عن ظواهرها بالمغالطة والشيطنة لا ابتغاء التأويل الواقعي المراد عند الله سبحانه. وماهم والتأويل الواقعي؟! فإنّهم ماقصدوه وماطلبوه. كيف؟! وبغيتهم وغاية آمالهم التلاعب بالكتاب وبما يتضمّن من المعارف والأحكام.

وفي مقابل الزائغين، الراسخون المستضيئون بنور العقل، يعرفون أنّ القول بغير علم جناية بالضّرورة وأنّ تحريف الكلم عن مواضعه كفر بآيات الله بالبداهة فسبيلهم السكوت عن مالا يعلمون من المتشابه والقيام بما يعرفون من الدّين احتراماً للحقّ وتشريفاً للعلم وامتثالاً لله جلّ شأنه، والايمان بما يعلمون ومالا يعلمون من آيات الله وسنّة نبيّه وأنّ طلب العلم فريضة يدعو إليه العقل ويهدي إليه الشرع.

قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلّا أولوا الألباب»

الظّاهر أنّ الآية الكريمة ليست في مقام إثبات علم التأويل لله تعالى فقط بل الظاهر أنّها في مقام بيان نفي الاستقلال والتفويض عن العالمين بالتأويل. بيان ذلك أنّ الأفعال الواقعة منه سبحانه في نظام الأسباب والمسبّبات لابدّ من نفي الاستقلال عن الأسباب ونسبة الفعل إليه سبحانه ماعدا أفعال العباد الاختياريّة. فمدبّرات الأمور الموكّلة لإجراء أمره تعالى وإنفاذ حكمه، أسباب لابدّ من تأثيرها في المسببات من إذنه. مثلاً الموكّلون لقبض الأرواح وتوفّي النفوس، مأمورون بإنفاذ أمره تعالى ولا استقلال لهم في ذلك ولا تفويض فيصحّ أن يقال: «الله يتوفّى الأنفس حين موتها» وكذا يصحّ أن يقال: «قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم». ويصحّ أن يقال: لا قابض إلّا الله. ويصحّ أيضاً أن يقال: إنّ قابض الأرواح هو عزرائيل عليه السّلام؛ وهكذا في غيره من أفعاله سبحانه الواقعة في نظام الأسباب. فمعنى الحصر في هذه الموارد ليس إلّا لإثبات التوحيد وإبطال توهّم الاستقلال والتفويض لا لنفي الأسباب

بالكليّة. ومن ذلك الباب، باب الرّزق والشفاء والعافية. فلوكان واحد من تلك الأسباب أو شرائطها تحت الاختيار فلا محالة يكون متعلّقاً للتكليف، فيجب أو يستحبّ على المكلّف تنظيم الأسباب المقدورة لكسب الرزق مثلاً.

إذا تقرّر ذلك فنقول: لافرق في المقام بين كون «الواو» للعطف أو للاستئناف. فإن كان للعطف فيكون المعنى: إنّ الله تعالى والراسخين في العلم يعلمون تأويل الكتاب لاعامّة المخاطبين. وإن كان «الواو» للاستئناف يكون المعنى: إنّ الله تعالى يعلم تأويل الكتاب وأمّا غيره تعالى فلابدّ في إثبات علم التأويل لهم من دليل منفصل وهذا ليس إلّا في الراسخين فقط كما سيجيء ـ إن شاء الله تعالى.

فتحصّل أن العلم بتأويل الكتاب خارج عن حدود التعاليم العادية الأوّليّة لكلّ أحد وليس كلّ النّاس مسؤولاً في مقابل التأويل كما أنّ عامّة الناس وعامّة الجنّ مسؤولون في مقابل القرآن من حيث الإيمان والاتّقاء بالنسبة إليه سبحانه وبما عرفوا وعلموا من دعوته وندائه العام إلى شرق العالم وغربه. فهذه الآية الكريمة نصّ في أنّ التأويل لم يكلّف به كل أحد مباشرة. وهكذا صريح في أنّ التأويل لايطلق على مداليل المحكمات والظواهر والنصوص إلّا بضرب من العناية والتجوّز.

ولايهمّنا ولايلزمنا البحث أنّ علم الرسول صلّى الله عليه وآله الّذي هو أفضل الرّاسخين في العلم بالتأويل من مجرى هذه الكلمات والحروف أوله طريق وسند آخر غير الألفاظ والحروف. وبديهيّ أنّ الكلمات والألفاظ ليست طريقاً متعارفاً للتأويل إذ لوكان كذلك لكان يناله الكلّ ولما كان للاستثناء وجه. فتعيّن أنّ الراسخين من أهل بيته صلّى الله عليه وآله أخذوه عن النّبي صلّى الله عليه وآله ولايمكن هذا الرسوخ لهم من عند أنفسهم.

فإن قيل: إنّ الراسخين الّذين قرّبهم الله تعالى بنفسه في العلم بالتأويل فأيّ مانع أن تقول: إنّهم يعلمون تأويل الكتاب أو المتشابه بالتّدبّر والتفكّر كما أنّهم يعلمون تنزيل الكتاب كذلك.

قلت: قام الدّليل على حجّيّة الكلام لمدلوله سواء كان نصّاً أو ظاهراً، أفاد اليقين أو الاطمئنان فصار حجّة وسنداً بين الله وبين عباده في العمل بالكتاب وأمّا الوصول إلى تأويل الكتاب فلا دليل على التديّن به بالحجج العقلائيّة من ظواهر

الألفاظ وأمثالها. فتبيّن أنّ من ادّعى الرسوخ في العلم وادّعى العلم بتأويل القرآن لايصغى إليه أصلاً إلّا من تعلّمه من الرّسول. وهذا قطعي في باب الأحكام وأمّا في غير باب الأحكام فكذلك أيضاً. وكيف كان فطريق العلم بتأويل الكتاب ليس إلّا بالتعليم من رسول الله صلّى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين الراسخين عليهم السّلام. فعلم التأويل مختصّ بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وآله ومن تعلّم منه تعليماً وافياً جامعاً لجميع جوانب علوم القرآن وشعبه ومراميه لا من سمع منه صلّى الله عليه وآله شيئاً وغابت عنه أشياء.

ولا بدّ في المقام من التنبيه على أمور:

الأوّل: هل التأويل مختصّ بالمتشابه أو أنّ القرآن لكلّه تأويل؟ الظاهر من الآية المبحوثة أنّ القرآن كلّه له تأويل لما عرفت أنّ اقتضاء السياق رجوع الضمير إلى الكتاب. ويدلّ على ذلك غيرها من آيات القرآن أيضاً. قال تعالى:

«ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدًى ورحمةً لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلّا تأويله يوم يأتي تأويله...» [الأعراف (٧) / ٥٢ و ٥٣]

و «وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ... بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتيهم تأويله ...» [يونس (١٠) / ٣٧ـ ٣٩]

فالضمير في الآية الأولى راجع إلى قوله: «بكتاب فصّلناه» وفي الثانية راجع إلى «ما» في قوله: «بما لم يحيطوا بعلمه».

في البحار ٩٧/٩٢، عن البصائر، عن أحمد بن محمد مسنداً عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول:

إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ما قد جاء ومنه مالم يجئ. فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمّة عرفه إمام ذلك الزمان.

وفيه أيضاً، عنه، عن محمد بن الحسين مسنداً عن فضيل بن يسار قال:

سألت أبا جعفر عليه السّلام عن هذه الرواية «ما من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن» فقال: ظهره تنزيله وبطنه تأويله. منه ما قد مضى ومنه مالم يكن يجري كما يجري الشمس والقمر. كلّما جاء تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء. قال الله: «وما يعلم

تأويله إلّا الله والراسخون في العلم» نحن نعلمه.

وفي كمال‌الدين ٢٨٤/١، عن المظفّر بن جعفر مسنداً عن سليم بن قيس الهلاليّ قال:

سمعت عليًا عليه السّلام يقول: مانزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله آية من القرآن إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ وكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها....

وفي الاحتجاج ٣٨٨/١، عن عليّ صلوات الله عليه قال:

سلوني عن كتاب الله فوالله مانزلت آية من كتاب الله في ليل ولا نهار، ولا مسير ولا مقام إلّا وقد أقرأنيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلّمني تأويلها. فقام إليه ابن الكوّاء فقال: يا أميرالمؤمنين فما كان ينزل عليه وأنت غائب عنه؟ قال: كان [يحفظ عليّ] رسول الله صلّى الله عليه وآله ماكان ينزل عليه من القرآن وأنا غائب عنه حتّى أقدم عليه فيقرئنيه ويقول لي: ياعلي أنزل الله بعدك كذا وكذا وتأويله كذا وكذا فيعلّمني تنزيله وتأويله.

وفي تفسير القمّيّ ٩٦/١، عن أبيه مسنداً عن بريد بن معاوية، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم. قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله. وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه....

وفي تفسير العياشي ١٢/١، عن أبي عبدالرحمن السلمي:

إنّ عليًا عليه السّلام مرّ على قاض فقال: هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا. فقال: هلكت وأهلكت. تأويل كلّ حرف من القرآن على وجوه.

وفيه ١٥/، عن السكوني، عن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن أبيه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

إنّ فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله وهو علىّ بن أبي طالب عليهما السّلام.

وفيه /١٦، عن يوسف بن السخت البصريّ قال: رأيت التوقيع بخط محمد بن محمد بن عليّ فكان فيه:

الّذي يجب عليكم ولكم أن تقولوا: إنّا قدوة الله وأئمّة وخلفاء الله في أرضه، وأمناؤه على خلقه، وحججه في بلاده. نعرف الحلال والحرام ونعرف تأويل الكتاب وفصل الخطاب.

وفيه /١٧، عن أبي الصباح قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام:

إنّ الله علّم نبيّه صلّى الله عليه وآله التنزيل والتأويل، فعلّمه رسول الله صلّى الله عليه وآله عليًّا صلوات الله عليه.

فالمتحصّل من جميع هذه الرّوايات الشريفة وغيرها من الرّوايات أنّ القرآن كلّه؛ محكمه ومتشابهه له تأويل. ولا مانع من إرجاع الضمير في قوله تعالى: «ابتغاء تأويله» و «وما يعلم تأويله» إلى الكتاب كلّه لا المتشابه فقط.

الثاني: لا ريب في حجّية المحكمات والظواهر، ودلالتها على مداليلها قال تعالى:

«وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد إنّما هو إلهٌ واحد وإنّني بريءٌ ممّا تشركون» [الأنعام (٦) / ١٩]

و «قل أوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرّشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحداً» [الجنّ (٧٢) / ١ و ٢]

فلا كلام في كاشفيّة المحكمات والظواهر عن مداليلها فيما كان المقصود الإفهام والتفهيم في مقام البلاغ والوعظ والنصح والتذكير والتحدّي والاحتجاج والاستدلال والنفي والإثبات، والنقض والإبرام، والذمّ والتوبيخ، والوعد والوعيد، والبشارة والإنذار. كلّ ذلك في مقام الإفهام والتفهيم طبق الطريقة المألوفة بين عقلاء الأمم.

ولا إشكال أيضاً في الاختلافات الراجعة إلى المخاطبين في نيلهم وإدراكهم المطالب الملقاة إليهم في قالب الألفاظ. إلّا أنّ البحث إنّما هو في أنّه هل المقصود من القرآن كلّه ليس إلّا مداليل الألفاظ الّتي في معرض إفهام العامّة وليس وراءها معنى آخر كي يستأثر الله ورسوله وأوصياؤه صلوات الله عليهم بعلمه، أو أنّ له بعد المداليل العادية معان لايعلمها إلّا الله وأولياؤه. الأوّل خلاف نصّ الآية والسنّة القطعيّة. فتبيّن أنّ الرّاسخين الّذين يعلمون التأويل كلّه ـ بناءً على العطف أو بحسب الأدلّة المنفصلة الأخرى ـ هم العلماء الخاصّون لاكل من له رسوخ في علم التفسير. إذ الراسخ في تفسير القرآن في مرحلة إفهام العامّة غير الراسخ في علم التأويل سواء قلنا بصحّة إطلاق التأويل على التفسير أم لا. فإنّ هذا القسم من علم القرآن الّذي استأثر الله بعلمه دون جميع خلقه، غير الّذي أفاض على النّاس: برّهم وفاجرهم. والظاهر أنّ رتبة تأويل المتشابه هي مرتبة تأويل الكتاب والمرجع في تعلّم علم تأويل الكتاب هو المرجع في تأويل المتشابه أيضاً لا مفاد المحكمات والظواهر والنصوص. وهو رسول الله صلّى الله عليه وآله الّذي هو أفضل الراسخين وماكان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله وتوارث منه أوصياؤه عليهم السّلام. فلابدّ للنّاس من التعليم والأخذ من رسول الله صلّى الله عليه وآله وأوصيائه الحفظة. ووزان هذا التعليم بعينه وزان تعليم الأحكام ليس لهم إلّا التعبّد في التعبديّات.

وتعليم الرّسول صلّى الله عليه وآله للنّاس عامّة ليس على حدّ يشفي الغليل ويغني الفقير. نعم أخذ بعض منهم شيئاً أو أشياء، وغاب عنه آلاف ألوف. وليس فيهم من يقدر على استنباط علوم القرآن حلاله وحرامه وأحكامه والجمع بين عناوينه الأوليّة والثانويّة في جميع الأزمان والأيّام إلى يوم القيامة. وليس فيهم من يتفوّه في إلهيّات القرآن والمعارف الربوبيّة والمعاد. ولايخفى على أهل الانصاف موقع علماء التفسير من الصحابة والتابعين وعلماء الفقه، وميزان أفكارهم ومعارفهم فكأنّهم لم ينزّل القرآن على ساحتهم ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وآله بين أظهرهم. فمن ادّعى من الناس أنّه أخذ القرآن بجميع جوانبه وعلومه وتنزيله وتأويله وظهره وبطنه وأحكامه ومعارفه، إنّما هو مفتر كاذب إلّا أوصياؤه صلّى الله عليه وآله فإنّهم يتوارثونه كابر بعد كابر وصادق بعد صادق وعندهم معاقل العلم وأصوله وموادّه.

الثالث: معنى التأويل والتفسير.

ما المراد من التأويل الّذي استأثره الله تعالى لنفسه وللراسخين من أوليائه؟ وهل بعد مفاد المحكمات والنصوص والظواهر وجوامع الكلم الّتي كلّم الله به خلقه وتجلّى لهم في كلامه ولكنّهم لايبصرون، معان ومداليل له تسمّىٰ بالتأويل؟

قلت: نعم، قد صرّحت محكمات الكتاب بوجود التأويل وتواترت السنّة من الرسول صلّى الله عليه وآله والأئمّة من أهل بيته الطاهرين على ذلك. وقد صرّحت تلك النصوص بوجوب الإيمان لظاهر القرآن وباطنه وتنزيله وتأويله فلايقبل إيمان الباطنيّة بعد ما أنكروا الظّاهر وكفروا به، ولا إيمان الظاهريّة بعدما ردّوا التأويل الّذي بيّن لهم الرسول صلّى الله عليه وآله وخلفاؤه عليهم السّلام، بل الواجب أن يقولوا: آمنا به كلّ من عند ربّنا. ولا فرق في التأويل بين تأويل الكتاب وتأويل المتشابه من الكتاب من حيث الأحكام والآثار المترتّبة على حقيقته. نعم، بينهما فرق من حيث التحقّق فتأويل المحكمات والنصوص والظواهر بعد الفراغ عن كاشفيّتها وسنديّتها للمعاني المرادة منها ثمّ تصل النوبة إلى المرادات التأويليّة بخلاف المتشابه فظواهرها ليست مرادة منها ومعناه التأويلي ليس اللّفظ ظاهراً فيه إلّا بعد البيان. وقد عرفت أنّ هذه المعاني التأويليّة المرادة، ماقصد منها إفهام عامّة الخلق في عرف التخاطب ولا يفهمون منها هذه المعاني وإنّما أفاض الله تعالى علمها على عصابة خاصّة من أوليائه.

والحقّ التأويل مدلول كلامي ومفهوم من الألفاظ عنى به المتكلّم إفهاماً لمن خاطبه. والفرق بينه وبين التفسير إنّما هو بلحاظ أنّ التفسير أقرب من مقاصد المتكلّم من حيث الإفهام والتفهيم. والتأويل في مرتبة متأخّرة عن التفسير وهو مآل الكلام ومرجعه النهائي. وقد صرّح أهل اللّغة أنّ الأول هو الرّجوع، ومن هذا الباب مايقال: آل الأمر إلى كذا. فتأويل الكلام من أفراد التأويل العامّ، غاية الأمر أنّ مآل كلّ شيء بالنسبة إليه وبما يناسبه ويلائمه، بخلاف التفسير فإنّه في اللّغة بمعنى كشف القناع. وينطبق على الكلام الّذي يوضح ويبيّن المراد من كلام آخر. فتقييد المطلق بدليل آخر وتخصيص العام بالقرينة المنفصلة داخلان في باب التفسير لا التأويل. وإن كان قد يطلق أحدهما في مورد الآخر. ولا يهمّنا تحقيق ذلك أنّ هذا الإطلاق حقيقة أو من باب العناية والمناسبة بينهما.

فلا يجوز الأخذ بالمطلق والعامّ إذا كان دأب المتكلّم وسنّته الاعتماد على القيود

والقرائن الخارجيّة المنفصلة عن الكلام بل الواجب الفحص والبحث عن مواضعها ومظانّها. والّذي انعقد للكلام قبل الفحص من الظهور، ظهور بدويّ لايجوز الأخذ والتمسّك به.

الرّابع: الرّوايات المانعة عن التفسير والتأويل.

في العيون ٢٢٨/١، عن علي بن الحسين مسنداً عن الريّان بن الصّلت قال: حضر الرّضا عليه السّلام مجلس المأمون بمرو، وقد اجتمع في مجلسه جماعة من علماء أهل العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: «ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا» [فاطر (٣٥) / ٣٢]. فقالت العلماء: أراد الله عزّ وجلّ بذلك الأمّة كلّها. فقال المأمون: ماتقول يا أبا الحسن؟ فقال الرضا عليه السّلام: لا أقول كما قالوا ولكنّي أقول: أراد الله عزّ وجلّ بذلك، العترة الطاهرة. فقال المأمون: وكيف عنى العترة من دون الأمّة؟ فقال له الرضا عليه السّلام: إنّه لو أراد الأمّة لكانت أجمعها في الجنّة لقول الله عزّ وجل: «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير» ثمّ جمعهم كلّهم في الجنّة فقال عزّ وجل: «جنّات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب» الآية. فصارت الوارثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم. فقال المأمون: من العترة الطاهرة؟ فقال الرضا عليه السّلام: الّذين وصفهم الله في كتابه فقال عزّ وجلّ: «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» [الأحزاب (٣٣) / ٣٣]. وهم الّذين قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّي مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ألا وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما. أيّها النّاس لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم....

أقول: في الرّواية الشريفة تصريح فإنّ هذا الاختصاص والوراثة للكتاب لهم عليهم السّلام، راجع إلى العلوم المتناسبة لمقام الإمامة والخلافة. وبالحقيقة هو تحدٍّ منهم عليهم السّلام لخلافتهم. وهو برهان لرسالة جدّهم الأعظم بالأصالة، وكذلك برهان نيّر على خلافتهم بالوراثة عن جدّهم. والاستدلال بالآية بإثبات هذا المقام الشامخ لأنفسهم واختصاصهم بمقام تحمّل العلوم الإلهيّة من الكتاب الكريم والكتاب في مرحلة الدعوة العامّة، نصّ وحجّة على خلافتهم ووراثتهم وهم قيّمون للكتاب

ومعلّمون لعلومه التفصيليّة الّتي تقصر عن نيلها ودركها عقول الرّجال من معضّلات المعارف الربوبيّة واليوم الآخر، وتفاصيل الأحكام.

وفي روضة الكافي /٣١١، عن العدّة مسنداً عن زيد الشحّام قال:

دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السّلام فقال: ياقتادة أنت فقيه أهل البصرة؟

قال: هكذا يزعمون.

فقال أبو جعفر عليه السّلام: بلغني أنّك تفسّر القرآن؟

فقال له قتادة: نعم.

فقال له أبو جعفر عليه السّلام: بعلم تفسّره أم بجهل؟

قال: لا، بعلم.

فقال له أبو جعفر عليه السّلام: فإن كنت تفسّره بعلم فأنت أنت، وأنا أسألك... ويحك ياقتادة! إن كنت إنّما فسّرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد فسّرته من الرّجال فقد هلكت وأهلكت.... ويحك ياقتادة إنّما يعرف القرآن من خوطب به.

أقول: إنكاره عليه السّلام على قتادة في تفسيره القرآن بأنّه هالك ومهلك لغيره، الظاهر أنّه لجهة تعرّضه لما يختصّ بالرّسول وأوصيائه صلوات الله عليهم أي، معرفة القرآن كلّه وبجميع مراتبه. ويشهد على ذلك قوله عليه السّلام في ذيل الحديث: «إنّما يعرف القرآن من خوطب به». ويشهد أيضاً على ذلك كلمة التفسير، فإن معرفة القرآن في مرتبة الدعوة العامّة ليست تفسيراً وليس فيها كشف القناع بل هي مخاطبة تحتاج إلى التدبّر والتعقّل والتبصّر والتفهّم. فادون مرتبة العلوم الخاصّة للمخاطبين بالقرآن في مرتبة دعوة الكلّ علم وأنوار بحسب مراتب الأشخاص والأفهام والإيمان والتقوى والطهارة. قال تعالى: «الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء...» [الزّمر (٣٩) / ٢٣]

وفي العلل /٨٩، عن أبيه ومحمد بن الحسن مسنداً عن أبي زهير بن شبيب بن

أنس، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السّلام... فقال (لأبي حنيفة):

> أنت فقيه أهل العراق؟ قال: نعم، قال: فبما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنّة نبيّه (ص). قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حقّ معرفته، وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علماً. ويلك ماجعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الّذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذريّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله. ما ورّثك الله من كتاب حرفاً....

أقول: ظاهر أنّ هذا الإنكار الشديد على أبي حنيفة لأجل غلبته على مقام الإفتاء واستقلاله في الاستنباط واستغنائه في علوم القرآن، الأحكام والمعارف، منهم عليهم السّلام. والإنصاف أنّ استنباط الأحكام من القرآن وما في هذه المرتبة من علومه وحقائقه مستقلاً من دون الرجوع إلى تفسير الأئمّة عليهم السّلام خبط واضح وحرام بيّن.

وفي الوسائل ١٤١/١٨، عن المحاسن، عن الحسن بن عليّ بن فضّال، عن ثعلبة ابن ميمون، عمّن حدّثه، عن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام في رسالة:

> فأمّا ماسألت عن القرآن فذلك أيضاً من خطراتك المتفاوتة المختلفة، لأنّ القرآن ليس على ماذكرت، وكلّ ماسمعت فمعناه على غير ماذهبت إليه. وإنّما القرآن أمثال لقوم يعلمون دون غيرهم، ولقوم يتلونه حقّ تلاوته؛ وهم الّذين يؤمنون به ويعرفونه، وأمّا غيرهم فما أشدّ إشكاله عليهم وأبعده من مذاهب قلوبهم، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّه ليس شيء أبعد من قلوب الرّجال من تفسير القرآن. وفي ذلك تحيّر الخلائق أجمعون إلّا من شاء الله. وإنّما أراد الله بتعميته في ذلك أن ينتهوا إلى بابه وصراطه، وأن يعبدوه وينتهوا في قوله إلى طاعة القوّام بكتابه، والناطقين عن أمره، وأن يستنبطوا ما احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم.

ثم قال: «ولو ردّوه إلى الرّسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم» [النساء(٤)/٨٣]. فأمّا غيرهم فليس يعلم ذلك أبداً ولا يوجد. وقد علمت أنّه لايستقيم أن يكون الخلق كلّهم ولاة الأمر، لأنّهم لايجدون من يأتمرون عليه ومن يبلغونه أمر الله ونهيه، فجعل الله الولاة خواصّ ليقتدي بهم، فافهم ذلك إن شاء الله. وإيّاك وإيّاك وتلاوة القرآن برأيك. فإنّ النّاس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور، ولا قادرين على تأويله إلّا من حدّه وبابه الّذي جعله الله له ـ فافهم إن شاء الله. واطلب الأمر من مكانه تجده ـ إن شاء الله.

أقول: احتجّ صلوات الله عليه بأنّ الرسول صلّى الله عليه وآله والولاة الّذين أمر الله الردّ إليهم، لايمكن أن يكون عامًّا. فلوكان النّاس ولاة ومرجعاً للنّاس في استنباط العلوم لايكون معنى لكونهم قريناً وبديلاً لمرجعيّة الرسول صلّى الله عليه وآله واستنباطه. ومعلوم أنّ الناس عامّة لايقدرون على هذا الاستنباط بداهة أنّ طريق العلم بهذه المعاني والتفسير والتأويل ليس من طريق دلالة الكلامي المتعارفة، ليدلّ عليها الكلام دلالة مطابقيّة أو تضمنيّة أو التزامية كي تكون الحجّة بين المفسّر وبين الله تعالى هي ظهور الكلام أو تنصيصه. فإنّ منها مالايعلم إلّا من قبل الوحي مثل تفاصيل الأحكام وماهو من الغيوب مثل الحقائق الخارجة عن الشهادة كتفاصيل عالم الآخرة وتفاصيل القضاء والقدر، والمشيئة والإرادة، والبدء والختم، وحقيقة العرش والكرسي، والحجب واللّوح والقلم، والمقطّعات من القرآن، وطور إيجاد العوالم وموادّها وأنوارها وساكنيها من الإنس والجنّ، والملائكة والكرّوبيّين والرّوحانيّين إلى مالا يحصيها إلّا الله تعالى. ومن أخذها وفسّرها برأيه ونسب ذلك إلى القرآن فقد افترى على الله وكذب.

وفي الاحتجاج ٧٥/١، مسنداً عن علقمة بن محمد الحضرمي، عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليهما السّلام، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله في حديث قال:

معاشر النّاس تدبّروا القرآن وافهموا آياته، وانظروا إلى محكماته ولا تتّبعوا متشابهه فو الله لن يبيّن لكم زواجره ولا يوضح لكم تفسيره إلّا الّذي أنا آخذ بيده ومصعّده إليّ وشائل بعضده.

أقول: هذه الخطبة المباركة فيها تصريح بالتمسّك بالقرآن بكلا الوجهين حيث صرّح صلّى الله عليه وآله في مقام مخاطبة الكلّ: «تدبّروا القرآن وافهموا آياته» وصرّح أيضاً في مقام تفسير علومه الخاصّة بقوله: «فوالله لن يبيّن لكم زواجره....»

وفيه ٣٦٩/١، في احتجاج عليّ عليه السّلام على زنديق في آي متشابهة، قال عليه السّلام:

وقد جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم بقوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم». [النساء (٤) / ٥٩] وبقوله: «ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم». [النساء (٤) / ٨٣] وبقوله: «اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين». [التوبة (٩) / ١١٩] وبقوله: «وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم» [وبقوله]: «وأتوا البيوت من أبوابها». [البقرة (٢) / ١٨٩] والبيوت هي بيوت العلم الّذي استودعته الأنبياء، وأبوابها أوصياؤهم، فكلّ عمل من أعمال الخير يجري على غير أيدي أهل الاصطفاء، وعهودهم، وشرائعهم، وسننهم، ومعالم دينهم، مردود وغير مقبول وأهله بمحلّ كفر وإن شملتهم صفة الإيمان... ثمّ إنّ الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كتابه، قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل؛ وقسماً لايعرفه إلّا من صفا ذهنه، ولطف حسّه، وصحّ تمييزه ممّن شرح الله صدره للإسلام؛ وقسماً لايعرفه إلّا الله وأمناؤه والراسخون في العلم. وإنّما فعل ذلك لئلّا يدّعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلّى الله عليه وآله من علم الكتاب مالم يجعل الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمار لمن ولّاه أمرهم فاستكبروا عن طاعته تعزّزاً وافتراءً على الله عزّ وجلّ، واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله جلّ اسمه، ورسوله صلّى الله عليه وآله....

أقول: الرّواية الشريفة نصّ في تقسيم الآيات إلى مرتبة مخاطبة العامّة الّتي يشترك فيها العالم والجاهل ومن صفا ذهنه ولطف حسّه وصحّ تمييزه، وإلى مرتبة

خاصّة الّتي لايعرفها إلّا الله والراسخون في العلم. وتقسيم القسم الأوّل إلى قسمين: قسم يشترك فيه العالم والجاهل وقسم لايعرفه إلّا من صفا ذهنه ولطف حسّه. لاينافي ماذكرنا من تعميم مرتبة العامّة إلى القسمين الأوّلين. فإنّ كلا القسمين في مرتبة واحدة، وللناس بحسب مراتب أفهامهم وذكائهم، ودرجات إيمانهم، ومراتب طهارة نفوسهم، وسعة علمهم بمعارف الدين وأصول الأخلاق، والتذكر بالمستقلّات العقليّة، نصيب وحظّ من معارف القرآن. وأمّا القسم الثالث هو الّذي لايعرفه إلّا الله والراسخون في العلم، فلا مطمع فيه لأحد غير الأنبياء وأوصيائهم. وأمّا غيرهم فيتعلّمون منهم ويتفقّهون في حلاله وحرامه ومعارفه إلى ما شاء الله وما شاؤوا، ويتمكّنون من حمل الكلّيّات على الجزئيّات وردّ الفروع إلى الأصول. وفيهم الفقيه والأفقه، حتّى أنّ منهم من لايتمكّن من استنباط الفروع من جوامع الكلم وأصول العلم وموادّه بل يكون حاملاً لعدّة مهمّة من فتاوى الراسخين، وهذا أيضاً مقام من الفقاهة وهكذا فإنّ فوق كلّ ذي علم عليم. حتّى قالوا: ما نشأ في الإسلام أفقه من سلمان. قال في معجم الرجال ١٩٤/٨: حكي عن الفضل بن شاذان أنّه قال: ما نشأ في الإسلام رجل من كافّة النّاس كان أفقه من سلمان الفارسي.

وفي البحار ٣/٩٣، عن أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني في كتابه تفسير القرآن مسنداً عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبدالله جعفر بن محمد الصّادق يقول:

> إنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً فختم به الأنبياء فلا نبيّ بعده. وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلاكتاب بعده. أحلّ فيه حلالاً وحرّم حراماً فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم. وجعله النبيّ صلّى الله عليه وآله علماً باقياً في أوصيائه فتركهم النّاس وهم الشهداء على أهل كلّ زمان، وعدلوا عنهم ثمّ قتلوهم واتّبعوا غيرهم، ثمّ أخلصوا لهم الطاعة حتّى عاندوا من أظهر ولاية الأمر وطلب علومهم. قال الله سبحانه: «ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به ولاتزال تطّلع على خائنة منهم». [المائدة(٥)/١٣]
> وذلك أنّهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجّوا بالمنسوخ وهم يظنّون أنّه الناسخ واحتجّوا بالمتشابه وهم يرون أنّه المحكم، واحتجّوا بالخاصّ

وهم يقدّرون أنّه العامّ، واحتجّوا بأوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا إلى مايفتح الكلام وإلى مايختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا وأضلّوا.

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أنّه من لم يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ الناسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والمحكم من المتشابه، والرّخص من العزائم، والمكيّ والمدنيّ، وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلّفة، ومافيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير، والمبيّن والعميق، والظاهر والباطن، والابتداء والانتهاء، والسؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجاري فيه، والصّفة لما قبل ممّا يدلّ على مابعد، والمؤكّد منه والمفصّل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه، ومعنى حلاله وحرامه الّذي هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ، والمحمول على ماقبله وعلى مابعده، فليس عالم بالقرآن ولا هو من أهله....

أقول: الرّواية الشريفة في مقام الشكوى والتظلّم والإنكار من الأئمّة على من تغلّب مقام تفسير القرآن. وفيها إشعار بأنّ معنى ضرب القرآن بعضه ببعض إنّما هو لجهلهم بطور الاستنباط، إذ المخصّصات والمقيّدات وسائر القرائن الّتي لابدّ في التفسير والاستنباط منها، بيّنها الرّسول وأودعها عند أهله. وفيها تصريح بأنّ التصدي لتفسير القرآن مع عدم معرفة الناسخ والمنسوخ، والعامّ والخاصّ، والمحكم والمتشابه، ضلال وإضلال. وفيها تصريح أيضاً أنّ هذا الضلال والإضلال من حيث إنّهم لم يأخذوه من أهله. وأنّ هذا الضلال والإضلال إنّما هو في استنباط الحلال والحرام واستنباط الأحكام وتشخيص الفرائض من الرّخص وتشريع القضاء والقدر الّذي هو من أغمض المسائل في العلوم الإلهيّة ولم يخرج منه ممّن ورد فيها سالماً إلّا الفقهاء المستضيئون بعلوم آل الرسول، ولم يخلطوا بعلومهم عليهم السّلام شيئاً ممن سواهم.

وقوله عليه السّلام: «وعزائمه ورخصه، ومواضيع فرائضه وأحكامه، ومعنى حلاله وحرامه الّذي هلك فيه الملحدون»، هلاكهم وإلحادهم إنّما هو من حيث اقتحامهم تفسير الحلال والحرام واستنباط العلوم مع جهلهم بمدارك الأحكام وينابيع

العلوم ومأخذها. وقد أخذ صلوات الله عليه شرائط خاصّة في تفسير العلوم واستنباط الأحكام وصرّح أنّها تراث رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وأنت كما ترى هذه الرّواية الشريفة أيضاً أجنبيّة عن منع التمسّك بالقرآن في مرتبة الدّعوة العامّة وخاصّ منعها الأكيد بباب الاستنباط وتشريع العلوم والتغلّب على مقامهم العلميّ.

فقد تلخّص من جميع ما ذكرنا أنّ خلافة القرآن والأئمّة عليهم السّلام خلافة اجتماعيّة انضماميّة لا انفراديّة. فالقرآن بمحكماته وظواهره يصرّح بوجوب الحجّ مثلاً ولم يسمّ أنّ الطواف مثلاً أسبوع وفي أيّ مورد، وغيره من أحكامه. ورسول الله صلّى الله عليه وآله يفسّر تلك الأحكام. والقرآن يدلّ بنصوصه ومحكماته على وليّ معصوم مفروض الطاعة ولم يسمّ أحداً بعينه وفسّر رسول الله صلّى الله عليه وآله شأن ذلك الرجل بخصوصه. وصرّح القرآن بوجود جنّة عرضها كعرض السماوات والأرض ولم يبيّن التفاصيل الراجعة إليها، وكذلك صرّح بوجود النّار والعذاب ولم يفسّر مكانها وطور خلقها ومواطنها وموادّها، والرّسول صلّى الله عليه وآله فسّر ذلك كلّه. وهكذا جميع العلوم الخاصّة. ولو أردنا إحصاء جميع الروايات المصرّحة باختصاص هذه المرتبة من علوم القرآن بالرسول صلّى الله عليه وآله أصالةً ولأوصيائه عليهم السّلام وراثةً، لخرجنا عن طور البحث وفيما ذكرنا كفاية لأولي الألباب.

٦ ـ التفسير بالرأي

في العيون ١١٦/١، عن محمد بن موسى مسنداً عن الريّان بن الصّلت، عن علي بن موسى الرّضا، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

قال الله جلّ جلاله: ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي، وما عرفني من شبّهني بخلقي، وما على ديني من استعمل القياس في ديني.

وفي كمال الدّين ٢٥٦/١، عن محمد بن علي ماجيلويه مسنداً عن عبدالرحمٰن ابن سمرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

... ومن فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب، ومن أفتى النّاس بغير علم فلعنته ملائكة السماوات والأرض...

وفي تفسير العياشي ١٨/١، عن عمّار بن موسى، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

... من فسّر [برأيه] آية من كتاب الله فقد كفر.

أقول: التفسير المنهّي عنه في هذه الروايات الشريفة، هو تفسير القرآن في مقام استنباط العلوم والأحكام والمعارف الخاصّة لا مايتعلّق بمرتبة الدعوة العامّة. فإنّ القرآن في هذه المرتبة خطاب واحتجاج، وتوبيخ وتشويق، وإنذار وإبشار، وهداية وتذكرة، يدلّ الكلام عليها إمّا بالتنصيص أو بالظهور. فلا معنى لإطلاق التفسير عليه، ولا دليل على تحريمه. والأدلّة متكاثرة بالحثّ والتمسّك عليه بهذا النحو.

في الوسائل ١٤٨/١٨، عن تفسير الإمام العسكري عليه السّلام قال:

... أتدرون من المتمسّك به الّذي له بتمسّكه هذا الشرف العظيم؟ هو الّذي أخذ القرآن وتأويله عنّا أهل البيت، عن وسائطنا السفراء عنّا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس الفاسقين. فأمّا من قال في القرآن برأيه فإن اتّفق له مصادفة صواب فقد جهل في أخذه عن غير أهله وكان كمن سلك مسبعاً من غير حفّاظ يحفظونه. فإن اتّفقت له السّلامة فهو لايعدم من العقلاء الذمّ والتوبيخ وإن اتّفق له افتراس السبع فقد جمع إلى هلاكه سقوطه عند الخيّرين الفاضلين وعند العوام الجاهلين. وإن أخطأ القائل في القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعده من النار. وكان مثله مثل من ركب بحراً هائجاً بلا ملّاح ولا سفينة صحيحة لايسمع بهلاكه أحد إلّا قال: هو أهل لما لحقه ومستحقّ لما أصابه....

أقول: ليس للقرآن في مرتبة دعوته العامّة مايحتاج إلى قياس الفاسقين وآراء المجادلين. وليس فيها أمر استنباطي كي يصيب أو يخطئ بل هذه وأمثالها، قرينة على أنّ الحرام ومورد المنع هو إعمال الرأي في العلوم الّتي تحتاج إلى الاستنباط. وضروريّ أنّه لاسبيل إلى ذلك في الأحكام وغيرها من العلوم والمعارف إلّا الأخذ عن أهل البيت عليهم السّلام.

وفي تفسير العياشي ١٧/١، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ كان إثمه عليه.

أقول: لاخفاء عند أولي الألباب أنّ الإصابة وعدمها لايمكن إلّا في الاستنباط والاجتهاد وكسب النظر فيما يفتي ويقضي. وهو قرينة على أنّ المراد من تفسير كتاب الله برأيه هو تفسيره للاستنباط والإفتاء. وبديهي أنّ هذا خارج عن نطاق عقله وفكره مثل شرائط الأحكام الموكولة إلى بيان الرّسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السّلام، ومثل غيرها من المعارف الغائبة عن محيط الأفكار والعقول. فما ليس من المستقلّات العقليّة وضروريّات العقول مثل اللّوح والقلم، والعرش والكرسيّ، وأسمائه تعالى وصفاته فلابدّ من بيان الرّسول وتشريحها.

ومن الناس، الّذين قالوا فيها بالرأي واستغنوا عن بيان الرسول صلّى الله عليه وآله وفسّروها بأمور تطبيقاً لما تخرّصوا، واضطرّوا إلى تأويلات باردة وصعب عليهم المخرج إلّا بارتكاب التأويل. مثلاً فسّروا الوحي باتّصال نفس النبي بعالم العقل وأنّ الملك من خاصّة نفس الرسول، وأنّ المعجزات لابدّ من تطبيقها على قانون العلّيّة والمعلوليّة. وحاصل مقالاتهم أنّ القوانين الفلسفيّة والعرفانيّة والعلميّة في كلّ باب من أبواب المعارف الإلهيّة من المبدأ والمعاد، حاكمة على القرآن والسنّة ولابدّ من تنزيل الآيات والروايات وتأويلها إذا كانتا مخالفتين لتلك القوانين.

وهذه الطّريقة في التفسير مع وهنها وبطلانها أثبت من طريقة مفسري أهل السنّة. إذ الفلاسفة والمتصوّفة فسّروا القرآن بآرائهم في غير باب الأحكام وهؤلاء تشبّثوا بكلمات القدماء من المتكلّمين مثل خلق القرآن وقدم الكلام، ومخلوقيّة أفعال العباد واستقلال العباد في أعمالهم وأفعالهم، وكل منهم يؤيّد مذهبه بآية وينقض مايخالف بآية أخرى. وفسّروا آيات الأحكام بما عندهم من المباني ويعرضون القرآن على ماعندهم من العلوم والآراء فإن طابق مع ماعندهم فيها وإلّا أوّلوه كي يطابقها. فالواجب على أهل الإسلام عرض جميع العقائد والآراء والأنظار على القرآن في مرتبة دعوته العامّة من نصوصه ومحكماته وأصوله المسلّمة الواضحة، وفي مرتبة علومه الخاصّة يجب عرضها على القرآن بعد تفسيره وتوضيحه بتعليم الرّسول صلّى

الله عليه وآله والأئمّة من أهل بيته فإن صحّ الأمر وثبت، فهو وإلّا يثبت الأمـر ولم يصحّ، فلابد من التوقّف والتثبّت وإيكال علمه إلى الله.

فإن قيل: قد صحّ وثبت عند رجال المسلمين في صدر الإسلام الفور والخوض في علوم القرآن والتماس عجائبه وغرائبه، وإخلاصهـم مقبول عند عموم المسـلمين. فإنّهم بذلوا غاية مجهودهم في أمر الدّين وتشييد مبانيه وتحكيم أصوله فكيف يجوز التخطّي والتجاوز عن مشيهم. وهم الوسائط بيننا وبين الرّسول في جميـع الشـؤون الدّينيّة فكيف يمكن أن يقال: إنّ مشيهم في تفسير القرآن واستنباط الأحكام وتحقيق المعارف شيء أحدثوه من عند أنفسهم، غير متلقّ عن الرّسول صلّى الله عليه وآله؟

قلت: رجال الإسلام مع مالهم من الشؤون يحرم علينا تقليدهم. وسـنّتهم في تحقيق العلوم الدينيّة لا أثر لها عندنا، فالواجب علينا التـحرّي وبـذل المسـاعي في إحقاق الحقّ واستنباط العلوم والأحكام. ولايجوز لأحد توقيف العلوم على أفهامهم وعقولهم. هذا أوّلاً؛

وثانياً: إنّ التنويه بأسمائهم وشدّة مساعيهم يكذّبها العيان فإنهم ماحفظوا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وضوءه مدّة عمره بين أظهرهم.

وثالثاً: ليس فيهم سائس علميّ يجمع شتاتهم ويقودهم على أمر واحد حتّى أنّ بعضهم قد منع عن كتابة الحديث ونقل السنن.

ورابعاً: المشهود من كلماتهم ومقالاتهم وكتبهم في الفقه والتفسير آراء ساذجة مستندة إلى أصول ضعيفة وقياسات باطلة. فهؤلاء ماعرفوا الناسخ من المنسوخ في الكتاب والسنّة، والخاصّ من العامّ والمحكم من المتشابه، ولم يستحكم عند أحد من الصحابة والتابعين أصول التفسير والاستنباط، ولم يحفظوا عن الرّسول صلّى الله عليه وآله في مسألة واحدة جميع مايحتاجون إليه في فهمها.

في الكافي ٦٢/١، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن سليم بن قيس الهلاليّ قال:

قلت لأمير المؤمنين عليه السّلام: إنّي سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذرّ شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبيّ الله صلّى الله عليه وآله غير ما في أيدي النّاس، ثمّ سمعت منك تصديق ماسمعت منهم. ورأيت في أيدي النّاس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبيّ الله

صلّى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها، وتزعمون أنّ ذلك كلّه باطل؛ أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلّى الله عليه وآله متعمّدين، ويفسّرون القرآن بآرائهم؟

قال: فأقبل عليّ فقال: قد سألت فافهم الجواب:

إنّ في أيدي الناس حقًّا وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعامًّا وخاصًّا، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً. وقد كذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله على عهده حتّى قام خطيباً فقال: أيّها النّاس قد كثرت عليّ الكذابة، فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النّار. ثمّ كذب عليه من بعده.

وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الإيمان، متصنّع بالإسلام، لايتأثّم ولا يتحرّج أن يكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله متعمّداً. فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب، لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه ولكنّهم قالوا: هذا قد صحب رسول الله صلّى الله عليه وآله ورآه وسمع منه؛ وأخذوا عنه، وهم لايعرفون حاله. وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عزّ وجلّ: «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم». [المنافقون (٦٣) / ٤] ثمّ بقوا بعده فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة والدّعاة إلى النّار بالزور والكذب والبهتان فولّوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا. وإنّما النّاس مع الملوك والدّنيا إلّا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله [صلّى الله عليه وآله] شيئاً لم يحمله على وجهه ووَهَم فيه ولم يتعمّد كذباً فهو في يده، يقول به ويعمل به ويرويه فيقول: أنا سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله فلو علم المسلمون أنّه وَهَم لم يقبلوه. ولو علم هو أنّه وَهَم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله صلّى الله عليه وآله شيئاً أمر به ثمّ نهى عنه وهو لايعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لايعلم، فحفظ

منسوخه ولم يحفظ الناسخ. ولو علم أنّه منسوخ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنّه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله، مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله صلّى الله عليه وآله، لم ينسه، بل حفظ ماسمع على وجهه فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ. فإنّ أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله مثل القرآن ناسخ ومنسوخ [وخاصّ وعامّ] ومحكم ومتشابه قد كان يكون من رسول الله صلّى الله عليه وآله الكلام له وجهان: كلام عامّ وكلام خاصّ مثل القرآن وقال الله عزّ وجلّ في كتابه: «وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا». [الحشر (٥٩) / ٧] فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ماعنى الله به ورسوله صلّى الله عليه وآله وليس كلّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يسأله عن الشيء فيفهم وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه حتّى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأل رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى يسمعوا.

وقد كنت أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله كلّ يوم دخلة وكلّ ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث دار. وقد علم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله صلّى الله عليه وآله أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه. فلايبق عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحدٌ من بنيّ. وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكت عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله آية من القرآن إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال

ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون، ولا كتاب منزل على أحدٍ قبله من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته، فلم أنسَ حرفاً واحداً.
ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً، وحكماً ونوراً. فقلت: يا نبيّ الله بأبي أنت وأمّي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنسَ شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا، لست أتخوّف عليك النسيان والجهل.

أقول: فيه تصريح بما ذكرنا أنّه لم يستجمع عندهم شرائط الاستنباط ولم يستحكم عندهم أصول التفسير في مرتبة العلوم الخاصّة.

واتّضح غايته أنّ الأخبار المصرّحة بتحريم التفسير بالرأي على كثرتها وشيوعها إنّما هي في مرتبة علومه الخاصّة فقط لاغير. وتحصّل أنّ إعمال الرأي والاستنباط في هذه المرتبة لاتجوّز له بوجه أصلاً. ولايجوز الاقتحام في تلك المرتبة والاستقلال في الإفتاء والقضاء والنظر القطعيّ في العلوم الراجعة إلى تلك المرتبة. وإرجاع الآيات بعضها إلى بعض رجم بالغيب وقول بلا علم، فربّ عامّ في الكتاب خاصّ في السنّة وخاصّ أيضاً في آيات أخرى متأخّره. وربّ فريضة في الكتاب سنّة في السنّة وهكذا في غيرها من أبواب العلوم والمعارف.

فقد تبيّن بأنور بيان أنّ هذا الّذي ذكرناه لاينافي حجّية القرآن الكريم لجميع أهل العالم من الجنّ والإنس فلاتزاحم بين أدلّة حجّية القرآن وبين الروايات المانعة عن التفسير بالرأي والتأويل، فكلّ حقّ في بابه. والّذين ادّعوا استقلالهم في القرآن واستغنوا عن الرّسول صلّى الله عليه وآله ما أتوا بشيء مبين وكلمة فصل في الجمع بين هذه الأدلّة، ولم يشعروا أنّ المانعة خاصّة والمثبتة عامّة ولاتنافي بين الخاصّ والعامّ فيجب تحكيم الخاصّ على العامّ.

فتلخّص ممّا ذكرنا أنّ مورد التفسير بالرأي المحرّم هو الاستقلال في تفسير القرآن في مرتبة علومه الخاصّة لاسيّما ما كانت المقيّدات والمخصّصات مودعة عند النبيّ صلّى الله عليه وآله. ولايكفي في المقام تفسير القرآن بالقرآن. ومعنى التعليم من الرّسول صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السّلام ليس هو التذكير والإرشاد والتنبيه. فإنّ هذا إنّما هو في باب دعوته العامّة ومخاطبته الكلّ. فباب التذكّر والإرشاد،

وإيقاظ الفطرة، وإيثار دفائن العقول، وتحريك العواطف الروحانيّة، والأخذ بمجامع القلوب بأنوار التوحيد، والتذكّر بمقام الربّ، والتوجّه إلى وجوب الاتّقاء، والخضوع لجنابه، والعكوف في حضرته، والإخبات والقنوت بين يديه، ومدارج الزهد ومراتب الإخلاص، والتوكّل والرجاء، والصبر والصّدق، والوفاء والإيمان واليقين، وبالجملة جميع أصول الأخلاق ولطائف المعارف ورسوم العبوديّة، كلّ ذلك في مرتبة مخاطبة الكلّ ممّا يمكن نيله للبشر، فبيان الرّسول صلّى الله عليه وآله والأئمّة الأبرار عليهم السّلام في هذا الباب للتذكّر والإرشاد. ومقام التعليم أعلى وأجل من أن تبلغه عقول الرّجال وفي غاية البعد عن سطح أفكارهم. ومن أظهر مصاديق هذا الباب تفاصيل الأحكام المودعة عند الرّسول صلّى الله عليه وآله والأئمّة من أهل بيته عليهم السّلام يخرجونه إلى الناس تدريجاً وكذلك غير الأحكام من المعارف العالية مثل حقيقة العرش والكرسي واللّوح، والكتاب المبين، والأرواح والبرزخ، ومصير العباد ومعادهم.

فتحصّل أنّ مقام التعليم والهداية والدّلالة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السّلام غير مقام التذكير والإرشاد. فإن الثاني في مقام مخاطبة الكلّ وفي العلوم الّتي تنالها العقول والأفهام على اختلاف مراتبهم. وأمّا المقام الأوّل فأكثر موارده لايزيد على التعبّد شيئاً فلايكون المتعلّم واجداً له لكون أكثر موارده تحت حجب الغيوب مثل الأحكام ومنازل الآخرة.

وممّا ذكرنا يظهر ضعف ما في الميزان ٨٧/٣، حيث قال: ومن هنا يظهر أنّ شأن النبيّ صلّى الله عليه وآله في هذا المقام هو التعليم فحسب. والتعليم إنّما هو هداية المعلّم الخبير ذهن المتعلّم وإرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به والحصول عليه، لا مايمتنع فهمه من غير تعليم... فالنبيّ صلّى الله عليه وآله إنّما يعلّم النّاس ويبيّن لهم مايدل عليه القرآن بنفسه ويبيّنه الله سبحانه بكلامه، ويمكن للناس الحصول عليه بالآخرة، لا أنّه صلّى الله عليه وآله يبيّن لهم معاني لاطريق إلى فهمه من كلام الله تعالى فإنّ ذلك لاينطبق البتّة على مثل قوله تعالى: «كتاب فصّلت آياته قرآناً عربيًّا لقوم يعلمون». [فصّلت (٤١) / ٣] وقوله تعالى: «وهذا لسان عربيّ مبين». [النحل (١٦) / ١٠٣]

فاتّضح بما ذكرنا أنّ كلام الله الّذي كلّم به خلقه من الشجرة الأحمديّة، وهو صلّى الله عليه وآله الخطيب به، ليس هو والناس في علومه في عرض سواء. ولا يعقل استقلال المخاطبين واستغناؤهم عنه صلّى الله عليه وآله في تحصيل علوم القرآن. ولا يعقل تنزيله منزلة الأفراد العاديين وعزله عن مقام المرجعيّة لعلوم القرآن. ولايجوز تحقير القرآن بأنّ علومه ومعارفه ممّا يناله الكلّ. ولا يعقل أن يقال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله جمع ماعنده من علوم القرآن للصحابة وهم فسّروا للنّاس. فلا مناص أن يقال: إنّ القرآن بالنسبة إلى تفاصيل علومه الخاصّة يحتاج إلى انضمام بيان الرسول صلّى الله عليه وآله في عصره وبعده بانضمام أوصيائه عليهم السّلام ولهما الخلافة الانضماميّة في هذه الجهة. وقد صحّ عنه صلّى الله عليه وآله: إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. كمال الدين ٢٣٧/١.

٧ ـ الناسخ والمنسوخ

قال في لسان العرب ٦١/٣: النسخ: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه... ابن الأعرابي: النسخ: تبديل الشيء من الشيء وهو غيره. ونسخ الآية بآية: إزالة مثل حكمها. والنسخ: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو.

أقول: كلّ واحد من المعاني المذكورة قد استعمل فيها لفظ النسخ ولا يهمّنا تحقيق أنّ ذلك بحسب الوضع أو بضرب من العناية. والظاهر أنّ الأصل المأخوذ في الموارد المذكورة هو حيث الإزالة والتغيير والتحويل والتبديل.

قال تعالى: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير» [البقرة(٢)/١٠٦]

قوله تعالى: «من آية» أي: من علامة. وهي مطلقة شاملة لكلّ ماتصدق عليه العلامة سواء كانت تشريعيّة أو تكوينيّة. فالتشريعيّة مثل الآية الدالّة على حكم من الأحكام فتكون حاكية عن جعله. والتكوينيّة مثل مايدلّ على وجود الصانع أو على شيء من نعوته وأسمائه جلّ ثناؤه من الأعيان.

وحيث إنّ الدّين الّذي اختاره الله وارتضاه سبحانه لأنبيائه وأصفيائه هو الإسلام: «إنّ الدّين عند الله الإسلام وما اختلف الّذين أوتوا الكتاب إلّا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب» [آل عمران (٣) / ١٩]، فنسخ حكم في الشريعة السابقة بشيء من أحكام الشريعة اللاحقة ليس إلّا كنسخ حكم في الشريعة الواحدة بشيء من تلك الشريعة بعينها.

ولايخفى أنّ ما ذكرنا من الإطلاق، إطلاق بدليّ أي: من الآيات مايجوز ويمكن أن يكون منسوخاً. وهذا الإطلاق في معرض التقييد لأنّ من آياته ما لايجري فيه النسخ، مثل الأحكام الثابتة كوجوب التقوى وتحريم الفجور.

قوله تعالى: «نأت بخير منها أو مثلها» أي: نأتي بشيء خير في الحكمة والمصلحة من المنسوخ.

ثمّ إنّه من الممكن بحسب الواقع والثبوت أن تكون للآية المنسوخة أمثال ونظائر في عرضها متساوياً بعضها في الحكمة والمصلحة مع بعض آخر، فله تعالى أن يأتي بواحدة من هذه الآيات المتساوية من حيث المصلحة سواء كانت تكوينيّة أو تشريعيّة ثمّ يأتي بواحدة أخرى بعد رفع الأولى. والكلام في تخصيص كلّ منها بزمان دون زمان مثل الكلام في اختيار الأمور المترجّحة المتساوية. ولا دليل على انحصار المثل، بأن يكون في طول المنسوخ ومنفرداً. فالمعتمد في ذلك هو ظهور الآية وإطلاقها.

واليهود قائلون باستحالة النسخ في الأحكام كما يعتقدون باستحالة التغيير والتبديل في التكوين وفي شيء من النظام الموجود. وقد ورد في القرآن الكريم التوبيخ لهم. قال تعالى:

«قالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» [المائدة (٥) / ٦٤]

في العيون ١٧٩/١، مسنداً عن أبي عمرو محمد بن عمرو بن عبدالعزيز الكجي قال: حدّثني من سمع الحسن بن محمد النوفلي يقول:

... قال الرضا عليه السّلام: ... ثمّ التفت إلى سليمان فقال: أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب.

قال: أعوذ بالله من ذلك، وما قالت اليهود؟

قال: «قالت اليهود يد الله مغلولة» يعنون أنّ الله قد فرغ من الأمر فليس يحدث شيئاً. فقال عزّ وجلّ: «غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا»....

قال سليمان: لأنّه قد فرغ من الأمر، فليس يزيد فيه شيئاً.

قال الرّضا عليه السّلام: هذا قول اليهود فكيف قال تعالى: «أدعوني أستجب لكم»؟

قال سليمان: إنّما عنى بذلك أنّه قادر عليه.

قال: أفيعد مالا يفي فكيف قال: «يزيد في الخلق مايشاء»؟ وقال عزّ وجلّ: «يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب» وقد فرغ من الأمر؟! فلم يحر جواباً.

بيان: إنّ الله تعالى كلّ يوم في شأن جديد من إحداث بديع لم يكن وإذهاب أمر قد كان. وهكذا سنّته تعالى في جميع مايحيط به علمه من الحوادث الحكيمة القيّمة أن يأتي بشيء منها ويذهب بآخرين، وهو تعالى يعطي ويمنع، ويحيي ويميت، ويؤاخذ ويعفو، فقدرته تعالى غير المتناهية ومالكيّته لجميع من سواه وماسواه فعليّة، يأتي سبحانه بمقام شيء بعد تحقّقه شيئاً آخر لعلّة وحكمة أرادها في الأوّل والثاني ولايمكن أن يمنعه تعالى مانع من هذا الفعل الحكيم. فلو شاء الله ليمحو ما كان مكتوباً أوّلاً ويثبت مالم يكن مكتوباً بوجه أصلاً، فهذا المكتوب الثّاني وهذا الخلق الجديد إنّما هو عن العلم المكنون.

فإن قلت: إنّ هذا التبديل والتحويل والإتيان بالخير والمثل بدل المنسوخ، مستند إلى المشيئة الأزليّة فيكون الإتيان بالمثل إظهاراً وإبرازاً لزوال المنسوخ وانمحاء؛ بانتهاء أمده، ويكون الإتيان بالناسخ إيجاداً لما كان ثابتاً في الأزل بالمشيئة الأزليّة.

قلت: فعلى هذا لايكون النسخ بمعنى التغيير والإزالة والإبطال بل يكون إظهاراً لزوال عين أو حكم، وكذلك لايكون هناك إتيان شيء لم يكن بل هو إيجاد ما كان ثابتاً في الأزل؛ وهذا عين الالتزام بمقالة اليهود ومبنيّ على كون مشيئته تعالى بعينها علمه سبحانه وأنّه تعالى شاء كلّ شيء بالمشيئة الأزليّة. ولكنّ البراهين الإلهيّة

من الآيات والرّوايات قائمة على استحالة أزليّة المشيئة وأنّ مشيئته تعالى فعله سبحانه وهو عين تعيّن النظام الحكيم بالعلم الحادث ونسبته إلى علمه تعالى نسبة المتناهي إلى غير المتناهي.

وهذا المعنى الّذي ذكرناه للنسخ هو المعنى اللّغويّ والظّاهر من الآية الكريمة؛ وهو شامل للتكوينيّات والتشريعيّات. وله معنى اصطلاحيّ وهو رفع ماهو ثابت في الشريعة من الأحكام فلايشمل المجعولات التكوينيّة ويقابله البداء في التكوينيّات.

وممّا ذكرنا يعلم أنّه لا إشكال في مقام الثبوت في نسخ حكم في شريعة وإتيان حكم آخر خير منه أو مثله مكانه. والقول بأنّ النسخ إنّما يكون بعد حضوره مدّة الامتثال وأمّا قبله فلايجوز، ليس بصحيح إذ يمكن أن تكون المصلحة والحكمة في نفس الحكم. وبديهيّ أنّه ليس للفقيه البحث عن مناطات الأحكام وعللها وإنّما الوظيفة له الجري على طبق الظواهر.

هذا في مقام الثبوت أمّا في مقام الإثبات فقد تقدّم في الرّوايات مايدلّ على وجود الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى. وسيجيء البحث في أنّ قوله تعالى: «فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي الله بأمره إنّ الله على كلّ شيء قدير» [البقرة(٢) / ١٠٩] منسوخ بآية السيف وهو قوله تعالى: «قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» [التوبة (٩) / ٢٩]. وأمّا الفرق بين النسخ والتخصيص والتقييد فليطلب من كتب الأصول.

٨ ـ تحدّي القرآن وإعجازه

قال تعالى:

«وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين». [البقرة (٢) / ٢٣ و ٢٤]

و«قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً». [الإسراء (١٧) / ٨٨]

لا يخفى أنّ هٰهنا مقامين: مقام العجز عن الإتيان بمثل القرآن ومقام العرفان والعلم بأنّ القرآن حقّ لا ريب فيه وأنّه بيّنات وبصائر، وشفاء ورحمة، وبرهان من الله ونور مبين. فلا يجوز الخلط بين المقامين، إذ مقام العرفان به يختصّ بمن تشرّف بتربيته وهدايته، واستنار بأنواره. قال تعالى:

«ويرى الّذين أوتوا العلم الّذي أنزل إليك من ربّك هو الحقّ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد». [سبأ (٣٤) / ٦]

فلا بدّ من المعرفة بالقرآن لمن أراد معرفته، أن لا يكابر عقله وأن لا يعاند فطرته وأن يهتدي بهدى الفطرة الضروريّة وأن يجتنب عن المنكرات الضروريّة الفطريّة، فمن خالف عقله ولم يهتد بما أودعه الله في وجوده من الهدى فهو من الصمّ البكم الّذين لا يعقلون، فليس من عجز عن الإتيان بمثل القرآن عارفاً وعالماً بأنواره وتجلّياته. ومن يدّعي التحدّي والتعجيز على نحو خارق للعادة وناقض للطبيعة فلابدّ من تعميم دعواه وتحدّيه، إذ هو ليس في مقام تحدّي الأشخاص، بل هو في مقام تحدّي المجتمع البشري والمبارزة والمغالبة بينه وبين المجتمع لا الأفراد والأشخاص. فلو غلب القرآن فرداً من الأفراد أو عدّة منه ولم يغلب الكل فليس بغالب. بداهة ان عجز المجتمع بمجموعه، دليل قطعي على عجز كلّ فرد وفرد، فلاك الأمر هو عجزهم وخذلانهم سواء علموا أنّه من عند الله وأنّه نور وهدى للعالمين أم لا.

فالدهريّة والمعطّلة الّذين ينكرون الصانع والتوحيد والعقل والعلم أشدّ عجزاً عن الإتيان بمثل هذه المعارف الإلهيّة والحقائق النوريّة من المبدأ والتوحيد وأسماء الله تعالى وصفاته وكمالاته ونعوته، والعوالم الأخرويّة السرمديّة من الجنّة والنار وسكّانها وما يرجع إليه عاقبة أمر المؤمنين والملحدين.

ودونهم في العجز والخذلان أهل الكتاب وغيرهم من الأمم الّذين ألحدوا في طريق عرفانه تعالى بعد نداء القرآن بهذه المعارف العالية وبعد استشراق أهل العالم بهذا النور المبين.

وأمّا الأمّة الإسلاميّة فمن كان له إطّلاع على تاريخ أعاظم الرّجال من هذه الأمّة فيعلم أنّهم قد بلغوا في المجد والكمال مرتبة كريمة في ظلّ تربية القرآن. وسلكوا

في صراط التوحيد طرائق جدداً فهم شهداء الحقّ على أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله قد أتى بهذا النور القاهر، والبرهان الساطع الّذي تحيّرت فيه العقول والألباب.

ومن هذه الأمّة أيضاً من قد اشتبه عليه الأمر وتوهّم أنّ القرآن المبين ومعارفه من سنخ تصوّرات اليونانيّين ولم يتبيّن بعد أفق أنوار القرآن ومعارفه، ومباينته لما قاله المتصوّفون والمتفلسفون.

فتبيّن ممّا ذكرنا أنّ الحقّ هو تعميم مورد التحدّي والتعجيز لكلّ من كان مكلّفاً من العرب والعجم، والخواصّ والعوامّ، والجنّ والإنس، والحاضر عصر النزول والغائب، لا فصحاء العرب خاصّة، ولا العرب خاصّة، ولا الخواصّ فقط، ولا الإنس خاصّة.

وجه التحدّي والإعجاز

ممّا ذكرنا في مورد التحدّي والتعجيز يكشف وجه التحدي أيضاً فإنّه إذا كان مورد التحدّي عامّاً من الإنس والجنّ أجمعين لا فصحاء العرب وبلغاءهم فقط يكشف أنّ وجه التحدّي والتعجيز أيضاً ليس هو الفصاحة والبلاغة خاصّة، سواء كان التعجيز بمجموع القرآن أو بأبعاضه. فالقول بأن وجه التحدّي هو الفصاحة، ساقط رأساً لا شاهد عليه. وسرّ هذا القول ليس إلّا أنّ القائل به لمّا رأى أنّ فصاحة القرآن وبلاغته في مرتبة فوق طاقة الفصحاء والبلغاء، وعلى حدّ خارق للعادة، حمل أدلّة التحدّي والتعجيز على ذلك. ولكن بالتوجه إلى مقام الرّسالة والقرآن يعلم أنّ التحدّي والتعجيز بلحاظ الفصاحة لأمثال امرئ القيس، تحقير لمقام الرّسالة والقرآن الكريم، فإنّ امرأ القيس ونظراءه أنزل قدراً من أن يريد الله تعالى تعجيزهم وتحدّيهم بالقرآن. وما هو شأن خاتم الأنبياء المصلح الوحيد في المجتمع البشريّ. هذا أوّلاً؛

وثانياً: إنّ الإعجاز لايتمّ إلّا بتعجيز الكلّ في جميع الشؤون فلولم يعجز الكلّ فلايكون إعجازاً على الإطلاق بل يكون إعجازاً لقوم في شأن خاصّ فكيف يكون تعجيزهم دليلاً على سائر الملل والأمم. فهؤلاء الأعراب أهون شأناً من أن يكونوا مرجعاً لأهل العالم في العصر الحاضر والغابر فيا يدّعي الرسول من إعجاز القرآن.

وثالثاً: لوكانت الفصاحة والبلاغة وجهاً لتحدي القرآن، فلازمه أن يكون كلام

الله من سنخ كلامهم، وفصاحته أيضاً من سنخ فصاحتهم، وأدلّة الباب من الآيات والروايات تتأبّى عن ذلك، إذ مفادها أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع الوجوه، وأنّ كلامه تعالى لايشابه كلام البشر لا أن يكون كلامه تعالى أعلى من كلام مخلوقاته على وجه التشكيك، بأن يبلغ كلامه تعالى حدّ الإعجاز، بل كلامه تعالى لايقاس بكلام غيره كما أنّ ذاته لاتقاس بشيء من مخلوقاته.

نعم، لا إشكال في القول بفصاحة القرآن بالمعنى اللّغوي وبلاغته. فإنّ الفصاحة في اللّغة، الإبانة والخلوص والظهور والتكلّم بالعربيّة.

قال في لسان العرب ٥٤٤/٢: فصُح الأعجميّ ـ بالضمّ ـ فصاحة: تكلّم بالعربيّة وفهم عنه.... والفصيح في اللّغة: المنطلق اللّسان في القول، الّذي يعرف جيّد الكلام من رديئه.... وأفصحت الشاة والناقة: خلص لبنها.... وأفصح الصبح: بدا ضوؤه واستبان. وكلّ ما وضح، فقد أفصح. وكلّ واضح: مُفصِح.

وفيه أيضاً ٤٢٠/٨: والبلاغة: الفصاحة. والبَلْغ والبِلْغ: البليغ من الرجال. ورجل بليغ وبَلْغ وبِلْغ: حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه.

فلا كلام في فصاحة القرآن وبلاغته حدّ الإعجاز التامّ بالمعنى اللّغويّ.

وأمّا وجه تحدّي القرآن وإعجازه فالواجب استنباطه من لسان الكتاب والسنّة وتاريخ نزول القرآن وما عارض به النبي صلّى الله عليه وآله المكابرين والمعاندين.

في السّيرة النبويّة لابن هشام ٢٨٨/١ قال: ثمّ إنّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم. فقال لهم: يامعشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذّب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت ـ يا أبا عبد شمس ـ فقُلْ وأقِم لنا رأياً نقل به. قال: بل أنتم فقولوا، أسمع.

قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله، ماهو بكاهن. لقد رأينا الكهّان؛ فماهو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون. قال: ماهو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه؛ فماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر. قال: ماهو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كلّه؛ رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه؛ فماهو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ماهو بساحر. لقد رأينا السُّحّار وسحرهم؛ فماهو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوة. وإنّ أصله لعَذْق. وإنّ فرعه لجناة... وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول سحر يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل النّاس، حين قدموا الموسم، لايمرّ بهم أحد إلّا حذّروه إيّاه وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: «ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهّدت له تمهيداً * ثمّ يطمع أن أزيد * كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً». [المدّثّر (٧٤) / ١١ ـ ١٦]

وفي تفسير القمي ٣٩٣/٢، قوله: «ذرني ومن خلقت وحيداً» فإنّها نزلت في الوليد بن المغيرة. وكان شيخاً كبيراً مجرّباً من دُهاة العرب. وكان من المستهزئين برسول الله صلّى الله عليه وآله. وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقعد في الحجرة ويقرأ القرآن. فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الّذي يقول محمّد؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه. فدنا من رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: يامحمد أنشدني من شعرك.

قال: ماهو شعر ولكنّه كلام الله الّذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه. فقال: أتل عليّ منه شيئاً.

فقرأ رسول الله صلّى الله عليه وآله حم السجدة، فلمّا بلغ قوله: «فإن أعرضوا» ـ يامحمد أعني قريشاً ـ «فقل» لهم «أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» [فصّلت (٤١) / ١٣] قال: فاقشعرّ الوليد وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته. ومرّ إلى

بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك.

فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إنّ أبا عبد شمس صبا إلى دين محمّد. أما تراه لم يرجع إلينا؟

فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال له: ياعمّ نكست رؤوسنا وفضحتنا، وأشمتّ بنا عدوّنا، وصبوت إلى دين محمد.

فقال: ماصبوت إلى دينه، ولكنّي سمعت منه كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود!

فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا، إنّ الخطب كلام متّصل. وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً.

قال: أفشعر هو؟ قال: لا، أما إنّي قد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها، ورملها ورجزها وماهو بشعر.

قال: فماهو؟ قال: دعني أفكّر فيه. فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ماتقول فيما قلناه؟ قال: قولوا: هو سحرٌ فإنّه أخذ بقلوب الناس، فأنزل الله على رسوله في ذلك: «ذرني ومن خلقت وحيداً».

وبعض المعاندين رمى القرآن بأنّه أساطير الأوّلين تقوّله واختلقه. قال تعالى:

«وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم قالوا أساطير الأوّلين». [النحل (١٦) / ٢٤]

و «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلّا أساطير الأوّلين». [الأنفال (٨) / ٣١]

و «وقال الّذين كفروا إن هذا إلّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً». [الفرقان (٢٥) / ٤ و ٥]

و «إنّه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكّرون * تنزيل من ربّ العالمين * ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثمّ لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين». [الحاقة (٦٩) / ٤٠ ـ ٤٧]

فرمي القرآن بأنّه إفك أو أساطير الأوّلين أو أنّه قول شاعر مجنون أو قول كاهن، وأمثال ذلك؛ وكذلك رمي رسول الله صلّى الله عليه وآله بأنّه مسحور أو مجنون، كلّها راجع إلى مفاد القرآن ودعوته ومقاصده. ومن ذلك إنكارهم على القرآن بالنسبة إلى عود الأجساد والحشر الجسماني.. قال تعالى:

«وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلق عليم». [يس (٣٦) / ٧٨ و ٧٩]

وكذلك إنكارهم التوحيد وجعل الشريك مع الله تعالى. قال تعالى:

«وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب». [ص (٣٨) / ٤ و ٥]

وغير ذلك من المكابرات والمعاندات مثل ما حكى الله تعالى عنهم.

«وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون». [فصّلت (٤١) / ٢٦]

وفي البحار ٨/١٩، عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم قال: قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً وكانوا لايضعون السلاح لا بالّليل ولا بالنّهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت للأوس على الخزرج.

فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة. فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناك نطلب الحلف عليهم.

فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء. قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟

قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله؛ سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبّابنا، وفرّق جماعتنا.. قال له أسعد: من هو منكم؟

قال: ابن عبدالله بن عبدالمطّلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً. وكان أسعد

وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الّذين كانوا بينهم: النضير وقريظة وقينقاع، أنّ هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنّكم به يامعشر العرب. فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ماكان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟

قال: جالس في الحجر، وإنّهم لايخرجون من شعبهم إلّا في الموسم، فلاتسمع منه ولا تكلّمه فإنّه ساحر يسحرك بكلامه ـ وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب.

فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لي أن أطوف بالبيت؟ قال: ضع في أذنيك القطن.

فدخل أسعد المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن. فطاف بالبيت ورسول الله [صلّى الله عليه وآله] جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه. فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد (خ أحد) أجهل منّي. أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أتعرّفه حتّى أرجع إلى قومي فأخبرهم؟

ثمّ أخذ القطن من أذنيه ورمى به وقال لرسول الله [صلّى الله عليه وآله]: أنعم صباحاً. فرفع رسول الله صلّى الله عليه وآله رأسه إليه وقال: قد أبدلنا الله به ماهو أحسن من هذا. تحيّة أهل الجنّة: السّلام عليكم.

فقال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب. إلى ماتدعو يامحمد؟

قال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، وأدعوكم إلى «أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالّتي هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لاتكلّف نفساً إلّا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون». [الأنعام (٥) / ١٥١ و ١٥٢]

فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّا الله. وأنّك رسول الله.... فلمّا قرب أسيد منهم قال: يا أبا أمامة يقول لك خالك: لاتأتنا في نادينا، ولا تفسد شبابنا واحذر

الأوس على نفسك. فقال مصعب: أو تجلس فنعرض عليك أمراً، فإن أحببته دخلت فيه وإن كرهته نحّينا عنك ماتكره. فجلس فقرأ عليه سورة من القرآن فقال: كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الأمر؟ قال: نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين، ونشهد الشهادتين، وتصلّي ركعتين، فرمى بنفسه مع ثيابه في البئر، ثمّ خرج وعصر ثوبه ثمّ قال: أعرض عليّ، فعرض عليه شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّد رسول الله. فقالها ثمّ صلّى ركعتين....

فتبيّن ممّا ذكرنا أنّ المكابرين والمعارضين مع القرآن إنّما رموه واعترضوا عليه لأجل مقاصده ومواعظه وهداياته.

فإن قيل: إنّ تحدّي القرآن بالفصاحة والبلاغة المصطلحة المستحدثة أيّ محذور فيه؟

قلت: الكلام في التحدّي بالمعنى المصطلح يقع تارةً بالنظر إلى مقام الإثبات وتارةً بالنظر إلى مقام الثبوت. وأمّا الجهة الأولى فقد قدّمنا شطراً من الكلام فيه وأنّه لاشاهد ولا دليل عليه بحسب الكتاب والسنّة. وأمّا بحسب الواقع والثبوت فبديهيّ أنّ المهمّ عقد البحث في أنّه هل يمكن أن تكون الفصاحة والبلاغة بالمعنى المصطلح وجهاً للتحدّي أم لا، فنقول: الفصاحة والبلاغة والتحدّي بها لخصوص فصحاء العرب أو لجميع الناس ممّا لامحصّل تحته. فإنّ الشؤون الراجعة إلى مقام النبوّة ومنزلة السفارة والخلافة، هي إصلاح المجتمع البشري وتطهيرهم من القذارات، وتعديلهم عن الانحرافات، وسوقهم وهدايتهم إلى الكمالات الراقية. فلامحالة يكون إعجازه من جنس مابعث لأجله.

فإن قيل: فأيّ مانع أن لايكون التعجيز الّذي مرجعه إلى التعجيز بالعلم والقدرة الخارقين للعادة والطبيعة، من جنس الشؤون الراجعة إلى مقام الرسالة، فإنّ إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقلب العصا ثعباناً، وشق البحر وأمثالها، ليس من سنخ مابعث الرسول لأجله. وإنّما هي آيات وبراهين لإثبات النبوّات.

قلت: نعم، إلّا أنّ الفصاحة والبلاغة المصطلحة لاتقاس بآيات الأنبياء وبراهينهم، لأنّ الإعجاز لابدّ أن يكون خارقاً للعادة والطبيعة ومبايناً ذاتاً وسنخاً لسنخ أفعال البشر، والفصاحة والبلاغة لها حدود مقدورة للبشر والحدّ الأعلى منها

خارج عن قدرة البشر ومع ذلك من سنخ مايكون تحت قدرة البشر. وقد صرّح بذلك من قال بأنّ وجه التحدّي هو الفصاحة والبلاغة. فالمقايسة بين الفصاحة وإحياء الموتى وغيره من آيات الأنبياء ممّا لاوجه له. فإنّ إحياء الموتى وسائر براهين الأنبياء ليس أمراً قابلاً للتشكيك، قسم منه فوق طاقة البشر وقسم منه مقدور له، بل هي حقيقة واحدة مختصّة به تعالى ومن أفعاله جلّ شأنه، وأفعاله تعالى لاكيف لها ولا تعقل ولا تتصوّر ولا تتوهّم. وهكذا الفصاحة الّتي في القرآن وإن لم تقع مورد التحدّي ولكنّها بالغة فوق العادة وخارقة للطبيعة إلّا أنّها ليست الطرف الأعلى للفصاحة المصطلحة، فإنّها أيضاً فعل من أفعال الله كسائر أفعاله تعالى.

إن قلت: رواية ابن السكّيت عن أبي الحسن الرضا صلوات الله عليه دالّةٌ على أنّ الإعجاز في القرآن إنّما هو بالفصاحة.

قلت: كلّا، فإنّ الرّواية الشريفة تبحث عن سنّة الله تعالى وصنعه الحكيم في آيات الأنبياء، وتذكّر أنّ الله تعالى اختار لكلٍّ من أنبيائه براهين وآيات بالنسبة إلى زمانهم. وليست فيها دلالة على أنّ برهان موسى من سنخ السحر، وبرهان عيسى من سنخ الطبابة، وبرهان نبيّنا صلّى الله عليه وآله من سنخ الكلام البشريّ، وأنّ ماجاء به موسى هو الطرف الأعلى من السحر، وكذلك ماجاء به عيسى هو الطرف الأعلى من الطبابة، وما جاء به رسول الله صلّى الله عليه وآله هو الطرف الأعلى من الفصاحة المصطلحة.

ففي الكافي ٢٤/١، عن الحسين بن محمد، عن أحمد بن محمد السيّاري، عن أبي يعقوب البغدادي قال:

> قال ابن السكّيت لأبي الحسن عليه السّلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السّلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطبّ؟ وبعث محمّداً صلّى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء بالكلام والخطب؟
>
> فقال أبو الحسن عليه السّلام: إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السّلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله

بعث عيسى عليه السّلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطبّ فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث محمداً صلّى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام ـ وأظنّه قال: الشعر ـ فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجّة عليهم....

في الحديث الشريف نصّ أنّه صلّى الله عليه وآله جاء من عند الله بالمواعظ والحكم، وبما أبطل به قولهم. وليس فيه أنّ إعجاز الكلام بالفصاحة والبلاغة المصطلحة، بل عدوله عليه السّلام من لفظ الكلام لقوله: «مواعظه وحكمه» دلالة على أنّ كلامه صلّى الله عليه وآله مواعظ وحكم.

فقد تبيّن واتّضح من جميع ماذكرنا أنّه لا دليل على أنّ وجه التحدّي هو الفصاحة والبلاغة المصطلحة. وعلم أنّ جنس الإعجاز بعد الفراغ عن كونه خارقاً للعادة والطبيعة لابدّ أن يكون مبايناً لأفعال البشر. فإنّ الإعجاز فعل الله تعالى استثناءً عن سنّة الطبيعة استناداً إلى مشيئته جلّ ثناؤه. والآيات والأخبار تصرّح بأنّ القرآن كلام الله سبحانه. قال تعالى:

«أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون» [البقرة (٢) / ٧٥]

و«وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله ثمّ أبلغه مأمنه ذلك بأنّهم قومٌ لايعلمون» [التوبة (٩) / ٦]

في التوحيد /٢٢٣، عن أحمد بن زياد مسنداً عن الحسين بن خالد قال:

قلت للرّضا عليّ بن موسى عليهما السّلام: يابن رسول الله أخبرني عن القرآن أخالق أو مخلوق؟ فقال: ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنّه كلام الله عزّ وجلّ.

وفيه أيضاً، عن جعفر بن محمد بن مسرور مسنداً عن الريّان بن الصّلت قال:

قلت للرّضا عليه السّلام: ماتقول في القرآن؟ فقال: كلام الله

لاتتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا.

وفيه ٢٢٤/، عن أبيه، عن سعد بن عبدالله عن محمد بن عيسى بن عبيد اليقطينيّ قال:

كتب عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى الرّضا عليهم السّلام إلى بعض شيعته ببغداد: بسم الله الرحمن الرحيم. عصمنا الله وإيّاك من الفتنة فإن يفعل فقد أعظم بها نعمةً وإن لايفعل فهي الهلكة. نحن نرى أنّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ماليس له، ويتكلّف المجيب ماليس عليه. وليس الخالق إلّا الله عزّ وجلّ وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله. لاتجعل له اسماً من عندك فتكون من الضّالين. جعلنا الله وإيّاك من الذين يخشون ربّهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون.

وفيه أيضاً، عن الحسين بن إبراهيم مسنداً عن سليمان بن جعفر الجعفريّ قال:

قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام: ياابن رسول الله ماتقول في القرآن فقد اختلف فيه من قبلنا؟ فقال قوم: إنّه مخلوق. وقال قوم: إنّه غير مخلوق. فقال عليه السّلام: أما إنّي لا أقول في ذلك مايقولون: ولكنّي أقول: إنّه كلام الله.

أقول: الّذي يظهر من التوارخ وكلمات الأعلام أنّه شاعت بين العامّة مسألة قدم القرآن وحدوثه وكونه خالقاً أو مخلوقاً. واشتدّ الخصام والتنازع وكفّر بعضهم بعضاً ورفع الأمر إلى خلفاء الوقت وانجرّ الأمر إلى الضرب والقتل والتوهين. وأئمّة أهل البيت عليهم السّلام وقعوا في مخمصة هذه الخرافة وفي خلال كلماتهم صرّحوا بمحض الحقّ مراعاة للتقيّة.

في الاحتجاج ١٨٤/٢، عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرّة المحدّث صاحب شبرمة أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السّلام فاستأذنته فأذن له، فدخل فسأله عن أشياء من الحلال والحرام والفرائض والأحكام حتّى بلغ سؤاله إلى التوحيد فقال له:

... فما تقول في الكتب؟

فقال أبو الحسن عليه السّلام: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وكلّ كتاب أنزل كان كلام الله تعالى، أنزله للعالمين نوراً وهدًى. وهي كلّها محدثة وهي غير الله، حيث يقول: «أو يحدث لهم ذكرا». [طه (٢٠) / ١١٣]

وقال: «ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلّا استمعوه وهم يلعبون». [الأنبياء (٢١) / ٢] والله أحدث الكتب كلّها الّتي أنزلها.

فقال أبو قرّة: فهل تفنىٰ؟

فقال أبو الحسن عليه السّلام: أجمع المسلمون على أنّ ماسوى الله فانٍ وما سوى الله فعل الله، والتوراة والإنجيل والزّبور والفرقان فعل الله. ألم تسمع الناس يقولون: ربّ القرآن. وإنّ القرآن يقول يوم القيامة: ياربّ، هذا فلان ــ وهو أعرف به منه ــ قد أظمأت نهاره، وأسهرت ليله، فشفّعني فيه. وكذلك التوراة والإنجيل والزبور وهي كلّها محدثة مربوبة. أحدثها من ليس كمثله شيء، هدى لقوم يعقلون. فن زعم أنهنّ لم يزلن معه فقد أظهر أنّ الله ليس بأوّل قديم ولا واحد، وأنّ الكلام لم يزل معه وليس معه بدءٌ وليس بإله.

فهذه التصريحات منه عليه السّلام إبطال منه عليه السّلام لما تقوّلوا من قدم القرآن أو أنّه خالق أو غير مخلوق.

فظهر ممّا ذكرنا من الآيات والروايات أنّ القرآن كلام الله نزل به الرّوح الأمين على سيّد المرسلين. فالقرآن جسده هو هذه الحروف والكلمات والجمل وروحه الحقائق والعلوم المدلولة للقرآن، وليس النازل على الرسول صلّى الله عليه وآله هي المعاني فقط. وليست الألفاظ والكلمات من الرسول صلّى الله عليه وآله. وليس هذا الكلام ممّا صحت قريحة الإنسانيّة كي يلزم ما استشكلوا من أنّ قريحة الإنسان، أمر عاديّ فكيف يعتمد ويستند إليه كلام خارق للعادة، ومن أنّ دلالة الألفاظ على المعاني بالوضع وهو أمر اعتباريّ فكيف يعقل أن يكون الإعجاز معلولاً للأمر الوضعيّ الاعتباري. فالإشكال والجواب الّذي تكلّفوه لاموضوع له أساساً، إذ القرآن كلام إلهيّ وفعل الله سبحانه، وفعل الله سبحانه نفس الإعجاز، فإنّ الإعجاز يتحقّق

من دون وساطة العلل والأسباب العادية بلاكيف ولا تعقّل ولاتصوّر ولا توهّم.

وأمّا دلالة تلك الكلمات والجملات على العلوم والحقائق فقد تقدّم أنّ آخر مرتبة لتلك الدلالة هي مرتبة دعوة العامّة. بعبارة أخرى، الظواهر والنصوص الّتي احتجّ الله بها على خلقه ودعاهم إلى دينه وتوحيده وطاعته، وحذّرهم من أخذه ونقمته وبأسه، وبشّرهم بمثوبته ورضوانه. ولها مراتب خاصّة أيضاً يختصّ بها الحجج والرسل عليهم السّلام لا بغيرهم. ولابدّ لغيرهم من التعلّم منهم عليهم السّلام. والحمد لله ربّ العالمين. وصلّى الله على نبيّنا محمّد وآله الطاهرين.

١ •

سورة الفاتحة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

فضائل سورة الفاتحة

قال تعالى:

«ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم». [الحجر (١٥)/٨٧]

أقول: الآية مسوقة في مقام الامتنان من الله سبحانه علىٰ رسوله وصفيّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ بإنزالها عليه دون سواه من النبيّين والمرسلين.

وقوله تعالى: «سبعاً من المثاني» فيه دلالة واضحة علىٰ أنّ البسملة آية من السورة المباركة. كما هو صريح عدّة من الروايات الّتي ستوردها ـ إن شاء الله تعالى.

وقوله: «من المثاني» بيان من السبع. وفيه دلالة علىٰ أنّ المراد من المثاني هي هذه السورة المباركة، فعليه تسقط جميع الأقوال الّتي أوردها الرّازي في تفسيره ٢٠٦/١٩.

في تفسير العيّاشي ١٩/١، عن يونس بن عبدالرحمن، عمّن رفعه قال:

سألت أبا عبدالله ـ عليه السّلام ـ: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»؟

قال: هي سورة الحمد؛ وهي سبع آيات. منها «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم». وإنّما سمّيت المثاني لأنّها تثنّى في الرّكعتين.

وفيه أيضاً ٢٤٩/٢، عن محمد بن مسلم، عن أحدهما قال:

سألته عن قوله: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني».

قال: فاتحة الكتاب. يثنّىٰ فيها القول.

أقول: وفي الحديثين، سيّما الأوّل، تصريح بأنّ وجه تسمية السورة المباركة بالمثاني، باعتبار أنّه يجب علىٰ كلّ مسلم أن يقرأها في كلّ واحدة من فرائضه مرّتين. فإنّه لاصلاة إلّا بفاتحة الكتاب. وقد انفردت هذه السورة المباركة من بين جميع القرآن بهذه الفضيلة. وقد قال تعالى في مقام الامتنان علىٰ رسوله صلّى الله عليه وآله: «ولقد

آتيناك سبعاً من المثاني» حيث أفردها بالذّكر وجعلها وحدها بإزاء القرآن العظيم. وفي هذا الإفراد عناية بالغة خاصّة بشأنها.

في العيون ٣٠١/١، عن محمد بن القاسم المفسّر، مسنداً عن الحسن بن عليّ عليهما السّلام، عن آبائه، عن عليّ عليهم السّلام قال:

إنّ «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» آية من فاتحة الكتاب؛ وهي سبع آيات تمامها «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم».

سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: إنّ الله عزّ وجلّ قال لي: يا محمّد «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم». فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن العظيم.

وإنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش. وإنّ الله عزّ وجلّ خصّ محمداً صلّى الله عليه وآله وشرّفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه، ما خلا سليمان عليه السّلام، فإنّه أعطاه منها «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» يحكي عن بلقيس حين قالت: «أُلقي إليّ كتاب كريم إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» [النمل (٢٧) / ٢٩ ـ ٣٠]...

وفيه أيضاً بهذا الإسناد، قال:

وقيل لأمير المؤمنين عليه السّلام: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» أهي من فاتحة الكتاب؟ فقال: نعم، كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقرؤها ويعدّها آية منها ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني.

وفي الخصال ٢٦٣/١، عن أبيه مسنداً عن عليّ بن عقبة، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

رنّ إبليس أربع رنّات: أوّلهنّ يوم لُعن، وحين أُهبط إلى الأرض، وحين بعث محمّد صلّى الله عليه وآله على حين فترة من الرسل، وحين أُنزلت أمّ الكتاب....

وفيه أيضاً ٣٥٥/٢، عن محمد بن عليّ ماجيلويه مسنداً عن الحسن بن عبدالله، عن آبائه، عن جدّه الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام في حديث

طويل قال:

جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن أشياء فكان فيما سأله: أخبرنا عن سبع خصال أعطاك الله من بين النبيّين وأعطى أمّتك من بين الأمم.

فقال النبي: أعطاني الله عزّ وجلّ فاتحة الكتاب....

قال اليهودي: صدقت يامحمد فما جزاء من قرأ فاتحة الكتاب؟

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: من قرأ فاتحة الكتاب، أعطاه الله عزّ وجلّ بعدد كلّ آية نزلت من السّماء ثواب تلاوتها....

وفي الكافي ٦٢٣/٢، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

لو قُرِئت الحمد على ميّت سبعين مرّة، ثمّ ردّت فيه الرّوح، ماكان ذلك عجباً.

وفيه أيضاً ٦٢٦، عن محمد بن يحيى مسنداً عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول:

من لم تبرئه الحمد، لم يبرئه شيء.

الإستعاذة

قال تعالى:

«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم». [النحل(١٦) / ٩٨]

قال المولى العلّامة الطبرسي (قده) في مجمع البيان ١٨/١: اتّفقوا على التلفّظ بالتعوّذ قبل التسمية. فيقول ابن كثير وعاصم وأبو عمرو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثمّ ذكر اختلاف الأقوال في كيفيّة الاستعاذة وقال: أمر الله بالاستعاذة من

الشيطان؛ إذ لايكاد يخلو من وسوسته الإنسان. فقال: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم».

أقول: تحرير البحث في المقام ضمن أمور:

١ ـ قد أمر الله تعالىٰ رسوله وصفيّه بالاستعاذة والالتجاء إليه سبحانه عند قراءة القرآن وفي غيرها من الموارد أيضاً. قال تعالىٰ: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم». و «وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون». [المؤمنون (٢٣) / ٩٧ و٩٨] والحال أنّه صلّى الله عليه وآله معصوم بعصمة الله المانعة ومصون بحرز أمانه وولايته تعالىٰ من حضور الشياطين وهجومهم عليه. فليس هذا الالتجاء والاستعاذة إلّا لإدامة العصمة وبقاء الأمان؛ مثل قوله تعالىٰ: «إهدنا الصّراط المستقيم». فإنّ الناس كلّهم واقفون موقف الافتقار والاحتياج إلى جوده وإحسانه. فلابدّ أن يلتمسوا منه تعالىٰ إدامة ماوهب وإبقاء ما أفاض ويطلبوا المزيد منه تعالىٰ من سعة فضله من الخيرات مالا يعلمه إلّا هو تعالىٰ؛ ولا مناص من التحصّن بكنفه وأمانه.

٢ ـ قال في كنز العرفان ١٤٨/١: إنّ الخطاب حقيقة للنّبي صلّى الله عليه وآله ودخل فيه غيره لدليل التأسّي به.

أقول: ما ذكره (قده) لايخلو من الضعف. فإنّ آداب العبوديّة وعرض الافتقار إلىٰ جنابه جلّ مجده، والتشبّث بأذيال عطفه وأمانه، ليس من الأحكام التعبّديّة؛ بل هو وظيفة علميّة عقليّة لكلّ موحّد يدرك موقفه من الله سبحانه في عباداته، وخاصّة في موقف تلاوة كتابه الكريم، حيث يريد استماع مواعظه وزواجره ونصائحه، ويتوقّع الاستبصار بأنوار كلامه والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه. فإنّ كلامه تعالىٰ هو عهده إلى خلقه، ومنشورة ولايته. فالموقف من أجلّ مواقف الحضور والقرب منه تعالىٰ. فلابدّ من التحفّظ الشديد والتوسّل التامّ إلى الله سبحانه، والتهيّؤ باستماع كلامه تعالى، وتجنّب التساهل.

هذا أوّلاً: وثانياً: إنّ الخطاب للرّسول صلّى الله عليه وآله مباشرة ولأمّته الموحّدة بوساطته. فإنّه صلّى الله عليه وآله قطب خطابات القرآن ومدارها. والمؤمنون مخاطبون عن لسانه، ويستمعون القرآن عن الله سبحانه بوساطته. فلا فرق في ذلك

بين قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا» وبين قوله تعالى: «قل أعوذ بربّ الناس»، إلّا أن يقوم دليل قطعي باختصاص خطاب أو حكم به صلّى الله عليه وآله. إذ ليست قضايا القرآن الكريم شخصيّة؛ بل قضاياه حقيقيّة مفروضة الموضوع، تجري كما يجري اللّيل والنّهار. وهذا قد تقرّر في محلّه بدلائل كافية شافية.

٣ ـ الوجوب في الأوامر الواردة في الكتاب والسنّة ليس من مدلول الهيئة ولا من مدلول المادّة بل يستفاد ذلك من إطلاق الأمر. فعليه الأمر في الآية الكريمة لاتنعقد له إطلاق إلّا بعد الفحص عن القرائن من الكتاب والسنّة. وفي الرّوايات ما يدلّ على الترخيص والاستحباب.

في الكافي ٣١٣/٣، عن محمد بن يحيىٰ مسنداً عن فرات بن أحنف، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سمعته يقول:

أوّل كلّ كتاب نزل من السّماء «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» فإذا قرأت «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» فلا تبالي أن لاتستعيذ، وإذا قرأت «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» سترتك فيما بين السماء والأرض.

وفي الفقيه ٢٠٠/١: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أتمّ الناس صلاة وأوجزهم. كان إذا دخل في صلاته قال: الله أكبر، «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم».

٤ ـ ظاهر الآية وإطلاق القضيّة الشرطيّة، يقتضي تكرار الاستعاذة عند تكرار القراءة، قليلة كانت أو كثيرة، وسواء كانت في الصّلاة أو في غيرها. فعليه لابدّ من الالتزام باستحباب تكرار الاستعاذة في كلّ ركعة يقرأ فيها القرآن.

وأجاب المقداد عنه في كنز العرفان ١٤٩/١، بأنّ المراد بالقرآن، جنس القرآن، وهو كالفعل الواحد يكفي فيه الاستعاذة الواحدة.

أقول: هذا الوجه غير سديد لأنّه غير مستند إلى دليل مقبول. والحقّ في الجواب هو الالتزام باستحباب تكرار الاستعاذة عند القراءة مطلقاً في غير الصّلاة، وأمّا فيها فحيث إنّ العبادات أمور توقيفيّة والآية الكريمة ليست مسوقة لبيان ذلك فلابدّ في التعبّد باستحبابها في الصلاة من دليل آخر. ولم يثبت التعبّد باستحباب الاستعاذة في الصلاة إلّا بعد التكبير وقبل التسمية. فلايمكن القول باستحبابها في الصلاة إلّا في هذا المورد خاصّة.

قال الشيخ (قده) في الخلاف ١١١/١: «التعوّذ مستحبّ في أوّل ركعة دون ماعداها.... [دليلنا] أنّ ما اعتبرناه مجمع عليه؛ وتكراره في كلّ ركعة يحتاج إلىٰ دليل وليس في الشّرع مايدلّ عليه.»

أقول: الأولىٰ في الجواب ما ذكرناه.

٥ ـ إطلاق الآية يقتضي الاكتفاء جملة صريحة في إفادة التعوّذ؛ إلّا أنّ الأولىٰ الإتيان بما في الآية الكريمة وبما جيء به في بعض الرّوايات؛ وهو: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» كما في الوسائل ٨٠١/٤، عن محمد بن مكّيّ الشهيد في (الذكرىٰ)، عن أبي سعيد الخدري، عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه كان يقول قبل القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أو «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم». كما في الوسائل ٨٠١/٤، عن عبدالله بن جعفر مسنداً عن حنّان بن سدير قال:

صلّيت خلف أبي عبدالله عليه السّلام المغرب فتعوّذ بإجهار: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بالله أن يحضرون».

وفيه أيضاً عن الذكرىٰ، عن البزنطي، عن معاوية بن عمّار، عن الصادق عليه السّلام في الاستعاذة قال:

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

تفسير فاتحة الكتاب

قوله تعالى: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم». (١)

بيان: الرّوايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام دالّة علىٰ أنّ البسملة آية من الحمد، بل أفضل آية من هذه السورة، بل أكرم وأعظم آية في كتاب الله. وفي كلمات عدّة من مفسّري الخاصّة أنّ عليه إجماع علمائنا. واختلفت في ذلك روايات العامّة؛ ذكرها الشيخ الطوسي (قده) في الخلاف ١١٢/١. وورد التعريض والإنكار عليهم في رواياتنا.

في تفسير العيّاشي ١٩/١، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

سرقوا أكرم آية من كتاب الله: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم».

وفيه أيضاً / ٢١، عن خالد بن المختار قال: سمعت جعفر بن محمد عليهما السّلام يقول:

ما لهم؟! قاتلهم الله! عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله، فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها؛ وهي «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم».

قوله تعالى: «باسم».

قال في المغني ١٣٩/١، في تعداد معاني الباء: والاستعانة؛ وهي الداخلة علىٰ آلة الفعل؛ نحو: كتبت بالقلم، ونجرت بالقدوم. قيل: ومنه [باء] البسملة. لأنّ الفعل لايتأتّىٰ على الوجه الأكمل إلّا بها.

أقول: الظاهر أنّ الباء للتعدية. فالابتداء بالاسم من حيث نفس الاسم، لا بلحاظ أن يكون الابتداء به إلىٰ غيره. وبعبارة أخرى: يبتدأ باسمه تعالىٰ، لأنّه أحقّ وأولىٰ أن يبتدأ به من حيث نفسه، لا من حيث الابتداء به لأمر آخر. وهذا واضح، بناءً علىٰ ما قرّرنا أنّ البسملة آية من الحمد وأنّها قرآن أنزله سبحانه، والمتكلّم بهذا الكلام هو الله سبحانه. فلابدّ من تفسير الآية الكريمة من حيث إنّها كلام الله سبحانه.

وقيل: الاسم مشتقّ ومأخوذ من السموّ؛ وفسّروه بالارتفاع. ثمّ تكلّفوا في تحقيق المناسبة بين الارتفاع وبين الاسم المراد في المقام.

قال في لسان العرب ٤٠١/١٤: اسم الشيء، وسَمَهُ وَسِمَهُ وسُمُهُ وسَماه: علامته.... قال الزّجاج: معنىٰ قولنا: اسم، هو مشتقّ من السموّ وهو الرفعة. قال: والأصل فيه: سِموٌ؛ مثل قِنو وأقناء. الجوهري: والاسمُ مشتقٌ من سَمَوتُ؛ لأنّه تنوية ورفعة.

وقيل: إنّه مأخوذ من السّمة الّتي هي العلامة. واستشكل عليه أنّ جمع سمة: سمات، وجميع اسم: أسماء؛ وهكذا غيره من فروعه.

أقول: الاسم سواء كان من السمة أو من السُّمُوّ أريد منه هٰهنا العلامة، بل معناه لغة العلامة كما ذكرنا عن اللّسان، أنّ اسم الشيء وسَمه وسِمَهُ وسُمُه وسَماهُ: العلامة.

في التوحيد / ٢٢٩، عن محمد بن إبراهيم مسنداً عن عليّ بن الحسن بن عليّ ابن الفضّال، عن أبيه قال: سألت الرّضا عليّ بن موسىٰ عليهما السّلام عن «بسم الله» قال:

> معنىٰ قول القائل: «بسم الله» أي: أسم علىٰ نفسي سمة من سمات الله عزّ وجلّ وهي: العبادة. قال: فقلت له: ما السّمة؟ فقال: العلامة.

في هذه الرواية الشريفة تصريح بأنّ انتصاب العبد بين يدي الله، وقراءة كلامه من حيث إنّه عهد الله إلىٰ عباده وذكره تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ، وثناءٌ عليه تعالىٰ بها، خضوع ذاتي له تبارك وتعالىٰ لعظمته وإقرار لآلائه. ولهذا يكون تركه في الموارد المناسبة لذلك استكباراً واستعلاءً وإنكاراً؛ وتركه مطلقاً غفلة واغتراراً. فعلىٰ هذا تكون قراءة «بسم الله» من أظهر مصاديق الخضوع والتذلّل الّذي هو العبادة لغةً. فيكون المعنىٰ: أضرب علىٰ نفسي علامة من علامات الله في عبده؛ وهي العبادة والخضوع له تبارك وتعالىٰ.

وقد وقع الخلط بين تفسير هذه الآية وبين البسملة المفروضة أو المندوبة على المكلّفين في ابتداء الأمور، أو الموارد الخاصّة طبق الأدلّة الشرعيّة. وأوجب هذا الخلط اضطراباً في الكلمات وكثرت الأقوال والنقض والإبرام.

وأسدّ الأقوال في المقام ما ذكره في المنار ٤٠/١، قال: ليس معناه أن نفتتح

أعمالنا باسم من أسماء الله تعالىٰ بأن نذكره علىٰ سبيل التبرّك أو الاستعانة به؛ بل أن نقول هذه العبارة: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» فإنّها مطلوبة بذاتها.

أقول: قد أصاب فيما قال: إنها مطلوبة بذاتها. إلّا أنّه لم يأت بتفسير الآية بما أنّه كلام الله. ولم يبيّن الغرض المسوق لأجله الكلام، وكيف يجوز تقدير «استعينوا» من هذه الحيثيّة، أو تقدير «قولوا»، وأمثال ذلك.

فنقول: ابتداؤه سبحانه باسمه الكريم، ثناء منه تعالىٰ علىٰ نفسه وتمجيد لذاته بالألوهيّة والرحمانيّة والرحيميّة. ونحن نقرؤها ونبتدئ بها بقصد القرآنيّة وقصد الثناء والتمجيد، ولا نقصد بها الابتداء بالقراءة ولا الاستعانة بها على القراءة وإنّما نقرؤها من حيث إنّها قرآن. وليس فيها دليل علىٰ تقدير استعينوا وقولوا وابتدؤوا. وليس لنا إلّا الأدلّة العامّة الدالّة علىٰ لزوم القراءة إيجاباً أو ندباً. ومتعلّق الجارّ لابدّ أن يقدّر بما يناسبه سبحانه.

فتبيّن من جميع ما ذكرنا أنّ الله سبحانه ليس من أفراد المكلّفين بالتسمية؛ كي يقع في مخالفة التكليف إيجاباً أو ندباً، عند إهماله أمر التسمية؛ ولا من الموظّفين بها حتّىٰ يخاف علىٰ نفسه من أن يكون أمره أبتر عند ترك التسمية؛ ولا في مقام الاستعانة بها عند ابتدائه في أموره؛ ولا في مقام تشريع الحكم الشرعيّ علىٰ النّاس بتقدير قولوا أو استعينوا وأمثال ذلك؛ ولا في مقام التذكرة والإرشاد إلىٰ الحكم العقليّ من حسن الاستعانة بالله عند الابتداء بحوائجهم؛ ولا في مقام تلقين العباد أن يبتدئوا بالتسمية ويقولوها عند الشروع في أمورهم.

فالآية الكريمة مستقلّة بنفسها وأصيلة برأسها. والكلام في قراءتها هو الكلام بعينه في قراءة غيرها من الآيات واجباً وندباً. نعم، هذه الآية وسنّته تعالىٰ في ابتداء كلامه باسمه يمكن أن تكون مثالاً ودليلاً لنا في أمورنا وأفعالنا كي نبدأها باسمه تعالىٰ كما في ندب إليه الشرع وجوباً أو استحباباً في الموارد المعلومة في الفقه.

وقد ذكر العلّامة البلاغي (قده) في آلاء الرحمٰن / ٥٢، في إثبات ما ذكرنا من نقض الأقوال المذكورة في المقام شرحاً شافياً أعرضنا عن إيراده جميعه، خوفاً من الإطالة؛ نعم، من جملة ماقال: فالظاهر أنّ البسملة في جميع السُّوَر متعلّقة بكلمة «أبدأ» للمتكلّم من قول الله جلّ اسمه، تنويهاً بجلال اسمه الكريم وبركاته وتعظيماً له لجلال

المسمّىٰ وعظمته جلّ شأنه وله الأسماء الحسنىٰ، كما أمر في القرآن بذكر اسمه وتسبيحه.

أقول: أراد (قده) وأفاد أنّ الابتداء بنفس اسم الله الكريم، إنّما هو إعزاز لاسمه وتمجيد لذاته. فقد تبيّن واتّضح من جميع ما ذكرنا أنّ الباء للتعدية. والابتداء بالاسم نفسه لا بغيره.

وهل يمكن للفقيه الإفتاء باستحباب التسمية أو وجوبها في ابتداء الأفعال والأمور ـ استناداً إلىٰ أنّ لنا بالله سبحانه أسوة حسنة ـ ويجعلها دليلاً شرعيّاً لفتواه، مع قطع النظر عن الأدلّة الأخرىٰ من الآيات والرّوايات، أم لا؟ الأظهر عندنا العدم؛ لعدم دلالة الآية بظاهر لفظها علىٰ ذلك بوجه من الدّلالات المعتبرة. وإنّما تكلّفوا بتقدير قولوا وأمثاله طبق نظريّاتهم واستنباطاتهم. ويلوح من كلماتهم اعتمادهم علىٰ الأسوة الّتي ذكرناها؛ غير أنّ كلماتهم مضطربة وغير منقّحة من حيث بيان المدعىٰ وتنظيم الدليل وتطبيقه عليه.

وممّن صرّح بذلك المولىٰ المحقّق الأردبيليّ (قده) في كتابه زبدة البيان / ٤، حيث قال: ثمّ إنّه يمكن الاستدلال بها علىٰ وجوب ذلك [في ابتداء الأفعال والأمور] إلّا ما وقع الاتّفاق أو دليل آخر علىٰ عدمه.

وقال الجصّاص الحنفيّ في أحكام القرآن ١٩/١: والأحكام الّتي يتضمّنها قوله: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» الأمر باستفتاح الأمور للتبرّك بذلك والتعظيم لله عزّ وجلّ به، وذكرها على الذبيحة، وشعار وعلم من علام الدّين وطرد الشيطان.

أقول: ذكر الجصّاص عدّة من الأحكام الّتي يتضمّنها قوله تعالىٰ: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم». ولا يخفىٰ عند الفقيه الخبير أنّ ذلك مستند إلىٰ أدلّة أخرىٰ من الآيات والروايات. وذكره تعالىٰ هذه الآية الكريمة في مفتتح الحمد، لايدلّ علىٰ شيء من الأحكام المذكورة؛ لبداهة أنّ هذه الآية الكريمة غير مسوقة لغرض التشريع، ولا يدلّ علىٰ وجوب البسملة أو استحبابه في ابتداء الأمور بوجه من وجوه الدّلالة. وهذا من باب خلط هذه الآية الكريمة والأدلّة الدالّة علىٰ تشريع التسمية المذكورة.

هذا كلّه بناءً علىٰ كون قوله تعالىٰ: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» كلام الله، وقرآناً أنزله، والمتكلّم به هو الله تعالىٰ. ونحن نقرؤه ونبتدئ به بقصد القرآنيّة. وأمّا إذا قرأناه ولم نقصد به القرآنيّة بل كان المقصود من قراءته ابتداء الأمور والأفعال به، فحينئذٍ

يمكن أن تكون الباء متعلّقة بأستعين أو غيره من الأفعال المناسبة للمقام.

في التوحيد / ٢٣١، عن محمد بن القاسم الجرجاني مسنداً عن الحسن بن عليّ ابن محمد عليهم السّلام.... قال: وقام رجل إلىٰ عليّ بن الحسين عليهما السّلام فقال: أخبرني عن معنى «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» فقال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: حدّثني أبي، عن أخيه الحسن، عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السّلام أنّ رجلاً قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» مامعناه؟ فقال:

... فقال الله عزّ وجلّ لعباده: أيّها الفقراء إلى رحمتي إنّي قد ألزمتكم الحاجة إليّ في كل حالٍ، وذلّة العبوديّة في كل وقت، فإليّ فافزعوا في كلّ أمر تأخذون فيه وترجون تمامه وبلوغ غايته فإنّي إن أردت أن أعطيكم لم يقدر غيري علىٰ منعكم؛ وإن أردت أن أمنعكم لم يقدر غيري علىٰ إعطائكم، فأنا أحقّ من سئل وأولىٰ من تضرّع إليه، فقولوا عند افتتاح كلّ أمر صغير أو عظيم: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» أي: أستعين علىٰ هذا الأمر بالله الّذي لايحقّ العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث، المجيب إذا دعي...

قوله تعالىٰ: «الله».

المشهور أنّ لفظ الجلالة علم واسم جامد موضوع للذّات المقدّسة الجامعة لجميع صفات الكمال، من دون اعتبارٍ ورعاية للمعنىٰ الاشتقاقي الوصفيّ. وقد استدلّ علىٰ ذلك بوجهين:

الأوّل: إن كلمة الإخلاص: «لا إله إلّا الله» تفيد التوحيد. ولولم يكن لفظ الجلالة علماً ومعرفة، لما أفادت التوحيد.

ويرد عليه أنّ الاستدلال وهذا التكلّف، إنّما هو في مقابل من قال: إنّه اسم جنس. وأمّا من قال: إنّ أسماء الله كلّها موضوعة بالوضع الشخصيّ علىٰ سبيل الاشتراك اللّفظي بين أسمائه تعالىٰ وأسماء خلقه، مع القول بالمباينة بينه تعالىٰ وبين ماسواه من خلقه بالمباينة الصفتيّة الّتي هي من أشدّ أنحاء البينونات، فهو في غنىً عن ارتكاب مثل هذا التكلّف.

قال المولى العلّامة الطبرسي (قده) في مجمع البيان ١٩/١: «الله اسم لا يطلق إلّا

عليه سبحانه وتعالىٰ. وذكر سيبويه في أصله قولين.... وإنّما أدخلت عليه الألف واللّام للتفخيم والتعظيم فقط. ومن زعم أنّها للتعريف، فقد أخطأ؛ لأنّ أسماء الله تعالىٰ معارف.»

وحيث إنّ أسماء الله تعالىٰ معارف، فلا محالة تكون «إلّا» في كلمة الإخلاص وجميع التهليلات الواردة في الكتاب والسنّة والأدعية المأثورة عن الأئمّة عليهم السّلام بمعنىٰ «الغير». فتكون إلّا مع ما بعدها بمنزلة النعت والصفة لما قبلها؛ سواء كان مابعد إلّا لفظ الجلالة أو ضمير الغائب أو ضمير المتكلّم. قال تعالىٰ:

«شهد الله أنّه لا إله إلّا هو». [آل عمران (٣) / ١٨]

«إنّني أنا الله لا إله إلّا أنا». [طه (٢٠) / ١٤]

«فنادىٰ في الظّلمات أن لا إله إلّا أنت». [الأنبياء (٢١) / ٨٧]

قال ابن هشام في المغني ٩٩/١، في تفسير «إلّا»: الثاني أن تكون صفة بمنزلة «غير» فيوصف بها وبتاليها، جمع منكّر أو شبهه.

أقول: لاوجه لتخصيصه بهذين الموردين. بل هو صفة مع مدخولها بمعنى الغير في جميع الموارد الّتي لايجوز فيها الاستثناء. فعليه لاتكون كلمة الإخلاص متكفّلة لإثبات الصانع وإثبات توحيده في عرض واحد. ضرورة أنّ ثبوت شيءٍ لشيءٍ فرع لثبوت المثبت له. بل كلمة الإخلاص مسوقة لتوحيد من كان ظاهراً بذاته وثابتاً بالفطرة الإلهيّة فقط.

الثاني: إنّ لفظ الجلالة المبارك يوصف بجميع ماسواه من الأسماء الحسنىٰ، ولا يوصف شيء من الأسماء بلفظ الجلالة. يقال: الله العالم ولا يقال: العالم الله. وهذا دليل لكون لفظ الجلالة علماً.

ويرد عليه أنّه لا احتياج في إثبات كون لفظ الجلالة معرفةً إلى التشبّث بالعلميّة؛ كما ذكرنا. والسرّ في عدم توصيف الأسماء بلفظ الجلالة، هو أنّ لفظ الجلالة ـ بالألف واللّام وبدونها ـ موضوع بالوضع الشخصيّ لذات القدّوس الخارجة عن الحدّين: حدّ التعطيل والتشبيه. فدلالتها ليست إلّا كدلالة سائر أسمائه تعالىٰ من حيث إنّها دلالة وتذكرة وذكرىٰ إلى الظاهر بذاته، القدّوس عن التوهّم والتعقّل، لا أنّها موضوع للمفاهيم المشتركة بينه تعالىٰ وبين خلقه. فلفظ الجلالة تذكرة إلىٰ نفس ذات

القدّوس الخارجة عن الحدّين بعناية أنّها تتحيّر فيها العقول والألباب. وحيث إنّ فيه عناية الدلالة إلىٰ نفس الذات مع أخذ التحيّر فيها فيكون شأنه بهذا الحيث غير شأن سائر الأسماء.

فالموضوع في المقام هو الذات بعناية ظهورها الذّاتي في عين بطونها وخفائها بحيث لاتتمكّن العقول الثواقب إنكارها ولاتنال من ناحية جلالها شيئاً قليلاً ولا كثيراً. والمؤمن بعد التمكّن في المقام لايزداد إلّا حيرة ودهشة فيخضع ويتواضع ويتذلل بين يديه تعالىٰ، ويعرف بحكم عقله أنّ المقام مقام التسبيح والتنزيه والتقديس عن جميع شوائب النقصان. ويعلم أنّ التصوّر والتفكّر في ذاته هتكٌ وإهانة له وخلاف قدسه وعلوّه ـ فسبحانه من إله ما أعجبه ـ فيتمكّن المؤمن الكامل في هذا المقام أن يمجّده بنعوت جلاله وجماله وأن يعظّمه بكبريائه.

وأما غيره من الأسماء، فهي تعبير عن الذات القدّوس في كل واحد منها باعتبار نعت خاصّ من نعوته تعالىٰ. وليس الغرض إيقاع هذه الأسماء عليه تعالىٰ وتوصيفه تعالىٰ وتعريفه بها؛ بل الغرض تمجيده وتنزيهه من العارفين بهذه الأسماء؛ سواء كانت مع اللّام أو بدونها؛ وسواء كانت مضافة إلىٰ معرفة أم لا.

فثبت أنّ السرّ في عدم جواز توصيف تلك الأسماء الحسنىٰ بلفظ الجلالة، هو أنّ لفظ الجلالة موضوع لنفس الذّات المقدّسة الخارجة عن الحدّين الّتي تتحيّر فيها العقول، من دون عناية إلىٰ نعت من نعوته ومعاني أسمائه. لا ما ذكروه من أنّ لفظ الجلالة اسم جامد موضوع للذّات المقدّسة الجامعة لجميع صفات الكمال.

وقد اتّضح من جميع ماذكرنا وهن القول بأنّ «الله» اسم جامد وعلم للذّات الجامعة لجميع صفات الكمال. والحقّ المبين الّذي لاريب فيه، أنّ لفظ الجلالة مع الألف واللّام أو بدونها ـ الله وإله ـ ليس إلّا مثل غيره من الأسماء الحسنىٰ المشتقّة؛ مثل الرّحمٰن والرّحيم مع اللّام أو بدونها، وغيرهما من الأسماء. والفرق بينه وبين غيره من الأسماء المباركة أنّ كلّ واحد من الأسماء، موضوع للتّعبير عن نعت خاصّ من نعوته تعالىٰ. وهذا الاسم الكريم موضوع بالوضع الشخصيّ للذّات الخارجة عن الحدّين ـ حدّ التعطيل والتشبيه ـ من حيث إلهيّته وألوهيّته تعالىٰ، علىٰ ما سيجيء من البيان.

وتشهد على ذلك عدّة من الروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام وشهادة اللّغويّين وتصريحاتهم لوجه تسميته تعالىٰ بالإله والله.

في الكافي ٨٧/١، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبدالله عليه السّلام عن أسماء الله واشتقاقها: الله ممّا هو مشتقّ؟ قال: فقال لي:

ياهشام الله مشتق من إله. والإله يقتضي مألوهاً.

بيان: الظاهر من أنّ اشتقاق الأسماء وخاصّة «الله» كان مفروغاً منه؛ حيث سأل هشام: ممّا هو مشتقّ؟ ولم يسأل: أهو مشتق أم لا؟

وفي الصحيفة المباركة السجاديّة في دعائه عليه السّلام في يوم عرفة قال:

... ربّ الأرباب وإله كلّ مألوه.

صرّح عليه السّلام أنّه سبحانه ربّ لكلّ ماسواه واتّخذه الجاهلون والملحدون ربًّا من المخلوقين. وألَهَ يَألَهُ ـ من باب منع يمنع ـ بمعنىٰ عبد يعبد. وإله فعال بمعنى المفعول؛ مثل كتاب بمعنى المكتوب. فيكون المعنىٰ أنّه تعالىٰ معبود حقّ لكلّ من اتّخذه الجاهلون والملحدون معبوداً من دون الله سبحانه. أفاد ذلك السيّد في رياض السالكين / ٤٧٥.

وفي العيون ١٤٩/١، عن محمد بن الحسن بن أحمد مسنداً عن محمد بن يحيىٰ ابن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السّلام[1] قال: سمعت أبا الحسن الرّضا عليه السّلام يتكلّم بهذا الكلام عند المأمون في التوحيد:

.... له بمعنى الرّبوبيّة إذ لا مربوب، وحقيقة الإلهيّة إذ لا مألوه.

قوله عليه السّلام: «حقيقة الإلهيّة» صريح في الاشتقاق والإشارة إلى المعنى المصدري مثل الربوبيّة، وأنّه سبحانه كان إلهاً يُؤلَه إليه تعالىٰ وواجداً لحقيقة الألهيّة أزلاً ولم يكن بعد مخلوق يألهون فيه تعالىٰ.

وفي التوحيد /٨٨، عن أبي محمد جعفر بن علي بن أحمد الفقيه القمّيّ مسنداً عن أبي البختريّ وهب بن وهب القرشيّ، عن أبي عبدالله الصادق جعفر بن محمد، عن

---

١ – كذا في التوحيد / ٣٤، والبحار ٢٢٨/٤، وقاموس الرجال ٤٣٥/٨، ولكن يبدو صحيحه؛ محمد بن يحيى الصالح بن عبدالله بن محمد بن عمر الأطرف بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام. انظر: الجامع لرواة أصحاب الإمام الرّضا ١٢٩/٢، والشجرة المباركة / ١٩٠.

أبيه محمد بن عليّ الباقر عليه السّلام:

... قال: وقال أمير المؤمنين عليه السّلام: الله معناه المعبود الّذي يأله فيه الخلق ويؤله إليه. والله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات.

قال الباقر عليه السّلام: الله معناه المعبود الّذي إلِهَ الخلق عن درك ماهيّته والإحاطة بكيفيّته. ويقول العرب: أَلِهَ الرّجل، إذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علماً، ووَلَهَ، إذا فزع إلىٰ شيء ممّا يحذره ويخافه. فالإله هو المستور عن حواسّ الخلق.

وفيه أيضاً / ٢٣٠، عن محمد بن القاسم الجرجاني مسنداً عن الحسن بن عليّ ابن محمّد عليهم السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال:

الله هو الّذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق، عند انقطاع الرجاء من كلّ من هو دونه وتقطّع الأسباب من جميع ماسواه.... قال: وقام رجل إلىٰ عليّ بن الحسين عليهما السّلام فقال: أخبرني عن معنىٰ «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم». فقال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: حدّثني أبي، عن أخيه الحسن، عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السّلام أنّ رجلاً قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» مامعناه؟

فقال: إنّ قولك: «الله» أعظم اسم من أسماء الله عزّ وجلّ. وهو الاسم الّذي لاينبغي أن يسمّى به غير الله ولم يتسمّ به مخلوق.

فقال الرجل: فما تفسير قوله: «الله»؟

قال: هو الّذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق، عند انقطاع الرّجاء من جميع من هو دونه، وتقطع الأسباب من كلّ من سواه.

وفيه أيضاً / ٣٠٨، عن عليّ بن أحمد بن محمد بن عمران مسنداً عن عبدالله بن يونس، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السّلام يخطب علىٰ منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب، ذرب اللّسان... فقال: ... قال:

.... كان ربّاً إذ لا مربوب، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً

إذ لا مسموع.

وفي مصباح المتهجّد /٧٧٧، في الدعاء المعروف بدعاء كميل المنسوب إلىٰ أمير المؤمنين عليه السّلام قال:

أتسلّط النّار علىٰ وجوه خرّت لعظمتك ساجدة؟! ... وعلىٰ قلوب اعترفت بإلهيّتك محقّقة؟!

أقول: الباحث الخبير يظفر علىٰ أكثر ممّا أوردناه من الرّوايات.

ويؤيّد ما استظهرناه من الروايات شهادة اللّغويين وتصريحاتهم بالعناية الملحوظة في لفظ الجلالة للمعنى الاشتقاقيّ.

قال في النهاية ٦٢/١: في حديث وُهَيب بن الورد: «إذا وقع العبد في ألهانيّة الربّ، لم يجد أحداً يأخذ بقلبه». هو مأخوذ من إلاه. وتقديرها فعلانيّة ـ بالضّم ـ يقول: إلاهٌ بيّن الإلهيّة والأُلهانيّة، وأصله من أَلِهَ يأله، إذا تحيّر. يريد: إذا وقع العبد في عظمة الله تعالىٰ وجلاله وغير ذلك من صفات الرّبوبيّة وصرف وهمه إليها، أبغض النّاس حتّىٰ لايميل قلبه إلىٰ أحد.

وفي لسان العرب ٤٦٩/١٣: وقيل في اسم الباري سبحانه: إنّه مأخوذ من أَلِهَ يأله، إذا تحيّر، لأنّ العقول تأله في عظمته، وأَلِهَ يأله ألهاً؛ أي: تحيّر. وأصله: وَلِهَ يولَهُ ولهاً. وقد أَلِهتُ علىٰ فلان؛ أي: اشتدّ جزعي عليه، مثل: وَلِهتُ. وقيل: هو مأخوذ من أَلِهَ يألَهُ إلىٰ كذا؛ أي: لجأ إليه، لأنّه سبحانه المفزع الّذي يلجأ إليه في كلّ أمر.

وفيه أيضاً: والله؛ أصله: إلاه علىٰ فعال بمعنىٰ مفعول. لأنّه مألوه؛ أي: معبود. كقولنا: إمام؛ فعال بمعنىٰ مفعول، لأنّه مؤتمّ به. فلمّا أُدخلت عليه الألف واللّام، حذفت الهمزة تخفيفاً، لكثرته في الكلام.

وفي القاموس ٢٨٢/٤: «ألَه» إلاهةً وأُلوهةً وأُلوهيّةً: عبد عبادةً. ومنه لفظ الجلالة.... وأصله: إله ـ كفعال ـ بمعنىٰ مألوه.... التألّه: التنسّك والتعبّد. والتأليه: التعبيد. وأَلِهَ ـ كفرح ـ: تحيّر. وعلىٰ فلان: اشتدّ جزعه عليه، وإليه: فزع ولاذ. وآلَهَهُ: أجاره وآمنه.

قد تحصّل من جميع ما ذكرنا أنّ الوجه في إطلاق لفظ الجلالة المبارك عليه

تعالىٰ، إنّما هو بلحاظ أنّ الذّات المقدّسة الإلٰهيّة عزّ اسمه، معبود بالحقّ لكلّ من سواه وما سواه إذا أخذ من أله يأله ـ بفتح العين ـ وبلحاظ أنّه جلّ ثناؤه، تحيّرت في عظمته وكبريائه ونعوته، عقول العارفين من خلقه. فهو سبحانه مألوه فيه الملائكة والأنبياء والرّسل والأوصياء الصّدّيقون وأعاظم الموحّدين. فإنّهم مع شدّة عرفانهم به تعالىٰ بتعريفه سبحانه نفسه إليهم، لاينالون منه تعالىٰ شيئاً بقلوبهم وأفكارهم. وكذلك باعتبار أنّه تعالىٰ عزّ اسمه جار وأمان للمستجيرين. وهذا علىٰ كونه من أله ـ بالكسر.

ومن العجيب ماذكره في تفسير البيان /٢٩٩، حيث قال: «الله علم للذّات المقدّسة.... ولا مضايقة في كون كلمة الجلالة من المنقول. وعليه فالأظهر أنّه مأخوذ من كلمة «لاه» بمعنىٰ الاحتجاب والارتفاع.... ولا موجب للقول باشتقاقه من أله بمعنىٰ عبد، أو أله بمعنى تحيّر.

أقول: بل يجب الالتزام به، لأنّه كما ذكرنا مفاد عدّة من الرّوايات والخطب المباركة وصريح أهل اللّغة. وأمّا كونه مأخوذاً من «لاه» بمعنىٰ الارتفاع والاحتجاب والاستتار فلايجوز القول به. فإنّه سبحانه وإن كان مرتفعاً ومحتجباً عن درك الأبصار ومستوراً عن الأوهام والعقول، إلّا أنّ صرف انطباق الارتفاع والاحتجاب عليه تعالىٰ لايدلّ علىٰ أنّ لفظ الجلالة مأخوذ منه بهذا الاعتبار ما لم يرد فيه شاهد بخصوصه من الآيات والرّوايات.

الاشتراك اللّفظي في أسمائه تعالىٰ وأن الواضع هو الله سبحانه.

قد قيل: إن إطلاق أسمائه تعالىٰ عليه سبحانه علىٰ سبيل الاشتراك المعنوي. مثلاً: لفظ العالم كما أنّه يطلق عليه تعالىٰ، كذلك يطلق بهذا المعنىٰ على من سواه تعالىٰ ممّن كان واجداً للعلم. وأصرّوا علىٰ ذلك أشدّ الإصرار؛ كما سنشير إليه عن الكشاف والبيضاوي في قوله تعالى: «الرّحمٰن الرّحيم».

وأمّا مايستفاد من الكتاب والسنّة، أنّ أسمائه تعالىٰ موضوعة بالوضع الشخصيّ لله سبحانه، بلحاظ الوصف المأخوذ في كلّ واحد من الأسماء. والواضع هو الله تعالى؛ لقد سمّىٰ نفسه بهذه الأسماء الكريمة. والمصداق والمعنيّ في هذه الأسماء الكريمة وإن كان واحداً بالحقيقة وهو الله سبحانه، إلّا أنّها متغايرة بلحاظ الوصف المأخوذ في كلّ واحد منها. فعليه لايجوز تفسير أحدها بالآخر. مثلاً: لايجوز تفسير المدبّر بالرّبّ، والرّبّ

بالمالك؛ لاستلزامه الإخلال في معاني الأسماء الكريمة وتعدادها.

في البحار ١٩٥/٣، عن محرز بن سعيد النحويّ مسنداً عن المفضّل بن عمر الجعفي، عن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليهما السّلام في الخبر المشتهر بالإهليلجة:

... قال: إنّ الّذي جئت به لواضح. فكيف جاز للخلق أن يتسمّوا بأسماء الله تعالىٰ؟

قلت: إنّ الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه أباح للنّاس الأسماء ووهبها لهم. وقد قال القائل من الناس للواحد: واحد، ويقول لله: واحد. ويقول: قويّ، والله تعالىٰ قويّ. ويقول: صانع، والله صانع. ويقول رازق، والله رازق. ويقول: سميع بصير، والله سميع بصير. وما أشبه ذلك. فمن قال للإنسان: واحد، فهذا له اسم وله شبيه. والله واحد وهو له اسم ولا شيء له شبيه وليس المعنىٰ واحداً.

وفي العيون ١٤٥/١، عن أحمد بن محمد بن عمران مسنداً عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرّضا عليه السّلام أنّه قال:

... فلمّا رأىٰ ذلك من أسمائه الغالون المكذّبون، وقد سمعونا نحدّث عن الله أنّه لاشيء مثله ولاشيء من الخلق في حاله، قالوا: أخبرونا إذ زعمتم أنّه لا مثلا لله ولا شبه له، كيف شاركتموه في أسماء الحسنىٰ[١] فتسمّيتم بجميعها؟! فإنّ في ذلك دليلاً علىٰ أنّكم مثله في حالاته كلّها، أو في بعضها دون بعض؛ إذ قد جمعتكم [جمعتم خ] الأسماء الطيّبة.

قيل لهم: إنّ الله تبارك وتعالىٰ، ألزم العباد أسماءً من أسمائه على اختلاف المعاني. وذلك كما يجمع الاسم الواحد معنيين مختلفين. والدّليل علىٰ ذلك قول الناس الجائز عندهم والسائغ. وهو الّذي خاطب الله عزّ وجلّ به الخلق فكلّمهم بما يعقلون، ليكون عليهم حجّة في تضييع ماضيّعوا. وقد يقال للرّجل: كلب وحمار وثور وسكرة وعلقمة وأسد؛ وكلّ ذلك علىٰ خلافه، لأنّه لم تقع الأسماء علىٰ معانيها الّتي كانت بنيت عليها. لأنّ

---

١ – في التوحيد / ١٨٧، أسمائه الحسنىٰ.

الإنسان ليس بأسد ولا كلب. فافهم ذلك يرحمك الله.... وإنّما سمّي الله عالماً، لأنّه لايجهل شيئاً. فقد جمع الخالق والمخلوق اسم العلم واختلف المعنىٰ علىٰ ما رأيت....

وفي الكافي ١/١١٨، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن الفتح بن يزيد الجرجاني، عن أبي الحسن عليه السّلام قال:

... وقلتَ: لايشبهه شيء. والله واحدٌ، والإنسان واحد. أليس قد تشابهت الوحدانيّة؟

قال: يافتح، أحلت ـ ثبّتك الله ـ إنّما التشبيه في المعاني. فأمّا في الأسماء، فهي واحدة وهي دالّة علىٰ المسمّىٰ. وذلك أنّ الإنسان وإن قيل: واحد، فإنّه يخبر أنّه جثّة واحدة وليس باثنين. والإنسان نفسه ليس بواحد، لأنّ أعضاءه مختلفة وألوانه مختلفة. ومن ألوانه مختلفة، غير واحد. وهو أجزاء مجزّاة، ليست بسواءٍ، دمه غير لحمه، ولحمه غير دمه، وعصبه غير عروقه، وشعره غير بشره، وسواده غير بياضه، وكذلك سائر جميع الخلق.

فالإنسان واحد في الاسم، ولا واحد في المعنىٰ. والله جلّ جلاله، هو واحد لا واحد غيره. لا اختلاف فيه ولا تفاوت ولا زيادة ولا نقصان. فأمّا الإنسان المخلوق المصنوع المؤلّف من أجزاءٍ مختلفة وجواهر شتّىٰ، غير أنّه بالاجتماع شيء واحد.

وفيه أيضاً / ٨٧، عن علي بن إبراهيم، عن العبّاس بن معروف، عن عبدالرحمٰن بن أبي نجران قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السّلام أو قلت له : .... قال :

... إنّ الأسماء صفات وصف بها نفسه.

وفيه أيضاً ٢/٥٨٢، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن معاوية بن عمّار قال: قال [لي] أبو عبدالله عليه السّلام ابتداءً منه :

يا معاوية، أما علمت أنّ رجلاً أتىٰ أمير المؤمنين صلوات الله عليه فشكا الإبطاء عليه في الجواب في دعائه. فقال له: ... قل: اللّهمّ أسألك باسمك... وهو اسمك الأعظم الأجلّ الأجلّ النور الأكبر الّذي

سمّيت به نفسك و....

وفي التوحيد /٣٢١، عن عليّ بن أحمد بن محمد بن عمران مسنداً عن حنّان ابن سدير قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن العرش والكرسي، فقال:

... وله الأسماء الحسنىٰ الّتي لايسمّىٰ بها غيره؛ وهي الّتي وصفها في الكتاب فقال: «فادعوه بها وذروا الّذين يلحدون في أسمائه». [الأعراف(٧) / ١٨٠] جهلاً بغير علم. فالّذي يلحد في أسمائه بغير علم، يشرك وهو لايعلم، ويكفر به وهو ظنّ أنّه يحسن، فلذلك قال: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون». [يوسف(١٢) / ١٠٦] فهم الّذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها.

وفي العيون ١٨٩/١، عن أبي محمد جعفر بن عليّ بن أحمد الفقيه مسنداً عن محمد بن عمرو بن عبدالعزيز عمّن سمع الحسن بن محمد النوفلي يقول:

قدم سليمان المروزيّ متكلّم خراسان علىٰ المأمون، فأكرمه ووصله. ثمّ قال له: إنّ ابن عمّي عليّ بن موسىٰ الرّضا عليهما السّلام قدم عليّ من الحجاز وهو يحبّ الكلام وأصحابه، فلا عليك أن تصير إلينا يوم التّروية لمناظرته....

قال سليمان: فإنّها [أي: الإرادة] اسم من أسمائه.

قال الرّضا عليه السّلام: هل سمّىٰ بها نفسه بذلك؟

قال سليمان: لا؛ لم يسمّ به نفسه بذلك.

قال الرّضا عليه السّلام: فليس لك أن تسمّيه بما لم يسمّ به نفسه.

أقول: الرّوايات الشريفة فيها دلالة وشهادة بيّنة علىٰ أنّ أسماءه تعالىٰ موضوعة بالوضع الشخصيّ لله سبحانه من حيث ذاته المقدّسة ونعوته وكمالاته جلّ ثناؤه. وفيها دلالة أيضاً علىٰ أنّ الواضع لهذه الأسماء الكريمة هو الله سبحانه من غير اقتراح المقترحين. وهذا دليل علىٰ بطلان القول بالاشتراك المعنويّ في أسمائه سبحانه بينه وبين ماسواه تعالىٰ من الخلق.

فإن قلت: بناءً علىٰ ماذكرت من الاشتراك اللّفظي في أسمائه تعالىٰ وأنّ الواضع

لأسمائه تعالىٰ هو نفسه سبحانه، يلزم تعطيل الأذكار والتسبيحات والأوراد والمناجاة؛ والحال أنّ الناس إنّما يناجونه تعالىٰ ويخاطبونه بما يعقلون ويفهمون!

قلت: الاسم كما ذكرنا سواء كان من السمة أو السموّ بمعنىٰ العلامة. والعلامة للشيء سواء كانت بالطبع أو بالتباني والجعل، أمرٌ واضح لاسترة فيه لغةً. فالاسم آية لمسمّاه وصفة ومعرّف وهادٍ إليه تكويناً؛ كما في الآثار الطبيعية، أو لفظاً بمعونة الجعل والوضع والتباني عند كلّ قوم من أهل اللّغة علىٰ اختلاف لغاتهم.

فعلىٰ هذا لابدّ في دلالة الأسماء، وكونها آية لمسمّاها، من العلم باللّفظ والوضع والموضوع له. فبانتفاء واحد من الأمور الثلاثة تنتفي الدلالة والحكاية. فلابدّ في إيقاع الأسماء عليه تعالىٰ من معرفته سبحانه ومعرفة أسمائه ومعرفة الوضع. والقائلون بالاشتراك المعنوي لمّا رأوا أنّ العلم به تعالىٰ بذاته، وتصوره بكنهه محال، التزموا بتصوّره تعالىٰ بالوجوه والعناوين العامّة والمفاهيم الكليّة. وواضح أنّ هذا لايجدي في المقام شيئاً، لأنّ انتزاع المفهوم الكلّي من الأمور المختلفة وانطباقها عليها متوقّف على العلم بها ولو بوجهٍ.

فالحقّ في الجواب بناءً علىٰ أساس العلوم الشرعيّة من عدم جواز تصوّره، وأنّ معرفته تعالىٰ ليست بالتصوّر ولا بالتعقّل ولا بالتوهم في ناحيته المقدّسة، وأنّ معرفته تعالىٰ إنّما هي بتعريفه سبحانه نفسه إلىٰ عباده بحقيقة التعريف، وهو فعله تعالىٰ ولا كيف ولا طور لفعله. ومآل معرفته بالآيات والعلامات إلىٰ بداهة عرفانه تعالىٰ وظهوره الذاتي بآياته خارجاً عن الحدّين. وحيث إنّ الخلق يحتاجون إليه في جميع أمورهم وشؤونهم فلابدّ لهم في مقام عرض الحاجة من الحضور بين يديه تعالىٰ ودعائه ومناجاته سبحانه، فخلق هذه الأسماء والصفات وسيلة بينه وبين عباده.

في التوحيد /١٩٣، عن عليّ بن أحمد بن محمد بن عمران مسنداً عن أبي هاشم الجعفري قال:

> كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السّلام فسأله رجلٌ فقال: أخبرني عن الربّ تبارك وتعالىٰ له أسماء وصفات في كتابه، فأسماؤه وصفاته هي هو؟
>
> فقال أبو جعفر عليه السّلام: إنّ لهذا الكلام وجهين: إن كنت تقول: هي

هو؛ أي: إنّه ذو عدد وكثرة فتعالىٰ الله عن ذلك، وإن كنت تقول: لم تزل هذه الصّفاتُ والأسماء، فإنّ «لم تزل» تحتمل معنيين: فإن قلت: لم تزل عنده في علمه وهو مستحقّها فنعم، وإن كنت تقول: لم يزل تصويرها وهجاؤها وتقطيع حروفها فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره؛ بل كان الله ولا خلق، ثمّ خلقها وسيلة بينه وبين خلقه يتضرّعون بها إليه، ويعبدونه، وهي ذكره وكان الله ولا ذكر، والمذكور بالذّكر هو الله القديم الّذي لم يزل. والأسماء والصّفات مخلوقات المعاني، والمعنيّ بها هو الله الّذي لا يليق به الاختلاف والائتلاف....

فدعاؤه تعالىٰ بهذه الأسماء الكريمة والصفات الشريفة إنّما هو بعد التثبّت في المعرفة بالمعرفة الحقّة الخارجة عن الحدّين. والمخبتون من عباده يصدّقونه تعالىٰ بعد تعريفه سبحانه نفسه إليهم، ويؤمنون بما عرفوه باضطرار من قلوبهم بحقيقة الإيمان، ويدعونه بأسمائه الحسنىٰ الّتي أمروا أن يدعوه بها. فرجع إيقاع الأسماء ودلالة الألفاظ إنّما هو التذكرة إلىٰ الظاهر القدّوس عند من يعرفه. فهو سبحانه أجلّ وأعلىٰ من أن يُعرف باللّفظ أو بتصوّر المفاهيم الخفيّة ذواتها.

وأمّا الأشقياء وأرباب الهوسات الّذين ألزم عليهم الحجة، ويشاهدون آيات القدرة والعظمة فإنّما يعاندون ويكابرون بمعارف قلوبهم، وجحدوا بها بعدما استيقنت بها أنفسهم، هوساً وظلماً واستكباراً في قبال الحقّ المبين القدّوس. قال تعالىٰ:

«فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين».

[النمل (٢٧) / ١٣ و ١٤]

وفي النهج، الخطبة /٤٩، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام:

... فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود، علىٰ إقرار قلب ذي الجحود. تعالىٰ الله عمّا يقوله المشبهون والجاحدون له علوّاً كبيراً.

فقد تلخّص أنّ أسماءه سبحانه موضوعة بوضع مستقلّ للحقيقة الخارجيّة الشخصيّة وليس هناك عنوان مشترك سائغ مع الخلق وخالقه؛ بل اللّفظ مشترك والمعاني متباينة.

قوله تعالىٰ: «الرّحمٰن الرّحيم».

بيان: حيث إنّ هذين الاسمين الكريمين في الآية الكريمة أطلقا على الله تعالىٰ، فالمناسب عند البحث في المقام ليس هو البحث عن معناهما العامّ اللّغوي وإيقاعهما على الله سبحانه، بل الحقّ وضعهما بالوضع الخاصّ ـ بالاشتراك في اللّفظ واختلاف في المعنىٰ ـ عليه سبحانه؛ فإذن كما لايصحّ إطلاق الأسماء والصّفات بمالها من المعنى العامّ عليه تعالىٰ فكذلك لايصحّ إطلاق أسمائه تعالىٰ بمالها من المعنى الخاصّ علىٰ غيره. قال تعالىٰ:

«ربّ السّماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّا». [مريم (١٩) / ٦٥]

وهذا أمر توقيفي لابدّ من تلقّيه من الشارع. ولابدّ من إثبات الرحمة له تعالىٰ بالمعنى المقدّس عن الرّحمة المتصوّرة المعلومة. ولابدّ من معرفة الذّات من حيث إنّها رحمان ورحيم، فإنّ إيقاع الاسم والصّفة قبل معرفة المسمّىٰ والموصوف في حقّه تعالىٰ لايكون إلّا لقلقة وتعطيلاً للذّكر، ولايكون ثناءً وتمجيداً للذّات المقدّسة.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

«إنّ من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز.» (النهج، الخطبة / ١٦٣)

وقال أيضاً:

«فإنّما يدرك بالصّفات ذوو الهيئات والأدوات، ومن ينقضي إذا بلغ أمد حدّه بالفناء.» (النهج، الخطبة / ١٨٢)

وفي التوحيد / ٢٣٨، عن أحمد بن محمد بن عبدالرّحمن مسنداً عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال:

... الله أجلّ من أن يدرك الواصفون قدر صفته الّتي هو موصوف بها، وإنّما يصفه الواصفون علىٰ قدرهم لا علىٰ قدر عظمته وجلاله. تعالىٰ الله عن أن يدرك الواصفون صفته علوّاً كبيراً....[١]

---

١ ـ نقله في المعاني / ٣٨، باختلاف يسير في المتن والسند.

ومعرفته تعالىٰ بتصوّره محال وإلحاد. ومعرفته بتصوره سبحانه بالوجوه والعناوين العامّة والمفاهيم الكلّيّة، تسمية وتوصيف بغير ما وصف وسمّىٰ به نفسه. وهو لايجوز بمحكم وحيه. فلابدّ في حصول المعرفة من التأمّل والتدبّر والتذكّر بالآيات وسننه تعالىٰ في عباده وبلاده من هذا الحيث. فبعد السير والتأمّل العميق في آياته تعالىٰ والمواهب الجارية على الخلق منه سبحانه، سيّما آياته العظام الظاهرة مع كثرتها وسعتها العجيبة الّتي تدهش وتتحيّر فيها الألباب. كيف؟! وهذا الفناء العجيب، جعل لهم مهداً مبسوطاً وفوقهم سقفاً مرفوعاً مع سُرُجها المضيئة، ومصابيحها المعلّقة، وأعدّ لهم فيها جميع ما يتقوّم به عيشهم لو عاشوا أبد الدّهر. وتتقلّب فيها أنحاء المخلوقات، وتتمتّع منها صنوف مختلفة إلىٰ مالا يعلم تعدادها إلّا الله. يحصل العلم والإذعان بأنّ نسبة ما علمناه من نعمائه تعالىٰ بما لم نعلم، نسبة المتناهي إلىٰ غير المتناهي. وليس هذا إلّا ظهوره تعالىٰ بآياته ورحماته ونعمائه خارجاً عن الحدّين، وأنّه متوحّد ومتفرّد في رحمته وإحسانه ليس له شريك ولا شبيه ولا سميّ.

فتلخص في المقام أمور:

الأوّل: لابدّ من معرفة الذات الرحمانيّة خارجة عن الحدّين بآيات رحمته ودلائل إحسانه.

الثاني: سرّ الفرق بين الاسمين من حيث إيقاعهما علىٰ المسمّىٰ أعني العناية الملحوظة في كلّ واحد من الاسمين وقد عرفت أنّ هذا أمر توقيفيّ لابدّ من تلقّيه من الشارع.

الثالث: إنّ من الأمور الواضحة الّتي لاريب فيها عند الموحّدين، أنّه بعدما تمّت الدعوة الإلٰهيّة وأقيمت الحجج والبراهين الحقّة علىٰ أنّ الله هو الحقّ المبين، وأنّه متوحّد في الألوهيّة فآمن من آمن وكفر من كفر، فلا محالة ينقسم أهل العالم بالقسمة الأوليّة عندما قامت عليهم البراهين إلىٰ مؤمن وكافر. وبديهيّ أنّ فيضه تعالىٰ علىٰ كلا الفريقين ـ الموحّد الخاضع والمعاند الكافر ـ ليس علىٰ ملاك واحد. وهذه المسألة ممّا وقع فيها الخلاف بين أرباب الشرائع وبين الفلاسفة المنسوبين إلى التوحيد، فعلىٰ قول الفريق الثاني حيث إنّه وقع هذا النظام الخير في مجرىٰ إرادته وعنايته فجميع ما وقع فيه، ينتهي إلىٰ إرادة واحدة ويعلّل بها، فالإمداد الواصل إلى ابن ملجم أشق

الأوّلين والآخرين لقتل سيّد الموحّدين، وهكذا الإمداد الواصل إلىٰ سيّد الموحّدين في الجهاد مع أعداء الدين. كلاهما مشاءان بمشيئة واحدة ومرادان بإرادة واحدة، ومحبوبان بحبّ واحد. لعدم معقوليّة تفكيك الإرادتين بعد انتهاء جميع ما بالعرض إلىٰ ما بالذات. وأمّا الفريق الأوّل فيخالفونهم في هذا المعنىٰ عندما قالوا: إنّ لله تعالىٰ لأوليائه وعباده المطيعين رحمات خاصّة. وللكلّ رحمة خاصّة غير الأولىٰ. والرّحمة الثانية العامّة الّتي شملت البرّ والفاجر والمؤمن والكافر ليس بها عطفٌ وحنان ورأفة وإشفاق، فليس جريان الفيض وعموم هذا الإمداد على الكفّار والجبابرة لكرامتهم عند الله ولتشريفه تعالىٰ لهم وحنانه ورأفته بهم. ولا حرمان لأوليائه من بعض هذه المواهب بل أكثرها لهوانهم عند الله؛ بل إنّ الله جلّ ثناؤه حيث كتب علىٰ نفسه إبقاء هذا النظام وإدامة هذا الكيان إلىٰ أجل معلوم، فقام طبق حكمته بجميع حوائجهم وما يصلح به شؤونهم بالنسبة إلىٰ كل واحد واحد من أجزائه وأشخاصه، ولو كان ذلك أخذاً وإملاءً وسخطاً واستدراجاً.

وأمّا سنّته تعالىٰ في عباده المخلصين وأوليائه المقرّبين، فكتب علىٰ نفسه القدّوس من الكرامات الخاصّة والألطاف المكنونة مالا يقدّر قدرها أحدٌ من المواهب المعنويّة والارتقاء إلىٰ مراتب الكمال وإنزال السكينة في قلوبهم، والسير إلىٰ مراتب التوحيد بأقدام التوفيق وأنوار العصمة.

فهذه المسألة من ضروريّات مذهب الشيعة فيمجّد ربّنا بكلتا صفتي الجلال والجمال. والكفّار والمعاندون ليس لهم في هذه الكرامة نصيب أصلاً إلّا اشتراكهم في هذه المخاطبة من الله في أصل الدّعوة واعتناء السفراء المقربين بهم في جذبهم وجلبهم إلىٰ ماهو خير لهم من الدّنيا وما فيها. وبعدما عاندوا وكابروا مع الحقّ فلا نصيب لهم فيما اختصّ به عباده المتّقين.

وهذا الّذي ذكرناه إنّما يتمّ بناءً على الأصول الشرعيّة من أنّ له تعالىٰ الأمر والرأي في كلّ مورد ومورد من جزئيات الخلقة حسب التدبير العمدي، لا علىٰ ما في العلوم البشريّة من العناية بالنّحو الكلّي، غير القابل للتغيير والتبدّل.

واضطربت كلمات المفسّرين في تفسير الاسمين الكريمين. والبحث فيهما إمّا بحسب المادّة أو بحسب الهيئة.

أمّا الكلام بحسب المادّة، فظاهر كلماتهم بالمعنى العامّ اللّغوي يطلق عليه تعالىٰ وعلىٰ غيره؛ وهو: العطف والحنوّ. إلّا أنّهم التزموا بسلب الرقّة والانفعال والتأثّر إذ نسب إليه تعالىٰ؛ فإنّ الرّقّة وتأثّر القلب الّذي يوجب العطاء إلى الغير يستحيل في حقّه تعالىٰ.

قال في الكشّاف ٨/١: فإن قلت: ما معنىٰ وصف الله تعالىٰ بالرحمة ومعناها العطف والحنوّ ومنها الرّحم لانعطافها علىٰ مافيها؟ قلت: هو مجاز عن إنعامه علىٰ عباده. لأنّ الملك إذا عطف علىٰ رعيّته ورقّ لهم، أصابهم بمعروفه وإنعامه. كما أنّه إذا أدركته الفظاظة والقسوة، عنف بهم ومنعهم خيره ومعروفه.

وفيه أن الزمخشريّ قد كرّ على ما فرّ منه. فإنّه قد فرّ من نسبة الرقّة إلىٰ تعالىٰ، حذراً من تشبيهه تعالىٰ بالأشخاص الجسمانيّة الّذين من شأنهم الرّقّة والتأثّر والانفعال؛ ثمّ كرّ علىٰ تشبيه عطائه تعالىٰ ونعمته وقبض عطائه عنهم بعطايا الملوك ومنعهم عطاياهم عن رعيّتهم وقبضهم عنهم. أفلا يعلم الزمخشريّ أنّ المجاز مؤسّس على التشبيه ومتوقّف على العلاقة المهوهويّة بين المشبّه والمشبّه به ولو بوجه؟!

وقال البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل ٦/١: الرّحمن الرحيم اسمان بنيا للمبالغة، من رحم؛ كالغضبان من غضب والعليم من علم. والرحمة في اللّغة، رقّة القلب وانعطاف يقتضي التفضّل والإحسان. ومنه: الرحم، لانعطافها علىٰ مافيها. وأسماء الله تعالىٰ إنّما تؤخذ باعتبار الغايات الّتي هي أفعال دون المبادي الّتي تكون انفعالات.

أقول: لابدّ للبيضاوي من الالتزام بما التزم به الزمخشريّ، أو الالتزام بأنّ الرّحمة مرادفة للعطاء والإحسان. والظاهر من كلامه هو الثاني؛ أي: الالتزام بترادف الرّحمة والعطاء، وتوجيه هذه الحقيقة القرآنيّة وتأويلها وصرفها إلىٰ حقيقة أخرىٰ. وأنّىٰ يصحّ لنا أن نلتزم حين الدّعاء والمناجاة إخلاء لفظ الرّحمن والرّحيم عن معناهما وإرادة غيره؟! وقريب ممّا ذكره البيضاويّ ما ذكره كثيرون.

قال المولىٰ العلّامة شبّر (قده) في تفسيره / ٣: «الرّحمن الرحيم» صفتان مشبّهتان من رحم ـ بالكسر. ووصف تعالىٰ بهما، باعتبار غايتهما.

والجميع متّفقون علىٰ أنّ المراد من الرّحمة هو العطاء، باختلاف يسير في توجيهها وتأويلها.

وأمّا الكلام بحسب الهيئة؛ فقد صرّح كثير منهم أنّه للمبالغة. ولعلّ السرّ في ذلك أنّهم لمّا رأوا أنّ المورد مورد عطائه تعالىٰ وهو الّذي عمّ ووسع كلّ شيء، حكموا بذلك من ناحية المورد.

قال في البيان / ٣٠٠: وقال غير واحد من المفسّرين وبعض اللّغويّين: إنّ صيغة الرّحمن مبالغة في الرّحمة، وهو كذلك في خصوص هذه الكلمة؛ سواء كانت هيئة فعلان مستعملةً في المبالغة، أم لم تكن. فإنّ كلمة «الرحمن» في جميع موارد استعمالها محذوفة المتعلّق. فيستفاد منها العموم وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء.

أقول: سيجيء تحقيق ذلك ـ إن شاء الله.

فإن قلت: إذا كان كلا الاسمين مشتقًّا من الرّحمة وكانا صفتين مشبّهتين، فما الوجه في تكرارهما؟ وهل يجوز أن يكون الثاني للتأكيد؟

قلت: لايجوز حمل الثاني على التأكيد. وقد تخلّصوا من شبهة لزوم التكرار بأنّ «الرّحمن» يدلّ علىٰ كثرة الرّحمة وشمولها وعمومها، و«الرحيم» علىٰ ثبوت الرّحمة ودوامها واستمرارها؛ فلا تكرار ولا تأكيد.

قال في المنار ٤٦/١: وقد مشى الجلال في تفسيره وتبعه الصبّان علىٰ أنّ الرّحمن والرحيم بمعنىٰ واحد وأنّ الثاني تأكيد للأوّل. ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول من عالم مسلم. وماهي إلّا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها.

أقول: تحرير البحث في المقام يحتاج إلىٰ تقدم أمور:

١ ـ قد تبيّن من جميع ما ذكرنا، الفرق بين رحمته تعالىٰ ورحمة من سواه. وعلم أنّ رحمته تعالىٰ مباينة لرحمة من سواه، لأنّ رحمة من سواه تنشأ من الرقّة والتأثّر والانفعال؛ وهو سبحانه منزّه عنها. وما ذكره الزمخشريّ من تشبيه عطائه تعالىٰ بعطايا الملوك، وما ذكره البيضاويّ من أنّ إطلاق الرّحمة وشمولها علىٰ عطائه سبحانه باعتبار الغاية لا باعتبار المبادي، في غاية الضعف والوهن كما سبق. فإنّ رحمته تعالىٰ فعل من أفعاله الحكيمة المستندة إلى الكمال الذاتيّ له سبحانه، يستدلّ عليه بآثاره وعلاماته الدّالة عليه. فما من ذرّة ولا قطرة إلّا وفيها براهين رحمته وبيّنات إحسانه. فتكون رحمته ثابتة خارجة عن الحدين؛ حدّ التعطيل والتشبيه. كما هو كذلك في ذاته وكمالاته ونعوته.

٢ ـ إنّ عطاءه تعالىٰ ورحمته في غير المقرّبين والمؤمنين، ليس بلحاظ الإكرام والإجلال والتشريف، بل من باب الحكمة القيّمة في كل مورد ومورد. فإبقاء هذا الكيان وإدامة هذا النظام الّذي يتمتّع به الجبابرة والفراعنة ويتلذّذون فيه بأنواع النعم، ليس لإكرامه تعالىٰ لهم، بل هذه رحمة وعطاء منه جلّ اسمُهُ عمّت وشملت كلّ النّاس ووسعت كلّ شيء، ومائدة عامّة وسيعة قد اجتمع عليها البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، والعدوّ والصّديق. ويدخل فيه إفضاله تعالىٰ علىٰ أعدائه بالإمهال والإملاء والخذلان والاستدراج. قال تعالىٰ:

«ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين». [آل عمران (٣) / ١٧٨]

«وقال موسىٰ ربّنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدّنيا ربّنا ليضلّوا عن سبيلك». [يونس (١٠) / ٨٨]

«والّذين كذّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملي لهم إنّ كيدي متين». [الأعراف (٧) / ١٨٢ و ١٨٣]

٣ ـ عطاؤه للمؤمنين والمقرّبين، إنّما هو علىٰ ملاك الإكرام والإجلال والتشريف. وهذه هي الرّحمة الخاصّة والعطيّة الكريمة ولاتزال تزيد ولاتبيد أبد الآبدين. وهذه المواهب الجليلة الجميلة من العلوم والمعارف والكمالات والتوفيق والتسديد والخيرات، وغيرها ممّا لاتعدّ ولا تحصىٰ في الدّنيا وتتّصل بنعيم الآخرة والجنان الزاهرة وبما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، هي آمال المقرّبين وقرّة عين المتّقين. ورضوان من الله خيرٌ، رضي الله عنهم ورضوا عنه. فهذا التقسيم أمر واقعيّ جدًّا وحقيقة قرآنيّة متأصّلة وليس أمراً اعتبارياً وهميّاً. هذا بحسب الثبوت والواقع. وربّنا جلّ مجده واجد لكلا الوصفين ولابدّ أن يحمد ويمجّد علىٰ كلا العطاءين. ومرجع هذا إلىٰ ملاك العطاء في كلا الموردين.

٤ ـ وردت عدّة من النصوص الصّريحة في أنّ عطاءه تعالىٰ لجميع ما سواه من باب الحكمة ويندرج فيه السخط والإملاء. ويسمّىٰ الله تعالىٰ من هذا الحيث بالاسم الكريم «الرحمن»؛ ومن حيث عطاؤه الخاصّ بأوليائه وأهل طاعته يسمّىٰ ب‍ «الرحيم». ومرجع هذه التسمية تمجيده تعالىٰ بكلتا صفتي الجلال والجمال تعبّداً

وتوفيقاً، علىٰ سبيل الاشتراك اللّفظيّ والبينونة الذاتيّة بين عطائه تعالىٰ وبين عطاء ما سواه. قال تعالىٰ: «ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها» [الأعراف (٧) / ١٨٠].

والمفسرون حيث لم يسلكوا هذا المذهب الصّحيح، سلكوا مذاهب شتّىٰ واضطربت كلماتهم واختلفت أقوالهم. وقد ظهر واتّضح ممّا ذكرنا أنّه لاترادف ولا تأكيد في الاسمين الكريمين؛ بل كلّ منها تعبير عن حقيقة غير الأخرىٰ.

في التوحيد / ٢٣٠، عن محمد بن القاسم الجرجانيّ مسنداً عن الحسن بن عليّ ابن محمد عليهم السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال:

... الرّحمن الّذي يرحم ببسط الرّزق علينا، الرّحيم بنا في أدياننا ودنيانا وآخرتنا. خفّف علينا الدّين وجعله سهلاً خفيفاً. وهو يرحمنا بتَميزنا من أعدائه. [خ، بتمييزنا من أعاديه].

وفي تفسير القميّ ٢٨/١، عن أبيه مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

فقال: ... الرّحمن بجميع خلقه. والرّحيم بالمؤمنين خاصّة.

وفيه أيضاً، عن أبيه مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام... قال:

خلق المخلوقين، الرّحمن بجميع خلقه، الرّحيم بالمؤمنين خاصّة.

وفي التوحيد / ٢٣٠، عن محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد مسنداً عن صفوان بن يحيىٰ، عمّن حدّثه، عن أبي عبدالله عليه السّلام أنّه سئل عن «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال:

الباء بهاء الله، و...

قلت: الرحمن؟ قال: بجميع العالم.

قلت: الرّحيم؛ قال: بالمؤمنين خاصّة.

والمتحصل من هذه الروايات أنّ الكافر لانصيب له في مواهبه تعالىٰ ورحمته الخاصّة بوجه أبداً، إلّا في اعتنائه تعالىٰ بهم في إرسال الرسل إلىٰ جميع الناس.

قال في آلاء الرّحمٰن / ٥٣: قد فسّرت الرّحمة بالعطف والحنوّ.

أقول: إنّ العطوف والعاطف من جملة أسمائه تعالىٰ وليسا مترادفين بالرّحمن

والرحيم. وقد تقرّر في محلّه أنّه لايجوز تفسير اسم من أسمائه تعالىٰ باسمه الآخر؛ لاستلزامه الخلل في تعداد أسمائه تعالىٰ. فإنّه سبحانه عطوف ورحمٰن ورحيم. والسرّ في ذلك أنّ أسماءه تعالىٰ، وإن كانت بحسب المصداق واحدة بالحقيقة، إلّا أنّها بحسب النعوت المأخوذة في كلّ واحد منها متباينة. فتمجيده تعالىٰ بأنه عطوف، ليس عين تمجيده سبحانه بأنّه رحمن ورحيم؛ وبالعكس. وكذا لايجوز تفسير الرّبّ بالمدبّر وبالعكس. وهكذا في جميع أسمائه سبحانه.

فعليه لامحصّل لما ذكر من أنّ الرّحمن والرحيم بمعنىٰ الحنوّ والعطف، فإنّ اللّحاظ المأخوذ في كلّ واحد منهما غير اللّحاظ المأخوذ في الآخر. وقد تبيّن ممّا تقدّم من الشّواهد القطعيّة والأدلّة الواضحة، أنّ أسماءه تعالىٰ موضوعة بالوضع الشخصيّ في كلّ واحد واحد من أسمائه بلحاظ نعت من نعوته، والوضع هو الله جلّ ثناؤه.

قال في البيان / ٣٠١: ثمّ إنّه قد ورد في بعض الرّوايات أنّ «الرّحمٰن» اسم خاصّ ومعناه عامّ. وأمّا لفظ «الرّحيم» فهو اسم عامّ ومعناه خاصّ مختصّ بالآخرة أو بالمؤمنين، إلّا أنّه لا مناص من تأويل هذه الرّوايات أو طرحها، لمخالفتها الكتاب العزيز. فإنّه قد استعمل فيه لفظ «الرّحيم» من غير اختصاص بالمؤمنين أو بالآخرة. ففي الكتاب العزيز: «فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم». [إبراهيم (١٤) / ٣٦] «نبّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم». [الحجر (١٥) / ٤٩] «وإنّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم». [الحجّ (٢٢) / ٦٥] «ربّكم الّذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنّه كان بكم رحيماً». [الإسراء (١٧) / ٦٦]...

أقول: هذه الآيات الّتي استشهد (قده) بها علىٰ إطلاق لفظ الرحيم، غير ناهضة لإثبات ماهو بصدده. فإنّ لفظ الرّحيم واقع في أكثرها بعد لفظ الغفور والرّؤوف. وواضح أنّ ظاهر السياق يفيد أنّ متعلّق الرّحمة بعينه متعلّق المغفرة والرّأفة. وليس الكافر مورد مغفرته ورأفته أصلاً. فتكون رحمته تعالىٰ للمؤمنين خاصّة.

وأمّا الآية الثالثة؛ ففيها أوّلاً أنّ لفظ الرّحيم فيها أيضاً واقع بعد لفظ الرؤوف.

وثانياً: إن كان المراد منها هي الآية ١٤٣ من سورة البقرة، فصدر الآية «وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها إلّا لنعلم من يتّبع الرّسول ممّن ينقلب علىٰ عقبيه وإن كانت لكبيرة إلّا على الّذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالنّاس

لرؤوف رحيم». والآية الكريمة نزلت بعد نسخ قبلة بيت المقدّس وتوجيه الناس إلى الكعبة، وقد شكا المسلمون إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله سألوه عن صلواتهم إلى القبلة المنسوخة، فنزلت الآية بأنّه تعالىٰ وفيّ شكور لايضيع إيمانكم؛ أي: صلاتكم.

في من لايحضره الفقيه ١/١٧٨:

> وصلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى البيت المقدّس بعد النبوّة ثلاث عشرة سنه بمكّة وتسعة عشر شهراً بالمدينة.... فقال المسلمون: صلاتنا إلىٰ بيت المقدّس تضيع يا رسول الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: «وما كان الله ليضيع إيمانكم»؛ يعني: صلاتكم إلىٰ بيت المقدّس.

وفي الكافي ٢/٣٣، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن أبي عمرو الزبيريّ، عن أبي عبدالله عليه السّلام:

> ... وقال فيما فرض على الجوارح من الطهور والصلاة بها. وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لما صرف نبيّه صلّى الله عليه وآله إلى الكعبة عن البيت المقدّس؛ فأنزل الله عزّ وجلّ: «وما كان ليضيع إيمانكم إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم». فسمّى الصلاة إيماناً....

أقول: هذا بناءً علىٰ أنّ الايمان عمل كلّه؛ كما في الروايات الكثيرة. فالمراد من «الناس» في الآية الكريمة هم المؤمنون خاصّة.

وأمّا الآية الرابعة، فإنّها مسوقة في سياق الامتنان والكافر ليس مورداً لامتنانه تعالىٰ. فعليه يكون متعلّق الرّحمة هم المؤمنون خاصّة.

هذا ماهو الظاهر من الآيات بنفسها. ولنا أيضاً أنّ انعقاد الإطلاق، إنّما هو بعد تعيين الغرض المسوق له الكلام. والتدبّر والتأمّل في سياق الآيات الّتي يستدلّ بها على الإطلاق وكذلك القرائن المحفوفة بها والفحص البالغ عن المقيّدات والمخصّصات. فالاستدلال بالآيات الّتي أوردها في المقام بمكان من الضّعف. ضرورة أنّ النسبة بين هذه الآيات والرّوايات الواردة في المقام الدّالّة علىٰ أنّ الرحمٰن للمؤمن والكافر، والرحيم للمؤمن خاصّة، كافية في تقييد الإطلاق المتوهّم في هذه الآيات. وكذلك الآيات الواردة في سياق هذه الروايات من اختصاص الرّحيم بالمؤمنين خاصّة. قال تعالىٰ:

«هو الّذي يصلّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظّلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً». [الأحزاب (٣٣) / ٤٣]

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم * ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّةً مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم». [البقرة (٢) / ١٢٧ و ١٢٨]

أقول: معنىٰ توبته تعالىٰ علىٰ إبراهيم وإسماعيل، هو أن يتوب تعالىٰ عليهما بكرامات علىٰ كرامات السابقة ورحمات هنيئة علىٰ رحماته السابقة الخاصّة لأوليائه وأنبيائه. وقال تعالىٰ:

«فتلقّىٰ آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرّحيم». [البقرة (٢) / ٣٧]

«ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأنّ الله هو التّواب الرّحيم * ... ثمّ تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التّواب الرّحيم». [التوبة (٩) / ١٠٤ و ١١٨]

«ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا من بعدما فتنوا ثمّ جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم». [النحل (١٦) / ١١٠]

والآيات في ذلك كثيرة وفيما ذكرناه كفاية.

قوله تعالىٰ: «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ».

أقول: «الحمدُ لله» ـ بضمّ الدالّ ـ جملة اسميّة دالّة على استمرار الحمد ودوامه لله سبحانه. وهل الجملة إنشائيّة أو إخباريّة؟ الظّاهر هو الأوّل. فإنّ التحميد إنّما يتحقّق بالإنشاء لا بالإخبار. وحيث إنّ الله هو المتكلّم به وهو كلامه تعالىٰ، فقد أنشأ الحمد لنفسه، أي حمد نفسه.

قال في المنار ٤٩/١: التعريف المشهور بين العلماء للحمد أنّه الثناء باللّسان على الجميل الاختياريّ.

أقول: لايجوز تقييد الحمد بالجميل الاختياري. بل متعلّق الحمد كلّ جميل

ذاتيًا أو وصفيًا أو فعليًا. فلا محصّل لهذا القيد.

قال السيّد (قده) في رياض السالكين / ٣٣ في شرح دعائه عليه السّلام في التحميد: الحمد هو الثناء علىٰ ذي علم بكماله؛ ذاتيًا كان، كوجوب الوجود والاتّصال بالكمالات والتنزّه عن النقائص؛ أو وصفيًا ككون صفاته كاملةً واجبةً؛ أو فعليًا، ككون أفعاله مشتملة علىٰ حكمة.

إذا تقرّر ذلك فنقول: قوله تعالىٰ: «الحمد لله» حمد منه تعالىٰ لنفسه القدّوس. ضرورة أنّ الآية الكريمة كلامه تعالىٰ ومقول له سبحانه فهو متكلّم به قبل كلّ أحد. وحامد لنفسه قبل الحامدين. فكما أنّه تعالىٰ محمود بآلائه ونعمائه في لسان الموحّدين فكذلك حميد بذاته في ذاته وكذا في أفعاله في نفس الأمر وبحسب الواقع. والحمد منه تعالىٰ لنفسه ليس علىٰ حدّ حمد الحامدين له تعالىٰ علىٰ آلائه ونعمائه، بل لأنّه حميد في ذاته وصفاته وأفعاله لعدم إمكان نقص وخلل وشين في ذاته وصفاته، ولعدم فتور ولغو وقبيح في أفعاله. وهو تعالىٰ واجد لهذا الكمال لذاته بذاته فهو تعالىٰ حميد بذاته لذاته أزلاً وأبداً، وحميد في أفعاله لكونها في نهاية الجودة والإتقان والإحكام بحيث تتحيّر فيها العقول والأفهام.

فرجع حمده تعالىٰ لذاته، هو الثناء علىٰ نفسه وصفاته وأفعاله بالتنزّه والعلوّ والارتفاع، وواجديّته تعالىٰ لكلّ كمال وجلال وجمال. وقد وردت هذه الجملة المباركة في القرآن الكريم في موارد كثيرة في مقامات مقتضية لحمده تعالىٰ لنفسه.

في تفسير القمّي ١/٢٠٠، عن أبيه مسنداً عن فضيل بن عياض، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

سألته عن الورع، فقال:

الّذي يتورّع عن محارم الله ويجتنب الشّبهات. وإذا لم يتّق الشبهات، وقع في الحرام وهو لايعرفه. وإذا رأى المنكر ولم ينكره وهو يقدر عليه، فقد أحبّ أن يعصى الله اختياراً. ومن أحبّ أن يعصى الله، فقد بارز الله بالعداوة. ومن أحبّ بقاء الظّالمين، فقد أحبّ أن يعصى الله. إنّ الله تبارك وتعالىٰ حمد نفسه علىٰ هلاك الظّالمين. قال: «فقطع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين» [الأنعام(٦) / ٤٥]

وقد سمّىٰ الله تعالىٰ نفسه حميداً في آيات كثيرة في القرآن الكريم. قال تعالىٰ:

«وهو الّذي ينزّل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد». [الشورىٰ (٤٢) / ٢٨]

والأدعية المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام مشحونة بما يدلّ علىٰ حمده تعالىٰ لنفسه.

في مهج الدّعوات / ١٠٨، عن أبي عبدالله الحسين بن إبراهيم بن عليّ القمّي مسنداً عن عبدالله بن عبّاس وعبدالله بن جعفر، عن أمير المؤمنين عليه السّلام في الدّعاء المعروف بالحرز اليمانيّ قال:

اللّهمّ لك الحمد مثل ما حمدت به نفسك وحمدك به الحامدون.

قال المولىٰ الفيض في علم اليقين ١٣٦/١: «الحميد» هو المحمود المثنىٰ عليه. والله تعالىٰ هو الحميد يحمد لنفسه أزلاً أبداً.

أقول: الشواهد علىٰ ذلك كثيرة. والمقام لايسع أكثر من ذلك. وقد اتّضح أنّ هذه الجملة المباركة كلامه تعالىٰ وثناء منه تعالىٰ علىٰ نفسه. وكذلك ثناء من كلّ من يقرؤها.

وممّا ذكرنا يظهر ضعف ما ذكره الشيخ (قده) في تبيانه ٣١/١ من أنّ التقدير: قولوا: «الحمد لله».

ثمّ إنّ معنى الحمد ـ كما ذكرنا ـ ثناء وتعظيم لله، يفيد نوعاً من التسبيح والتنزيه. وكونه تعالىٰ حميداً أو محموداً، وإن كان أمراً مثبتاً يفيد التمجيد والتحميد والتعظيم، إلّا أنّه لاينفكّ عن التنزيه والتقديس أيضاً. فعليه يكون الحمد نوعاً خاصّاً من التسبيح.

قال تعالىٰ:

«ويسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته». [الرّعد (١٣) / ١٣]

«ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك». [البقرة (٢) / ٣٠]

«الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم». [غافر (٤٠) / ٧]

وكذلك الذّكر في السّجود: «سبحان ربّي الأعلىٰ وبحمده»؛ أي: أسبّح ربّي بحمده. ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الثناء إمّا علىٰ كمال وجوديّ واجب بذاته، أو علىٰ أفعال محكمة متقنة. ولازم ذلك الثناء والحمد أن يكون المحمود منزّهاً عن كلّ عيب وآفة وعلّة. فلا محالة يحصل التسبيح والتقديس بالحمد. وبعبارة أخرىٰ: الثناء علىٰ كمال الذّات وتماميّتها وفعليّتها في شدّة غير متناهية، وعلىٰ حسن الفعل وإتقانه، تنزيه وتقديس للذّات والفعل. ولا يبعد أن يكون متعلّق الحمد تنزيهه تعالىٰ بتنزيه أفعاله؛ مثل أن تقول: الحمد لله الّذي لا يظلم ولا يعبث ولا يلغو؛ وهكذا. فسبحانه من إله ما أحمده.

فالحمد محبوب ومطلوب من الكلّ وهو تمجيد وتقديس. والحميد والمحمود من جملة أسمائه الحسنىٰ وقد أمرنا أن ندعوه بها. فالحميد حيث إنّه ذكر للذّات الجميلة الحميدة لجمالها وجمال صفاتها وأفعالها فنحمده تعالىٰ وندعوه سبحانه بهذا الاسم بإيقاعه عليه تعالىٰ من غير فرق بين الذّات والصفات والأفعال. فإنّ الجميع يرجع إلى قدس ذاته سبحانه. وهو عبادة حسنة بالذّات ولولم يحمد العباد ربّهم واستكبروا واستنكفوا عنه لكانوا بذلك خارجين عن حدّ الإنسانيّة داخلين في حدّ البهيميّة. قال في الصحيفة السجاديّة في دعائه عليه السّلام في التحميد:

والحمد لله الّذي لو حبس عن عباده معرفة حمده علىٰ ما أبلاهم من مننه المتتابعة، وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا في مننه فلم يحمدوه، وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانيّة إلىٰ حدّ البهيميّة فكانوا كما وصف في محكم كتابه:

«إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً». [الفرقان (٢٥) / ٤٤]

والظاهر أنّ الحمد والشكر متباينان مفهوماً ومصداقاً. لأنّ الحمد يقابل اللّوم؛ والشكر يقابل الكفران. فإنّ الحمد علىٰ حسن فعل النعمة ووقوعها من أهلها في محلّها فلا قبح ولا عبث ولا لغو فيه. والشكر هو الاعتراف بالنعمة والخضوع لها ولأجلها. وأيضاً الشكر إنّما يكون على النعمة فقط؛ والحمد على النعمة والبليّة والمصيبة، لما فيها من الحكمة والمصلحة. والوجه في ذلك أنّ الحمد هو الثناء من حيث حسن الأمر المحمود، سواء كان له أو عليه.

في البحار ٣٩٢/٤٤/: وجمع الحسين عليه السّلام أصحابه عند قرب المساء. قال عليّ بن الحسين زين العابدين عليهما السّلام: فدنوت منه لأسمع مايقول لهم ـ وأنا إذ ذاك مريض ـ فسمعت أبي يقول لأصحابه:

أثني علىٰ الله أحسن الثناء. وأحمده علىٰ السّراء والضرّاء.

نعم، لاينكر استعمال الحمد في مورد الشكر، فيكون الحمد رأس الشكر وأفضل منه. لأنّه في عين أنّه ثناء على النعم وحسن الفعل، اعتراف واحترام للنّعمة بالتّبع وبالملازمة.

والألف واللّام في «الحمد» لبيان الجنس، لا للاستغراق ولا للعهد. فإنّه سبحانه قد أثنىٰ وحمد نفسه بما هو أهله؛ يريد تعالىٰ أنّه محمود علىٰ الإطلاق. وكذلك كلّ من قرأ هذه الآية الكريمة، يحمده تعالىٰ ويجعل الحمد له سبحانه، من غير لحاظ الاستيعاب؛ إذ لا دليل عليه من الكلام. وكذلك الكلام في القول بالعهد أيضاً.

ومن العجيب ماذكره في المنار ٤٩/١. قال: ولأنّ جميع مايصحّ أن يتوجّه إليه الحمد ممّا سواه، فهو منه جلّ ثناؤه. إذ هو مصدر الكون كلّه. فيكون له ذلك الحمد أوّلاً وبالذّات. والخلاصة أنّ أيّ حمد يتوجّه إلىٰ محمود ما، فهو لله تعالىٰ سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه.

أقول: يريد أنّ كلّ حمد من كلّ حامد علىٰ كلّ أمر محمود، من أي فاعل، فهو لله ويستحقّه سبحانه. ولعلّ هذا البيان من هذا القائل ومن كلّ من نسج علىٰ منواله، استناد إلى ما زعموا من التوحيد الأفعاليّ في أفعال العباد؛ بمعنىٰ أنّ نسبة فعل المعلول المجعول، إلىٰ الجاعل أوّلاً وبالذّات، وإلى المجعول ثانياً وبالعرض. فعليه مامن أمر محمود يصدر عن أيّ فاعل، إلّا وهو سبحانه هو المحمود عليه. فتكون المحامد كلّها لله.

ولا يخفىٰ أنّ هذا رديّ من القول لاينبغي أن يصغىٰ إليه. فسبحان من تنزّه عن أفعال العباد. فليس أفعال العباد فعلاً له تعالىٰ ومنسوبة إليه، كي يكون محموداً بما حسن منها. نعم، يحمد تعالىٰ علىٰ أفعالهم الحسنة وكلّ أفعالهم الحسنة من توفيقه وتأييده الصالحين والمحسنين على الحسنات والصالحات. وتفصيل هذه الشّبهة وإبطالها موكول إلىٰ محلّ آخر خارج عن هذا البحث.

و«الحمد لله» جملة اسميّة اختارها الله سبحانه. قالوا: لأنّها تفيد ثبات الحمد

واستمراره. وقد أريد إنشاء الحمد وإيقاعه عليه سبحانه علىٰ نحو الدّوام.

قوله تعالىٰ: «للهِ».

قد قيل: إنّ اللّام للتخصيص والملك.

أقول: الظاهر أنّ اللّام قد استعملت في مورد الاستحقاق. فإنّ الجملة الإسميّة الّتي أريد بها الإنشاء، قد أفادت استمرار استحقاقه تعالىٰ الحمد بحسب الواقع ونفس الأمر، بخلاف ما إذا قيل: أحمد الله، مثلاً. فإنّه إخبار شخصيّ انفراديّ من غير إفادة الاستحقاق.

قال ابن هشام في المغني ٢٧٥/١: وللّام الجارّة اثنان وعشرون معنىً:

أحدها الاستحقاق. وهي الواقعة بين معنىً وذات. نحو: الحمد لله، والعزّة لله، والملك لله، والأمر لله، ونحو: «ويل للمطفّفين» و«لهم في الحياة الدّنيا خزي». ومنه: «للكافرين النار» أي عذابها.

أقول: لابأس فيما ذكره من معنى الاستحقاق؛ إلّا أنّ بعضاً من الأمثلة الّتي أوردها في المقام غير خالية من المناقشة والإشكال.

فآل التحميد على الذّات بعناية أنّه سبحانه مألوه ومتألّه فيه، ومفزع إليه، هو تمجيد للذّات المقدّسة وتسبيح وتنزيه عن كلّ مالا يليق بجنابه تعالىٰ. فربّنا جلّ مجده حميد من هذا الحيث بذاته أزلاً وأبداً.

قوله تعالىٰ: «رَبِّ الْعَالَمِيْنَ». (٢)

بيان: الرّبّ مأخوذ من رَبَّ يرُبُّ ـ مثل مدَّ يمُدُّ ـ من باب نصر ينصر، أو ربَّ يربُّ ـ مثل فرَّ يفِرُّ ـ من باب ضرب يضرب. والرّبّ صفه مشبّهة أصله: رَبِب ـ مثل خَشِنَ ـ أو رَبَب ـ مثل حسن. وربّ يربّ ثلاثيّ مجرّد مضاعف.

ومن العجيب ما قاله في مجمع البيان ٢٢/١: واشتقاقه من التربية. يقال: ربّيته وربيته بمعنىً.

وقال في التبيان ٣٢/١: قيل: إنّه مشتقّ من التربية. ومنه قوله تعالىٰ: «وربائبكم اللّاتي في حجوركم». [النساء(٤)/ ٢٣]

أقول: لابدّ من توجيه كلام هذين العلمين بأنّ مرادهما من هذا البيان أنّ ربّ

يربّ من الثلاثيّ المجرّد معناه لغةً التربية لو دلّ عليه دليل. وأمّا قوله تعالىٰ: «وربائبكم اللّاتي في حجوركم» فليس بمتناسب مع التربية بل هو جمع الربيبة المأخوذة من ربّ يربّ.

ومع قطع النظر عمّا ذكرنا من التوجيه؛ فنقول: إنّ التّربية ناقص يائيّ من باب التفعيل. والفاعل منه: المربّي ـ بكسر الباء. والمفعول منه: المربّىٰ ـ بفتح الباء. والفاعل من ربّ يربّ: رَبِب؛ مثل خشن. والمفعول: مربوب. فلا تناسب بين الرّبّ والتربية بوجه أصلاً.

وفي الكشّاف ١٠/١: الربّ: المالك.

وفي المنار ٥٠/١، قال: معنى الرّبّ: السيّد المربّي الّذي يسود مسوده ويربّيه ويدبّره.

وفي التبيان ٣١/١: إنّ لفظ الربّ يستعمل بمعنى السيّد المطاع والمصلح والمالك.

وقال في المجمع ٢٢/١: وأمّا الرّبّ فله معانٍ: منها السيّد المطاع. ومنها المالك. ومنها الصاحب. ومنها المربّب. ومنها المصلح.

أقول: لايمكن الالتزام بأنّ لفظ الرّبّ والسيّد المطاع والمصلح والمالك مترادفات؛ وخاصّة في أسمائه تعالىٰ. ضرورة أنّ كلّ واحد منها مستقلّ في نفسه، منصوص عليه في الكتاب والسّنة. وكلّ واحد منها يحكي عن نعت وكمال غير ما يحكيه الآخر.

قال في القاموس ٧٢/١: الرّبّ باللّام لايطلق علىٰ غير الله عزّ وجلّ.

وقال في النهاية ١٧٩/٢: الرّبّ يطلق في اللّغة على المالك، والسيّد، والمدبّر، والمربّي، والقيّم، والمنعم. ولايطلق غير مضاف إلّا علىٰ الله تعالىٰ. وإذا أُطلق علىٰ غيره، أُضيف فيقال: ربّ كذا... ومنه حديث أبي هريرة: لايقل المملوك لسيّده: ربّي.

أقول: ماذكروه من موارد المنع منقوض. وقد استعمل الرّبّ مع اللّام وبدونه، ومضافاً إلىٰ ياء المتكلّم، في غيره تعالىٰ:

في الصحيفة المباركة السجاديّة في دعائه عليه السّلام في يوم عرفة قال: ربّ الأرباب.

وقال تعالىٰ:

«قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربّ كلّ شيء». [الأنعام (٦) / ١٦٤]
«قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون». [يوسف (٢) / ٢٣]

وليت شعري أيّ تأثير للإضافة واللّام وعدمها في معنى الكلمة وصحّة إطلاقها عليه تعالىٰ وعلىٰ غيره وعدمها. والحقّ الّذي لابدّ من الإقرار به، هو أنّ هذا النّزاع ساقط من أصله. وليس هذا الاسم الشريف إلّا كغيره من أسمائه تعالىٰ؛ مثل العالم والخالق. وهل يجوز أن يقال: إنّ لفظ العالم مع اللّام يختصّ إطلاقه به تعالىٰ، ومع الإضافة يجوز إيقاعها علىٰ غيره سبحانه؟!

فالرّبّ مثل غيره من أسمائه تعالى الحسنىٰ موضوع بالوضع الشخصيّ لله سبحانه والواضع هو الله جلّ ثناؤه بحسب الأدلّة الواردة في ذلك الباب. فعليه لايجوز إطلاقه بهذا المعنىٰ إلّا علىٰ الله سبحانه فقطّ ولايجوز إيقاعه وإطلاقه علىٰ غيره تعالىٰ أصلاً. وأمّا القائل بالاشتراك والتشكيك فيجوز عنده، إطلاقه عليه سبحانه وعلىٰ غيره علىٰ سبيل التشكيك.

فإن قيل: إذا كانت أسماء الله تعالىٰ موضوعة بالوضع الخاصّ في مقابل المعنىٰ الخاصّ مع أنّ الموضوع له ليس متصوّراً بنفسه ولا بوجهه كما هو المفروض، فما السبيل إلىٰ معرفة الموضوع له؟ وكيف السبيل إلىٰ إطلاق الأسماء عليه تعالىٰ؟

قلت: إنّ الواضع هو الله تعالىٰ. فقد اختار لنفسه أحسن الأسماء. وأمّا وجه الاستعمال فإنّ الأسماء تعبير عن الحقّ القدّوس الظاهر بذاته، المعرّف لنفسه بالتعريف المقدّس عن المعروفيّة. وتعرّف تعالىٰ لخلقه بآياته وعلاماته. والآيات تذكرة وتنبيه إلى الذات الظاهرة بذاتها الخارجة عن الحدّين، لا أنّها معرّفات ودلالات إلىٰ الأمر المشكوك المجهول: فاستعمال الأسماء في معناها بناءً علىٰ ماذكرناه عبارة عن إيقاع الاسم عليه تعالىٰ بالحقيقة فلا محالة تكون تمجيداً وتحميداً وتسبيحاً للذّات الأحديّة بالحقيقة. بخلاف القائل بالاشتراك والتشكيك، فإنّه يمجّد ويسبّح ما قطع به من الأمر المتصوّر بالوجه.

إذا تقرّر ذلك، فاعلم أنّ ربوبيّته تعالىٰ في خلقه، ليست إلّا كسائر نعوته وصفاته ـ مثل العالم والخالق ـ فلابدّ من إثباتها فيه سبحانه بالآيات والآثار الدالّة

عليها. والباحثون لم يتعرّضوا لذلك؛ وإنّما أطلقوا الرّبوبيّة المعلومة المعقولة عندهم ـ مثل: ربّ الدّار، وربّ الضيعة، والمالك المصلح أمر مملوكه أو مدبّره وأمثالها ـ عليه تعالىٰ. وهذا لا يداوي العليل ولايكون شفاءً لما في الصدور.

توضيح ذلك: إنّا قد ذكرنا غير مرّة أنّ أسماءه تعالىٰ بمالها من المعنى القدسيّ الخارج عن الحدّين ـ حدّ التعطيل والتشبيه ـ لايجوز إطلاقها وإيقاعها علىٰ من سواه من خلقه. وكذلك أسماء غيره تعالىٰ بمالها من المعنى المتصوّر المحدود، لايجوز إطلاقها عليه تعالىٰ. وهذا الّذي ذكروه من معنى الرّب، إنّما هو في أسماء الخلق المتصوّر المحدود، مع مافيه من الضّعف والاضطراب. فالطريق المناسب في تبيين معناه ماورد في الخطب والروايات المباركة من التذكرة بالآيات والعلامات الهادية إلىٰ معرفة معنىٰ هذا الاسم الكريم خارجاً عن الحدّين، وإيقاعه عليه تعالىٰ من دون تصوّر وتوهّم.

في العلل / ٩، عن محمد بن علي بن ماجيلويه مسنداً عن محمّد بن زيد قال: جئت إلى الرّضا عليه السّلام أسأله عن التوحيد، فأملىٰ عليّ:

الحمد لله فاطر الأشياء إنشاءً، ومبتدعها ابتداءً، بقدرته وحكمته. لامن شيء، فيبطل الاختراع. ولا لعلّة، فلا يصحّ الابتداع. خلق ما شاء كيف شاء، متوحّداً بذلك، لإظهار حكمته وحقيقة ربوبيّته.

أقول: علّل عليه السّلام كيفيّة الخلق بمشيّته لإظهار الحكمة وحقيقة الرّبوبيّة.

وفي التوحيد / ٣١، عن أبيه مسنداً عن عمرو بن ثابت، عن رجلٍ سمّاه، عن أبي إسحاق السبيعيّ، عن الحارث الأعور قال: خطب أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السّلام يوماً خطبةً بعد العصر:

... وهو الحكيم العليم. أتقن ما أراد خلقه من الأشياء كلّها بلامثال سبق إليه، ولا لغوب دخل عليه في خلق ما خلق لديه. ابتدأ ما أراد ابتداءه، وأنشأ ما أراد إنشاءه، علىٰ ما أراده من الثقلين؛ الجنّ والإنس، لتعرف بذلك ربوبيّته وتمكّن فيهم طواعيته....

أقول: قوله عليه السّلام: «لتعرف بذلك ربوبيّته» تعليل لقوله: «أتقن ما أراد» و«أنشأ ما أراده».

المستفاد من هاتين الخطبتين: إنّ ربوبيّته تعالىٰ وإعمالها في الخلق، إنّما هي في

مرتبة الإيجاد والتكوين، ومقارنة بالإيجاد ومتوقّفة عليه. وهو بحسب عنايته تعالىٰ إلىٰ إتقان النّظم وإحكام الصنع، بالعناية الحكيمة العمديّة العلميّة وارتباط بعض أجزاء النّظام ببعض واستفادة بعضها من بعض وغير ذلك من المصالح والأسرار الّتي لايعلمها إلّا الله سبحانه ومن ارتضىٰ من خلقه. ولا دلالة في الخطبتين على انحصار اهتمام الرّبوبية بمرتبة الإيجاد؛ بل يمكن تعميم تلك العناية بما بعد مرتبة الايجاد، بلحاظ إبقائه وإدامته تعالىٰ أيضاً، علىٰ ماسنتعرّض له في تفسير «العالمين».

في العيون ١/١٢١، عن أبي العبّاس محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني مسنداً عن علي بن موسىٰ الرّضا، عن آبائه، عن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السّلام الناس في مسجد الكوفة فقال:

... مستشهد بكليّة الأجناس علىٰ ربوبيّته....

وفي الاحتجاج ١/٢٩٨، عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال:

... وبالفكر تثبت حجّته. جعل الخلق دليلاً عليه، فكشف به ربوبيّته. هو الواحد الفرد في أزليّته. لاشريك له في إلهيّته. ولا ندّله في ربوبيّته.

وفي التوحيد / ٩٢، عن وهب بن وهب القرشيّ قال: سمعت الصّادق عليه السّلام يقول: قدم وفد من أهل فلسطين على الباقر عليه السّلام فسألوه عن مسائل فأجابهم.... فقال:

... هو مبدع الأوهام وخالق الحواسّ. وإنّما يظهر ذلك عند الكتابة. دليلٌ علىٰ أنّ الله سبحانه أظهر ربوبيّته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللّطيفة في أجسادهم الكثيفة....

أقول: إذا أحكمت ما تلونا عليك من هذه الروايات المباركة، يتجلّىٰ لك معنىٰ قول مولانا زين العابدين عليه السّلام في الصحيفة الكاملة في دعائه في التحميد: «وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيّته» بأتمّ مجاليه وظهوراته. فإنّ هذا الخلق المشهود مع كثرته وعرضه العريض، ما من قطرة ولا ذرّة إلّا وفيها دليل علىٰ إحكام الصنع وجودة الخلقة.

قوله تعالىٰ: «العالمين». (٢)

قال في تفسير الجلالين / ٧: وهو من العلامة؛ لأنّه علامة علىٰ موجده.

أقول: هذه المناسبة لا دليل عليها.

واختلف في معناه علىٰ أقوال؛ كما في المجمع ١/٢٢:

١ ـ إنّه اسم لجماعة العقلاء. لأنّهم يقولون: جاءني عالم من الناس؛ ولا يقولون: جاءني عالم من البقر.

وفيه أنّ صحّة سلب المجيء، لايدلّ علىٰ أنّ الجماعة من البقر ليس من العالَم. فإنّ من العالم مايمكن أن يجيء، ومنه مالايمكن أن يجيء.

٢ ـ إنّه عبارة عن نوع ما يعقل من الملائكة والإنس والجنّ.

وفيه أنّه لا دليل علىٰ ذلك وعلىٰ خروج ماسواها من معنى العالم. وثانياً: ماهو الميزان في إفراد العالم وجمعه؟

٣ ـ إنّه الجنّ والإنس؛ لقوله تعالىٰ: «ليكون للعالمين نذيراً». [الفرقان (٢٥) / ١] لأنّه مبعوث إلى الجنّ والإنس.

وفيه أنّه لا دلالة فيها علىٰ أنّ ماكان خارجاً عن مورد دعوته ليس بعالَم.

٤ ـ إنّ المراد من العالمين جميع المخلوقات؛ لقوله تعالىٰ حكايةً عن فرعون: «وما ربّ العالمين وقال ربّ السموات والأرض وما بينهما». [الشعراء (٢٦) / ٢٣ و ٢٤]

وفيه أنّه لا دليل علىٰ حصر جميع المخلوقات بما ذكر في الآية الكريمة؛ أي: حصر العوالم بالسموات والأرض وما بينهما من الخلق.

٥ ـ إنّ العالم كلّ صنف من أصناف الخلق وكلّ جماعة من جماعات المخلوقين والمربوبين. والمعيار في إفراد العالم وجمعه اشتمال قرن واحد علىٰ جميعها. وبهذا الاعتبار يفرد ويثنّىٰ ويجمع.

هذا أوفق ماقيل في هذا الباب؛ إلّا أنّه لا احتياج في تعيين ميزان الإفراد إلىٰ اعتبار أخذ الزمان فيه. فكلّ نوع وكلّ صنف بماله من التعيّن والتشخّص، عالم؛ مثل عالم الدنيا وعالم الآخرة وعالم الجمادات وغيرها.

إذا تقرّر ذلك فنقول: معنىٰ ربوبيّته تعالىٰ لهذه العوالم الكثيرة ـ مايرىٰ وما لايرىٰ وما نعلم وما لانعلم ولا نعرف ـ عنايته سبحانه في إيجادها بالنظم الأحسن

والأحكم طبق العناية العلميّة العمديّة. وكذلك ما يستظهر من بعض الروايات من عنايته تعالىٰ لإبقائه وإدامته وإفاضته مايحتاج إليه الخلق وإعطائه مالا يستغنون عنه.

في العيون ٢٨٢/١، عن محمد بن القاسم الأستراباديّ المفسّر مسنداً عن الحسن بن عليّ، عن أبيه، عن جدّه عليهم السّلام قال: جاء رجل إلى الرّضا عليه السّلام فقال له: يا ابن رسول الله، أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: «الحمد لله ربّ العالمين» ماتفسيره؟ فقال: لقد حدّثني أبي، عن جدّي، عن الباقر، عن زين العابدين، عن أبيه عليهم السّلام أنّ رجلاً جاء إلىٰ أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: أخبرني عن قوله الله عزّ وجل: «الحمد لله ربّ العالمين» ما تفسيره؟ فقال:

... ربّ العالمين؛ وهم الجماعات من كلّ مخلوق من الجمادات والحيوانات. وأمّا الحيوانات، فهو يقلّبها في قدرته ويغذوها من رزقه ويحوطها بكنفه ويدبّر كلاً منها بمصلحته. وأمّا الجمادات، فهو يمسكها بقدرته. ويمسك المتّصل منها أن يتهافت. ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق. ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه. ويمسك الأرض أن تنخسف إلّا بأمره. إنّه لرؤوف رحيم.

أقول: قد تحصّل وتبيّن في المقام أنّ معنىٰ ربوبيّته تعالىٰ للعالمين، إيجادها علىٰ نظام متقن وتنظيم حكيم عليم، وإبقاؤها وإدامتها من حيث تربيتها وإصلاحها بعد إيجادها، على التفصيل الّذي في الرّواية.

قوله تعالىٰ: «الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ». (٣)

قد تقدّم تفسيرها في البسملة. وحيث إنّ البسملة جزء من السورة المباركة، فقد تكلّموا في وجه إعادتها وتكرارها.

فأقول: إذا تعلّق الغرض بذكر شيء في الكلام، فلا فرق في ذلك بين أن يكون في السورة الوحدة أو في غيرها. فلابدّ من إعادة كلّ ماتعلّق به الغرض ومسّت إليه الحاجة. فلا ينبغي أن يسمّىٰ ذلك تكراراً.

ولعلّ الفرق في المقامين والوجه واللّحاظ فيها أنّ الغرض المسوق له الكلام في البسملة أن تبتدأ باسمه تعالىٰ. والاسمان الكريمان جيء بهما لأجل تمجيد الذّات بالرحمانيّة والرحيميّة؛ بخلاف الآية المبحوث عنها هنا. فإنّ المقام مقام تحميد الذّات

ونعوتها وأفعالها. فيحمد تعالىٰ علىٰ ربوبيّته ورحمانيّته ورحيميّته ومالكيّته أي: يحمد تعالىٰ من حيث إنّه ربّ ورحمٰن ورحيم ومالك. فتدبّر فيما شرحنا لك من أنّ في التحميد معنى التنزيه والتمجيد.

قوله تعالىٰ: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ». (٤)

قال في الكشّاف ١١/١: قرئ: «مَلِك يوم الدّين» و«مالك» و«مَلْك» ـ بتخفيف اللّام. وقرأ أبو حنيفة (رض): «مَلَكَ يومَ الدّين» ـ بلفظ الفعل ونصب اليوم. و....

وقال في المجمع ٢٣/١، بعد ذكر القراءتين: «واختلفوا في أنّ أيّ القراءتين أمدح.» ثمّ شرع في ترجيح كلّ واحد من القراءتين وبيان ماهو أمدح منهما وماهو الأرجع في تمجيد الله سبحانه.

أقول: القرآن توقيفيّ وطريقه النقل المتواتر. والقرآن متواتر عند أهل البحث والتحقيق. وتعيين إحدى القراءتين وتأييد كلّ واحد منهما بالوجوه المحسّنة، لايرجع إلىٰ معنىً محصّل. ولا يثبت بهذه الوجوه أنّ القراءة المذكورة راجحة وغيرها ليس بقرآن.

فإن قلت: فما تقول في القراءات وخاصّةً القراءات المتواترة عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ عندهم علىٰ زعمهم؟

قلت: تواتر القراءات في كلّ طبقة من طبقات رواتها في كلّ قرن، دعوىٰ لاينبغي أن يصغىٰ إليها. ولا معنىٰ لتواتر سبع قراءات متضادّة عن النّبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ في كلّ طبقة من طبقاتها مع تكذيب بعضهم بعضاً.

فإن قلت: فما تقول في الرّوايات الّتي رووها أنّ القرآن نزل علىٰ سبعة أحرف كلّها شافٍ كافٍ؟

قلت: قد ذكر الشيخ في تبيانه ٧/١، أنّ المعروف من مذهب أصحابنا والشائع من أخبارهم، أنّ القرآن نزل بحرف واحد علىٰ نبيّ واحد.[١]

في الكافي ٦٣٠/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن الفضيل بن يسار قال:

---

١ ـ أنظر الكافي ج ٢ ص ٦٣٠.

قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: إنّ الناس يقولون: إنّ القرآن نزل علىٰ سبعة أحرف. فقال: كذب أعداء الله. ولكنّه نزل علىٰ حرف واحد من عند الواحد.

أقول: جواز القراءة بشيء من هذه القراءات حسب دلالة الدّليل علىٰ جوازه، لا يدلّ علىٰ كونه قرآناً.

قال الزمخشريّ في الكشّاف ١٢/١: فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقيّة. فلاتكون معطيةً معنى التعريف. فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنّما تكون غير حقيقيّة إذا أُريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال، فكان في تقدير الانفصال. كقولك: مالك السّاعة. أو غداً. فأمّا إذا قصد معنىٰ الماضي ـ كقولك: هو مالك عبده أمس ـ أو زمان مستمرّ ـ كقولك: زيد مالك العبيد ـ كانت الإضافة حقيقيّة؛ كقولك: مولى العبيد. وهذا هو المعنىٰ في «مالك يوم الدّين».

وقال في البيان / ٣١٨: وأمّا قول الكشّاف: «إنّ اسم الفاعل بمعنى الاستمرار» فهو واضح البطلان. فإنّ إحاطة الله تعالىٰ بالموجودات ومالكيّته لها، وإن كانت استمراريّة، إلّا أنّ كلمة مالك في الآية المباركة قد أُضيفت إلىٰ يوم الدّين وهو متأخّر في الوجود. فلابدّ من أن يكون اسم الفاعل المضاف إليه بمعنىٰ الاستقبال.

أقول: قد عرفت بما أحكمناه وأصّلناه في تفسير البسملة أنّ أسماء الله كلّها معارف موضوعة بالوضع الشخصيّ للذّات المقدّسة الإلٰهيّة؛ وكلّ منها تعبير بلحاظ خاصّ عن صفة كماليّة له تعالىٰ. فيمجّد ويقدّس سبحانه بكلّ واحد من هذه الأسماء الكريمة. ونحن في غنىً عن التكلّف في الجواب عن الإشكال المذكور. هذا أوّلاً.

وثانياً: إنّ من الأمور الّتي لاريب فيها، أنّ إضافة هذه الأسماء الحسنىٰ ليست لغرض التعريف والتخصيص ورفع الإبهام عن مفادها وإثبات مالكيّته تعالىٰ ليوم الدّين فقط ونفيه عمّا سواه. وإنّما الغرض منها تمجيده تعالىٰ وتعظيمه وتحميده وتسبيحه بهذه الأسماء، أي بمفادها. وإنّما يستقيم ذلك إذا كانت الأسماء معرفة. ولا ينبغي أن يقال: إنّ التمجيد والتسبيح يحصل في ضمن التعريف والتخصيص.

ولعلّ اللّحاظ المقصود في هذه الإضافة بيان بروز مالكيّته تعالىٰ وظهور سلطانه سبحانه بأكمل بروزاته وظهوراته. «وعنت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب

من حمل ظلماً». [طه (٢٠) / ١١١] فاستكانت له اليوم الجبابرة وذلّت الفراعنة، حيث أخذ تعالىٰ منهم ما أعطاهم من العظمة والكبرياء وسلب عنهم العزّة والبهاء. قال تعالىٰ:

«وما أدراك ما يوم الدّين * ثمّ ما أدراك ما يوم الدّين* يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله». [الانفطار (٨٢) / ١٧ـ١٩]

وقد ثبت بالبراهين القيّمة أنّ نعوته تعالىٰ فعليّة أزلاً وأبداً في شدّة غير متناهية، من غير احتياج في تحقّق مفادها إلىٰ ما يضاف إليه كي ينتزع مفهومها من ناحية المضاف إليه.

ولا كلام في إطلاق مالك ومَلِك ومليك عليه سبحانه. قال تعالىٰ:

«في مقعد صدق عند مليك مقتدر». [القمر (٥٤) / ٥٥]

«مَلِكِ النّاس * إله النّاس». [الناس (١١٤) / ٢ و ٣]

ومتعلّق هذه الأسماء الكريمة كلّ ماكان مملوكاً له تعالىٰ وينفذ فيه سلطانه ويجرىٰ فيه قضاؤه جلّ شأنه. فعليه لافرق بين مالك ومَلِك ومليك، إلّا من حيث هيئات هذه الأسماء الكريمة. فهو سبحانه مالك ومَلِك ومليك بالنسبة إلىٰ الأعيان والمواهب والعطايا والعفو والأخذ والهوان والخذلان، وما نعرفه ومالا نعرفه مطلقاً.

وكذلك الكتاب في المصادر الّتي أخذت منه هذه الأسماء. فلا دليل علىٰ أنّ المِلْك ـ بكسر الميم ـ متعلّق بالأعيان وأخذ منه مالك؛ وأنّ المُلْك ـ بضم الميم ـ متعلّق بالقبض والبسط والحكم والسياسة والتدبير والسلطنة، وأخذ منه المَلِك.

قال في لسان العرب ١٠/٤٩٢ ـ ٤٩٥: ابن سيّدة: المَلْك والمُلْك والمِلْك: احتواء الشيء والقدرة علىٰ استبداد به.... وماله مَلْك ومِلْك ومُلْك وَمُلُكٌ؛ أي: شيء يملكه. كلّ ذلك عن اللّحياني.... ومَلْك الطريق ومِلْكُه ومُلْكه: وسطه ومعظمه. وقيل: حدّه، عن اللّحياني. ومِلْك الوادي ومَلْكه ومُلْكه: وسطه وحدّه أيضاً، عنه أيضاً.

وأنت ترىٰ عدم مساعدة مافي اللّسان علىٰ شيء ممّا ذكر من الفرق بين هذه الأسماء ومصادرها. وفي الآيات الكريمة أيضاً شواهد علىٰ ماذكرنا. قال تعالىٰ:

«قل اللّهمّ مالك المُلْك». [آل عمران (٣) / ٢٦]

وبديهيّ أنّ من يكوم مالكاً للمُلك، يكون مالكاً لما يدلّ عليه الملك. وهذا نقض لما ذكر من أنّ الملك ـ بالضمّ ـ هو السّلطنة والسياسة ومالكيّة الأمر والنهي ونظام الاجتماع وأنّ المالك مختصّ بالأعيان فقطّ. وقال تعالىٰ:

«له مُلْك السمٰوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور». [الحديد (٥٧)/ ٥]

وفي سياقها آيات كثيرة في القرآن من إضافة الملك ـ بالضمّ ـ إلىٰ السمٰوات الشاملة بإطلاقها عِلْك الأعيان وأحكامها وشؤونها. وقال تعالىٰ:

«مَلِكِ النّاس». [الناس (١١٤) ـ ٢]

فإضافة المَلِك إلى الناس تفيد مالكيّة أعيانهم ونفوسهم لله سبحانه تكويناً وتشريعاً. فالتحقيق في المقام ثبوت مالكيته تعالىٰ بكلا المعنيين، وتمجيده وتعظيمه بكلا الوصفين، وصحّة استعمال كلّ واحد من هذه الأسماء في الموردين. وعلىٰ عهدة المفسّر توضيح الاهتمامات الملحوظة في موارد الاستعمال، لا توهّم اختصاص اسم بمورد بخصوصه والتكلّف في إرجاع ما يخالف ذلك بالتأويل والتوجيه إلىٰ غيره.

قال في المنار ٥٤/١: قرأ عاصم والكسائي ويعقوب: «مالك». والباقون: «مَلِك». وعليها أهل الحجاز. والفرق بينهما أنّ المالك ذوالمِلْك ـ بكسر الميم ـ والمَلِك ذو المُلك ـ بضمّها. والقرآن يشهد للأولىٰ بمثل قوله: «يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً». [الانفطار (٨٢) / ١٩] وللثانية بقوله: «لمن الملك اليوم». [غافر (٤٠) / ١٦]

أقول: وجه الاستشهاد بالآية الأولىٰ أنّ مفعول قوله: «لاتملك» هو «شيئاً» وهو من الأعيان. والوجه في الثانية أنّ الظاهر من الآية هي مِلكُ السّلطنة والأمر والنهي والمؤاخذة والمجازاة. وبالتأمّل في ما ذكرنا، يظهر ضعف ما ذكر.

معنى المُلك وحقيقته

قال في البيان ٣١٩/١: الملكيّة عند الفلاسفة هيئة حاصلة من إحاطة شيء بشيء، وهي أحد الأعراض التسعة. ويعبر عنها بمقولة الجدة؛ كالهيئة الحاصلة من إحاطة العمامة بالرأس والخاتم بالإصبع.

وقال العلّامة (قده) في كشف المراد / ١٧١: قال أبو علي: إنّ مقولة المِلْك لم أحصّلها إلى الآن. وتشبه أن تكون عبارة عن نسبة الجسم إلىٰ حاوٍ له أو لبعض أجزائه كالتسلّخ والتختّم.

أقول: هذا معنىً اصطلاحيّ. ومع قطع النظر عن صحّته وبطلانه خارج عن مفاد الآية وتفسيرها.

ومن إطلاقات الملك: الملك الشرعيّ. قال السيّد الشريف في كتابه التعريفات / ١٠٠: الملك ـ بكسر الميم ـ... في اصطلاح الفقهاء اتّصال شرعيّ بين الإنسان وبين شيء يكون مطلقاً لتصرّفه فيه وحاجزاً عن تصرّف غيره فيه.

وقال في مصباح الفقاهة ٢/٢٠: إنّ الملكيّة أمر اعتباريّ صرف، فلايحتاج إلىٰ محلّ موجود.

أقول: القول بأنّ الملكيّة أمر اعتباريّ غير مرضيّ عندنا علىٰ إطلاقه، ضرورة أنّ الإنسان حرّ وليس عبداً مملوكاً لأحدٍ بل هو مالك لنفسه بتمليك الله سبحانه، فما حصل له من كدّ يمينه وعرق جبينه فهو أولىٰ وأحقّ به من غيره فلايحتاج إلى اعتبار معتبر، ولا يسقط بإسقاط أحد. وهذه الأولويّة ليست منتزعة من جواز التصرّف كي يكون أمراً انتزاعياً من هذا الحكم الشرعي، وليست أيضاً أمراً اعتباريًّا دائراً مدار الاعتبار، بل هي معلولة لأفعاله وأعماله الّتي يملكها بالحقيقة. وكذلك الناميات والثمرات الّتي تترتّب عليها علىٰ سبيل المشروع والمعقول، تابعة لها كائنة ماكانت.

وأمّا المِلْك الحقيقيّ المقصود في المقام، فهو من أغمض المسائل الكلاميّة. والمالك من جملة نعوته تعالىٰ ومن أسمائه الحسنىٰ، لابدّ من إثبات هذا النعت فيه تعالىٰ والمعرفة به.

قال في آلاء الرحمٰن / ٥٥: «مالك يوم الدّين»: مالك يوم القيامة؛ وبيده أمره يتصرّف فيه بعدله أو برحمته كيف يشاء.

وقال الفيض (قده) في كتابه علم اليقين ١٤٤/١: المالك بمعنىٰ القادر التامّ القدرة. والموجودات كلّها مملكة واحدة هو مالكها وقادر عليها.

وقيل: الملك (الّذي عندنا في ظرف الاجتماع) هو نوع خاصّ من الاختصاص. وهو نوع قيام شيء بشيء يوجب صحّة التصرّفات فيه.... وهذا في الاجتماع معنىً

وضعيٌ اعتباريٌ غير حقيقيّ. وهو مأخوذ من معنًى آخر حقيقيّ نسمّيه أيضاً ملكاً؛ وهو نحو قيام أجزاء وجودنا وقوانا بنا. فإنّ لنا بصراً وسمعاً ويداً ورجلاً. ومعنىٰ هذا الملك أنّها في وجودها قائمة بوجودنا غير مستقلّة دوننا، بل مستقلّة باستقلالنا؛ ولنا أن نتصرّف فيها كيف شئنا. وهذا هو الملك الحقيقيّ. والّذي يمكن انتسابه إليه تعالىٰ بحسب الحقيقة، هو حقيقة الملك دون الاعتباريّ الّذي يبطل ببطلان الاعتبار والوضع.

أقول: المالكيّة عند أرباب الشرائع والملل من أشرف نعوته تعالىٰ ومن أجلّ كمالاته سبحانه. وقوام الاختيار إنّما هو بالمالكيّة والسلطان الثابت بالذات علىٰ جميع ما سواه تعالىٰ، وعلىٰ شؤونهم، فالاختيار يعلّل بالمالكيّة الذاتيّة. فهو الملك الحقّ القيّوم، وله الأمر من قبل ومن بعد. وهو تعالىٰ قبل وجود الشيء مالك علىٰ إيجاده وبعده مالك علىٰ إبطاله. فالمالكيّة تنافي الوجوب والإيجاب وتنافي العلّيّة التامّة. وطريق التذكير إلىٰ هذا الكمال هو التذكيرات الواردة في الكتاب والسنّة من إحداث العالم وما فيها، وأنّه تعالىٰ يعطي ويمنع، ويهب ويسلب، ويعزّ ويذلّ، ويفقر ويغني؛ وبالجملة جميع التقلّبات المشهودة في الخلق، المعلومة بالعلم الضروريّ. قال تعالىٰ:

«قل اللّهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك علىٰ كلّ شيء قدير».

[آل عمران (٣) / ٢٦]

فهو سبحانه يعطي من يشاء ما يشاء كيف يشاء من المواهب والكمالات وسائر النعم بلا وجوب ولا إيجاب ولا تفويض.

وأوجه ماقيل في هذا الباب ماذكره في اللّسان حيث قال: «الملك احتواء الشيء والقدرة علىٰ الاستبداد به.» فليس المالك مرادفاً للقادر والقيّوم والمحيط. ولايجوز إطلاق كلّ واحد من هذه الأسماء في مورد الآخر؛ لفوات العناية الملحوظة في وضع كلّ منها بخصوصه. والمالكيّة كمال ذاتيّ له تعالىٰ؛ أي: إنّ كلّ ماسواه في قبضته وسلطته. وهي روح القدرة. فهو قادر لأنّه مالك.

والظاهر أنّ الفرق بينه وبين القادر، أنّ الاهتمام المنظور في القادر إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل. والاهتمام المنظور في المالك أنّ ماسواه في قبضته وحيطته وسلطانه.

والمقام يحتاج إلىٰ تفصيل أكثر من ذلك. فحيث إنّه تعالىٰ مالك بذاته لما سواه تكويناً وهو المالك تشريعاً أيضاً، فله الأمر والنهي والتقنين والتشريع والعطاء والمنع بل، وكلّ ما للمالك من التصرّف في مملوكه. ويعلّل كلّ ذلك بمالكيّة تكويناً من تدبير عليم حكيم.

في الإقبال / ٣٤٦، في دعاء سيّد الشهداء يوم عرفة، قال:

يامن ملك فقدر، وقدر فقهر.

وفي الصّحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه عليه السّلام بعد صلاة اللّيل قال:

اللّهمّ ياذا الملك المتأبّد بالخلود والسلطان الممتنع بغير جنود.... واستعلىٰ ملكك علوًّا سقطت الأشياء دون بلوغ أمده. ولايبلغ أدنىٰ ما استأثرت به من ذلك أقصىٰ نعت الناعتين.

وفيه أيضاً في دعائه السّلام في يوم عرفة قال:

سبحانك من مليك ما أمنعك.

أي: إنّه سبحانه مع مالكيّته لجميع ما سواه علىٰ الإطلاق، له المناعة والتأبّي عمّا يخالف مجده وسلطانه وكرامته.

وقوله تعالىٰ: «يوم الدِّين».

الدّين عبارة عن مجموع العقائد الحسنة الّتي يجب معرفتها والإقرار والاعتراف بها. وعبارة أيضاً عن مجموع الأحكام والفرائض والوظائف المقرّرة من الله سبحانه علىٰ عباده. وهذا هو الدّين الّذي ارتضاه تعالىٰ لأنبيائه ورسله.

قال تعالىٰ:

«إنّ الدّين عند الله الإسلام». [آل عمران (٣) / ١٩]

والظاهر أنّ المراد من الدّين في المقام هو الجزاء على الوظائف المقرّرة في الدّين. والمراد من اليوم، هو اليوم الّذي يحاسب الله عباده علىٰ أعمالهم ويجازي الصّالحين والمتّقين علىٰ صالحاتهم وتقواهم بتفضّله عليهم بالمثوبات والكرامات، ويجازي المجرمين على سيّئاتهم وعصيانهم بالحرمان والعقوبات ويحكم فيهم بعدله وقضائه.

وإضافة «مالك» إلىٰ «يوم الدّين». ليست للتخصيص وإثبات مالكيّته تعالىٰ

ليوم الدّين ونفيها عمّا سواه. بل، هو تعالىٰ مالك على الإطلاق لجميع ماسواه. ولعلّ العناية في الإضافة هي بروز مالكيّته تعالىٰ بأتمّ بروزاته في هذا اليوم، حيث عنت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلماً، وقد ذلّت الجبابرة واستكانت الفراعنة. وحيث إن الله أخذ منهم ما أعطاهم من القدرة والجلال والسلطنة في الدنيا، فعلموا أنّ الولاية لله الحق. قال تعالىٰ:

«وما أدراك ما يوم الدّين * ثمّ ما أدراك ما يوم الدين * يوم لاتملك نفسٌ لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله». [الانفطار (٨٢) / ١٧ ـ ١٩]

قوله تعالىٰ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ».

بيان: تحرير البحث في الآية الكريمة ضمن مسائل:

١ ـ لايخفىٰ أنّ الواجب علىٰ أهل البحث والاستنباط حمل الألفاظ الواردة في الكتاب والسّنّة علىٰ معانيها اللّغويّة والاجتناب عن حملها على المعاني المستحدثة المصطلحة بعد قرون من ظهور الإسلام. فإنّ ذلك يوجب خبطاً واضحاً وانحرافاً عجيباً في معرفة الحقائق والمعاني. فالعبادة من الألفاظ الشائعة في الآيات والأحاديث.

قال في لسان العرب ٢٧٣/٣: ومعنى العبادة في اللّغة: الطّاعة مع الخضوع. ومنه: طريق مُعبّد: إذا كان مذلّلاً بكثرة الوطء.

وقال الراغب في مفرداته /٣١٩: العبوديّة: إظهار التذلّل. والعبادة أبلغ منها؛ لأنّها غاية التذلّل. ولا يستحقّها إلّا من له الإفضال؛ وهو الله تعالىٰ.

أقول: وأمّا مصداقها؛ فكلّ طبيعة وقعت متعلّقةً للأمر والطّلب وأتىٰ بها المكلّف امتثالاً لهذا الأمر، فهي عبادة بالضرورة بالنسبة إلى الآمر؛ من غير فرق بين أيّ متعلّق وأيّ طبيعة.

فالسّجود لآدم بأمر الله عبادة لله ومكرمة لآدم. والطّواف حول البيت، وتقبيل الحجر الأسود، واستقبال البيت في الصّلاة بأمر الله، عبادة لله وتكريم للبيت والحجر. والصّلاة على الرسول الأعظم، وطلب الشّفاعة منه، وزيارة قبره المطهّر، والمودّة له ولآله الطاهرين بأمر الله، عبادة وتكريم له صلّى الله عليه وآله ولآله عليهم السّلام. وهذه كلّها عبادة لله يتقرّب بها إلىٰ الله سبحانه من دون أدنىٰ مساس وارتباط

بالمتعلّق من حيث كونها عبادةً.

ومن الطبائع ماهو عبادة بذاتها من غير احتياج إلىٰ قصد الأمر فيها؛ لحسنها في حدّ نفسها. ومن ذلك المحسّنات والمقبّحات والواجبات والمحرّمات الّتي من باب المستقلّات العقليّة، فإنّها لحسنها ووجوبها في ذاتها، ممّا يتقرّب به إلى الله. وأمر الشارع فيها، إرشاد وتذكرة إلىٰ ذلك؛ سواء كانت فريضة ـ مثل الإيمان بالله وتوحيد ذاته ـ أو فضيلة من الفضائل ـ مثل ذكر الله والثناء عليه وأمثالها. فكلّ ذلك ممّا يتقرّب به إلى الله سبحانه.

٢ ـ قد ذكرنا في المسألة الأولىٰ أنّ الإتيان بالطّبيعة المأمور بها، بقصد أمرها، يعدّ طاعة للآمر ويتحقّق به العبادة والتذلّل. وأمّا إتيان الطبيعة بقصد الغايات الأخرىٰ غير قصد الأمر ـ مثل الرّغبة في الجنّة والفرار من النّار ونظائرهما ـ ففيه إشكال. بل لابدّ في تحقّق عباديّتها قصد أمرها أوّلاً، كي تتحقّق عباديّتها، ثمّ إتيان تلك العبادة بقصد هذه الغايات المذكورة. ويحصل بها الإخلاص إذا كان قصد العامل بها خالصاً من الشوائب الأخرىٰ. فتحصّل ممّا ذكرنا أنّ قصد الأمر كما تتحقّق به العبادة، كذلك يتحقّق به الإخلاص أيضاً. وأمّا الغايات الأخرىٰ، فلا يتحقّق بها إلّا الإخلاص بالبيان الّذي ذكرناه.

فإن قلت: إن الغايات المذكورة إنّما يرجع نفعها إلىٰ شخص العامل فكيف يتحقّق بها الإخلاص والتقرّب بها إلى الله.

قلت: نعم؛ هذه العبادة وإن كانت مثل عبادة الأجير يطلب من المولىٰ أجرة عمله ومثل عبادة العبيد يأتي بالعمل خوفاً من مؤاخذة المولىٰ، إلّا أنّ الإيمان بالثواب والعقاب والتصديق بالجنّة والنّار، من أعلىٰ درجات الإيمان. فرضي الله تعالىٰ عن هؤلاء المؤمنين بذلك ووعدهم وعداً جميلاً من المثوبات الجليلة بحسب صريح الآيات والرّوايات؛ نحو قوله تعالىٰ:

«لمثل هذا فليعمل العاملون» [الصّافّات (٣٧) / ٦١]

فليعلم أنّ هذه المثوبات الكريمة تفضّل منه تعالىٰ لا بالاستحقاق لعملهم. وليس سبحانه مأخوذاً بأجور عبادة العابدين ومسؤولاً بأثمانها[١]. وحيث إنّه تعالىٰ

---

١ ـ كتبنا في ذلك شرحاً شافياً في رسالتنا في الحبط والتكفير.

صادق الوعد وناجز العدة ووافي القول، يقوم تعالىٰ شأنه بوعده الجميل. ولا يخلف الميعاد البتّة. قال تعالىٰ حكايةً عن عباده الصّالحين ومدحهم بذلك:

«ربّنا وآتنا ما وعدتنا علىٰ رسلك ولا تُخزنا يوم القيامة إنّك لاتخلف الميعاد». [آل عمران (٣) / ١٩٤]

وأمّا العبادات الذاتيّة ـ مثل الإيمان بالله وذكره وتمجيده وتقديسه جلّ ثناؤه ـ فلا احتياج في عباديّتها بقصد أوامرها الإرشاديّة ـ بل لايعقل ذلك ـ وإنّما تحتاج إلىٰ قصد الإخلاص. فيمكن تحصيله بقصد شيء من الغايات المذكورة مثل ابتغاء مرضاة الله وكراماته منحصراً بها.

٣ ـ إذا أحكمت ماتلونا عليك فنقول: هل الآية الكريمة مسوقة لإبراز إخلاص العمل وتزكيته من الرّياء وأمثاله من الشوائب كما هو المتوهّم في بدو النظر؟ أو إنّها مسوقة لإبراز استحقاق العبوديّة والعبادة لله سبحانه ونفي الأنداد والأضداد والأصنام؟

الأظهر هو الثاني؛ لوضوح أنّه لمّا قرأ العبد المصلّي ما حمده تعالىٰ نفسه علىٰ ربوبيّته ورحمانيّته ورحيميّته ومالكيّته تعالىٰ شأنه، واستنار قلبه بتلاوة هذه الآيات الكريمة ومعارفها وأنوارها، فأدرك موقعه وشأن موقفه الخطير بين يدي ربّه تعالىٰ، كأنّه لقّن إليه أن يخاطب ربّه ويعترف بما يجده في نفسه ببداهة عقله وعلمه بالعبوديّة ويحكم ميثاقها القدسيّ بينه وبين ربّه سبحانه فيتعهّد الله تعالىٰ أن لايعبد إلّا إياه، ولا يتّخذ معبوداً سواه، وأن لايشرك بربّه شيئاً من هذه الأنداد والأضداد والأصنام.

فلمّا تمكّن في هذا الموقف الخطير قال: «إيّاك نعبد». وتقديم «إيّاك» لانحصار العبوديّة لله سبحانه. وعبّر بقوله: «نعبد» إعلاناً بأنّه أدرج نفسه في زمرة الموحّدين وجعلها في جملة المؤمنين وفيهم الأنبياء والرّسل والأوصياء والصدّيقون والصّالحون، يرجو من الله سبحانه إكرامه له وإيّاهم بكرمه ورحمته وتفضّله عليهم.

قوله تعالىٰ: «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». (٥)

لمّا أحكم العبد ميثاقه بالعبوديّة لله تعالىٰ وتعهّد حضوره بالوفاء والقيام علىٰ ذلك الميثاق فأدرك إنّيّته ونال ببداهة علمه فقره الذّاتيّ، التجأ إلىٰ ربّه تعالىٰ وسأله أن يعينه فيمن أعان من عباده المؤمنين وأوليائه المتّقين. وفي تقديم «إيّاك» علىٰ قوله:

«نستعين» دلالة وشهادة علىٰ أنّ المستعان هو الله تعالىٰ لا غيره.

في تفسير العيّاشي ١٩/١، عن محمّد بن سنان عن أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عن أبيه ـ عليهم السّلام ـ قال:

قيل لأبي حنيفة: ما سورة أوّلها تحميد وأوسطها إخلاص وآخرها دعاء؟

فبقي متحيّراً ثمّ قال: لا أدري.

فقال أبو عبدالله عليه السّلام: السورة الّتي أوّلها تحميد وأوسطها إخلاص وآخرها دعاء، سورة الحمد.

بيان: قوله عليه السّلام: «أوسطها إخلاص»؛ أي: الإخلاص في العبوديّة وأنّه سبحانه معبود لجميع من سواه وما سواه، لاشريك له ولا ضدّ له ولا ندّ له. ومعنىٰ الإخلاص في الاستعانة، هو أنّ المواهب كلّها لله وحده لاشريك له؛ يملّكها من يشاء مايشاء، وهو المالك لما ملّكهم والقادر لما عليه أقدرهم، فيبطل التفويض. كما قال عليّ عليه السّلام في الخطبة الأولىٰ من النهج: وكمال توحيده الإخلاص له.

وفيه أيضاً /٢٣، عن حسن بن محمّد الجمّال، عن بعض أصحابنا قال:

بعث عبدالملك بن مروان إلىٰ عامل المدينة أن وجّه إليّ محمد بن علي ابن الحسين ولا تهيّجه ولا تردعه واقض له حوائجه. وقد كان ورد علىٰ عبدالملك رجل من القدريّة، فحضر جميع من كان بالشّام، فأعياهم جميعاً. فقال: ماهذا إلّا محمد بن عليّ! فكتب إلىٰ صاحب المدينة أن يحمل محمّد بن عليّ إليه. فأتاه صاحب المدينة بكتابه. فقال له أبو جعفر عليه السّلام: إنّي شيخ كبير لا أقوىٰ على الخروج. وهذا جعفر إبني يقوم مقامي. فوجّهه إليه. فلمّا قدم علىٰ الأمويّ، ازدراه لصغره وكبره[1] أن يجمع بينه وبين القدريّ، مخافة أن يغلبه. وتسامع النّاس بالشّام بقدوم جعفر لمخاصمة القدريّة.

فلمّا كان من الغد، اجتمع الناس بخصومتهما. فقال الأمويّ لأبي عبدالله

---

١ ـ في البحار ٥٥/٥، وكره أن يجمع.

عليه السّلام: إنّه قد أعيانا أمر هذا القدريّ. وإنّما كتبت إليك لأجمع بينك وبينه. فإنّه لم يدع عندنا أحداً إلّا خصّمه. فقال عليه السّلام: إنّ الله يكفينا.

قال: فلمّا اجتمعوا قال القدريّ لأبي عبدالله عليه السّلام: سل عمّا شئت.

فقال له: إقرأ سورة الحمد.

قال: فقرأها. وقال الأمويّ ـ وأنا معه ـ: ما في سورة الحمد علينا؟! إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

قال: فجعل القدريّ يقرأ الحمد حتّىٰ بلغ قول الله تبارك وتعالىٰ: «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين».

فقال له جعفر عليه السّلام: قف! من تستعين؟! وما حاجتك إلى المعونة؟! إنّ الأمر إليك!

فبهت الّذي كفر. والله لايهدي القوم الظّالمين.

قوله تعالىٰ: «اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ». (٦)

بيان: الهداية مايقابل الضّلالة؛ وهو الجهل بالواقع ونسيانه والغفلة عنه. والهداية أمر عينيّ نوريّ خارجٌ عن ذات الإنسان؛ أفاضها الله علىٰ خلقه إفاضةً عامّةً وسيعة. وهي بيده تعالىٰ، ليس للعباد فيها صنع؛ سواء كانت إفاضةً ابتدائيّةً أو جرت في سبيل حصولها وتحصيلها سنّة الأسباب والعلل؛ كباب التعاليم. فلو تمّت الأسباب والشرائط، فهي بعد بيده تعالىٰ أيضاً. وليس الأمر بحيث يهتدي من يشاء بما يشاء كيف يشاء. لأنّ الاهتداء إلىٰ تنظيم الأسباب وتحصيل الشروط من هداية الله سبحانه أيضاً. فإذن تنحلّ الهداية بحسب مواردها وباعتبار الواجدين إيّاها إلىٰ ما لايحصيها إلّا الله. فسبحان ربّنا الّذي أعطىٰ كلّ شيء خلقه ثمّ هدىٰ.

ولا خفاء أنّ استعمال الهداية في كلّ واحد من هذه الأنواع والأفراد، هو من باب استعمال الكلّي في فرده ونوعه، لا من باب المجاز، ولا من باب الوضع الشخصيّ في كلّ واحد منها.

إذا تقرّر ذلك فنقول: إنّ من جملة متعلّقات الهداية، هي الهداية إلىٰ دين الله

الّذي ارتضاه لأنبيائه ورسله. وحيث إنّ الهداية مختلفة بحسب مواردها ومتفاوتة أيضاً من حيث شدّتها ونوريّتها، بحسب مراتب العارفين والواجدين إيّاها ـ فإنّ فوق كلّ ذي علم عليم ـ وكانت إفاضته تعالىٰ إيّاها آناً فآناً، فلا محالة يكون طلب الهداية من الله سبحانه من كلّ فرد وفرد استزادة واستبقاء؛ واستدامةً لما وجد منها وطلباً للعصمة فيها. فإنّ القلوب ترجع إلىٰ عماها بعد هداها. فالعصمة في الهداية والثبات والاستقامة في العمل طبقها، هداية أخرىٰ. فلا ينبغي أن يصغىٰ لما يمكن أن يقال: إنّ طلب الهداية من المؤمن المهتدي تحصيل للحاصل.

في العيون ١٠٧/٢، في العلل الّتي ذكر الفضل بن شاذان أنّه سمعها عن الرضا عليه السّلام قال:

«اهدنا الصراط المستقيم» استرشاد لأدبه، واعتصام بحبله، وستزادة في المعرفة بربّه وبعظمته وبكبريائه.

في معاني الأخبار /٣٣، عن محمّد بن القاسم الأسترآباديّ مسنداً عن الحسن ابن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسىٰ بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام [عن آبائه] في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» قال:

أدم لنا توفيقك الّذي به أطعناك في ماضي أيّامنا حتّىٰ نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا....

وفي العيون ٣٠٥/١، عن محمد بن القاسم الأسترآباديّ مسنداً عن الحسن بن عليّ، عن أبيه عليّ بن محمّد، عن أبيه محمد بن عليّ، عن أبيه الرّضا عليّ بن موسىٰ، عن أبيه موسىٰ بن جعفر عليهم السّلام قال: قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «اهدنا الصراط المستقيم» قال:

يقول: أرشدنا إلى الطّريق المستقيم. أي: أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّي إلىٰ محبّتك والمبلّغ دينك والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك.

أقول: صريح هذه الرّوايات يشهد علىٰ ما ذكرناه من أنّ المراد من الهداية هو مطلقها؛ أي: الاسترشاد وطلب الهداية إلى الدّين بجميع شؤونه الوسيعة، وطلب المزيد فيها والعصمة والثبات والدّوام عليها والاستقامة في العمل طبقها. فإنّ الهداية إلى

الدّين من غير الهداية إلى العمل ليست هداية نافعةً وهداية على الإطلاق.

ثمّ إنّ الهداية المسؤول بها منه تعالىٰ حيث إنّه عرفان حقيقيّ لدين الله وصراط أنبيائه بإفاضة منه تعالىٰ يجب الاهتداء إليه والقيام به من التوحيد إلىٰ آخر شؤونه الحقّة من أحكامه وحلاله وحرامه وعبوديّته وحدوده وفضائله وكرائمه ومكارمه. فالاهتداء بالدّين بهذا المعنىٰ عين الاستقامة فيه بالنسبة إلىٰ كل سالك وسالك. وإلّا فمجرّد هدايته بمعنىٰ معرفة الصراط من دون التثبّت التامّ فيه ومن دون القيام العملي فيه، لايكون مستقيماً. وفي قوله تعالىٰ: «وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً» [الجنّ (٧٢/ ١٦)] و «فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك» [هود (١١) / ١١٢]، دلالة علىٰ ذلك. والشواهد علىٰ ذلك كثيرة لمن تتبّع.

فظهر ممّا ذكرنا أنّ المراد من الصراط، الدّين أصوله وفروعه، معارفه وأحكامه. والأخبار المذكورة مع اختلافها بحسب موارد الهداية، إنّما هي لبيان مصاديق الهداية، وليست مسوقة لبيان تمام المراد من الآية الكريمة، كي يحصل التنافي بينها. فإنّ ثبوت الشيء لا ينافي ثبوت ماعداه.

ثمّ لايخفىٰ أنّ الصراط المذكور في هذه الآية وفي هذه الرّوايات، هو غير الصّراط المذكور في أخبار أخرىٰ من أنّه جسر علىٰ جهنّم. فلا وجه لإيراد الأخبار الراجعة إلىٰ أنّ الصّراط علىٰ جهنّم في تفسير هذه الآية.

قوله تعالىٰ: «صِراطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ».

هذا توضيح وتفسير للصّراط المستقيم؛ أي: إنّه صراط الأنبياء المقرّبين والرّسل والصّدّيقين الّذين اصطفاهم الله سبحانه لدينه واختارهم لأماناته وأكرمهم بمعرفته ومعرفة توحيده ونعوته وكمالاته، وأوصيائهم الطّاهرين. ويدخل في زمرتهم أتباعهم السّالكون سبيلهم والمقتفون آثارهم الّذين لم يبدّلوا ولم يغيّروا. وهذا هو الصّراط المستقيم. هذه هي النعمة الكريمة الكبيرة الإلهيّة. وليس المراد من النعمة، النعم المادّيّة الدنيويّة بالضّرورة.

قوله تعالىٰ: «غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّيْنَ». (٧)

صفة ونعت لقوله تعالىٰ: «الّذين». فالآية الكريمة تنزيه وتقديس لهؤلاء الكرام الأبرار المنعم عليهم، عمّا يوجب سخطه تعالىٰ عليهم وقطع وقايته لهم

وخذلانهم بالاضلال.

في تفسير العيّاشي ٢٤/١، عن معاوية بن وهب قال:

سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله: «غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين».

قال: هم اليهود والنصارىٰ.

أقول: اليهود والنصارىٰ من باب بيان المصداق البارز، لابيان تمام المراد. فيشمل جميع الفرق المنحرفة عن الحقّ الواضح؛ مثل النصّاب والمرتابين وأهل البدع وغيرها.

ويؤيّد ما ذكرنا، ما في العيون ١٠٧/٢، في العلل الّتي ذكر الفضل بن شاذان أنّه سمعها عن الرّضا عليّ بن موسىٰ عليهما السّلام قال:

«صراط الّذين أنعمت عليهم» تأكيد في السؤال والرغبة، وذكر لما تقدّم من أياديه ونعمه علىٰ أوليائه، ورغبة في مثل تلك النعم.

«غير المغضوب عليهم» استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفّين به وبأمره ونهيه.

«ولا الضّالّين» اعتصام من أن يكون من الضّالّين الّذين ضلّوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ولا يخفىٰ أنّه سبحانه منزّه ومقدّس عن الغضب والرّضا بالمعنى المتعارف في غيره تعالىٰ من المخلوقين. بل الغضب فيه تعالىٰ عين حكمه وإجراء قضائه الحكيم بالعقاب علىٰ كلّ من خالف الحقّ وعدل عنه. وكذلك الكلام في طرف الثواب. فإنّه تعالىٰ وفيّ شكور لايضيع لديه أجر المحسنين ولا يضيع إيمان المؤمنين.

فإن قلت: إنّ «غير» نكرة متوغّلة في الإبهام، فلا تصير معرفة بإضافتها إلى المعرفة. فكيف يصحّ أن تقع صفة لـ«الّذين» وهي معرفة؟

قلت: نعم، قد قال ابن هشام في المغني ٢١٠/١: تستعمل غير المضافة لفظاً علىٰ وجهين: أحدهما وهو الأصل، أن تكون صفة للنّكرة؛ نحو: «نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل» [فاطر (٣٥) /٣٧] أو لمعرفة قريبة منها؛ نحو: «صراط الّذين أنعمت

عليهم» ـ الآية. لأنّ المعرّف الجنسيّ قريب من النكرة. ولأنّ غيراً إذا وقعت بين ضدّين، ضعف إبهامها؛ حتّىٰ زعم ابن السّراج أنّها تتعرّف. ويردّه الآية الأولىٰ.

فإن قيل: إنّ الشريعة الإسلاميّة هي أكمل الشرائع بحسب العلوم والمعارف الممكن للبشر نيلها، وأوسعها وأجمعها للأحكام العباديّة والاجتماعيّة وغيرها. ونبيّها صلّى الله عليه وآله أعظم النبيّين دعوةً، وأوضحهم محجّةً، وأقربهم من الله منزلةً. فكيف يسأل هذه الأمّة الفاضلة الهداية إلىٰ هدى المرسلين؟!

قلت: نعم؛ إنّ دين الله الّذي ارتضاه لأنبيائه هو الإسلام. وهو وإن كان واحداً من حيث الحقائق والمعارف، إلّا أنّ العلم والعرفان بها ودعوة النّاس إليها ليس علىٰ حدّ سواء. وكذلك موقع الأحكام من العبادات وغيرها من القوانين الضّامنة لسعادة دينهم ودنياهم، ليست متساوية بالنسبة إلى الإنسان السابق وإلى الإنسان الحاضر. إلّا أنّ ذلك كلّه بمعزلٍ عن تفسير الآية الكريمة. فإنّ القرآن الكريم يدعونا إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبجميع ما جاؤوا به وأن لانفرّق بين أحدٍ من رسله. والكاملون من هذه الأمّة لايستغنون عن هدى السابقين، فضلاً عن غير الكاملين.

فيجب على الجميع التمسّك والاعتصام بهدىٰ هؤلاء الولاة المطهّرين أجمعين. وأمّا هو شخصه صلّى الله عليه وآله أكرمه الله بجميعٍ ما أكرم أنبياءه السابقين من الهداية والنور، مع مزيد ما اختصّه سبحانه بهذا القرآن المشتمل على الشريعة الدائمة والحجّة الخالدة بخلود الدّنيا. فسؤاله صلّى الله عليه وآله الهداية إلىٰ صراط السابقين، لا ينافي سؤاله صلّى الله عليه وآله الهداية إلىٰ ماسواها والعصمة والزّيادة فيما أعطاه. فثبوت هداية لاينافي ثبوت ماعداها. قال تعالىٰ:

«وقل ربِّ زدني علماً». [طه (٢٠) / ١١٤]

«أولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوّة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده». [الأنعام (٦) / ٨٩ و ٩٠]

والشواهد علىٰ ذلك كثيرة.

٢ •

سورة البقرة

في المجمع ١٠/٥٠٤، في حديث عن ابن عباس أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن
قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: «الم». (١)

هذه الحروف لايعلم تفسيرها ولا تأويلها إلّا الله سبحانه وأولياؤه المطهّرون. والمفسّرون لم يأتوا في تفسيرها بشيء مبين وما قالوا فيها إنّما هي تخريصات بالقول لا

وزن لها ولا اعتبار بها بحسب العقل والنقل.

قوله تعالىٰ: «ذٰلِكَ»

إشارة إلى الكتاب. والكتاب مصدر بمعنى المكتوب والظاهر من كلمات اللغويّين أنّه بمعنى المجموع.

قال في لسان العرب ١/٧٠١: الكتب: الجمع، تقول منه: كَتَبتُ البغلة إذا جمعتُ بين شُفريها بحلقة أو سير.... والكتيبة: ما جمع فلم ينتشر. وقيل هي الجماعة المستحيزة من الخيل، أي في حيّز علىٰ حِدَةٍ.... ومنه قيل: كتبت الكتاب، لأنّه يجمع حرفاً إلىٰ حرفٍ.

قوله تعالىٰ: «لا رَيْبَ فِيْهِ»

بيان: واضح عند أولي الألباب أنّه يستحيل تخلّل الريب في آياته ومقاصده ومراميه ولايمكن لأحد إبراز الارتياب فيه لأنّه مؤسّس على التذكرة والإرشاد إلى الله العزيز القدّوس المتجلّي لخلقه بخلقه الخارج المنزّه عن حدّ التعطيل والتشبيه، وكذلك تنبيه إلى ما تدركه العقول من المحسّنات الذاتيّة العقليّة مثل صيانة النفس من ارتكاب القبيح وإيذاء الناس، والمقبّحات الذاتيّة العقليّة مثل التجاوز علىٰ شؤون الناس وحقوقهم والاستكبار عليهم، والواجبات الذاتيّة العقليّة مثل الإيمان والإذعان بالله سبحانه ونعوته وكبريائه وجلاله في مرتبة معرفته سبحانه ومعرفة نعوته وكمالاته، والمحرّمات الذاتيّة العقليّة مثل الكفر والإنكار والإدبار عليه تعالىٰ في مرتبة معرفته سبحانه.

هذا أوّلاً. وثانياً: إنّ المتكلّم بهذا الكلام هو الله سبحانه فلا معنىٰ للريب في كلامه تعالىٰ. وسيجيء البحث في ذلك إن شاء الله في قوله تعالىٰ «وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا علىٰ عبدنا فأتوا بسورة من مثله» [البقرة(٢)/٢٣]

قوله تعالىٰ: «هدًى لِلْمُتَّقِينَ». (٢)

الهداية في المقام هي الدلالة والعلم والعرفان الحقيقي يفيضها الله تعالىٰ علىٰ من يشاء من عباده فيعرف ويهتدي؛ ويقبضها فيجهل ويغفل. والتعبير بالهدىٰ عن الهادي للمبالغة، مثل زيد عدلٌ. فـ«هدًى للمتّقين» مسوق لتمجيد القرآن وفخامة شأنه، ومن نعوته الجميلة الجليلة. ومن هنا يعلم أنّ اللّام ليس لإفادة الاختصاص

للمتّقين فقط بداهة أنّ تشريف القرآن وتمجيده بكونه «هدًى للمتقين» لا يفيد اختصاص الهداية للمتقين، ضرورة أنّ ثبوت شيء لشيء لا ينافي ثبوته لما سواه. فالقرآن الكريم هداية للناس أجمعين، قال تعالىٰ:

«شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن هدًى للناس وبيّنات من الهدىٰ والفرقان». [البقرة (٢) / ١٨٥]

و «قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبّت الذين آمنوا وهدًى وبشرىٰ للمسلمين». [النحل (١٦) / ١٠٢]

قال في المنار ١٢٦/١ في تفسير «المتقين»: كان من الجاهلين من مقت عبادة الأصنام، وأدرك أنّ فاطر السماوات والأرض لا يرضيه الخضوع لها، وأنّ الإله الحق يحبّ الخير ويبغض الشرّ فكان منهم من اعتزل الناس لذلك... وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالىٰ بمثل قوله: «من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء اللّيل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين». [آل عمران (٣) / ١١٣ - ١١٤]... فأمثال هؤلاء من الفريقين هم المراد بهم بالمتقين ولا حاجة إلىٰ تخصيص ما جاء في وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين بل أولئك هم الّذين كان في قلوبهم اشمئزاز ممّا عليه أقوامهم، وفي نفوسهم شيء من التشوّف إلىٰ هداية يهتدون بها ويشعرون باستعدادهم لها إذا جاءهم شيء من عند الله تعالىٰ، فالمتّقون في هذه الآية إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم ضرباً من الرشاد ووجد في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقّي نور الحقّ يحملهم علىٰ توقّي سخط الله تعالىٰ والسعي في مرضاته....

أقول: هذا البيان في نهاية الضعف فإن «المتقين» جمعٌ محلًّى بالألف واللّام فيفيد العموم الأنواعي ويشمل جميع مراتب أهل التقوىٰ والصلاح مع اختلاف درجاتهم بحسب معارفهم وكمالاتهم التّقي فالأتقىٰ، ثمّ الأتقياء الذين يراعون الله بتمام وسعهم وجدّهم يوفّقهم الله سبحانه أن يكونوا مخاطبين بقوله: «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون». [آل عمران (٣) / ١٠٢]

في معاني الأخبار / ٢٤٠، مسنداً عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبدالله عليه

السّلام عن قول الله عزّ وجلّ: «اتّقوا الله حقّ تقاته» قال:

يُطاعُ فلا يعصىٰ، ويُذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر.

وفي معناها روايات أُخر في تفسير الآية.

فالمراد من «المتقين» هو هؤلاء الكرام الأبرار فلا محصّل لتخصيصهم بالكفّار المنصفين والمشمئزّين عن عبادة الأصنام. ولو فرضنا شمول «المتقين» لهم أيضاً فلا مناص لتخصيصهم بالآيات التالية الّتي فيها ذكر أوصاف المتقين.

وتفسير الفطرة بالمعنى الّذي ذكره لا دليل ولا شاهد عليه من الكتاب والسنّة. والحقّ الّذي لاريب فيه في تفسير الفطرة، هو أنّها عبارة عن معرفة الإنسان ربّه تعالىٰ وتوحيده سبحانه معرفة خارجةً عن الحدّين ـ حدّ التعطيل وحدّ التشبيه ـ ومعرفةً بسيطةً لايعرف أنّه يعرف فيحتاج اشتدادها وزيادتها إلىٰ تذكير المذكّرين وتنبيه العارفين، فلاتزال تزاد حتّىٰ يبلغ المؤمن درجات سامية ومقامات عالية من الايمان والعرفان به تعالىٰ وبنعوته ومعاني أسمائه سبحانه.

في النهج، الخطبة /١، قال مولانا سيّد الموحدين صلوات الله عليه:

«فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّرهم منسي نعمته».

والفطرة بهذا المعنىٰ من الواضحات في الكتاب والسنّة.

قوله تعالىٰ: «الّذينَ يُؤمِنونَ بالغَيبِ»

أقول: هذا نعت ووصف للمتّقين الّذين عرفوا الله سبحانه وتوحيده وأحكموا عقد طاعته والإتّقاء في ساحته تعالىٰ، وقد أثنى الله سبحانه علىٰ هؤلاء الأبرار أنّهم يؤمنون بالغيب بما هو غيب من حيث إنّه تعالىٰ أمرهم بالايمان به. والغيب ـ بالألف واللّام ـ يفيد العموم والمراد منه ما يقابل الشهادة. والمثال الواضح لذلك هو العوالم الأخرويّة بعد الدنيا من البرزخ ومواقفه إلىٰ موقف البعث. وبعد البعث من الجنّة والنار وما فيها من الحقائق. ومن ذلك الباب حقيقة الوحي من النبوّة والرسالة والتحديث. وكذلك الحقائق والحوادث الّتي قد مضت أو الوقائع الّتي تأتي في المستقبل قال تعالىٰ:

«يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلّا بما شاء». [البقرة (٢) / ٢٥٥]

ومن الغيب ما يستحيل الاطلاع عليه واستكشافه وهو الّذي ضرب الله عليه الحجاب الصمدي ولا يظهر علىٰ غيبه أحداً من البشر طبق السنن الدائرة في التعاليم العادية. فينحصر العلم علىٰ تلك الغيوب المستورة تحت الحجاب الصمدي بإفاضة العلم منه تعالىٰ كما فعل ذلك لعدّة خاصّة من المقرّبين الّذين ارتضاهم الله لغيبه واختارهم لسرّه علىٰ نحو الإعجاز وخرق العادة. قال تعالىٰ:

«وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء». [آل عمران (٣) / ١٧٩]

و«عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً * إلّا من ارتضىٰ من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً». [الجنّ (٧٢) / ٢٦ ـ ٢٧]

ومن الغيب ما كان غائباً عن الحواسّ والعقول والأفهام إلّا أنّه ليس من المستحيل الوقوف عليه من طريق الأسباب والعلل العادية مثل الوقائع الحادثة في أقطار العالم فإنّها غيب عند قوم وشهادة عند آخرين.

ومنه مايمكن الاطّلاع عليه طبق السنن الجارية في التعاليم الدائرة اليوم، فإنّه ينال عدّة من الباحثين والمتفكّرين أموراً ويكشفون مالم يطّلع عليه أحدٌ إلىٰ يومنا هذا من الأسرار المودعة في الطبيعة.

وفي الآية الكريمة شهادة علىٰ أنّ الإيمان بالغيب من جملة الفرائض الضرورية لمن آمن بالقرآن حيث ذكر الإيمان بالغيب في سياق إقامة الصلاة. ويشهد علىٰ ذلك كثير من آيات القرآن الكريم فإنّ الإيمان بالآخرة الّتي هي في أكبر الغيوب قد وقع عديلاً للإيمان بالله، وترك الإيمان بالآخرة عديل ترك الإيمان بالله سبحانه. قال تعالىٰ:

«ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر». [البقرة (٢) / ٢٣٢]

و«ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر». [التوبة (٩) / ٩٩]

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا. وواضح أنّ الله سبحانه ليس من مصاديق الغيب كي يكون متعلق الإيمان في المقام هو الله سبحانه بل متعلق الإيمان هو الغيب

المحجوب تحت الحجاب العدمي.

وأمّا معنى الغائب في أسمائه تعالىٰ هو تأبّيه وقدسه سبحانه عن المعقوليّة والمفهوميّة والمعلوميّة بحسب العقول والعلوم والأفهام والأبصار وهو تعالىٰ قد عرّف نفسه لعباده والتعريف فعله ولا كيف لفعله كما لاكيف لذاته فعباده يعرفونه تعالىٰ بحقيقة العرفان بتعريفه. ونظير الغائب فيه تعالىٰ كونه باطناً، كما قال أمير المؤمنين عليه السّلام في النهج، الخطبة / ٦٥:

«كلّ ظاهر غيره باطن وكلّ باطن غيره غير ظاهر».

فمعنىٰ كونه تعالىٰ باطناً هو تأبّيه وقدسه سبحانه أن تنال منه العقول والعلوم والأفهام شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً فهو سبحانه في عين بطونه ظاهر بذاته يستحيل عليه الخفاء ظهوراً مقدساً ومتعالياً عن المعقوليّة والمفهوميّة.

قوله تعالىٰ: «وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ».

بيان: ليس المراد من إقامة الصلاة إتيانها كيف ما اتّفق بل المراد إقامة الصلاة بحدودها وشرائطها المقرّرة حتّىٰ تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر وموجبة لتذكية جوانح المصلّي وجوارحه. قال تعالىٰ:

«وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبر والله يعلم ماتصنعون». [العنكبوت (٢٩) / ٤٥]

في المستدرك ٩١/٤، عن فلاح السائل، ذكر الكراجكي في كنز الفوائد قال: جاء في الحديث أنّ أبا جعفر المنصور خرج في يوم الجمعة متوكّئاً علىٰ يدي الصادق جعفر بن محمد عليهما السّلام... فالتفت رزّام إلىٰ الإمام جعفر بن محمد عليهما السّلام فقال له: أخبرني عن الصلاة وحدودها. فقال له الصادق صلوات الله عليه:

للصلاة أربعة آلاف حدّ لست تؤاخذ بها. فقال: أخبرني بما لا يحلّ تركه ولا تتمّ الصلاة إلّا به. فقال أبو عبدالله عليه السّلام: لا تتمّ الصلاة إلّا لذي طهر سابغ وتمام بالغ، غير نازغ ولا زائغ، عرف فوقف، وأخبت فثبت، فهو واقف بين اليأس والطمع، والصبر والجزع، كأنّ الوعد له صنع والوعيد به وقع، بذل عرضه وتمثل غرضه، وبذل في الله المهجة، وتنكّب إليه المحجّة، غير مرتغم بارتغام، يقطع علائق الاهتمام

بعين من له قصد وإليه وفد ومنه استرفد، فإذا أتىٰ بذلك كانت هي الصلاة الّتي بها أمر وعنها أخبر وأنّها هي الصلاة الّتي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالىٰ: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». (٣)

أقول: إطلاق الآية الكريمة شامل علىٰ إنفاق المال والجاه وجميع مايمكن أن يتوسّل به إلىٰ إعانة الغير، وخاصّة نشر العلم والحقائق لهداية الناس وتربيتهم.

قال في المجمع ٣٩/١: روى محمد بن مسلم عن الصادق عليه السّلام أنّ معناه: وممّا علّمناهم يبثون.

وفي تفسير العيّاشي ٢٥/١، عن سعدان بن مسلم، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السّلام في قوله... : «وممّا رزقناهم ينفقون» قال:

وممّا علّمناهم ينبثون.

وفي معاني الأخبار /٢٣، عن أحمد بن زياد، مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

... «وممّا رزقناهم ينفقون» قال: ممّا علّمناهم ينبثون، وممّا علّمناهم من القرآن يتلون.

قوله تعالىٰ: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».

أقول: الآية الكريمة عطف علىٰ قوله: «يؤمنون بالغيب» وتوصيف ثانٍ للمتّقين، وثناء بالغ عليهم بأنّهم كما آمنوا بالغيب المكنون حسب ما دعا إليه القرآن الكريم كذلك يؤمنون بما أنزل الله عليك وما أنزله تعالىٰ على الأنبياء والمرسلين من قبلك فهذا البيان تعميم بعد التخصيص. وواضح أنّ المتّقين الّذين نالوا وفازوا بمرتبة التقوىٰ بهداية القرآن في مرتبة تلبّسهم بصفة التقوىٰ متلبّسون أيضاً بالإيمان بالغيب والإيمان بجميع ما أنزل الله علىٰ رسوله وجميع الأنبياء الماضين. فالمتّقون بعينهم مصداق للمؤمنين بالغيب ومصداق أياضٌ للمؤمنين بجميع ما أنزل الله على رسوله وأنبيائه في مرتبة واحدة وفي عرض سواء وبالعكس أيضاً.

قوله تعالىٰ: «وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ». (٤)

توصيف ثالث وتحسين آخر في حقّ المتّقين بأنّهم موقنون بالآخرة الّتي هي من أعظم الغيوب والإيمان بها عديل الإيمان بالله سبحانه. والمراد من الآخرة ماهو في مقابل الدنيا مثل الغيب مقابل الشهادة أي، جميع العوالم بعد الدنيا وما فيها من الحقائق والأعيان أي، البرزخ وما بعده من العوالم واحداً بعد واحدٍ حتّىٰ تنتهي إلى العرض الأكبر على الله وهو موقف الحساب وما بعده من عوالم الجنّة والنّار إلى أن يستقرّ أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النّار وأوّل منازل الآخرة هو القبر.

في البحار ٢٤٢/٦، عن جامع الأخبار، عن النّبي صلّى الله عليه وآله قال:

إنّ القبر أوّل منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده ليس أقلّ منه.

وحيث إنّ لفظ «الآخرة» كثير الاستعمال في القرآن لايجوز الاقتحام في تفسيره بالنظر البدوي كما هو المأنوس في الأذهان بأنّ المراد من الآخرة هي القيامة ويوم الحساب مع أنّ القيامة من إحدىٰ مواقف الآخرة ومنازلها. فيمكن أن يراد منها مطلق الآخرة أو واحدة من مواقفها. فلابدّ في تفسيرها من النظر في الموارد المذكورة وتعيين مورد وموقف بخصوصه أو تثبيت عمومها وإطلاقها بالنسبة إلىٰ جميع المواقف.

وإطلاق الآخرة علىٰ غير القيامة وعلى البرزخ وما بعد الدّنيا كثير والبرزخ الذي فيه جنّات عدن من مصاديق الآخرة قال تعالىٰ:

«جنّات عدن الّتي وعد الرحمٰن عباده بالغيب إنّه كان وعده مأتيًّا * لايسمعون فيها لغواً إلّا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًّا». [مريم (١٩) / ٦١-٦٢]

في تفسير القمي ٥٢/٢، مسنداً عن أبي عبدالله عليه السّلام في قوله تعالى: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًّا» قال:

ذلك في جنّات الدنيا قبل القيامة. والدليل علىٰ ذلك قوله: «بكرة وعشيًّا» فالبكرة والعشيّ لاتكون في الآخرة في جنّات الخلد وإنّما يكون الغدوّ والعشيّ في جنّات الدنيا الّتي تنتقل إليها أرواح المؤمنين وتطلع فيها الشمس والقمر.

أقول: قوله عليه السّلام: جنّات الدنيا، لاينافي كون البرزخ من مصاديق

الآخرة؛ كما أنّ القبر أيضاً إنّما هو في الدنيا، مع أنّه أوّل منازل الآخرة:

قوله تعالىٰ: «أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (٥)

أي إنّ المتّقين الّذين ذكر الله تعالىٰ أعمالهم الصالحة الّتي تقدّم ذكرها صاروا واجدين الهداية من الله سبحانه ومتمكّنين منها بتمكينه تعالىٰ الهداية لهم وهو تعالىٰ قد أخبر وحكم علىٰ فلاحهم ونجاتهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالىٰ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...»

بيان: الكفر في اللّغة الستر. والمراد منه في موارد إطلاقه في الكتاب والسنّة هو مخالفة الإنسان ما علم في نفسه من الحقّ وإنكاره. والعناية واضحة فإنّه قد ستر ما قد تبيّن عنده من الحقّ المبين بعناده ولجاجه.

قال في لسان العرب ١٤٤/٥: كفر نعمة الله يكفرها كفوراً وكفراناً وكفر بها: جحدها وسترها... ورجل كافر: جاحد لأنعم الله، مشتقّ من الستر، وقيل: لأنّه مغطّى علىٰ قلبه.

وقال في مقاييس اللّغة ١٩١/٥: كفر ـ الكاف والفاء والراء ـ أصل صحيح يدلّ علىٰ معنىً واحد وهو الستر والتغطية يقال لمن غطّىٰ درعه بثوب: قد كفر درعه.

فالكفر والجحود عمل اختياري من العبد يشترط في حرمته مايشترط في غيره من التكاليف من الشرائط العامة مثل القدرة والاختيار وقيام الحجّة على الفاعل المكلّف والكفر مفهوم عام وسيع قد أطلق في الكتاب والسنّة على اختلاف الموارد، ولا ينحصر استعماله وإطلاقه في من جحد اصول الدين فقط كالتوحيد والرسالة نعم، الكفر الراجع إلىٰ أصول الدين له أحكام خاصّة وهذه الأحكام لاتوجب كون استعماله في تلك الموارد استعمالاً فيما وضع له أو حقيقةً شرعيّة أو متشرّعة فيها. فلابدّ للفقيه

من تشخيص مورد ومورد من أقسام الكفر واستنباط الأحكام الواردة في كلّ قسم منها بخصوصه من الوضعيّة والتكليفيّة. ويقابل الكفر في كلّ مورد الإيمان الواجب بالنسبة إليه.

وحرمة الكفر بالله تعالىٰ في مرتبة معرفته سبحانه ليست حرمة تعبديّة كما أنّ وجوب الايمان به تعالىٰ في مرتبة معرفته أيضاً ليس وجوباً تعبديًّا بل الإيمان به تعالىٰ واجب ذاتي في مرتبة معرفته سبحانه بضرورة من العقل علىٰ من عرف الله وتمّت عنده الحجّة وهكذا الأمر بالنسبة إلىٰ كلّ حقّ وحقيقة عُلم وعرف، فيدور الأمر بعد المعرفة بين الجحود والإنكار وبين الاهتداء والإقرار. فهذه الحرمة والوجوب من المستقلّات العقليّة الّتي لاتنالها يد الجعل والتشريع. وماورد في الكتاب والسنّة من الأمر والنهي تذكير وإرشاد وتثبيت وإمضاء لحكم العقول، بل الأمر في بعض الموارد لمكان شدّة الوضوح ورد علىٰ سبيل الاحتجاج والتوبيخ.

وليعلم أنّ المستفاد من الكتاب والسنّة أنّ معرفته سبحانه ومعرفة عدّة من شؤونه الذاتية من التوحيد والعلم ليست أمراً نظريًّا ليجب تحصيلها بل المعرفة إنّما تكون بتعريفه سبحانه وبفعله والانبياء مذكّرون لما أودع الله في ذوات الناس من نور الحق والنعمة المنسيّة والميثاق الفطري قال تعالىٰ:

«أفي الله شكٌّ فاطر السّمٰوات والأرض». [إبراهيم (١٤) / ١٠]

و «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لايعلمون». [الروم (٣٠) / ٣٠]

و «وإذا غشيهم موج كالظُّلل دعوا الله مخلصين له الدين فلمّا نجّاهم إلىٰ البرّ فنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلّا كلّ ختّار كفور». [لقمان (٣١) / ٣٢]

و «فذكّر إنّما أنت مذكّر ＊ لست عليهم بمصيطر». [الغاشية (٨٨) / ٢١ - ٢٢]

وقال علي صلوات الله وسلامه عليه في نهج البلاغة / الخطبة الأولىٰ:

«فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته

ويذكّروهم منسيّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول».

فقد استقصينا الكلام في ذلك في كتابنا «توحيد الإماميّة» ومن أراد فليراجعه.

ولا يخفىٰ أنّ الظاهر في المقام بل الصريح أنّ المراد من الكفر في الآية الكريمة هو كفر الجحود واللّجاج لأنّ اليأس من إيمانهم المستفاد من قوله تعالىٰ: «سواء عليهم ءأنذرتهم...» والتسجيل عليهم بأنّهم لايؤمنون وبأنّه ختم الله علىٰ قلوبهم فلا يقبلون الهدىٰ ولا يذعنون للحق يأبىٰ عن حمل الكفر في الآية الكريمة علىٰ كفر المعصية وكفر النعم.

في أصول الكافي ٣٨٩/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ، قال:

الكفر في كتاب الله علىٰ خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود، والجحود علىٰ وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النعم.

فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالربوبيّة وهو قول من يقول: لا ربّ ولا جنّة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهريّة وهم الّذين يقولون: «وما يهلكنا إلّا الدهر» [الجاثية (٤٥) / ٢٤] وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان علىٰ غير تثبّت منهم ولا تحقيق لشيءٍ ممّا يقولون. قال الله عزّ وجلّ: «إن هم إلّا يظنّون» [البقرة (٢) / ٧٨] أنّ ذلك كما يقولون وقال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» يعني بتوحيد الله تعالىٰ فهذا أحد وجوه الكفر. وأمّا الوجه الآخر من الجحود علىٰ معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقّ، قد استقرّ عنده وقد قال الله عزّ وجلّ: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا» [النمل (٢٧) / ١٤] وقال الله عزّ وجلّ: «وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» [البقرة (٢) / ٨٩] فهذا تفسير وجهي الجحود....

قوله تعالىٰ: «خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...»

قال في معجم مقاييس اللّغة ٢٤٥/٢: ختم... فأما الختم، وهو الطبع على الشيء.

وقال في لسان العرب ١٦٣/١٢: ختمه يختِمُه ختماً وختاماً، الأخيرة عن اللّحياني: طبعه، فهو مختوم ومختّم... والختم علىٰ القلب: أن لايفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنّه طبع. وفي التنزيل العزيز: «ختم الله علىٰ قلوبهم» هو كقوله: طبع الله علىٰ قلوبهم فلا تعقل ولا تعي شيئاً. قال أبو اسحق: معنىٰ ختم وطبع في اللّغة واحد وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لايدخله شيء.

أقول: المراد من الختم هو احتجابهم عن الحقّ وعماهم عن درك أنوار الفضيلة الّتي قد تفضّل الله على المؤمنين والمتّقين، فإن الله سبحانه يسلب الاحساسات الكريمة عن هذه الأعضاء وتركهم في ظلمات لايبصرون ولا يعقلون، ومن الممكن جدًّا أن يكون الختم والطبع علىٰ درجات، قال تعالىٰ:

«إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً». [النساء (٤) / ١٣٧]

لايخفىٰ أنّ مرتبة الختم والطبع والحجاب ليست مقدمة على الكفر ولا في عرضه بل الختم متأخر عنه ومعلول له، وليس هذا الاحتجاب بحيث يبطل الحجّة ويصير سلطان الحقّ مغلوباً بل الحجج الإلهيّة قائمة علىٰ من ختم الله علىٰ قلبه وبراهين الحقيقة بيّنة عنده فيجب عليه الاعتذار مما فعله وارتكبه وهذا الاعتذار والعود إلىٰ الله واجب بعين وجوب الايمان وكذلك الاصرار على الاستكبار على الحقّ والاستخفاف به محرّم بعين حرمة الكفر.

قوله تعالىٰ: «عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ».

قال في لسان العرب ٦٨٥/١: القلب: تحويل الشيء عن وجهه... والقلب أيضاً: صرفك إنساناً تقلبه عن وجهه الّذي يريده... وقد يعبّر بالقلب عن العقل، قال الفراء في قوله تعالىٰ: «إنّ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب» أي عقل.

أقول: قد استعمل لفظ القلب في الكتاب والسنة كثيراً ونسب في القرآن والأخبار والأدعية إلى القلب التفهّم والتعقّل والتنوّر والإيمان والاطمئنان والسكون

ونحو ذلك ونسبه إليه أيضاً الطبع والختم والغشاوة والرين والعمىٰ وأمثال ذلك. فللقلب مقام شامخ في الوجود الإنساني وعليه تدور رحىٰ سعادة الإنسان وشقاوته وله الحكومة المطلقة على الأعضاء والجوارح، وبنوره المعنوي تهتدي جميع الأعضاء وتسير في سيرها الواقعي فيجب على القلب الاحتراز والاتقاء من الضلال والعصيان.

قوله تعالىٰ: «وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ»

أقول: السمع مصدر من سمع يسمع، والعدول من الأسماع إلى السمع لعلّه للدّلالة والإشارة إلىٰ أنّ محلّ السمع يعني الأذن مختوم لايمكن أن يسمع. وقد جعله الله تعالىٰ طريقاً إلىٰ استماع العلوم والحقائق في الربانيّين والصديقين فيجب علىٰ كلّ عاقل أن يسمع لهم. وقد كثر في القرآن والأخبار مدح الأذن المستمعة والواعية، وورد في باب أجزاء الإيمان أنّ الفرض على السمع الاستماع إلى ما فرض الله عليه.

قوله تعالىٰ: «وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ»

قال في مقاييس اللّغة ٤٢٥/٤: غشىٰ ـ الغين والشين والحرف المعتلّ ـ أصل صحيح يدلّ علىٰ تغطية شيء بشيء يقال: غشيت الشيء أغشيه، والغشاء: الغطاء.

أقول: المراد من الأبصار هي الأعضاء المخصوصة في الرأس وهي العيون وهذا التوبيخ والتشنيع بالنسبة إلى العيون بتقريب ماتقدم في القلوب والأسماع إنّما هو من جهة عدم المشاهدة والتبصّر من الآيات والعلامات والمعالم الّتي ملأت الآفاق، فإنّه تشهد أعلام الوجود علىٰ إقرار قلب ذي جحود، فعدم انتفاع الناس بعيونهم الّتي هي من أفضل أدوات الروح للاستطلاع والاستشراف علىٰ إدراك عدّة مهمّة من الحقائق والأعيان دليل علىٰ إنحرافهم عن مسير السنّة الحقيقيّة لأولي الألباب، وذلك بما كسبت أيديهم وران علىٰ قلوبهم ماكانوا يعملون، وأمّا عباد الله المتّقون فراقبوا ربّهم في الأسماع والأبصار والأفئدة بإذن الله وتأييده. وهذا التوبيخ والتشنيع لايرتفع عنهم في مرتبة الختم والخذلان أيضاً لعدم منافاة الختم مع الاختيار. وقيام الحجّة البالغة عليهم.

وما ذكره في الميزان ٥٠/١، من أنّ الآية وردت في جبابرة قريش ومردتها ليس بصحيح لأنّ الآية الكريمة نزلت في المدينة فلا محالة هذا الإنكار والتوبيخ متوجّه إلىٰ كفار المدينة ويجري أيضاً في كلّ مورد يكون من مصاديق هذا الكلّي سواء كان في عصر النزول أو بعده.

قوله تعالىٰ: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (٧)

سجّل تعالىٰ عليهم العذاب والهوان الثابت كما سجّل للمتّقين الفلاح والنجاح بتقواهم.

في العيون ١٢٣/١، عن محمد بن أحمد السناني مسنداً عن إبراهيم بن أبي محمود، قال: سألت أبا الحسن الرضا ـ عليه السّلام عن قول الله تعالىٰ: ... «ختم الله علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم» قال:

الختم هو الطبع علىٰ قلوب الكفّار عقوبة علىٰ كفرهم كما قال عزّ وجلّ:

«بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً». [النساء(٤)/١٥٥]

وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ

فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قال تعالىٰ: «وَمِن النَّاسِ من يقول آمنّا بالله...».

قال في مجمع البحرين ٢٠٤/٦: الإيمانِ لغة هو التصديق المطلق.

وقال في القاموس ١٩٩/٤: آمن به إيماناً صدّقه.

أقول: الإيمان هو الإذعان لربّ العالمين والاعتراف به جلّ ثناؤه الذي عرّف نفسه لعباده خارجاً عن حدّ التعطيل والتشبيه، وبجميع نعوته وكمالاته وكذلك هو الإذعان لجميع ما علم من ضرورة دعوة الرسول صلّى الله عليه وآله ودعوة الأنبياء الكرام قبله للأمور الاعتقاديّة مثل المعاد والثواب والعقاب والجنّة والنار إلىٰ آخر ما علم من ضرورة الأديان الإلٰهيّة، لاسيّما بعد التذكّر بظهور تعالىٰ بآياته وعجائب تدبيره في خلقه ومصنوعاته من دلائل العلم والقدرة والتدبير العمدي في إتقان نظام الخلقة بما تدهش فيه العقول وتتحيّر فيه الألباب.

وهل حقيقة الإيمان هي الأعمال المنبثّة على الجوارح، أو هو عبارة عن الاعتراف والإذعان لأمور ضروريّة اعتقاديّة؟ والأعمال من شرائط صحّة الإيمان وقبوله. وبعبارة أخرىٰ، هل الإيمان حقيقةٌ مركبة من الإذعان القلبي والقالبي أو أنّه أمر بسيط قلبي والأعمال شرط صحة وقبوله، قولان. ولا فرق بين القولين فيما يهمّنا في تفسير الآية الكريمة، وإن كان الحقّ والمطابق للكتاب والسنّة هو القول الأوّل.

وبديهي أنّ هذه الحقيقة سيّما بناءً علىٰ ما اخترناه من أنّ الإيمان كلّه عمل تختلف درجاتها بحسب مراتب العلم والعرفان وبحسب شدّة المراقبة على العمل والمحافظة على النفس وصيانتها.

في أصول الكافي ٣٣/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قلت له: أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال:

ما لا يقبل الله شيئاً إلّا به.

قلت: وما هو؟

قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلّا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً.

قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان، أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كلّه والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه.

قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتىٰ أفهمه.

قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التامّ والمنتهي تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه.

قلت: إنّ الإيمان ليتمّ وينقص ويزيد؟

قال: نعم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأنّ الله تبارك وتعالىٰ فرض الإيمان علىٰ جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقها فيها فليس من جوارحه جارحة إلّا وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكّلت به اختها، فمنها قلبه الّذي به يعقل ويفقه ويفهم وهو أمير بدنه الّذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلّا عن رأيه وأمره.

ومنها عيناه اللّتان يبصر بهما وأذناه اللّتان يسمع بهما ويداه اللّتان يبطش بهما ورجلاه اللّتان يمشي بهما وفرجه الّذي الباه من قبله ولسانه الّذي ينطق به ورأسه الّذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلّا وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكّلت به أختها بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها.

ففرض على القلب غير ما فرض على السمع وفرض على السمع غير ما فرض على العينين وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين وفرض على الرجلين غير ما فرض على الفرج

وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه.

فأمّا ما فرض على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له. إلهاً واحداً. لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً وأنّ محمداً عبده ورسوله صلوات الله عليه وآله والإقرار بما جاء من عند الله من نبيّ أو كتاب. فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله وهو قول الله عزّ وجلّ: «إلّا من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً» [النحل (١٦) / ١٠٦]

وقال: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب». [الرعد (١٣) / ٢٨]

وقال: «والّذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم». [المائدة (٥) / ٤١] (١)

وقال: «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء». [البقرة (٢) / ٢٨٤]

فذلك ما فرض الله عزّ وجلّ على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله وهو رأس الإيمان.

وفرض الله على اللّسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقرّ به. قال الله تبارك وتعالى: «وقولوا للناس حسناً» [البقرة (٢) / ٨٣]

وقال: «وقولوا آمنّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» [العنكبوت (٢٩) / ٤٦] (٢)

فهذا ما فرض الله على اللّسان وهو عمله.

وفرض على السّمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله وأن يعرض عمّا لا يحلّ له ممّا نهى الله عزّ وجلّ عنه والإصغاء إلى ما أسخط الله عزّ وجلّ فقال في ذلك: «وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات

١- والآية هكذا: «الّذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم».

٢-الآية هكذا: «قولوا آمنّا بالّذي أنزل إلينا...».

الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتّىٰ يخوضوا في حديث غيره» [النساء (٤) / ١٤٠]

ثمّ استثنى الله عزّ وجلّ موضع النسيان فقال: «وإمّا ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرىٰ مع القوم الظالمين» [الأنعام (٦) / ٦٨]

وقال: «فبشّر عبادِ الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الّذين هدٰيهم الله وأولئك هم أولوا الألباب» [الزمر (٣٩) / ١٧ و ١٨]

وقال عزّ وجلّ: «قد أفلح المؤمنون * الّذين هم في صلاتهم خاشعون * والّذين هم عن اللّغو معرضون * والّذين هم للزّكاة فاعلون» [المؤمنون (٢٣) / ١ ـ ٤]

وقال: «وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» [القصص (٢٨) / ٥٥]

وقال: «وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً» [الفرقان (٢٥) / ٧٢]

فهذا ما فرض الله علىٰ السمع من الإيمان أن لا يصغىٰ إلىٰ مالا يحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان. وفرض على البصر أن لا ينظر إلىٰ ما حرّم الله عليه وأن يعرض عمّا نهى الله عنه ممّا لايحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان، فقال تبارك وتعالىٰ: «قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم» [النور (٢٤) / ٣٠]

فنهاهم أن ينظروا إلىٰ عوراتهم وأن ينظر المرء إلىٰ فرج أخيه ويحفظ فرجه أن ينظر إليه وقال: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ» [النور (٢٤) / ٣١] من أن تنظر إحداهن إلىٰ فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر إليها وقال: كلّ شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزّنا إلّا هذه الآية فانّها من النظر.

ثمّ نظم ما فرض على القلب واللّسان والسمع والبصر في آية أخرىٰ. فقال: «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم» [فصّلت (٤١) / ٢٢] يعني بالجلود: الفروج والأفخاذ.

وقال: «ولا تقف ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ

أولئك كان عنه مسؤولاً» [الاسراء (١٧) / ٣٦]

فهذا ما فرض الله على العينين من غضّ البصر عمّا حرّم الله عزّ وجلّ وهو عملهما وهو من الايمان.

وفرض الله على اليدين أن لايبطش بهما إلىٰ ما حرّم الله وأن يبطش بهما إلىٰ ما أمر الله عزّ وجلّ وفرض عليهما من الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والطهور للصّلاة فقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا بروؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين» [المائدة (٥) / ٦]

وقال: «فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّىٰ إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منًّا بعدو وإمّا فداء حتّىٰ تضع الحرب أوزارها» [محمّد (٤٧) / ٤]

فهذا ما فرض الله على اليدين لأنّ الضرب من علاجهما.

وفرض الله على الرجلين أن لايمشي بهما إلىٰ شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي إلىٰ ما يرضي الله عزّ وجلّ فقال: «ولا تمش في الأرض مرحاً إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً» [الأسراء (١٧) / ٣٧]

وقال: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير» [لقمان (٣١) / ١٩]

وقال فيما شهدت الأيدي والأرجل علىٰ أنفسهما وعلىٰ أربابهما من تضييعهما لما أمر الله عزّ وجلّ به وفرضه عليهما: «اليوم نختم علىٰ أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» [يس (٣٦) / ٦٥]

فهذا أيضاً ممّا فرض الله على اليدين وعلى الرجلين وهو عملهما وهو من الايمان.

وفرض على الوجه السجود له بالليل والنهار في مواقيت الصلاة فقال: «يا أيّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير

لعلّكم تفلحون» [الحج (٢٢) / ٧٧]

فهذه فريضة جامعة على الوجه واليدين والرجلين وقال في موضع آخر:

«وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً» [الجن (٧٢) / ١٨]

وقال فيما فرض على الجوارح من الطهور والصلاة بها وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لمّا صرف نبيّه صلّى الله عليه وآله إلى الكعبة عن البيت المقدس فأنزل الله عزّ وجلّ: «وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم» [البقرة (٢) / ١٤٣]

فسمّى الصلاة إيماناً فمن لقي الله عزّ وجلّ حافظاً لجوارحه موفياً كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عزّ وجلّ عليها لقي الله عزّ وجلّ مستكملا لإيمانه وهو من أهل الجنّة ومن خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله عزّ وجلّ فيها لقي الله عزّ وجلّ ناقص الإيمان.

قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته؟

فقال: قول الله عزّ وجلّ: «وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأمّا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم» [التوبة (٩) / ١٢٤ ـ ١٢٥]

وقال: «نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى» [الكهف (١٨) / ١٣] ولو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان، لم يكن لأحدٍ منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه ولاستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرطون النار.

الفرق بين الإيمان والإسلام

الإيمان أدق وأغمض من الإسلام فلا ينفك الإيمان عن الإسلام بل يجامعه بخلاف الإسلام فإنّه ينفك عن الإيمان، فالإسلام يجمع الضلّال والشكّاك والمرتابين والأراذل وأهل الفسوق والكبائر بل المنافقين وجميع أهل الدعوة الظاهرة بخلاف الإيمان فلا يعقل إلّا بعد العلم والمعرفة والعمل والإذعان بالعلم والعمل، فالإيمان بمنزلة الكعبة والإسلام بمنزلة الحرم والمسجد، فكلّ مؤمن لابدّ أن يكون مسلماً وليس كلّ مسلم أن يكون مؤمناً لفقده شرط الإيمان وهو العرفان والفقه واليقين والعمل على اختلاف درجات العلم شدّة وضعفاً وسعةً وضيقاً، وهكذا ليس كلّ مسلم ضالاً ولا شاكاً ولا منافقاً، والمنافق مستسلم ظاهراً وليس بمسلم باطناً بل كافر وملحد بالحقيقة فضلاً عن كونه مؤمناً فلايجوز سلب الإسلام عن المؤمن ويجوز سلب الإيمان عن كثير من المسلمين الذين لم يبلغوا مرتبة الإيمان وخاصّة ممن ليس بمسلم في الباطن. وكذلك الأمر في خروج المؤمن عن الإيمان ـ أعاذنا الله منه ـ فبعد زوال العلم والمعرفة مع بقاء الحجّة يسقط إلىٰ مرتبة المسلم ويسلب عنه صفة الإيمان ويبقىٰ له صفة الإسلام ثمّ بعد إخلاله باستسلامه الظاهري يسقط عن الإسلام أيضاً لكن مع بقاء الاستسلام الظاهري وفقدان الاستسلام الباطني يسلب عنه صفة الإسلام واقعاً ويبقىٰ عليه ظاهراً وقد اقتضت مصلحة الدّين قبول هذا الاستسلام منهم وعدم الفحص عن باطن أمرهم والشروع بتعليمهم وتربيتهم وتزكيتهم.

وقرّر الله تعالىٰ الثواب علىٰ الإيمان والوفاء والإخلاص بداهة تعذر استكمال الناس دفعة من غير تدرّج بل لابدّ في سوق الناس إلى المعارف والكمالات والفضائل السير علىٰ هذا النمط. ووَضَع أحكاماً عاماً تشمل أوّلهم وآخرهم.

في الكافي ٢/٢٦، عن العدّة مسنداً عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سمعته يقول:

الإيمان ما استقرّ في القلب وأفضىٰ به إلى الله عزّ وجلّ وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره والإسلام ما ظهر من قول أو فعل وهو

الّذي عليه جماعة الناس من الفرق كلّها وبه حقنت الدّماء وعليه جرت المواريث وجاز النكاح واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأضيفوا إلى الايمان؛ والإسلام لايشرك الايمان والايمان يشرك الإسلام وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد والمسجد ليس في الكعبة وكذلك الايمان يشرك الإسلام والإسلام لايشرك الايمان وقد قال الله عزّ وجلّ: «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا دخل الايمان في قلوبكم» [الحجرات (٤٩) / ١٤] فقول الله عزّ وجلّ أصدق القول.

قلت: فهل للمؤمن فضل على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود وغير ذلك؟

فقال: لا، هما يجريان في ذلك مجرىً واحداً ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما وما يتقرّبان به إلىٰ الله عزّ وجلّ.

قلت: أليس الله عزّ وجلّ يقول: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» [الأنعام (٦) / ١٦٠]

وعلمت أنّهم مجتمعون على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ مع المؤمن؟

قال: أليس قد قال الله عزّ وجلّ: «فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» [البقرة (٢) / ٢٤٥]

فالمؤمنون هم الّذين يضاعف الله عزّ وجلّ لهم حسناتهم لكلّ حسنة سبعون ضعفاً، فهذا فضل المؤمن ويزيده الله في حسناته علىٰ قدر صحة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل الله بالمؤمنين مايشاء من الخير.

قلت: أرأيت من دخل في الإسلام أليس هو داخلاً في الايمان؟

فقال: لا، ولكنّه قد أضيف إلى الايمان وخرج من الكفر وسأضرب لك مثلاً تعقل به فضل الايمان على الإسلام، أرأيت لو بصرت رجلاً في المسجد أكنت تشهد أنّك رأيته في الكعبة؟

قلت: لايجوز لي ذلك.

قال: فلو بصرت رجلاً في الكعبة أكنت شاهداً أنّه قد دخل المسجد الحرام؟

قلت: نعم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: إنّه لايصل إلىٰ دخول الكعبة حتّىٰ يدخل المسجد.

فقال: قد أصبت وأحسنت، ثمّ قال: كذلك الإيمان والإسلام.

قوله تعالىٰ: «وباليوم الآخر»

أقول: اليوم له إطلاقات، ففي العرف العادي عبارة عن مسير الشمس من المشرق إلى المغرب. وهو قطعة من الزّمان ومنشأ الاعتبار وحقيقة الزمان ليس إلّا بقاء الأكوان والأعيان بإبقاء قيّومها فلو ارتفع الأعيان والأكوان لارتفع الوقت والزمان ولبطلت السنون والآجال.

قوله تعالىٰ: «وما هم بمؤمنين». (٨)

بيان: هذه الآيات في بيان حال المنافقين الذين استفادوا من مزايا الدّين وفوائده المادّيّة وحقنوا به دماءهم وأموالهم ولجّوا في غيّهم ونفاقهم ولم يقبلوا نصيحة الله وهدى الدين الحنيف واشتغلوا بالأراجيف مهما تيسّر لهم فإنّهم ليسوا بمؤمنين بالحقيقة ولا بمسلمين بل هم ملحدون باطناً ويتظاهرون بالايمان والإسلام كذبًا.

قوله تعالىٰ: «يخادعون الله والذين آمنوا...». (٩)

قال في لسان العرب ٦٣/٨: خَدَعه يخدَعه خدعاً ـ بالكسر ـ مثل سحره يسحره سحراً... وأجاز غيره (أبو زيد) خدعاً ـ بالفتح ـ وخديعةً وخُدعةً أي، أراد به المكروه وختله من حيث لايعلم.

بيان: الخُدعة هي إرادة المكروه من حيث لايعلم ولا يشعر المخدوع. فهؤلاء المنافقون لجهلهم بالله وشؤون ذاته من علمه وقدرته توهّموا أنّهم متمكنون من مخادعة الله والمؤمنين. ويمكن أن يكون المراد من مخادعتهم الله تعالىٰ هو مخادعتهم الرسول صلّى الله عليه وآله. وأضاف الله تعالى المخادعة إلى نفسه تشريفاً وتكريماً لحبيبه وصفيه مثل قوله تعالىٰ: «فلمّا آسفونا انتقمنا منهم» [الزخرف (٤٣) / ٥٥]

في التوحيد /١٦٨، مسنداً عن أحمد بن عبدالله، عن أبيه رفعه إلىٰ أبي عبدالله عليه السّلام في قوله الله عزّ وجلّ: «فلمّا آسفونا انتقمنا» قال:

إنّ الله تبارك وتعالىٰ لا يأسف كأسفنا ولكنّه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون مدبّرون، فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطاً، وذلك لأنّه جعلهم الدعاة إليه والأدلّاء عليه فلذلك صاروا كذلك، وليس أنّ ذلك يصل إلى الله كما يصل إلىٰ خلقه ولكن هذا معنى ما قال من ذلك وقد قال: «من أهان لي وليّا فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها» وقال أيضاً: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» [النساء (٤) / ٨٠] وقال أيضاً: «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله» [الفتح (٤٨) / ١٠] وكلّ هذا وشبهه علىٰ ما ذكرت لك، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك ولو كان يصل إلى المكوّن الأسف والضجر وهو الّذي أحدثهما وأنشأهما لجاز لقائل أن يقول: إن المكوّن يبيد يوماً ما لأنّه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيّير وإذا دخله التغيّير لم يؤمن عليه الإبادة ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المكوّن من الكوّن، ولا القادر من المقدور، ولا الخالق من المخلوق، تعالى الله عن هذا القول علوّا كبيراً، هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحدّ والكيف فيه، فافهم ذلك إن شاء الله.

أو المراد من مخادعتهم هو ما في ثواب الأعمال /٣٠٣، مسنداً عن مسعدة بن زياد عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السّلام أن رسول الله صلّى الله عليه وآله سئل! فيم النجاة غداً؟ قال

إنّما النجاة في أن لاتخادعوا الله فيخدعكم، فإنّه من يخادع الله يخدعه وينزع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر.

قيل له: فكيف يخادع الله؟

قال: يعمل بما أمر الله عزّ وجلّ ثمّ يريد به غيره. فاتّقوا الله في الرياء فإنّه شرك بالله...

أقول: الحديث وإن لم يرد في تفسير الآية الكريمة إلّا أنّ المنافقين لمّا كانوا من المصاديق البارزة للمرائي فانطباق الآية الكريمة على المنافقين في هذا الحديث أو إرادة هذه الجهة من سيّئاتهم ليس ببعيد.

والمخادعة وإن كانت من باب المفاعلة الذي يدلّ على كون الفعل من الطرفين إلّا أنّه في المقام ليس كذلك لأنّ الآية الكريمة ظاهرة في أنّ المنافقين هم الّذين ابتدؤوا بالخدعة وردّ الله عليهم أنّهم لايخدعون إلّا أنفسهم فليس في الآية الكريمة دلالة على نسبة الخدعة إلى الله تعالى كي يحتاج إلى التأويل.

قال في لسان العرب ٦٣/٨: قال الله عزّ وجل: «يخادعون الله» جاز يفاعل لغير اثنين لأنّ هذا المثال يقع كثيراً في اللّغة للواحد نحو عاقبت اللّصّ وطارقت النعل.

قوله تعالى: «في قلوبهم مرض»

أي، تمكّن المرض واستقرّ في قلوبهم لإدامتهم الخيانة والنفاق وإصرارهم في البغي على الحق والعلم. ومرض القلب عبارة عن الاعوجاج والانحراف والشك والترديد والنفاق والكفر والإنكار. وقد ورد لفظ المرض في كثير من آيات القرآن والمستفاد من جميعها أنّ المراد منه النفاق والترديد والارتياب؛ وسلامة القلب عبارة عن النور والعلم والاستقامة والصفاء والتواضع والتسليم لما علم وعرف من الدين والتوحيد قال تعالى:

«يوم لاينفع مال ولا بنون * إلّا من أتى الله بقلب سليم». [الشعراء (٢٦) / ٨٨ ـ ٨٩]

و«إذ جاء ربّه بقلب سليم». [الصافات (٣٧) ـ ٨٤]

في الكافي ١٦/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن سفيان بن عيينة قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله عزّ وجلّ: «إلّا من أتى الله بقلب سليم» قال:

القلب السليم الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه قال: وكلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرّغ قلوبهم للآخرة.

قال في الصافي ٢٢/: وفي تنكير المرض وإيراد الجملة ظرفيّة إشارة إلى استقراره ورسوخه وإلّا لقال: قلوبهم مرضى.

أقول: لاريب فيه ظهور الجملة في الاستقرار إلّا أنّ الظاهر أن الاستقرار يفيده الظرفيّة من دون دخل تنكير المرض فيه شيئاً ولو أتىٰ بقوله: في قلوبهم المرض، لكان مفيداً للاستقرار أيضاً بخلاف ما لو قيل: قلوبهم مرضىٰ، والظاهر أن «مرض» اسم جنس وليس نكرة لوجوب الالتزام حينئذٍ بفرد من المرض وليس كذلك فإنّ فيهم أمراضاً مهلكة وأهواءً مردية.

ومنشأ هذا المرض لايصحّ أن يكون غير الاختيار كالغفلة والتغافل والتوارث وأمثالها من العوامل فإنّ هذه العوامل من مصاديق المرض مثل الغفلة والتغافل وأمّا مثل التوارث فإن كان موثّراً في المرض فلابدّ أن يكون تأثيره بالتوجّه والاختيار وإلّا لايعد معلومه مرضاً. مضافاً إلىٰ أنّ التوبيخ متوجّه مستقيماً إلىٰ أمراضهم وهي أقبح من سيّئاتهم لأن سيّئاتهم ناشئة من مرضهم، فلايمكن أن تكون هذه العوامل مانعة عن الاختيار والاختيار حاكم عليها وعلى الأمراض والآثام والمعاصي جميعها بالغة ما بلغت.

قوله تعالىٰ: «فزادهم الله مرضا»

وزان هذه الجملة.. قوله تعالىٰ: «ويجعل الرجس علىٰ الّذين لايعقلون» [يونس (١٠) / ١٠٠]

في الكافي ٢٨٨/١، علي بن إبراهيم مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام... قال:

الرجس هو الشكّ، والله لانشكّ في ربّنا أبداً

فقد جرت سنّته تعالى الحكيمة العادلة أن يقابل الكفران بالحرمان، فإنّ الشكّ والترديد والخروج عن ولاية الله سبحانه عمداً مرض وآفة روحية يجب علىٰ صاحبها أن يتوب ويستصلح ما أفسده، وعند بغيه وعصيانه يستحقّ من الله سبحانه الهوان والخذلان فيقبض عنه الهدىٰ ويسلب عنه الفيض الإلهي. والمراد من ازدياد المرض هو سلب الهدىٰ والنور وإسقاطه عن أهليّة الإكرام والتشريف، وهذا عقوبة له وهوان وصغار وذلّة مستندٌ إلىٰ بغيه ومعصيته.

قوله تعالىٰ: «ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون». (١٠)

بيان: العذاب هو النكال والعقوبة. وبديهيٌ أنّ النكال له درجات بحسب الكمّ

والكيف والإهانة والاستخفاف بالذي ينكل عليه. فتوصيف العذاب بأنّه عظيم أو شديد أو أليم باعتبار درجاته وبلحاظ عنايات خاصّة في كلّ مورد ومورد ولا معنىٰ لتفسيره بما ينافر الطبع.

قوله تعالىٰ: «وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون». (١١)

الظاهر أنّ القائل هو رسول الله صلّى الله عليه وآله بدعوته العامّة أو بعض المؤمنين الذين كانوا عارفين بسوء سريرة هؤلاء من النفاق والكذب. وجوابهم: «إنّما نحن مصلحون» الظاهر أنّ مرادهم من الإصلاح هو الإصلاح بين الناس وتنظيم أمر المجتمع ليردّوا الناس علىٰ أعقابهم من الكفر والضلال الذي كان غاية آمالهم وأمنياتهم؛ أو إصلاح أمرهم الشخصي فيظهرون عند العامة الإسلام والصلاح ليكون ذلك جنّة وستراً علىٰ فجائعهم وحفظاً لدمائهم من سيوف المسلمين.

قوله تعالىٰ: «ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لايشعرون». (١٢)

قال ابن هشام في المغنى ٩٥/١، في معاني «ألا» أحدها أن تكون للتنبيه فتدلّ علىٰ تحقّق مابعدها.

هذا ردّ عليهم بأنّهم لشدّة حمقهم وغاية بلادتهم لم يميّزوا الصلاح من الفساد فإنّ هؤلاء الخائنين للمجتمع وللعدالة والحقّ قدّموا آمالهم الشخصيّة علىٰ كلّ حقّ وحقيقة وزعموها إصلاحاً ألا إنّهم هم المفسدون بالحقيقة ولكن لايشعرون.

قوله تعالىٰ: «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا...». (١٣)

الكلام في القائل والمخاطبين بعينه الكلام في الآية السابقة. والفرق بين الآيتين والقول والجواب أنّ الآية الأولىٰ لإصلاح الأمّة ومجتمعها وهذه الآية مسوقة للأمور المعنويّة القدسيّة من الإيمان بالله ووحدانيّته ونعوت جلاله وجماله والإيمان بالغيب واليوم الآخر وملائكته ورسله. ولا يخفىٰ أنّ إدراك هذه الحقيقة ونيل هذه المسألة الّتي هي من أشرف المعارف الإلهيّة وأفضلها وأنورها يحتاج إلى الاحساس أكثر فأكثر مما يكفي في إدراك ما في الآية الأولىٰ، فإنّ التشرّف بعرفان المبدأ الأعلىٰ وبعدّة من نعوته وكمالاته العليا وكذلك معرفة اليوم الآخر ورسله وملائكته وأمنائه متوقف علىٰ تثبّت تامّ في مقام العمل بما علم بالوجوب العقلي الذاتي. وهؤلاء الأغبياء قد خالفوا بداهة

عقولهم وأصرّوا علىٰ مخالفة ما تفطّنوا بفطرتهم، فهم بمعزلٍ عن ناحية إدراك الحقائق ولطائف المعارف وهم بالسفه وخفّة الحلم والعقل أولىٰ لو يشعرون ولكنّهم صدّوا أنفسهم وضربوا عليها سداً فاصلاً عن إدراك الحقّ ولا يشعرون.

قوله تعالىٰ: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلىٰ شياطينهم قالوا...». (١٤)

الظاهر أنّ هذا القول لعدّة خاصّة من المنافقين الضعفاء الواقعين تحت سيطرة الزعماء منهم وهؤلاء كانوا كثيري الاختلاط بالمؤمنين فلكثرة اختلاطهم وصحبتهم مع المؤمنين يلتبس أمرهم علىٰ زعمائهم وظنّوا أنّهم يميلون إلى الحقّ. وهم في مقام إرضاء زعمائهم وتجديد أمر نفاقهم وتثبيته قالوا لهم: إنّا معكم بالحقيقة وماترون منّا من المعاشرة والصحبة مع المؤمنين فهو استهزاء بهم.

وحيث إنّ الله سبحانه منزّه عمّا فعل المبطلون والجاهلون فما يفعله لايكون إلّا حقًّا وما حكم به لايكون إلّا عدلاً فيجزيهم جزاء من يستهزئ بأوليائه وشرائعه.

قوله تعالىٰ: «الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون». (١٥)

المدّ هو الزيادة وأكثر ما يستعمل في الزيادة المتّصلة ولا فرق في إعطاء هذا اللّفظ معنى الزيادة متّصلة كانت أو منفصلة بين مدّ الثلاثي وأمدّ. والظاهر أنّ المراد منه الإملاء والاستدراج بزيادة النعم والإمهال في العمر والبسط والصحّة في الجسم في عين أنّهم في طغيانهم يعمهون أي، يتحيّرون ويتردّدون.

قوله تعالىٰ: «أولئك الّذين اشتروا الضلالة بالهدى...». (١٦)

الاشتراء قبول البيع. فعلىٰ هذا يكون الشراء بمعنى البيع والاشتراء قبوله، مثل البيع والابتياع. والضلال فقدان النور والعلم ويراد منه في هذا المقام التحيّر والتردد. والهدىٰ كما ذكرنا في غير مورد هو العلم المفاض من الله سبحانه، والاهتداء التسليم به وعدم التشكيك والترديد العمدي في قبوله. وله درجات إلى مالا يعلمه إلّا الله وكذلك تتنوع بحسب مايتعلّق به.

فالمبيع هو الضلال والثمن هو الهدىٰ. وهؤلاء القوم أعم من الّذين تمكّنوا في طريق الهدىٰ وتخطّوا في حريمه، ومن الّذين وقعوا في أوّل أمرهم في قبال دعوة الحقّ وليس فيهم إلّا هدى الفطرة الإلهيّة. وعلى الفرضين تكون المبادلة بين أمرين

وجوديين لا بين أمر فرضيّ وهو الهدى وأمر وجوديّ وهو الضلالة. فإنّها بيع ما كان واجداً. ومن لم يقل بالهدى الفطري فلابدّ من تخصيص الآية بالكفّار الّذين ارتدّوا بعد الايمان ونافقوا بعد الإسلام.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: «مثلهم كمثل الذي»

بيان: المثل محرّكةً النعت والصفة.

قال في القاموس ٢١١/٣: وصفه يصفه وصفاً وصفة نعته.

وقال في لسان العرب ٦١١/١١: قال الجوهري: ومثل الشيء أيضاً صفته. قال ابن سيّده: وقوله عزّ من قائل: «مثل الجنّة التي وعد المتّقون» قال اللّيث: مثلها هو الخبر عنها. وقال أبو إسحاق: معناه صفة الجنّة.

فعلىٰ هذا فالمَثَل ليس بمعنىٰ المِثْل والشبه نعم، يكون التشبيه من مصاديق المَثَل. فشبّه تعالىٰ حال المنافقين بحال من كان في ظلمات اللّيل فأوقد ناراً ليستضيء بها ولمّا صار متمكّنا من نورها ذهب الله بنورها وتركهم في الظلمات لايبصرون.

قوله تعالىٰ: «استوقد ناراً»

أي، أوقد ناراً بتعب وتكدّ وسعي وطلب.

قوله تعالىٰ: «فلمّا أضاءت ما حوله»

أي، لمّا أضاءت النار حول المستوقد فأبصر موقع قدميه.

قوله تعالىٰ: «ذهب الله بنورهم»

جواب «لمّا» فإنّه في عين كونه في بيان حال المشبّه أي، المنافقين صرّح بحال المشبّه به أيضاً أي، المستوقد. فقد شبّه الايمان الابتدائي للمنافقين بالاستيقاد فإنّهم قد دخلوا في الدّين وعرفوا شيئاً قليلاً من أصوله ومعالمه إلّا أنّهم كفروا بهذه النعمة الجليلة فنعهم الله تعالىٰ ألطافه وكرامات هدايته فرجعوا إلىٰ ظلمات الكفر والفسوق ووقعوا بعد انسلاخ النور والهدىٰ عنهم في الظلمات. فهذه الآية مسوقة لبيان سنّته تعالىٰ من حيث كراماته الخاصّة لعباده المتّقين من الهداية والتسديد والتوفيق ومن حيث خذلانه لعباده المدبرين للحقّ والمنافقين المبطلين.

قوله تعالىٰ: «وتركهم في ظلماتٍ لايبصرون». (١٧)

أي، ما أنقذهم من ضلالهم ولم يكرمهم بهدايته بعدما خانوا الله ورسوله صلّى الله عليه وآله.

قوله تعالىٰ: «صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لايرجعون». (١٨)

توبيخ وتشنيع علىٰ عدم اتباعهم للحقّ وسكوتهم عن إظهاره والدفاع عنه ببيانهم وبلاغتهم وتجاهلهم عن معرفته وامتناعهم عن الإقرار به وعماهم عن مشاهدة آثار الإسلام وخيراته وبركاته. فلا يرجعون عن صممهم وبكمهم وعميهم

عن رؤية الحقائق ومشاهدتها.

في العيون ١٢٣/١، عن محمد بن أحمد مسنداً عن إبراهيم بن أبي محمود قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السّلام عن قول الله تعالىٰ: «وتركهم في ظلمات لا يبصرون» فقال:

إنّ الله تبارك وتعالىٰ لايوصف بالترك كما يوصف خلقه ولكنّه متىٰ علم أنّهم لايرجعون عن الكفر والنفاق منعهم المعاونة واللّطف، وخلّىٰ بينهم وبين اختيارهم.

قوله تعالىٰ: «أو كصيّبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورَعدٌ و...» . (١٩)

قال في لسان العرب ٥٣٤/١: صاب المطر صوباً، وانصاب: كلاهما انصبّ. ومطر صوب وصيّبٌ وصيّوب، وقوله تعالىٰ: «أو كصيّب من السماء» قال أبو إسحاق: الصيّب هنا المطر.

أقول: الظاهر أنّ المراد من الصيّب هنا هو الانحدار من العلوّ أي، انصباب المطر لا نفس المطر. والظاهر أنّه عطف على النار لا على المستوقد، ويحتمل أن يكون عطفاً على الاستيقاد. والظاهر أنّ المَثَل مثل الأوّل، أي المستوقد، فكما أنّ المستوقد إذا ذهب الله بنوره وقع في الظلمة والمنافق إذا نافق وارتدّ سلب عنه نور الإيمان والعرفان فوقع في الحيرة كذلك المثل الثاني يفيد اضطراب شأن المنافق في حياته ومختلف حالاته فإنّه يخبط خبط عشواء، فكلّ ما وقع في المشبّه به من أوله إلىٰ آخره وهو الرجل الواقع تحت انصباب المطر مع حركاته المضطربة وفقدانه السكينة والطمأنينة في حيرة عمياء قد وقع مثالاً لحال المنافق واضطرابه وعدم اهتدائه إلىٰ طريق الحق على النحو المتعارف فيقع تحت عوامل مختلفة وعلل متنوّعة فلا يجد بدًّا من إظهار الحقّ والمشي إليه ثمّ مخالفة فطرته وتكلّفه علىٰ نفسه في ارتكاب خلاف الحق فتاه في سير حياته وطريق هدايته.

ولا يخفىٰ أنّ جميع المفردات بخصوصها مورداً للمثل ولا مقصوداً للتشبيه.

والفرق بين المثل الأوّل والثاني أنّ الأوّل لحكاية حال المنافق من حيث انحرافه عن الحق وسلب النور عنه ووقوعه في الظلمة دفعةً؛ والثاني يتعرّض لحال المنافق ويحكي حاله بلحاظ استمراره وأنّه شأنه ودأبه وسنّته السيّئة.

ثم تفسر بقية الآية (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين).

قوله تعالىٰ: «يكاد البرق يخطف أبصارهم...».

قال في لسان العرب ٧٥/٩: الخطف الأخذ في سرعة واستلاب.

قوله تعالىٰ: «ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم...». (٢٠)

هذا تهديد منه تعالىٰ إيّاهم فإنّه سبحانه لوشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم فلا يرون ولا يسمعون لأنفسهم عزّة وقدرة ونشاطاً وسعادة وكذلك لايرون لأهل الإسلام ضعفاً وهواناً في شؤونهم.

قوله تعالىٰ: «يا أيّها النّاسُ اعبدوا ربّكمُ الّذي خلقكم...».

بيان: الناس ظاهر في العموم.

قال الشيخ ـ قده ـ في تبيانه ٩٩/١: ويمكن الاستدلال بها علىٰ أنّ الكفّار مخاطبون بالعبادات.

أقول: البحث في أنّ الكفار مخاطبون بالعبادات أم لا، إنّما هو في الأوامر والنواهي التشريعيّة مثل أقيموا الصلاة وأمثاله لا الأوامر والنواهي الإرشاديّة. وقوله تعالىٰ «اعبدوا» إرشاديّ لأنّه يرشد إلىٰ إتيان ماهو عبادة خارجاً من قبل عللها والأوامر الارشاديّة لاتزيد في إرشادها إلّا ماكان موجوداً في الخارج موسّعاً أو مضيّقاً، فلا عموم فيها ولا خصوص، ولا إطلاق ولا تقييد بل الأوامر الإرشاديّة تدور مدار الأمر المرشد إليه سعة وضيقاً فلابدّ من عطف الكلام في الاستدلال وطرح البحث في الأوامر والنواهي التشريعيّة.

قال في التبيان ٩٨/١: وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: قوله: «اعبدوا ربّكم» أي، وحّدوه. وقال غيره: ينبغي أن يحمل علىٰ عمومه في كلّ ماهو عبادة لله من معرفته ومعرفة أنبيائه والعمل بما أوجبه عليهم وندبهم إليه وهو الأقوى.

وفيه ما عرفت من استحالة سريان أمر «اعبدوا» إلىٰ غير المستقلّات فتبيّن أنّ قوله تعالىٰ: «اعبدوا» و«اشكروا لي» و«اتّقون» لايصح الاستدلال بها في المقام لأنّها من المستقلّات العقليّة الّتي لا فرق فيها بالضرورة بين المؤمن والكافر وهكذا

الأمر في جميع المستقلات بالنسبة إلىٰ كلّ عاقل.

وقد استدلّ علىٰ تعميم الخطابات الشرعيّة لغير المؤمنين والمسلمين بأمور: منها قوله تعالىٰ: «وويل للمشركين * الّذين لا يؤتون الزّكوٰة وهم بالآخرة هم كافرون» [فصّلت (٤١) / ٦ ـ ٧]

قد ذمّ الله سبحانه المشركين ودعا عليهم بالويل وشنّعهم بأنّهم يمنعون الزكاة وأنّهم بالآخرة كافرون.

أقول: الاستدلال به متوقّف علىٰ تعيين معنى الشرك والكفر وأنّه هل هو شرك الطاعة أو شرك العبادة فإنّ إطلاق الشرك والكفر علىٰ شرك الطاعة وكفر الطاعة غير عزيز في إطلاقات القرآن، قال تعالىٰ:

«فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين». [آل عمران (٣) / ٩٧]

و «وإنّ يأتوكم أسارىٰ تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزيٌ في الحيوة الدنيا...». [البقرة (٢) / ٨٥]

واضحٌ أنّ المراد من الكفر في المقام هو كفر الطاعة.

في البحار ١٨٠/٩، عن تفسير الإمام... ثمّ قال الله: «أفتؤمنون ببعض الكتاب» وهو الّذي أوجب عليهم المفاداة «وتكفرون ببعض» وهو الّذي حرّم قتلهم وإخراجهم، فقال: فإذا كان قد حرّم الكتاب قتل النفوس والإخراج من الديار كما فرض فداء الأسراء فما بالكم تطيعون في بعض وتعصون في بعض؟ كأنّكم (فإنّكم خ ل) ببعض كافرون، وببعض مؤمنون....

فقوله تعالىٰ: «ويل للمشركين» ظاهر في تحقق الشرك قبل منع الزكاة رتبةً وكذلك مقدم رتبةً علىٰ قوله تعالىٰ: «وهم بالآخرة هم كافرون» فلو كان المراد بالكفر هو الكفر الحقيقي المتأخر عن الشرك، العارض عليه يفيد أنّ المشركين غير الكافرين، وإن كان المراد من الكفر هو الكفر بالمعصية وضمير «هم» راجعاً إلىٰ المشركين من حيث منعهم الزكاة كما هو الظاهر فيكون قرينةً أخرىٰ علىٰ أنّ المراد من الشرك هو

شرك الطاعة أي، الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون بمنعهم الزكاة. وعلىٰ كلا التقديرين يكون المراد من الشرك غير الشرك العبادي الذي هو الكفر بالحقيقة.

في البرهان ١٠٦/٤، عن محمد بن العبّاس في تفسيره قال: حدّثنا علي بن محمد بن مخلة الدها عن الحسن بن علي بن أحمد العلوي قال: بلغني عن أبي عبدالله عليه السّلام قال لداود الرقي:

... قوله تعالىٰ: «وويل للمشركين» أنّهم أقرّوا بالإسلام وأشركوا بالأعمال وهو قوله: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون» يعني بالأعمال، إذا أمروا بأمر عملوا خلاف ما قال الله فسمّاهم الله مشركين. قوله: «الّذين لايؤتون الزكٰوة وهم بالآخرة هم كافرون» يعني من لم يدفع الزكاة فهو كافر.

وفي تفسير القمي ٢٦٢/٢، عن أحمد بن إدريس مسنداً عن أبان بن تغلب قال: قال لي أبو عبدالله عليه السّلام:

يا أبان أترىٰ أنّ الله عزّ وجلّ طلب من المشركين زكاة أموالهم وهم يشركون حيث يقول: «وويل للمشركين الّذين لايؤتون الزكٰوة وهم بالآخرة هم كافرون» قلت له: كيف ذلك ـ جعلت فداك ـ فسّره لي فقال: ويل للمشركين الّذين أشركوا بالإمام الأوّل وهم بالأئمّة الآخرين كافرون إنّما دعا الله العباد إلىٰ الإيمان فإذا آمنوا بالله ورسوله افترض عليهم الفرائض.

أقول: لا منافاة بين الحديثين في إثبات كفر المعصية بمنع الزكاة فإنّ الولاية لولاة الأمر وطاعتهم من أعظم ما فرض الله علىٰ العباد وليس خلافة الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام وولايتهم إلّا كسائر الواجبات مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج إلّا أنّ الولاية أعظم شأناً وأجلّ مقاماً بين الفرائض. وممّا ذكرنا يعلم معنىٰ غيرها من الروايات الواردة في تأويل الشرك والكفر بالشرك والكفر بالولاية، وقد عرفت إمكان استفادة ذلك من الآية لو خلّيت ونفسها.

في الكافي ١٨/٢، عن الحسين بن محمد الأشعري مسنداً عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

بُني الإسلام علىٰ خمس: على الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية.

وفيه أيضاً، عن أبي علي الأشعري مسنداً عن فضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

بُني الإسلام علىٰ خمس: على الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية. فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه ـ يعني الولاية ـ.

ومنها قوله تعالىٰ: «فلا صدّق ولا صلّىٰ * ولكن كذّب وتولّىٰ * ثمّ ذهب إلىٰ أهله يتمطّىٰ». [القيامة (٧٥) / ٣١ ـ ٣٣]

أقول: وفيه أوّلاً، إنّ الصلاة غير ظاهرة في العبادة الخاصّة بل الظاهر بقرينة قوله تعالىٰ: «ولكن كذّب وتولّىٰ» أنّ المراد منها التصديق والاتّباع.

وثانياً، إنّ الآية غير صريحة في توبيخ الكفّار لاحتمال شمولها لفسّاق المسلمين والمتساهلين وأهل الأهواء المضلّة المردية.

ومنها قوله تعالىٰ: «ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنّا نخوض مع الخائضين» [المدّثّر (٧٤) / ٤٢ ـ ٤٥]

أقول: الاستدلال به ضعيف جدًّا فإنّ جواب أهل سقر بأنّهم لم يكونوا من زمرة المصلين، لا يدلّ علىٰ أنّهم كانوا مكلّفين بالصلاة، وإنّما قالوا: إنّا لم نك من الفريق الذين نجوا من النار بصلاتهم وصالحات أعمالهم فإنّ الصلاة من شعائر المؤمنين وكانت عليهم كتاباً موقوتاً بل فيه ايهام أنّ الصلاة خاصّة بالمؤمنين، هذا بناءً علىٰ أنّ المراد من الصلاة هي العبادة الخاصّة كما هو المستفاد من قول أمير المؤمنين عليه السّلام في النهج، الخطبة /١٩٩، حيث قال:

تعاهدوا أمر الصلاة واستكثروا منها وتقربوا بها فإنّها «كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» ألا تسمعون إلىٰ جواب أهل النّار حين سئلوا «ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين».

وفي الكافي ٤١٩/١، عن علي بن محمد، مسنداً عن إدريس بن عبدالله، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سألته عن تفسير هذه الآية: «ما سلككم في سقر * قالوا لم

نك من المصلين» قال:

> عنىٰ بها لم نك من أتباع الأئمّة الذين قال الله تبارك وتعالىٰ فيهم: «والسابقون السابقون * أولئك المقرّبون» [الواقعة (٥٦) / ١٠ـ ١١] أما ترى الناس يسمّون الّذي يلي السابق في الحلبة مصلّي، فذلك الّذي عنىٰ حيث قال: «لم نك من المصلين» لم نك من أتباع السابقين.

أقول: يمكن إرجاع الروايتين إلىٰ معنىً واحد فإنّ مفاد كلّ واحد منهما هو أنّا لم نك من الفريق الذين اتّبعوا الأنبياء واستمعوا إلىٰ دعوتهم. مضافاً إلىٰ أنّ سورة المدّثّر أوّل مانزل علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله، أو أنها من جملة أوائل ما نزل عليه صلّىٰ الله عليه وآله، ولم يكن اليوم للدعوة إلى الصلاة اسم ولا أثر.

في الاحتجاج ٣٧٩/١، قال: جاء بعض الزنادقة إلىٰ أمير المؤمنين صلوات الله عليه... قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

> وأمّا قوله: «إنّما أعظكم بواحدة» [سبأ (٣٤) / ٤٦] فإنّ الله جلّ ذكره أنزل عزائم الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة كما خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ولو شاء لخلقها (أن يخلقها) في أقلّ من لمح البصر لخلق ولكنّه جعل الأناة والمداراة مثالاً لأمنائه وإيجاباً للحجّة علىٰ خلقه فكان أوّل ما قيّدهم الإقرار بالوحدانيّة والربوبيّة والشهادة بأن لا إله إلّا الله، فلمّا أقرّوا بذلك تلاه بالإقرار لنبيّه صلّى الله عليه وآله بالنبوّة والشهادة له بالرسالة فلمّا انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة ثمّ الصوم ثمّ الحجّ ثمّ الجهاد ثمّ الزكاة ثمّ الصدقات وما يجري مجراها من مال الفيء. فقال المنافقون: هل بقي لربّك بعد الّذي فرض علينا شيء آخر يفترضه فتذكره لتسكن أنفسنا إلىٰ أنّه لم يبق غيره؟ فأنزل في ذلك «قل إنّما أعظكم بواحدة» يعني الولاية....

أقول: ليس سوق الحديث والغرض الأصيل من هذا الكلام بيان تدريجيّة الأحكام من حيث الإبلاغ والإيصال وإنّما الغرض في المقام بيان أنّ سنّة الله تعالىٰ في إيجاد الخلق على المداراة طبق ماتقتضيه حكمته تعالىٰ وهكذا عالم التشريع، فبيّن عليه السّلام أنّ إيجاب الفرائض بعد الانقياد للتوحيد والرسالة بالطبع وطبق سيرة

التكاملي. فقد صرّح عليه السّلام بالعبديّة الرتبيّة وتقييد وجوب الفرائض بـالإيمان والإسلام إلّا أنّه فصّل جريانه العادي وسوقه الطبيعي.

فهو بعينه مساوق لما نحن في صدده من إثبات تقييد موضوع التكاليف التعبديّة بالمؤمنين والمسلمين. فكم فرق بين القول بأن سياق الحديث لبيان تدريجيّة الأحكام وبين القول بأنّ الحديث لبيان سنة الله في نظام التكوين والتشريع وأنّه ما فرض الله عليهم فريضةً إلّا بعد انقيادهم للتوحيد والرسالة لا أنّ الفرائض واجبة عليهم في عرض التوحيد والرسالة وإنّما التدريج في إبلاغها وإيصالها.

قال الشيخ العلّامة الأنصاري (قده) في كتاب الطهارة /١٣٩: إنّا لانقول بكون الكفّار مخاطبين بالفروع تفصيلاً كيف، وهم جاهلون بها غافلون عنها وكيف يعقل خطاب منكري الصانع والأنبياء وعلىٰ تقدير الالتفات فليستهجن بل يقبح خطاب من أنكر الرسول بالايمان بخليفته والمعرفة بحقّه وأخذ الأحكام منه، بل المراد أنّ المنكر للرّسول صلّىٰ الله عليه وآله مثلاً مخاطب بالإيمان والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه فإن آمن وحصل ذلك كان مطيعاً وإن لم يؤمن ففعل المحرّمات وترك الواجبات عوقب عليها كما يعاقب علىٰ ترك الايمان لمخاطبته لها إجمالاً وإن لم يخاطب تفصيلاً بفعل الصلاة وترك الزنا ونحو ذلك لغفلته عنها.

أقول: تعليله (قده) استهجان خطاب الكفّار بالفروع بعدم علمهم التفصيلي لها ليس بسديد لأنّه ليس في الرّوايات ما يدلّ علىٰ ذلك فإن الإمام عليه السّلام قال لأبان: يا أبان هل ترىٰ أنّ الله سبحانه طلب من المشركين زكاة أموالهم وهم يعبدون معه إلها غيره. فإنّه كما ترىٰ مطلق شامل لمن كان له علم تفصيلي أو لا.

في تفسير العياشي ٧٨/١، عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله «كتب عليكم القتال» و«يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام» قال: فقال:

هذه كلّها تجمع الضّلال والمنافقين وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة.

هذه الرواية الشريفة أيضاً وإن كانت في مقام تعمّ المؤمنين بمن آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه إلّا أنّ فيها تأييداً واستيناساً لما ذكرنا من عدم توجّه الخطابات المسوقة للتكاليف التعبديّة التشريعيّة للجاهلين والمعاندين.

فظهر من جميع ما ذكرنا أنّه لا دليل من الكتاب والسنّة علىٰ أنّ الكفار مكلّفون بالفروع كما أنّهم مكلّفون بالأصول إلّا أنّ هذا هو المشهور بين علماء الإماميّة بل بين علماء الاسلام.

قال في الحدائق الناضرة ٣٩/٣: المشهور بين الأصحاب (رضوان الله عليهم) بل كاد يكون إجماعاً أنّه يجب الغسل على الكافر لأنّ الكفّار مكلّفون بالفروع. ولم ينقلوا في المسألة خلافاً عن أحد من الخاصّة بل من العامّة إلّا عن أبي حنيفة.

وقال في البحار ٨٤/٢٣: ويدّل الخبر علىٰ أنّ المشركين بالله غير مكلّفين بالفروع، والمخالفين مكلّفون بها، وهو خلاف المشهور بين الإماميّة.

فتحصّل أنّ قوله تعالىٰ: «اعبدوا ربّكم...» ليس في تشريع شيء من العبادات أو تشريع شيء من المحرّمات كي يبحث عن شموله للكافر والمؤمن. لأنّه أمر إرشاديّ لإتيان ما كان عبادة من قبل علله. هذا أوّلاً.

وثانياً لو سلّمنا وقلنا: إنّه في مقام تشريع العبادات من دون احتياج إلىٰ دليل تشريع شيء من الواجبات والمحرّمات فلا دليل علىٰ توجّه الخطاب للكفّار المنكرين بالأحكام التعبديّة.

فالآية الكريمة صدراً وذيلاً أجنبيّة عمّا ذكروه وإنّما هي في مقام الدعوة الكبرىٰ إلى الله الظاهر بآياته وبيّناته بضرورة الفطرة لجميع العقلاء، وتذكيرهم بساحته الكبرىٰ وسوقهم إلىٰ مطالعة الآيات والتدبّر في أسرار الخليقة ورموز الكون والتوجّه لحفظ الحدود والتحذير عن المجادلة والمغالطة ومخالفة العلم. وتذكيرهم بالجرم العظيم وهو اتّخاذ الأمثال والأنداد، وأمرهم بخلعها ودعوتهم إلى المبارزة وتحدّيهم بإتيان هذا العلم الظاهر إن أصرّوا علىٰ لجاجهم وعنادهم. فالقيام بهذه الواجبات والعزائم العقليّة هو العبادة بالحقيقة والحذر عن مخالفة تلك الأصول هو التقوى جدًّا وإليها ينتهي كلّ الواجبات، فإطلاق العبادة والتقوىٰ علىٰ تلك العزائم بالأوليّة والأولويّة كما أوضحناه في تفسير قوله تعالىٰ: «إيّاك نعبد» في سورة الفاتحة، وفي إطلاقات الكتاب والسنّة شهادة كافية علىٰ ذلك.

في الكافي ٣٣/٢، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قلت له: أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال:

مالا يقبل الله شيئاً إلّا به.

قلت: وماهو؟

قال: الإيمان بالله الّذي لا إله إلّا هو، أعلىٰ الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظّا....

ولا يخفى عند أُولي الألباب أنّ ما ذكرناه في المقام إنّما بناءً علىٰ ماهو الأساس في العلوم الشرعيّة من أنّ معرفته تعالىٰ فطريّة ضروريّة وأنّ مرجع الاحتجاج بالآيات والعلامات في مقابل المخالف هو التذكّر بالمعرفة الضروريّة بالآيات المعلومة المشهودة، وبناءً علىٰ أنّ العقل هو حجّة من الله يعرف به الجيّد والرديء، والحسن والقبيح والفريضة والسنّة أي، الفرائض العقليّة والسنن الحسنة العقليّة. وأمّا بناءً علىٰ أنّ معرفته تعالىٰ نظريّة ومخلوقيّة ماسواه نظريّة وليس حكم العقول إلّا ما أثبته البرهان المنطقي فهو طور آخر من البحث أجنبيّ عن التعاليم الإلهيّة في القرآن والسنّة.

قوله تعالىٰ: «ربّكم»

قد تقدّم معنى الربّ والربوبيّة في قوله تعالىٰ: «ربّ العالمين» في سورة الفاتحة مستقصًى. فتعليق العبادة والتواضع والتكريم والانقياد والتسليم للرّب تبارك وتعالىٰ إنّما هو من حيث إنّ ربوبيّته تعالىٰ هو قيامه بأمر الخلقة، والتكوين من حيث الإتقان والإحكام والإصلاح بالعنايات العلميّة والتقدير الحكميّ العمدي فليس الربّ بمعنى المالك والسيّد والمصلح والمدبّر ولا مرادفاً بهذه الأسماء، وإن كان ربّنا جلّ مجده مالكاً وسيّداً ومصلحاً ومدبّراً. فما مسّ عليه يد الجعل والخلقة فهو مربوب لله سبحانه وقد تعرّف بربوبيّته لخلقه. ومن هنا يتجلّىٰ معنىٰ قوله عليه السّلام في الصحيفة الكاملة السجاديّة في دعائه في التحميد:

الحمد لله علىٰ ما عرّفنا من نفسه وألهمنا من شكره، وفتح لنا من أبواب التعليم بربوبيّته.

وفي إضافة الربّ إلىٰ «كم» تلويح إلىٰ تعطّفه وتحنّنه سبحانه للمخاطبين.

قوله تعالىٰ: «الّذي خلقكم»

هذا ومعطوفاته صفة للربّ وفي هذا التوصيف والتمجيد إشعار بأنّ حيث الخالقيّة وغيرها من التمجيدات المذكورة في الآية، غير حيث الربوبيّة، نعم يمكن أن

تكون جميعها معرفات وشرح لحقيقة الربوبيّة له تعالىٰ فلا محالة يمكن أن يقال: إنّها من آثار ربوبيّته تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: «والذين من قبلكم».

أي، من الأمم الماضية والقرون الخالية فإنّ من يعرف نفسه بأنّه مخلوق ويعرف أنّ الله خالقه لاينفعه إلّا إذا عرف أنّه متوحّد في الخالقيّة لا خالق سواه.

قوله تعالىٰ: «لعلّكم تتّقون». (٢١)

الظاهر أنّ لعلّ في موضع التشويق والتأكيد وهي بمعنى الأمر، وحيث إنّه إرشادي فلا محالة يكون في مورد الندب ندباً وفي مورد الواجب واجباً وفي مورد الحرام حراماً. فالتقوىٰ عن الحرام حكم عقلي واجب بالضرورة فيجب عليكم الاتّقاء والحذر في حضور من عرفتم أنّه ربّكم وقد استغرقكم بمواهبه الكريمة وآلائه السنيّة، فكان الكلام في قوّة أن يقال: اعبدوا ربّكم واتّقوه. فعلىٰ هذا يكون قوله تعالىٰ: «لعلكم تتّقون» راجعاً إلىٰ قوله: «اعبدوا». ويمكن أن يكون راجعاً إلىٰ قوله تعالىٰ: «الذي خلقكم» فعليه يكون الكلام في سياق قوله تعالىٰ: «وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون».

وأوّل الوجهين أولىٰ وأظهر لأنّ العماد في الكلام والأصالة في السياق هو تعلّق العبادة بالربوبيّة، وقوله تعالىٰ: «الّذي خلقكم» ليس له استقلال في السياق بل هو تمجيد وتعظيم للربّ تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: «الّذي جعل لكم الأرض فراشاً».

هذا أيضاً توصيف للربّ والربوبيّة وشؤونها وما أعدّه الله وبسطه ممّا يحتاج الناس إليه وما يقوّم عماد حياتهم واكتفىٰ في المقام بالتذكير بأصولها. أي الأرض المفروشة الّتي هي مراح جميع الأجسام والأبدان ومنبع جميع الأرزاق ومعدنها. وفيها الهواء الّذي لايتمّ الانتفاع بالأرض إلّا به؛ بلا انقطاع وجعله في وسعة عجيبة بين السماء والأرض.

في الإقبال /٣٤٣، في دعاء مولانا الحسين عليه السّلام في يوم عرفة قال:

يا من كبس الأرض على الماء وسدّ الهواء بالسماء.

فالاستفادة من هذه الأصول الّتي أتقنها وأحكمها الربّ العزيز العليم تعمّ جميع الخلق حتّى الأنداد الّتي اتّخذها الجاهلون إلهاً. وهذا هو معنى الرحمانيّة العامّة الّتي يستفيد منها المؤمن والكافر والصدّيق والعدوّ.

وواضح أنّ «جَعَلَ» ليس مرادفاً لـ«خَلَقَ» بل فيه العناية والغرض فكان الكلام في قوّة أن يقال: خلق وجعل لأمر كذا. قال تعالى:

«الله الّذي جعل لكم اللّيل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إنّ الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون». [المؤمن (٤٠) / ٦١]

و«ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون». [القصص (٢٨) / ٧٣]

ومن فوائد الأرض كونها فراشاً منبسطة تحت أرجل الناس يستريحون إليها وبها ويستمتعون فيها بجميع أنحاء الاستمتاعات من البناء والغرس والزرع وتفجير العيون والأنهار. قال علي عليه السّلام في النهج، الخطبة /٢١١:

فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً.

وفي التوحيد /٤٠٣، عن محمّد بن القاسم الاسترابادي مسنداً عن الحسن بن علي عليهما السّلام، عن آبائه، عن علي بن الحسين عليهم السّلام في قول الله: عزّ وجلّ: «الّذي جعل لكم الأرض فراشاً» قال:

جعلها ملائمة لطبائعكم، موافقةً لأجسادكم، لم يجعلها شديدة الحمى والحرارة فتحرقكم، ولا شديدة البرد فتجمدكم، ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم، ولا شديدة النّتن فتعطبكم، ولا شديدة اللّين كالماء فتغرقكم، ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم، ولكنّه عزّ وجلّ جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به وتتماسكون وتتماسك عليها أبدانكم وبنيانكم، وجعل فيها ما تنقاد به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم....

قوله تعالى: «والسماء بناءً».

الظاهر أنّ المراد من السماء ليس الهواء المحيط بالأرض بل الظاهر. على ما سنفصّله إن شاء الله في الموارد المناسبة لذلك ـ أنّها إحدى السماوات السبع الّتي بمنزلة القبّة على الأرض والهواء كأنّها سقف لها قال تعالى:

«وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون». [الأنبياء (٢١)/ ٣٢]

و«السقف المرفوع». [الطور (٥٢) / ٥]

في التوحيد / ٤٠٤، مسنداً عن علي بن الحسين ـ عليهما السّلام قال:

... ثمّ قال عزّ وجلّ: «والسماء بناءً» أي سقفاً من فوقكم محفوظاً يدير فيها شمسها وقمرها ونجومها لمنافعكم.

قال في التبيان ١٠٢/١: واستدلّ أبو علي الجبائي بهذه الآية على أنّ الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجّمون والبلخي بأن قال: جعلها فراشاً. والفراش، البساط. بسط الله تعالى إيّاها والكرة لاتكون مبسوطة.

أقول: لا دلالة في الآية على عدم كرويّة الأرض فإنّها على جميع التقادير فراش لأهلها يَطَؤونها ويسكنونها ويسترجعون بها وإليها. وكأنّ المستدلّ توهّم أنّ تشبيه الأرض بالفراش من حيث طورها وبسطها.

قوله تعالى: «وأنزل من السماء ماءً فأخرج به...»

في التوحيد /٤٠٤، مسنداً عن علي بن الحسين عليهما السّلام قال:

... ثمّ قال عزّ وجلّ: «وأنزل من السماء ماءً» يعني المطر نزّله من العلى ليبلغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم وأوهادكم ثمّ فرّقه رذاذاً ووابلاً وهطلاً وطلّاً لتنشفه أرضكم ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضكم وأشجاركم وزروعكم وثماركم.

قوله تعالى: «فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون». (٢٢)

قال في لسان العرب ٤٢٠/٣: النِدّ ـ بالكسر ـ المثل والنظير، والجمع أنداد.

وفي التوحيد ٤٠٤، مسنداً عن علي بن الحسين عليهما السّلام قال:

... «فلا تجعلوا لله أنداداً» أي، أشباهاً وأمثالاً من الأصنام الّتي لاتعقل

ولا تسمع ولا تبصر ولا تقدر علىٰ شيء «وأنتم تعلمون» أنّها لا تقدر علىٰ شيء من هذه النعم الجليلة الّتي أنعمها عليكم ربّكم تبارك وتعالىٰ.

أقول: هذه الفقرة من الآية تشهد شهادة جليّة لما ذكرناه في صدر البيان أنّ المراد من العبادة ليس ماهو المصطلح المرتكز من العبادات المجعولة بالجعل الشرعي بل المراد ـ وهو المعنى اللّغوي ـ هو التذلّل والتواضع كما نقلنا عن ابن عباس في تفسير «اعبدوا» قال: أي، وحّدوه. فالتفريع بقوله: «فلا تجعلوا لله...» بناءً علىٰ ما ذكرنا أنّه أمر بالتذلّل والتواضع والإقرار والتعظيم مع استدلاله بآثار الربوبيّة واستشهاده عليها بأصول النعم الّتي أتقنها بحكمته وأحكمها بصنعه وذلك تقدير العليم الحكيم فليس اتّخاذ الأنداد والأمثال إلّا مكابرة مع العيان وعناداً بعد الحجّة كما هو صريح قوله تعالىٰ: «وأنتم تعلمون» أي، اتّخاذ الأنداد لله سبحانه إنّما هو مع علمكم بالحال.

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالىٰ: «وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا علىٰ عبدنا».

بيان: هذه الآية تحدٍّ منه تعالىٰ لجميع الأمم شرقاً وغرباً في عصر الحضور وبعده ضرورة أنّ دعوة القرآن الكريم ليست مختصّة بقرن دون قرن وبقوم دون قوم.

وهذه السورة مدنيّة، وهذه الآية آخر آية تحدّىٰ بها سبحانه خصوم القرآن المبين. والظاهر أنّ الآية الأولى الواردة في مرحلة التحدّي قوله تعالىٰ في سورة القصص:

«فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسىٰ أو لم يكفروا بما أوتي موسىٰ من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنّا بكلّ

كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدىٰ منهما أتّبعه إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين». [القصص (٢٨) / ٤٨ ـ ٥٠]

ثمّ بعد القصص تحدّاهم سبحانه وقرع أسماع الجنّ والإنس بما في سورة الإسراء قال تعالىٰ:

«قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً». [الأسراء (١٧) / ٨٨]

ثمّ تحدّاهم بما في سورة يونس قال تعالىٰ:

«أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين». [يونس (١٠) / ٣٨]

وأمّا سورة هود فقيل: إنّها مدنيّة ولكن علىٰ القول المشهور أنّها أيضاً مكيّة قال تعالىٰ:

«أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين». [هود (١١) / ١٣]

ثمّ تحدّاهم بما في سورة الطور قال تعالىٰ:

«أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين». [الطور (٥٢) / ٣٣ ـ ٣٤]

فمعنىٰ هذه الآيات الكريمة أنّ التحدّي كما وقع بمجموع القرآن وقع بأبعاضه أيضاً كما هو صريح بعض الآيات المذكورة. وأمّا التحدّي بأقصر سورة من سور القرآن وإن كان يفيده اطلاق بعض آيات التحدّي فلم يصرّح به القرآن ولم يظهر من الرسول الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله ومن عترته الطاهرة عليهم السّلام إلّا أنّ أعداء القرآن قد قاموا بإتيان مثل سورة الكوثر وسورة الفاتحة وأوقعوا نفوسهم في الفضيحة والخذلان علىٰ رؤوس الأشهاد.

قوله تعالىٰ: «فأتوا بسورة من مثله».

قال في المنار ١٩٢/١: قوله تعالىٰ: «من مثله» فيه وجهان: أحدهما، أنّ الضمير في مثله للقرآن المعبّر عنه بقوله: «ممّا نزّلنا» والثاني، أنه لعبدنا. قال شيخنا: وهو أرجح بدليل «مِن» الداخلة علىٰ «مثله» الدّالّة علىٰ النشوء أي، فإن كان أحد ممّن يماثل الرسول بالأمّيّة يقدر علىٰ الإتيان بسورة فليفعل.

أقول: توصيف مورد التحدّي بمثل النبيّ الأمّي ليس لنفي التحدّي عن غير الأمّيّين وحصره في الأمّيين فقط وامكان الإتيان ممّن اختلف إلى المدارس، بل إن كان التّحدّي عامّاً بالنسبة إلى الأمّي وغيره يكون أقوىٰ في إبطال حجج الخصوم ونفي الريب والارتياب عن ساحة القرآن الكريم لما سيجيء، مفضّلاً أنّ القرآن حجّة بذاته ومعجزة في حدّ نفسه سواء كان من الأمّي أو ممّن تتلمذ لعامة البشر من الأزل إلى الأبد.

فليست الآية الكريمة مسوقة للتقييد ولإثبات المفهوم بل سياقها سياق قوله تعالىٰ:

«وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلّا الظالمون». [العنكبوت (٢٩) / ٤٨ ـ ٤٩]

فتبيّن أنّ المستفاد من الآية ومن غيرها من آيات التحدّي عموم مورد التحدّي لجميع من بلغ هذا القرآن، العرب والعجم، الجنّ والإنس، من وُلد ومن يولد إلىٰ آخر الدهر، سواء كان التحدّي بالأبعاض أو بالمجموع، فالتبعيض في التحدّي بالنسبة إلى الأشخاص والأزمان خلف واضح وإبطال للتحدّي والإعجاز.

قال في مجمع البيان ١٦٢/١: فقوله تعالىٰ: «من مثله» قال بعضهم أنّ «من» بمعنىٰ التبعيض وتقديره، فأتوا ببعض ماهو مثل له وهو سورة. وقيل هو لتبيين الصفة. وقيل: إنّ من مزيدة قوله تعالىٰ في موضع آخر: «بسورة مثله».

وفيه أيضاً: «فأتوا بسورة من مثله» أي، من مثل القرآن. وعلىٰ قول من يقول: الضمير في «مثله» عائد إلىٰ «عبدنا» فالمعنىٰ فأتوا بسورة من بشر أميّ مثله لايحسن الخطّ والكتابة ولا يدري الكتب. والصحيح هو الأوّل لقوله تعالىٰ في سورة أخرىٰ: «فليأتوا بحديث مثله» وقوله: «فأتوا بسورة مثله» وقوله: «لئن اجتمعت

الإنس والجنّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله». يعني فأتوا بسورة مثل ما أتىٰ به محمّد صلّى الله عليه وآله في الإعجاز...

أقول: ارجاع الضمير في قوله: «من مثله» إلى القرآن وجعل «من» بمعنى التبعيض بدليل موافقة الآية لغيرها من آيات التحدّي ليس بسديد، لأنّ رفع اليد عن ظهور الآية بذلك يوجب الالتزام بعدم الظهور علىٰ أنّ قوله تعالىٰ: «بسورة» نصّ في التبعيض فلا محالة يكون مفاد الآية، فأتوا بسورة أي، بقطعة من القرآن فلا يحتاج إلىٰ جعل «من» بمعنى التبعيض.

وأمّا جعل «من» زائدة فإنّه التزام من غير إلزام.

وأمّا القول بأنّها للتبيين، فإنّه وإن لم يكن في الضعف بمثابة قول من زعم أنّها للتبعيض إلّا أنّه لا معنىٰ للتبيين فإنّ السورة الّتي تحدّاهم باتيانها معلومة مبيّنة.

فتحصّل أنّ الآية الكريمة مع رجوع الضمير إلى الموصول نصّ في التبعيض من غير احتياج إلىٰ جعل «من» للتبعيض كما في قوله: «بسورة مثله». ولا مجوّز لكونها زائدة. ولا شاهد لجعلها للتبيين. فالراجح الظاهر أن يكون المرجع للضمير «عبدنا».

قوله تعالىٰ: «وادعوا شهداءكم».

قال في مجمع البيان ٦٢/١: قال الفراء: أراد، وادعوا آلهتكم.

أقول: فعلىٰ هذا لابدّ من تفسير الدعوة بالدعاء والاستعانة بآلهتهم، أي إحضارهم في الموقف والاستمداد منهم وإشراكهم في المبارزة وقد علموا أنّهم ماكانوا يطيقون ولا يأتون ولا يحضرون فيكون الأمر للتهكّم والتقريع والتبكيت عليهم. لكن الظاهر أنّ المراد من الشهداء هم الأعوان والأنصار في تكذيب الرسول وإطفاء نور الحق. والعناية الملحوظة في إطلاق الشهيد تختلف باعتبار الموارد المستعملة فيها. فإنّ الشهيد قد يطلق على الحاضر ويطلق علىٰ من يقتل في سبيل الله لحضوره في الجهاد ويطلق الشاهد علىٰ من حضر في الموقف ويعاين الحادثة ويقررها عند القاضي ويطلق أيضاً علىٰ من حضر لإعانة غيره مثل قوله تعالىٰ: «ما أشهدتهم خلق السّمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متّخذ المضلّين عضداً» [الكهف (١٨)/ ٥١]. والظاهر أنّ الشهداء في الآية الكريمة من قبيل هذا الأخير.

قال في مجمع البيان ٦٢/١: قال ابن عباس: يعني أعوانكم وأنصاركم الّذين

يظاهرونكم علىٰ تكذيبكم. وسمّىٰ أعوانهم شهداء لأنّهم يشاهدونهم عند المعاونة والشهيد يكون بمعنىٰ المشاهد كالجليس والأكيل، ويسمىٰ الشاهد على الشيء لغيره بما يحقّق دعواه بأنّه شهيد أيضاً... وقول ابن عبّاس أقوىٰ.

أقول: لايخفىٰ ضعف العناية المذكورة وتأويل الشهيد بالمشاهد وقياسه بالجليس والأكيل. وأمّا تأويل الشهيد بالشاهد، فقد أخذ فيه المعنى المصطلح الفقهي.

قوله تعالىٰ: «من دون الله»

أقول: إطلاق هذا اللّفظ في القرآن مثل الشفاعة من دون الله، والتحليل من دون الله، والتحريم من دون الله، والعبادة من دون الله، والتشريع من دون الله كثيرٌ. فكلّ عمل وعبادة وتحليل وتحريم وقع بأمر الله سبحانه وبإذنه فهو حلال محلّل مبارك. وهكذا كلّ نصرة وشفاعة وأثر تكويني يعتقد أنّه بأمر الله وبإذنه فهو التوحيد الخالص. ولو قيل: إنّها مع الله فيكون الله أحداً من الشركاء، أو من دون الله أي باستقلال من غير الله سبحانه فهو الشرك والكفر فلاك التوحيد هو استناد الأمر إلى الله سبحانه مباشرة بلا واسطة أو ينتهي الأمر إليه تعالىٰ ويعلل بأمره وبإذنه كما في أمر الأنبياء والرسل وهكذا في التكوينيّات، وكلّ ما سوىٰ ذلك بدعة في الأعمال وشرك وكفر في العقائد وهذا باب تنفتح منه أبواب في باب العقائد والأحكام.

فهؤلاء الشهداء الذين يستنصر بهم علىٰ تكذيب الرسول وإطفاء نور الحقّ لاينصرون الذين كفروا بنصرة من ربّهم وبأمره وإذنه لا تكويناً ولا تشريعاً فهؤلاء لايستطيعون نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم.

قوله تعالىٰ: «إن كنتم صادقين». (٢٣)

أي، إن كنتم صادقين في دعوى الريب والترديد في أمر القرآن فأتوا بسورة من مثله وحيث إن القرآن لايقبل الريب والترديد فدعوى الريب منهم لاتكون إلّا مكابرة وعناداً واستكباراً.

فظهر أنّ الله سبحانه يقرع المكذّبين بالقرآن أن اجمعوا أمركم وشركاءكم وأعوانكم وشهداءكم من دون الله فأتوا كلّكم أجمعون بسورة ممّا أنزلنا علىٰ عبدنا الّذي لم يختلف إلىٰ عالم ولا يتّخذ عن أحد وأنتم مع جميع ماتستطيعون من قدرتكم وشهدائكم من فراعنة الأرض وجبابرتها بلا استثناء أحد منكم وبلا استثناء شيء

من تجهيزاتكم اقضوا إلىٰ هذا القرآن وأتوا بسورة من مثله.

قوله تعالىٰ: «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا».

قد أتىٰ بإن الشرطيّة في مقام الجدال والاستدلال إتماماً للحجّة وإيفاءً لتمام النصفة على الخصم الجادل ثمّ حكم على المكذّبين بأنّهم «لن يفعلوا» أبداً وقرع أسماعهم بالخذلان الدائم وبأنّهم لايقدرون عليه أصلاً وليس تظاهرهم الريب في هذا الموقف إلّا علىٰ سبيل اللّجاج والإغماض عن الحقّ المبين ولذا أنذرهم وحذّرهم عن النار الكبرىٰ فإنّ اللّجاج والسفاهة في مقابل الحقّ والمكابرة مع العلم قبيح محرم بذاته بضرورة العقول وشهادة العيان؛ مضافاً إلىٰ أنّه خيانة علىٰ عامّة البشر وصدّ عن سبيل الحق علىٰ طلّابه وسالكيه فلا محالة يستحقون أن يصلوا النار الكبرىٰ جديّاً علىٰ سنّة العدل ومجازاة الخائن، فسبحانه من إله أن يجعل المجرمين والخائنين كالمتّقين والمحسنين.

قوله تعالىٰ: «فاتقوا النار الّتي».

قد شهدت نصوص الكتاب والسنّة علىٰ أنّ الله سبحانه خلق عالم الآخرة مع عرضها العريض من سنخ هذا العالم. ومن جملتها عوالم النّار بما لاتقدّر العقول قدرها وسعتها وشدّتها، ومن جملتها وأجزائها عوالم الجنّة وما فيها من النعم والسرور والصفاء، لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

قال في كشف المراد / ٢٧٠: اختلف الناس في أنّ الجنّة والنار هل هما مخلوقتان الآن أم لا. فذهب جماعة إلىٰ الأوّل وهو قول أبي علي، وذهب أبو هاشم والقاضي إلىٰ أنّهما غير مخلوقتين... احتجّ أبو هاشم بقوله تعالىٰ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» [القصص (٢٨) / ٨٨] فلو كانت الجنّة مخلوقة الآن لوجب إهلاكها والتالي باطل لقوله تعالىٰ: «أكلها دائم» [الرعد (١٣) / ٣٥].

أقول: قد توهم أنّ وجود الجنّة والنّار بعد انحلال الدنيا وبطلانها ولم يتفطّن أنّ الجنّة والنار من أجزاء الآخرة وموجودتان مخلوقتان الآن وقد يعبر عنهما بعالم الغيب.

والأمر العجيب أنّ بعضاً من الفلاسفة المنتحلين الإسلام قال: إنّ الجنّة والنار إنّما تنشآن بإنشاء البدن في الصقع المساغ لهما من دون مشاركة مادّة لهما وقال: إنّ موطن تلك النار ومحلّها عالم الخيال الّذي تصل إليه النفس بالحركة الجوهريّة الذاتيّة

بعد انحلال البدن الدنياوي وبطلان أصولها، فالنفس معذبة بنار توقدها وتوجدها نفسها، فليس هنا جهنّم ونار خارجيّة وهكذا الجنّة وما فيها من النعيم الموعود.

قال في الأسفار ١٨٣/٩: إنّ الدار الآخرة وأشجارها وأنهارها وغرفاتها ومساكنها والأبدان الّتي فيها كلّها صور إدراكيّة وجودها عين مدركيّتها ومحسوسيّتها، وقد علمت مراراً أنّ الصورة المحسوسة وجودها في نفسها عين محسوسيّتها ومحسوسيّتها عين وجودها للجوهر الحاسّ وكذلك حكم الصور المعقولة في أنّ وجودها في نفسها ومعقوليّتها ووجودها للجوهر العاقل كلّها شيء واحد بلا اختلاف جهة....

وقال فيه أيضاً ١٩٢/: بل ليس في الجنّة إلّا شهوات النفس ومراداتها.

وفيه أيضاً ٢٦٨/: واعلم أنّ جميع ما في عالم الآخرة صورة إدراكيّة ليس لها موضوع أو مادّة... وكذلك الماء والهواء والشجر والجبال والأبنية والبيوت كلّها موجودة بوجود صوريّ نفساني بلا مادّة وحركة وقوّة استعداديّة....

وفيه أيضاً ٣٣٥/: وقد علمت أنّ جنّة المؤمن أو جحيم الكافر ليست بأمر خارج عن نفسه.

قوله تعالىٰ: «وقودها الناس والحجارة»

قال في لسان العرب ٤٦٥/٣: الوَقود: الحطب... الوَقْد: نفس النار. ووَقَدَت النار تَقِدُ وَقْداً وقِدَةً ووَقَداناً ووقوداً ـ بالضم ـ ووَقوداً عن سيبويه، قال: والأكثر أنّ الضمّ للمصدر والفتح للحطب... والوقود: ماتوقد به النار، وكلّ ما أوقد به فهو وقود.

قال في الميزان ٨٨/١: ثم إنّ الوقود ماتوقد به النار وقد نصّت الآية أنّه نفس الإنسان، فالإنسان وقود وموقود عليه كما في قوله تعالىٰ أيضاً: «ثمّ في النار يسجرون» [المؤمن (٤٠) / ٧٢]، وقوله تعالىٰ: «نار الله الموقدة الّتي تطّلع علىٰ الأفئدة» [الهمزة (١٠٤) / ٧]، فالإنسان معذب بنار توقده نفسه وهذه الجملة نظيرة قوله تعالىٰ: «كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الّذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً» [البقرة (٢) / ٢٥] ظاهرة في أنّه ليس للإنسان هناك إلّا ماهيّأ، من ههنا، كما عن النبي صلّى الله عليه وآله: كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون[1] (الحديث)

---

١ ـ الظاهر أنّ مراده هذه الرواية الواردة عن النبي صلّى الله عليه وآله: والذي بعثني بالحقّ لتموتنّ

وإن كان بين الفريقين من حيث إنّ لأهل الجنّة مزيداً عند ربهم.

أقول: الحق أنّ الوقود هو الحطب فإنّ النّار ليست إلّا ناراً خارجيّة يحترق بها كلّ ما يلقىٰ فيها سواء كان حطباً أو حصباً، وسواء كان وقوداً أو موقوداً عليه. وليس فرق بين الوقود والحطب إلّا من جهة أنّ الوقود يلتهب ويشتعل بأوّل ما تأخذه النار بسهولة والحطب أيضاً يحترق بها في رتبة متأخّرة فكلاهما يحتاجان في الاحتراق إلىٰ نار خارجية فليس في الآية الكريمة إلّا أنّ هذه النار يلتهب بها الإنسان والحجارة إذا ألقيا فيها بسهولة لشدّتها وحدّتها.

فتحصّل أنّ الآية الكريمة لاتدلّ علىٰ أنّ الإنسان معذّب بنار توقدها نفسه في باطن ذاته ويحترق بها فيكون هو الوقود والموقود عليه بل تفيد أنّ هذه نار سجّرها خالقها لغضبه، كما قال علي عليه السّلام في النهج، الخطبة /٢٢٤:

يا عقيل أتئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرّني إلىٰ نار سجّرها جبارها لغضبه، أتئنّ من الأذىٰ والا أئنّ من لظىٰ.

وأمّا استشهاده بقوله تعالىٰ: «نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة» فإنّه وما تقدمه من الآيات وما تأخّره ظاهر بل صريح في أنّ الإنسان الهمّاز اللّماز الّذي جمع ماله وعدّده سيطرح ويلقىٰ في الحطمة، والطرح والإلقاء نصّ في أنّ النار الّتي يلقىٰ فيها العصاة ليست في نفوسهم وذواتهم، وهي الّتي تسمّىٰ حطمةً أي، تحطم ما يلقىٰ فيها أو يحطم بعضها بعضاً وهي نار الله الموقدة الّتي تطّلع من ظاهر ذواتهم علىٰ أفئدتهم بلا مهلة وفترة. وفي «تطّلع» تلميح لطيف بأنّه ليس بين النّار والفؤاد فاصلة وحجاب وإشعار بأنّ هذه النار لايمكن أن يكون بينها وبين ما يلقىٰ فيها مانع ولا دافع فالإلقاء فيها مساوق لظهورها وتسلّطها على الفؤاد، فلا دلالة في الآيات الكريمة علىٰ نشوء هذه النار عن الفؤاد.

وكذلك قوله تعالىٰ: «في النّار يسجرون» ظاهر أن النار ظرف للعصاة الّذين يسجرون ويلتهبون فيها.

← كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون، وما بعد الموت دار إلّا جنّة أو نار... (البحار ٤٧/٧).

وكذلك الرواية الشريفة أيضاً لا دلالة فيها علىٰ ما ذكره.

قوله تعالىٰ: «أعدّت للكافرين». (٢٤)

قال في لسان العرب ٢٨٤/٣: إعداد الشيء واعتداده واستعداده وتعداده، إحضاره... والعُدّة ما أعدّ لأمر يحدث.

وقال الرازي في تفسيره ٤/٩: السؤال الثالث، هل تدلّ الآية «فاتقوا النار... الّتي أُعدّت للكافرين» علىٰ أنّ النار مخلوقة الآن أم لا؟ الجواب: نعم، لأنّ قوله: «أعدّت» إخبار عن الماضي فلابدّ أن يكون قد دخل ذلك الشيء في الوجود.

وفي البحار ١٩٦/٨، عن كتاب صفات الشيعة للصّدوق، مسنداً عن ابن عمارة، عن أبيه قال: قال الصادق عليه السّلام:

ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المعراج والمسألة في القبر، وخلق الجنّة والنار والشفاعة.

وفي النهج، الخطبة ٦٤/، قال عليه السّلام:

كونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدًى وما بين أحدكم وبين الجنّة أو النّار إلّا الموت أن ينزل به.

وفيه أيضاً الخطبة ٢٠/، قال صلوات الله عليه:

فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريب مايطرح الحجاب.

أقول: صرّح عليه السّلام بتحقّق الآخرة وتحقّق مايرد فيها علىٰ ابن آدم من الأهوال والأفزاع ولكن الله بحكمته وقدرته ضرب بينهم وبين الآخرة وما فيها من الحقائق حجاباً لايتمكنون من مشاهدتها وعن قريب يطرح عنهم الحجاب. والآيات والروايات في تحقّق الآخرة وخلقة الجنّة والنار كثيرة جدًّا فلا وجه للتشكيك فيها.

تبصرة وتكملة

لا ريب بحسب صريح الآيات الواردة في التحدّي وكذا بحسب القصص الواردة في شؤون الأنبياء وفيما جرىٰ بينهم وبين أممهم أنّ القرآن يثبت معجزات والآيات للأنبياء إثباتاً لنبوّتهم وصدقهم في ما ادّعوا من دعوى الرسالة والنبوّة.

والتحقيق في المقام أنّ النبوّة والرسالة تعليم إلهي وتنوير وهداية من الله سبحانه خارجة عن حقيقة ذات النّبي والرسول بل إفاضة من الله تعالىٰ علىٰ طور خارق للعادة ومبطل لنظام الطبيعة سواء كان النبيّ أمّيّا محضاً أو تتلمذ لعلماء الدنيا. وهذا التعليم الإلهي طور آخر مباين سنخه وطوره وحقيقته مع جميع العلوم البحثيّة والكشفيّة والعلوم الدائرة في عصرنا الحاصلة من تكرار التجارب وغيرها. وحجّة بذاته لذاته وليس إلّا من فعله سبحانه ولا كيف ولا طور لفعله. هذا كلّه في مقام الثبوت.

أمّا مقام الاثبات فلمكان احتجاب عموم الناس عن درك هذه الحقيقة ونيلها بحواسهم وأفكارهم وعقولهم ولذا لاتزال أممهم يواجهون معهم بإنكار دعواهم الرسالة والنبوّة ورموهم بأنواع من السخرية والاستهزاء فلابدّ لهم من أجل تصديق الأمم لذلك والإذعان له والوصول إليه من أدلّة وعلامات وأمارات مفيدة لهم العلم بنبوّتهم؛ ولا تتصور طريقاً وسبيلاً إلىٰ ذلك إلّا الإعجاز لأنّه واسطة وطريق إلىٰ نيل النبوّة والرسالة وتصديقها لا إلىٰ تصديق مقاصدهم وموارد دعوتهم فإنّ من المقاصد مالا يجوز التديّن بها إلّا بعد العلم والمعرفة مشروطاً بالنبوّة ومنها مالابد من العلم به والوصول إليه ويجب النظر والتذكّر والتدبّر على الإطلاق ومنها مايكفي التعبّد فيه كالفروع والأحكام الشرعيّة التعبديّة. وسرّ إثبات الإعجاز وكشفه عن مقام الرسالة والنبوّة هو أنّه لما كانت النبوّة والرسالة أمراً خارقاً للعادة ومبطلاً لنظام الطبيعة وقاطعاً للعلل والمعلولات والأسباب والمسبّبات غير قابل للتصديق والإذعان بمجرّد الدعوىٰ، فبروز المعجزة وظهورها عن النبي والرسول في مقام التحدّي والتعجيز حيث إنّها فعل من الله تعالىٰ محض استثناء عن سنّة العادة والطبيعة مستند إلىٰ مشيّته

سبحانه فتكون سبيلاً إلىٰ تصديق معجزة أخرىٰ مثلها في خرق الأسباب والعلل؛ فإنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز سواء.

فلو أتىٰ مدّعي النبوّة والرسالة بمعجزة صريحة وآية بيّنة فلايبقىٰ لإنكار النبوّة والرسالة سبيل سيّما إذا كان في مرحلة التحدّي والإعجاز والمعارضة والمغالبة، غاية الأمر أنّ المعجزة الأولىٰ وهي النبوّة والرسالة غائبة عن شعور الناس وعقولهم والمعجزة الثانية الّتي استدلّ بها الرسول وتحدّىٰ من المحسوسات الّتي ينالها عموم الناس.

والأمر الأعجب الّذي يبهر العقول هو أنّ معجزة نبيّنا صلّى الله عليه وآله ليست مثل آيات الأنبياء وبراهينهم بل معجزته صلّى الله عليه وآله عين رسالته وعين الوحي، فالقرآن الّذي يقرأه عليه ملك الوحي جبرئيل الأمين عين مصداق الرسالة وهو معجزة بالحقيقة فليس آية وبرهاناً لإثبات رسالة أخرىٰ بل هو برهان وحجّة لإثبات نفسه بنفسه وبذاته. فالقرآن حيث إنّه علم ونور حجّة بالذات لنفسه غنيّ بذاته عن جميع ماعداه من المعجزات والآيات والبراهين فهذا التكليم والكلام المبين بين أظهر الناس من المخالف والمؤالف والعدوّ والصديق بمرأى منهم ومنظر ومسمع. وقد تحدّاهم بهذا القرآن بأنّه منزّل من عند الله وأنّه كلام الله تعالىٰ. فالقرآن حقّ لا ريب فيه وهو بيّنات وبصائر وشفاء ورحمة وبرهان من الله ونور مبين وهدى للعالمين.

في النهج، الخطبة /١٤٧، قال علي عليه السّلام:

> فتجلّىٰ سبحانه لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوّفهم من سطوته.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ

وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالىٰ: «وبشر الّذين آمنوا وعملوا...»

بيان: أمر الله تعالىٰ حبيبه وصفيّه بالبشارة للّذين آمنوا بالله تعالىٰ وعملوا أعمالاً صالحة زكيّة خالصة بالجنّة الّتي فيها النجاح والفلاح والكرامة الكبرىٰ من الله سبحانه بلقائه تعالىٰ والقرب منه جلّ ثناؤه ولايزالون يُرزقون في هذه الجنّة من الثمرات الطيّبة وقالوا: إنّ هذا هو الّذي رزقناه من قبلُ في الدنيا.

قوله تعالىٰ: «وأتوا به متشابهاً»

أي، جيء لهم هذا الرزق في الجنّة متشابهاً. يشبه بعضه بعضاً في صفاء لونه وبهائه ولذّته وطعمه وسلامته من الآفات من تغيير الطعم والريح.

قوله تعالىٰ: «ولهم فيها أزواج مطهّرة»

أي، مطهّرات من الأدناس والأقذار والروائح الكريهة ولا يحِضن ولا يلدن فهنّ في نهاية الصفاء والجمال «كأمثال اللؤلؤ المكنون» [الواقعة (٥٦) / ٢٣]

في البحار ١٣٩/٨، عن العياشي، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام

في قول الله: «لهم أزواج مطهّرة» قالو لايحضن ولا يحدثن.

قوله تعالىٰ: «وهم فيها خالدون». (٢٥)

أي، لايزالون متمتعين من هذه اللّذائذ والمواهب.

قوله تعالىٰ: «إنّ الله لايستحي أن يضرب مثلاً مابعوضة...». (٢٦)

قال في آلاء الرحمٰن /٧٨: يجوز أن يكون لمنع الاعتراض علىٰ ضرب الله للمثلين المتقدّمين وغيرهما وإن لم يسبق من أحد اعتراض.

أقول: لا احتياج إلى التكلّف في ربط هذه الآية بالآيات السابقة، وأنّ الآية سيقت لإبطال قول المعترضين على المثلين المتقدمين، فإنّ السورة نزلت بالمدينة وقد نزلت قبلها آيات وسور في مكّة وقد ضرب الله تعالىٰ فيها كثيراً من الأمثال، قال تعالىٰ:

«وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلّا العالمون». [العنكبوت (٢٩) / ٤٣]

و«ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً». [الكهف (١٨) / ٥٤]

و«ولا يأتونك بمثل إلّا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً». [الفرقان (٢٥) / ٣٣]

وقد ذكرنا في ماتقدّم أنّ المَثل ليس بمعنىٰ المِثل والشبه بل المراد من المثل في القرآن الكريم هو بيان حقيقة الشيء من حيث نفي النقيصة منه، قال تعالىٰ:

«مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لذّة للشاربين وأنهار من عسل مصفّىً». [محمد (٤٧) / ١٥]

والمثل بهذا المعنىٰ ليس نقصاً في الكلام وقانون البلاغة والبيان وضرب الأمثال بالبعوضة وما فوقها وما دونها في مقام البيان ومورد البلاغ ممّا لابدّ منه فضلاً عن الامتناع منه. والاستحياء بالنسبة إليه تعالىٰ هو قدسه ونزاهته عمّا لايناسب مقام ألوهيّة.

فالآية الكريمة تردّ على المعترضين بضرب الأمثال مطلقاً سواء كان بعوضة أو مافوقها أو مادونها فإنّ المدار في ضرب الأمثال هو تنزيل الحقائق إلى سطح الأفهام العموميّة، وهذا أمر حسن جدًّا ودائر عند البلغاء ومربّ الأمم والملل وقـائدهم في سنن التعليم والكمال، فإنّ سوق الناس إلى الحقائق ابتداءً في مرتبتها الخاصّة بما مع اختلاف مراتب الأفهام أمر جزاف قبيح لابدّ أن يعارض بالردّ ويواجه بـالاستهزاء والإنكار؛ والقرآن الكريم في عين مراعاته هذا الأصل الأصيل طبق القوانين الفطريّة في فنّ البلاغة أتى في كلّ مورد بما يناسبه من إقامة الحجج القـيّمة وإيـضاح الحـقّ والحقيقة وتحريك العواطف وإثارة دفائن العقول، ومن احترام الحـقّ وتـعظيم العـلم والتنفير عن الباطل.

ويؤيّد ما ذكرنا من عموم المورد، التصريح بذكر البعوضة فإنّ المثلين في صدر السورة ليس فيهما شيء من ذكر البعوضة فالآية الكريمة تفيد أنّ المناقشة في المثال سواء كان بعوضة أو غيرها بعدما كان المراد منه تـوضيح المـقصود ليس مـن دأب الطالب المستهدي وإنّما هو دليل اللّجاج والعناد، وأنّه ليس هذه الأمثال إلّا لإبانة الحقّ وإيضاحه. فالضلال بعد الهدى والعمى بعد الضياء إنّما هو من فعل الفاسقين الذيـن خرجوا عن دين الله وخلعوا طاعة الربّ وأبطلوا نور الفـطرة وتـسامحوا في التـذكّر والاستيقاظ بدعوة الحقّ وأصمّوا آذانهم عن سماع نداء هداة الحقّ، وكلّ ذلك ليس إلّا إشباعاً لشهواتهم وتمايلاً لهوساتهم وتكـبّراً وتـعززاً بـتكبّرات الجـاهليّة وتـعزّزات الحماقة عن الانقياد والإئتمار لولاة الحقّ وأمناء العلم، وقد ارتكبوا قبيحاً من الجناية وعظيماً من الجرم.

قوله تعالى: «الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه...». (٢٧)

قال في لسان العرب ٣١١/٣: العهدُ: الوصيّة... يقال: عـهد إليّ في كـذا أي أوصاني... والعهد: التقدّم إلى المرء في الشيء. والعهد الذي يكتب للولاة وهو مشتق منه. والجمع عُهود، وقد عهد إليه عهداً. والعهد: المَوْثِق واليمين يحلف بـها الرجـل... والعهد: الحفاظ ورعاية الحرمة.

ويشكل القول بأن هذه المعاني كلّها معان حقيقيّة قد وضع لها لفظ العهد بل غاية مايقال فيها أنّ لفظ العهد قد استعمل فيها والمهمّ في المقام هو كشف المراد منه سواء كان بالحقيقة أو بالعناية فنقول: قد كثرت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم

السّلام أنّه سبحانه عرّف نفسه لعباده في عالم الذّر وغيره من العوالم ويخاطب جميع خلقه بقوله: «ألست بربّكم» [الأعراف (٧) / ١٧٢] ومنهم من آمن بقلبه ولسانه وعاهدوا أن لايكفروا به ويطيعوه ولايعصوه في شيء وأن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً؛ ومنهم من آمن بلسانه وأنكر بقلبه. وقد أخذ الله تعالىٰ منهم الميثاق أيضاً.

في الإقبال /٤٧٢، عن كتاب محمد بن علي الطرازي، عن محمد بن سنان مسنداً عن عمارة بن جوين العبدي قال: دخلت علىٰ أبي عبدالله عليه السّلام في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة فوجدته صائماً فقال:

إنّ هذا اليوم يوم عظّم الله حرمته على المؤمنين إذ أكمل الله لهم فيه الدّين وتمّم عليهم النعمة وجدّد لهم ما أخذ عليهم من الميثاق والعهد في الخلق الأوّل إذ أنساهم الله ذلك الموقف ووفّقهم للقبول منه ولم يجعلهم من أهل الإنكار الّذين جحدوا... ودعا بهذا الدعاء... اللّهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد وحدك لاشريك لك وأنّك واحد أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد وأنّ محمداً عبدك ورسولك صلواتك عليه وآله، يامن هو كلّ يوم في شأن كما كان من شأنك أن تفضّلت عليّ بأن جعلتني من أهل إجابتك وأهل دينك وأهل دعوتك ووفّقني لذلك في مبدإ خلقي تفضّلاً منك وكراماً وجوداً ثمّ أردفت الفضل فضلاً والجود جوداً والكرم كرماً رأفة منك ورحمة إلىٰ أن جدّدت ذلك العهد لي تجديداً بعد تجديدك خلقي وكنت نسياً منسيّاً ناسياً ساهياً غافلاً فأتممت نعمتك بأن ذكرتني ذلك ومننت به عليّ وهديتني له....

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالىٰ: «كيف تكفرون بالله...»

قال في المغني ٢٧١/١، في معاني كيف: والثاني ـ وهو الغالب فيها ـ أن تكون استفهاماً، إمّا حقيقيّاً نحو، كيف زيد؟ أو غيره نحو كيف تكفرون بالله الآية فإنّه أخرج مخرج التعجّب.

أقول: إن الله سبحانه مع كون ماسواه تعالىٰ جميعاً دلائل علىٰ وجوه وآثار ربوبيّته بالنّظم المتقن والصنع المحكم الّذي يدهش فيه العقول والألباب، يستحيل إنكاره فلا محالة يكون الإنكار دليل العناد واللّجاج.

قوله تعالىٰ: «وكنتم أمواتاً فأحياكم»

كلّ شيء يكون فاقداً للحياة فهو ميّت سواء كان مسبوقاً بالحياة أم لا، فالإنسان المخلوق الّذي كان من التراب بعد التحوّلات الجارية عليه يصير إنساناً ذا شعور وحياة فعليه يصح إطلاق الميّت على التراب والنطفة وأمثالها إلىٰ أن يصير إنساناً ذا حياة وشعور.

قال المولىٰ الأجلّ العلّامة البلاغي في آلاء الرحمٰن /٨٠: والمراد من كونهم أمواتاً أنّهم كانوا أشياء فاقدة للحياة.

وقريب منه عبارة جوامع الجامع /١١، وعبارة المولىٰ شبر في تفسير /١٧.

قوله تعالىٰ: «ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون». (٢٨)

ثمّ يميتكم عن الدنيا ثمّ يحييكم للمسألة وعند البعث إلى الله للحساب والجزاء.

في البحار ٢٣٦/٦، عن تفسير الإمام في تفسير هذه الآية، قال الإمام عليه السّلام: قال رسول الله لكفّار قريش واليهود:

> كيف تكفرون بالله الّذي دلّكم علىٰ طرق الهدىٰ وجنّبكم إن أطعتموه سبل الردى، وكنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم وأرحام أمّهاتكم فأحياكم أخرجكم أحياء؛ ثمّ يميتكم في هذه الدنيا ويقبركم ثمّ يحييكم في القبور وينعّم فيها المؤمنين بنبوّة محمّد وولاية علي ويعذّب فيها الكافرين بهما ثمّ إليه ترجعون في الآخرة....

قوله تعالىٰ: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً»

في التوحيد /٨٨، عن جعفر بن علي مسنداً عن وهب بن وهب القرشي، عن أبي عبدالله الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه محمد بن عليّ الباقر عليه السّلام... قال:

و«هو» اسم مكنّىٰ مشار إلىٰ غائب، فالهاء تنبيه علىٰ معنىً ثابت والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس كما أنّ قولك: «هذا» إشارة إلىٰ الشاهد عند الحواس وذلك أنّ الكفّار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشِر أنت يا محمد إلىٰ إلهك الّذي تدعو إليه حتّىٰ نراه وندركه ولا نألَه فيه، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ «قل هو الله أحد» فالهاء تثبيت للثابت والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس وأنّه تعالىٰ عن ذلك بل هو مدرك الأبصار ومبدع الحواس.

بيان: الآية الكريمة مسوقة في مقام الامتنان أي إكرامه تعالىٰ لخلقه بكلّ ما يحتاجون إليه في معاشهم وحياتهم، والآيات الواردة في سياق الامتنان لايصح أن يستدلّ بها علىٰ حليّة شيء من موارد الامتنان. فلايجوز أن يقال في قوله تعالىٰ:

«والأرض وضعها للأنام». [الرحمٰن (٥٥) / ١٠]

أنّ جميع الناس مالكون للأرض علىٰ حدّ سواء. وكذا الآيات الكثيرة منها قوله تعالىٰ:

«والأنعام خلقها لكم فيها دِفءٌ ومنافع ومنها تأكلون». [النحل (١٦) / ٥]

وكم فرق بين ماورد في سياق الامتنان وبين ماورد في مقام التشريع.

فما ذكره في جوامع الجامع /١١: وفي هذا دلالة علىٰ أنّ الأصل في الأشياء الاباحة إلىٰ أن يمنع الشرع بالنهي وجائز لكل أحَد أن يتناولها ويستنفع بها؛

في نهاية الضعف فإن الاباحة مستندة إلىٰ أهل مسلّم آخر ذكره الفقهاء ـ رضوان الله عليهم ـ في الأصول العمليّة.

قوله تعالىٰ: «ثمّ استوىٰ إلىٰ السّماء فسوّاهن سبع سمٰوات...». (٢٩)

قال في لسان العرب ٤١٤/١٤، الجوهري: «استوىٰ إلى السماء» أي، قصد، واستوىٰ أي استولىٰ وظهر... وقال الزجاج في قوله تعالىٰ: «ثمّ استوىٰ إلىٰ السّماء» عمد وقصد إلى السماء.

فالمعنىٰ أنّه تعالىٰ عمد واستولىٰ وأراد بالعناية الإلهيّة وعلمه الوسيع غير المتناهي خلق السماوات. وظاهر الآية أنّ خلق الأرض وما فيها قبل خلق السماوات ويدلّ عليه قوله تعالىٰ:

«قل أئنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسائلين * ثمّ استوىٰ إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين».
[فصّلت (٤١) / ٩ ـ ١١]

في روضة الكافي /١٤٥، عن ابن محبوب مسنداً عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّة قبل أن يخلق النار وخلق الطاعة قبل أن يخلق المعصية وخلق الرحمة قبل الغضب وخلق الخير قبل الشرّ وخلق الأرض قبل السماء....

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ
سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

بيان: إنّ الله تعالىٰ قد أخبر الملائكة أنّه سيجعل في أرضه خليفة يملك الأرض بتمليكه ويجعله أميناً لعلمه وحكمته ومبلّغاً ومؤدّيا عنه والظاهر أنّ «جعل» ليس مرادفاً لخلق في قوله تعالىٰ:

«وإذا قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من صلصال من حماءٍ مسنون * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين».

[الحجر (١٥) / ٢٨ ـ ٢٩]

فالجعل يصدق على الانتصاب والانتخاب بخلاف الخلق؛ فلا دلالة في الآية ولا ذكر ولا قرينة فيها لكون المجعول بدلاً عن شيء سابق عليه، وليست الآية الكريمة في مقام بيان أدوار الأرض وشرح ساكنيها وخلفائها فللأرض وأدوارها المارّة عليها وسلاكنيها لابدّ من بيان آخر وإنّما أخبر الله تعالىٰ عن الغيب المكنون أنّ له تعالىٰ قضاءً وحكماً سيجعل في أرضه خليفة أشرف البريّات شأناً وأعظمها أسراراً وحيث إنّ الملائكة يعرفون مقام الخلافة وشأنها لايستوحشون من أنّ الله يختار لنفسه خليفة ذا كرامة عليه تعالىٰ وإنّما يستبعدون أن يكون الخليفة من جنس الموجود الأراضي وزعموا أنّ الأولىٰ والأحرىٰ بمقام الخلافة والكرامة والمكانة منه تعالىٰ أبناء الملكوت المسبّحون الذاكرون لله سبحانه وهذا الاستبعاد ليس أمراً منكراً ليكون منافياً لمقام الملائكة وعظم شأنهم فإنّ احتمال أثقال العلم سيما العلوم المضروب عليها حجب الغيوب أمر عسير جدًّا وفوق كلّ ذي علم عليم فإنّ إمعان النظر في سيرة أولياء العلم وأئمّة التوحيد يؤنسنا إلىٰ كثير من أمثاله ونظائره كما في قصّة موسىٰ والخضر علىٰ نبيّنا وآله وعليهما السّلام.

في البحار ٢١٠/٢، عن بشارة المصطفىٰ، عن محمد بن علي بن عبدالصمد

مستنداً عن صالح بن ميثم، عن أبيه قال:

بينا أنا في السوق إذا أتاني الأصبغ بن نباتة فقال: ويحك يا ميثم لقد سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام حديثاً صعباً شديداً فأيّنا يكون كذلك؟ قلت: وماهو؟ قال: سمعته يقول: إنّ حديثنا أهل البيت صعب مستصعب لايحتمله إلّا ملك مقرّب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان. فقمت من فورتي فأتيت عليًا عليه السّلام فقلت: يا أمير المؤمنين حديث أخبرني به الأصبغ عنك قد ضقت به ذرعاً قال: وماهو؟ فأخبرته، قال: فتبسّم ثم قال: اجلس يا ميثم، أوكلّ علم يحتمله عالم؟ إن الله تعالىٰ قال لملائكته: «إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون» فهل رأيت الملائكة احتملوا العلم؟ قال: قلت: هذه والله أعظم من ذلك قال: والأخرىٰ أنّ موسىٰ عليه السّلام أنزل الله عليه التوراة فظنّ أن لا أحد أعلم منه فأخبره الله عزّ وجلّ أنّ في خلقي من هو أعلم منك، وذاك إذ خاف علىٰ نبيّه العجب، قال: فدعا ربّه أن يرشده إلىٰ العالم، قال: فجمع الله بينه وبين الخضر فخرق السفينة فلم يحتمل ذاك موسىٰ؛ وقتل الغلام فلم يحتمله، وأقام الجدار فلم يحتمله. وأمّا المؤمنون فإنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله أخذ يوم غدير خمّ بيدي فقال: اللّهمّ من كنت مولاه فإنّ عليًا مولاه، فهل رأيت احتملوا ذلك إلّا من عصمه الله منهم؟ فأبشروا ثمّ أبشروا فإنّ الله تعالىٰ قد خصّكم بما لم يخصّ به الملائكة والنبيّين والمرسلين فيما احتملتم من أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلمه.

أقول: شأن خليفة الله وعظم مقامه في ما يحتاج إليه أمر الإصلاح والتربية وسائر شؤونه لم يبلغ بعد إلىٰ معرفته إلّا أقل من القليل مع وضوح البيان وصريح البلاغ فكيف في بدو الأمر إذ قرع أسماعهم.

واحتمال كون المراد من الخلافة هي الخلافة للّذين كانوا حينئذٍ سكنة الأرض واستفادة ذلك من الآية الكريمة نفسها ليس بصحيح بل الظاهر خلافه.

وأمّا الأخبار الدالّة علىٰ ذلك ليست مسوقة لشرح الآية الكريمة بل هي لبيان عمر الدنيا وسكنة الأرض وخلفائها وهي كما ترىٰ أجنبيّة عن المقام هذا أوّلاً.

وثانياً إثبات أوضاع الأرض وشرح ساكنيها ووقائعها وحروبها وفسادها وصلاحها بالأخبار الّتي من قبيل الآحاد في نهاية الإشكال.

في العلل /١٠٤، عن محمد بن الحسن مسنداً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

إنّ الله تبارك وتعالىٰ لمّا أحبّ أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعد مامضى من الجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة قال: ولمّا كان من شأن الله أن يخلق آدم عليه السّلام للّذي أراد من التدبير والتقدير لما هو مكوّنه في السماوات والأرض وعلمه لما أراد من ذلك كله كشط عن أطباق السماوات، ثمّ قال للملائكة انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس فلمّا رأوا مايعملون من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحقّ عظم ذلك عليهم وغضبوا لله وأسفوا على الأرض ولم يملكوا غضبهم أن قالوا: ياربّ أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لاتأسف ولاتغضب ولاتنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك.

فلمّا سمع الله عزّ وجلّ ذلك من الملائكة قال: إنّي جاعل في الأرض خليفة لي عليهم، فيكون حجّة لي عليهم في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة: سبحانك، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك وقالوا: فاجعله منّا فإنّا لانفسد في الأرض ولا نسفك الدماء، قال جلّ جلاله: يا ملائكتي إنّي أعلم ما لاتعلمون إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي، أجعل ذرّيّته أنبياء مرسلين وعباداً صالحين وأئمّة مهتدين، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهونهم عن المعاصي وينذرونهم عذابي ويهدونهم إلى طاعتي ويسلكون بهم

طريق سبيلي، وأجعلهم حجّة لي عذراً أو نذراً وأبين النسناس من أراضي فأطهرها منهم وأنقل مردة الجنّ العصاة عن بريّتي وخلقي وخيرتي واسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض لايجاورون نسل خلقي وأجعل بين الجنّ وبين خلقي حجاباً ولايرى نسل خلقي الجنّ ولا يؤانسونهم ولايخالطونهم ولا يجالسونهم فن عصاني من نسل خلقي الذين اصطفيتهم لنفسي أسكنتهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولا أبالي...

فتلخّص ممّا ذكرنا أنّ شرح الآية والتدبّر فيها وسنّة الله تعالى في آدم عليه السّلام وإكرامه تعالى إيّاه وكونه عارفاً بالأسماء العظام لايرتبط بتاريخ الأرض وأهلها قبل آدم.

في الوسائل ٣٧١/٦، عن علي بن الحسين المرتضى في رسالة «المحكم والمتشابه» نقلاً من تفسير النعماني مسنداً عن علي عليه السّلام قال:

... قال الله تعالى: «إنّي جاعل في الأرض خليفة» فكانت الأرض بأسرها لآدم ثمّ هي للمصطفين الّذين اصطفاهم الله وعصمهم فكانوا هم الخلفاء في الأرض، فلمّا غصبهم الظلمة على الحقّ الّذي جعله الله ورسوله لهم وحصل ذلك في أيدي الكفّار وصار في أيديهم على سبيل الغصب حتّى بعث الله رسوله محمداً صلّى الله عليه وآله فرجع له ولأوصيائه فما كانوا غصبوا عليه أخذوه منهم بالسيف فصار ذلك ممّا أفاء الله به، أي ممّا أرجعه الله إليهم.

إن الله سبحانه ملّك الأرض وما فيها لأوليائه وهو تعالى أملك بها فلخليفة الله تعالى إجلاء الكفّار عن الأرض وضربهم بالسيف حتى تفيء الأرض إلى أهلها. وقد قضى الله بذلك قضاء حتماً وكتب على نفسه القدّوس أن يردّ الأرض وما فيها وسلطانها إلى أهلها المصطفين وأن يرثها عباده الصالحين ويمكّن لهم في الأرض ويجعلهم أئمّة ويجعلهم الوارثين.

والظاهر من الآية الكريمة أنّ الملائكة زعموا استحقاقهم للخلافة استناداً إلى قولهم: ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك بالتسبيح والتحميد وعرفان المبدإ الأعلى وشؤون حضوره وكبريائه، وأنّ الموجود الأرضي لايتمشّى منه إلّا الفساد وسفك الدماء. فلابدّ لإبطال مقالتهم ووهن برهانهم من بيان سرّ الأمر وأنّ العلم والعرفان

بيده تعالى يؤتيه من يشاء من عباده وأنّ كرامة الله ليست منحصرة بقوم دون آخرين سواء كان موجوداً سماوياً أو أرضياً ولذلك قال في جوابهم إجمالاً: «إنّي أعلم ما لا تعلمون».

قوله تعالى: «وعلّم آدم الأسماء كلّها»

ثمّ شرع سبحانه في إشباع القصّة وبسط الجواب عملاً وإجراء سنّته المقدّسة وقضائه الحكيم في آدم عليه السّلام فقال: «علّم آدم الأسماء كلّها». التعليم في الآية هو تحصيل العلم والإفاضة؛ والظاهر أنّه كان نحو خارق للعادة من حيث السعة والإحاطة والوفور ومن حيث العلم بالأمور العالية إلى أن يتنزّل وينتهي إلى الأمور العادية كي يتمكّن من إدحاض حجج الملائكة وتبيين فضيلة آدم واستحقاقه بكرامة الله وخلافته دونهم وهذا الّذي ذكرناه واضح للمتدبّر في الآية الكريمة صدراً وذيلاً وتأييداً لما استظهرناه من أنّ المراد من الخلافة هي الخلافة الإلهيّة.

والاسم في اللّغة بمعنى العلامة.

قال في لسان العرب ٤٠١/١٤: اسم الشيء وسِمَهُ وسُمَهُ وسِمُه وسماه: علامته.

لايصح حمل الاسم على المعنى الاصطلاحي المستحدث في علم النحو أعني الاسم في مقابل الفعل والحرف وإن كان هذا من مصاديق المعنى اللّغوي، لأنّ القاعدة الأوليّة في ألفاظ القرآن الكريم هي حملها على المعنى اللّغوي فإن كلّ شيء وقعت عليه يد الخلق والجعل منه تعالى فهو اسم له تعالى وعلامة وبرهان وسمة له جلّ شأنه حتّى الألفاظ والأصوات فلا إلزام لتأويل الاسم بالمسمّى، فأعرف الناس بالخلق أعرفهم بالله وأجهل الناس بالخليقة وأنواعها وأشخاصها وأسرارها وحكمها وفوائدها أجهلهم بالله.

وحيث إنّ الله سبحانه علّم آدم الأسماء كلّها، ما عرفناه ومالم نعرفه بعد من أسمائه العظمى وآياته الكبرى فيمكن أن يقال قوله: «الأسماء» بالجمع المحلّى بالألف واللّام وتأكيده بقوله: «كلّها» أنّه شامل للعرش الّذي هو علم كلّ شيء فالعلم بهذا المعنى غيب مطلق عند عامّة الخلق وشهادة عند المصطفين من الأنبياء والأوصياء وهو الّذي يتحيّر ويدهش فيه الأحلام والألباب.

قوله تعالى: «ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء...». (٣١)

قال في لسان العرب ١٦٦/٧: وعَرَض الشيء عليه يعرضه عرضاً: أراه إيّاه.

وقال فيه أيضاً /١٦٨: وعرض له أمرٌ كذا أي ظهر. وعرضتُ عليه أمراً كذا وعرضتُ له الشيء أي أظهرته له وأبرزته إليه. وعرضت الشيء فأعرض أي، أظهرته فظهر.

أقول: التفكيك بين ضمير قوله: «كلّها» وضمير قوله: «عرضهم» فيه دلالة على أنّ الأسماء الّتي عرضت على الملائكة ليست جميع الأسماء الّتي علّمها آدم عليه السّلام أو ماكان له دخل في المقام دون غيره ومع هذا عجزوا عن معرفة الأسماء المعروضة عليهم فقالوا: «سبحانك لاعلم لنا إلّا ماعلّمتنا» وتبيّن لهم أنّ معرفة الأسماء بأعيانها وشخصيّاتها مما تفرّد به آدم عليه السّلام وبهذه المعرفة حاز التقدّم واستحق الفضيلة والخلافة وبها امتاز عن الملائكة وظهر لنا وللملائكة أيضاً أنّ العلم الّذي اختصّ به آدم عليه السّلام من أشرف العلوم مقاماً وأجلّها شأناً وأكمل من العلوم الّتي عند الملائكة مع أنّهم كانوا من المسبّحين الذاكرين في ملكوته الأعلى.

والظاهر من الآية الشريفة أنّ الله تعالى قد تحدّى الملائكة بهذه المعرفة وما به التحدّي عين ماعلّمه آدم عليه السّلام من الأسماء العظام واستيضاح الملائكة عن الأسماء أي، أسماء الأعيان الّتي عرضها عليهم إنّما هو لتعجيزهم وإثبات كرامة آدم عند الله سبحانه وأنّه المختصّ بكرامة خاصّة منه سبحانه والتعجيز بالعلم والتفكيك بين الحقّ والباطل به من أجلّ البراهين على حقّية القول وهو الفصل ليس بالهزل.

فتحصّل أنّ الأسماء المعروضة على الملائكة كانت من جملة الأسماء المعلومة لآدم عليه السّلام والظاهر أنّ هذه الأسماء المعروضة للملائكة كانت من أجلّ الأسماء المعلومة لآدم عليه السّلام ذي الجاه العظيم والمكانة الكريمة منه تعالى الّذي استأثر تعالى علمها بآدم عليه السّلام وغيّبها عن الملائكة المقرّبين.

قوله تعالى: «قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم...». (٣٣)

أمر الله تعالى لآدم عليه السّلام أن أنبئهم أي الملائكة، بأسمائهم أي أسماء الأشخاص المعروضة لهم، إبانة لفضيلة آدم وإجراء لسنّته المقدّسة من أنّ لطالب العلم أن يختلف إلى باب العلم، أبى الله إلّا أن يأتوا أبواب العلم فهذه الأبواب من أعظم الاختبارات والامتحانات ومن الناس من يدّعي صريح توحيد الطاعة والعبادة وإذا

انتهى الأمر إلى طاعته تعالى بإتيان أبوابه التي فتح الله لعباده شقّ عليه ذلك وعصى ربّه بأقبح مايكون وما عصت هذه الأمّة في دين الله أعظم من هذا العصيان فما قنعت بعصيانها وسدّها بل عمدوا إلى قتلها ومازالوا إلى يومنا هذا مظلومين حتّى خلفائهم وفقهائهم وتجرّعوا غصصاً ومحناً فالحكم لله العلي الكبير.

في العيون ٢ / ١٠ عن محمد بن إبراهيم بن اسحاق مسنداً عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام قال:

بينما أنا أمشي مع النّبي صلّى الله عليه وآله في بعض طرقات المدينة إذ لقينا شيخ طويل كث اللّحية، بعيد مابين المنكبين. فسلّم على النّبي صلّى الله عليه وآله ورحّب به ثم التفت إليّ فقال: السّلام عليك رابع الخلفاء ورحمة الله وبركاته، أليس كذلك هو يا رسول الله؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: بلى، ثم مضى، فقلت: يا رسول الله ما هذا الذي قال لي هذا الشيخ وتصديقك له؟ قال: أنت كذلك والحمد لله إنّ الله عزّ وجلّ قال في كتابه: «إنّي جاعل في الأرض خليفة» [البقرة (٢) / ٣٠] والخليفة المجعول فيها آدم عليه السّلام وقال: «يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق» [ص (٣٨) / ٢٦] فهو الثاني. وقال عزّ وجلّ حكاية عن موسى حين قال لهارون عليهما السّلام: «واخلفني في قومي وأصلح» [الأعراف (٧) / ١٤٢] فهو هارون إذ استخلفه موسى عليه السّلام في قومه فهو الثالث. وقال عزّ وجلّ: «وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر» [التوبة (٩) / ٣] فكنت أنت المبلغ عن الله وعن رسوله وأنت وصيي ووزيري وقاضي ديني والمؤدّي عنّي، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي فأنت رابع الخلفاء كما سلّم عليك الشيخ، أولا تدري من هو؟ قلت: لا، قال: ذلك أخوك الخضر عليه السّلام فاعلم.

قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس...». (٣٤)

قد تبيّن مما ذكرناه أنّ الملائكة بعدما أذعنوا لفضيلة آدم وعرفوا كرامته تعالى عليه ومكانته منه جلّ شأنه بتشريفه بتعليم الأسماء وإعطائه مقام الخلافة الإلهيّة،

وتعلّموا منه مالم يعلموه ولم يعرفوه من شخصيّات الأسماء وهويّاتها على قدر ما شاء الله تعالى أن يعلموه ويعرفوه. أكمل الله هذا التشريف وأتمّ تلك الكرامة بأمرهم بالسجود له والخضوع بساحته ومجده الباهر ونوّه باسمه وارتفاع شأنه في ملكوت السماوات.

وحقّ القول وروح الأمر أنّ الله تعالى له إعمال المولويّة وتشريع الأحكام وتعبّد الأنام وجميع ماسواه بما يريد من الأحكام فاستعبد خلقه بأنواع من الأوامر والعبادات واختبرهم بها وامتحنهم كي يخلع عنهم الأنانيّة ويطهرهم من لوث الاستكبار. ومن أعظم ما اختبر الله خلقه به وأشقّ ما استعبدهم به معرفة الأشخاص ومحبّتهم وطاعتهم والإقرار لفضلهم والتديّن بالخضوع لمجدهم فإنّه من يطع الرسول فقد أطاع الله وسرّ الأمر أنّه لابد أن يطاع الله بطاعة أحبّائه وقد قضى الله بذلك قضاءً حتماً وما نودي بشيء من الفرائض كما نودي بهذه الفريضة وهي روح العبوديّة وباب التوحيد فلابدّ في مقام العبوديّة من وضع الأنانيّة وطاعة الرحمن بترك التكبّر على أوليائه وأحبائه والانقياد لهم والإئتمار بأمرهم في صغير الأمور وكبيرها؛ والآيات الكريمة قد شرحت تلك الحقيقة بالقول الحقّ وبيان بديع بأعجب مايكون من البيان الفصل وقد أخبر سبحانه بقضائه الحكيم من إكرامه لوليّه وصفيّه آدم واصطفائه بمقام الخلافة وتشريفه بتعليم الأسماء وإعطائه مقام التعليم في ملكوته الأعلى للملائكة المسبّحين وتفضيله عليهم بما تعبدهم بالإقرار بخلافة آدم وفضله والخضوع له ووفّقهم بالطاعة وأزال عن نفوسهم الشبهة حيث رسخ في قلوبهم أنّ الموجود الأرضي ليصلح للخلافة ومنّ عليهم بما عرفوا وأذعنوا بما أودع الله من الأسرار والأنوار والحكم في تلك الحقيقة على قدر ما شاء الله أن يعرفوه فحينئذٍ طابت نفوسهم واطمأنّت قلوبهم بالإذعان والسجود لآدم وانشرحت صدورهم لتحمّل تلك التكرمة والتحيّة لآدم والإيمان به. وهذا هو القيام العملي لجميع المراتب السابقة ليميز الله الخبيث والمستكبرين من بينهم وليفتضح المنافق فخسر اللّعين وخذل حيث صلّى في السماء ركعتين في أربعة آلاف سنة ولم يتحمّل التعبد في السجود لآدم مرّة واحدة وشقّ عليه وترفّع في نفسه واستكبر وكان من الكافرين.

ويصرّح بجميع ماذكرنا الخطبة الشريفة لمولى المتقين وإمام الموحّدين في النهج، الخطبة /١٩٢، حيث قال:

الحمد لله الّذي لبس العزّ والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرماً على غيره واصطفاهما لجلاله وجعل اللّعنة على من نازعه فيهما من عباده ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: «إنّي خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلّهم أجمعون * إلّا إبليس» [ص (٣٨) / ٧١ ـ ٧٤]

اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصّب عليه لأصله. فعدّ والله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الّذي وضع أساس العصبيّة ونازع الله رداء الجبريّة وادّرع لباس التعزز وخلع قناع التذلل. ألا ترون كيف صغّره الله بتكبّره ووضعه الله بترفّعه فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً.

ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه ويبهر العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عَرْفه لفَعَل ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة ولخفّت البلوى فيه على الملائكة ولكنّ الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض مايجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخيلاء منهم فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان قد عبدالله ستة آلاف سنة لايدرى أمن سني الدنيا أم سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته. كلّا ماكان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد ومابين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمىً حرّمه على العالمين...

ثمّ ساق عليه الصّلاة والسّلام كلامه في التحذير عن إبليس وعمله والتحذير من مكائده ومصائده ثم عاد في كلامه عليه الصّلاة والسّلام إلى أصل الموضوع. واختبار الخلق بما هو يحقر عندهم ويعظم عند الله خطره ومثّل بذلك اختبار فرعون

وجبابرة عصره بموسى وهارون عليهما السّلام مع ما عليهما من لباس الصوف والعصا ويشرطان لفرعون إن أسلم بقاء ملكه وسلطانه، فقال عليه السّلام:

> فـإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم... فقال (فرعون): ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ ألقي عليهما أساورة من ذهب؟ إعظاماً ما للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل؛ ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلّت الدّنيا ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء لمعانيها.

ثمّ ساق سلام الله عليه كلامه الشريف في إشباع هذا المعنى ثمّ مثّل بالحجّ كيف اختبر الله عباده بالحجّ مع مافيه من المشقّات فقال عليه السّلام:

> ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لاتضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام «الذي جعله للناس قياماً»...

ومضمون تلك الخطبة والآية الكريمة يعثر عليه المتتبع في خلال الروايات كثيراً ثمّ بعد إشباع كلامه في موضوع الحج وأنّ الله لو وضع بيته الحرام في الأراضي العامرة النضرة الملتفّة بالأشجار والخضراء وبالأحجار الزمرديّة الخضراء وياقوتة حمراء مع بهاء ونور وضياء لخفّف ذلك في مسارعة الشك في الصدور إلى غير ذلك من التوالي حتّى صرّح عليه السّلام بقوله:

> ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر في قلوبهم وإمكاناً للتذلّل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فُتحاً إلى فضله وأسباباً ذُللاً إلى عفوه...

قال في مجمع البحرين ٦٣/٣: قد تكرّر في الحديث ذكر «السجود» وهو في اللّغة الميل والخضوع والتطامن والإذلال. وكلّ شيء ذلّ فقد سجد. ومنه سجد البعير

إذا خفض رأسه عند ركوبه.

أقول: السجدة للصلاة والتلاوة والشكر وأمثال ذلك من أفراد السجدة اللّغويّة واحتمال الحقيقة الشرعيّة في السجدة وأنّها عبارة في الشرع عن وضع الجبهة على الأرض أو ما تنبت منها، مما لايؤكل ولا يلبس من أوضح التوهّمات، بل المراد منها في الشرع أيضاً هو المعنى اللّغوي إلاّ أنّ الشارع قيّدها بحدود خاصّة في موارد خاصّة فالمأمور به في هذه الموارد هو المعنى اللّغوي مقيّد بالقيود والحدود بتعدد الدالّ والمدلول.

وأمّا المراد من السجدة في الآية المبحوث عنها فالظاهر من الآية الشريفة ومن إطلاقها أنّها السجدة المطلقة اللّغويّة إلاّ أنّ الأمر بعد الفحص والبحث فيما ورد من الأخبار حول الآية وتفسيرها يعطي أنّ المراد من السجدة في الآية هي سجدة الملائكة كانت على وجه الخرور على الأرض بالوجوه.

في تفسير العيّاشي ٣٤/١، عن بدر بن خليل الأسدي عن رجل من أهل الشام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السّلام:

> أوّل بقعة عُبِدَ الله عليها ظهر الكوفة لمّا أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجدوا على ظهر الكوفة.

وفي البحار ١٣٩/١١، عن قصص الأنبياء بالإسناد عن الصدوق مسنداً عن أبي بصير قال:

> قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: سجدت الملائكة لآدم عليه السّلام ووضعوا جباههم على الأرض؟ قال: نعم، تكرمة من الله تعالى.

ويدلّ على ذلك جميع ماورد من الأخبار في تأويل الآية الكريمة بأنّ السجدة من الملائكة ليست لآدم بل لله تعالى وآدم كان قبلة لهم. وفي بعض منها قال: تحيّة لآدم وفي بعضها، أنّها كانت بأمر الله فالسجدة بأمر الله كانت لله وتكرمة لآدم وهذه المضامين إنّما تكون على فرض السجدة المعهودة المتعارفة وهي الخرور على الأرض وإلاّ لم يحتج إلى هذه التأويلات إذ التحيّة والتكرمة لغيره تعالى ليس فيها محذور شرعيّ وإنّما المحذور فيما كان في أعلى درجات التعظيم الّذي لايكون تعظيم فوقه فلا ينبغي تعظيم غيره تعالى به بل هو خاصّ له تعالى.

بحث وتتميم

إذا كان المراد من السجدة في الآية الكريمة بمعونة ما ذكر من الأخبار هي السجدة المعهودة فيشكل الأمر بأنّه كيف يجوز السجدة لغيره تعالى.

في الوسائل ٩٨٤/٤، عن بصائر الدرجات، عن أحمد بن موسى مسنداً عن عبدالرحمن بن كثير عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً قاعداً في أصحابه إذ مرّ به بعير فجاء حتّى ضرب بجرّانه الأرض رغا، فقال له رجل: يارسول الله أسجد لك هذا البعير فنحن أحقّ أن نفعل؟ قال: فقال: لا، بل اسجدوا لله، ثم قال: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها....

وفي الاحتجاج ٢٢/١، في ذكر مناظرة النّبي صلّى الله عليه وآله مع من خالف الإسلام وغيرهم.

... ثم أقبل رسول الله على مشركي العرب فقال: وأنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا: نتقرّب بذلك إلى الله. فقال لهم: أو هي سامعة مطيعة لربّها عابدة له حتّى تتقرّبوا بتعظيمها إلى الله؟ قالوا: لا، قال: فأنتم الّذين نحتموها بأيديكم؟ قالوا: نعم، ... قال آخرون منهم: لمّا خلق آدم عليه السّلام وأمر الملائكة بالسجود له [فسجدوه وتقرّباً بالله] كنّا نحن أحقّ بالسجود لآدم [إلى الله] من الملائكة ففاتنا ذلك فصوّرنا صورته فسجدنا لها تقرّباً إلى الله كما تقرّبت الملائكة بالسجود لآدم إلى الله تعالى وكما أمرتم بالسجود بزعمكم إلى جهة مكّة ففعلتم ثمّ نصبتم في غير ذلك البلد بأيديكم محاريب سجدتم إليها وقصدتم الكعبة لا محاريبكم وقصدتم بالكعبة إلى الله عزّ وجلّ.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: أخطأتم الطريق وضللتم...

قال صلّى الله عليه وآله: أخبرونا إذا عبدتم صور من كان يعبد الله

فسجدتم لها وصلّيتم فوضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود لها فا الّذي أبقيتم لربّ العالمين. أما علمتم أنّ من حقّ من يلزم تعظيمه وعبادته أن لايساوى به عبده. أرأيتم ملكاً أو عظيماً استويتموه بعبده في التعظيم والخشوع. أيكون في ذلك وضع من الكبير كما يكون زيادة في تعظيم الصغير؟ فقالوا: نعم.

قال: أفلا تعلمون أنّكم من حيث تعظمون الله بتعظيم صور عباده المطيعين له تزرون على ربّ العالمين... والله حيث أمر بالسجود لآدم لم يأمر بالسجود لصورته الّتي هي غيره فليس لكم أن تقيسوا ذلك عليه لأنّكم لاتدرون لعلّه يكره ماتفعلون إذ لم يأمركم به. ثمّ قال لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله: أرأيتم لو أذن لكم رجل دخول داره يوماً بعينه كان لكم أن تدخلوها بعد ذلك اليوم بغير أمره. أو لكم أن تدخلوا داراً له أخرى مثلها بغير أمره؟ أو وهب لكم رجل ثوباً من ثيابه أو عبداً من عبيده أو دابة من دوابّه ألكم أن تأخذوا ذلك؟ قالوا: لا. لأنّه لم يأذن لنا في الثاني كما أذن في الأوّل.

قال صلّى الله عليه وآله: فأخبروني الله أولى بأن لايتقدم على ملكه بغير أمره أو بعض المملوكين؟

قالوا: بل الله أولى بأن يتصرّف في ملكه بغير إذنه.

قال: فلم فعلتم ومتى أمركم بالسّجود أن تسجدوا لهذه الصور.

قال: قالوا: سننظر في أمورنا وسكتوا.

وفيه أيضاً ٨٠/٢، فيا احتجّ به الصادق عليه السّلام على الزنديق قال:

أفيصلح السجود لغير الله؟

قال: لا.

قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

قال: إنّ من سجد بأمر الله سجد لله إذا كان عن أمر الله.

وفي تفسير القمي ٣٥٦/١، محمد بن عيسى عن يحيى بن أكثم وقال: سأل

موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضها على أبي الحسن عليه السّلام فكانت إحداها:

> أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: «ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً» [يوسف (١٢) / ١٠٠] سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟ فأجاب أبو الحسن عليه السّلام: أمّا سجود يعقوب وولده ليوسف فإنّه لم يكن ليوسف إنّما كان ذلك من يعقوب وولده طاعةً لله وتحيّة ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم إنّما كان ذلك منهم طاعة لله وتحيّة لآدم فسجد يعقوب وولده وسجد يوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ألم تر أنّه يقول في شكره ذلك الوقت: «ربّ قد آتيتني من الملك...» [يوسف (١٢) / ١٠١]

وفي الوسائل ٩٨٦/٤، عن تفسير الإمام، عن آبائه عن النّبي صلّى الله عليه وآله قال:

> لم يكن له سجودهم. يعني الملائكة لآدم إنّما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عزّ وجلّ، وكان بذلك معظّماً مبجلاً له. ولاينبغي لأحدٍ أن يسجد لأحد من دون الله يخضع له كخضوعه لله ويعظّمه بالسجود له كتعظيمه لله. ولو أمرت أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من متبعينا أن يسجدوا لمن توسّط في علوم عليّ وصيّ رسول الله صلّى الله عليه وآله....

أقول: هذه الأخبار كافية وشافية في إثبات تحريم السجدة لغيره تعالى غاية الأمر أنّه لا دليل على انحصار التحريم بالخرور بالوجه على الأرض بل الأخذ بمفهوم السجدة لغة والأخذ بالقدر المتيقّن منها؛ والظاهر أنّ الانحناء الكثير على قدر الركوع الشرعي والأزيد منه إلى أن يقرب من الأرض أو أوقع وجهه بمايلي الأرض كالبساط والسرير والفراش ونحوها من مصاديق السجدة، إذ الاعتماد على الأعضاء وما أخذ في مفهومها إنّما هو قيد شرعيّ للفرد الواجب وأمّا في الطرف المنهي فلا مناص من الأخذ بما يدلّ عليه اللّفظ متيقّناً.

وأمّا الانحناء لتقبيل الأيدي وأمثال ذلك من الأغراض فلا دليل على تحريمه إذا تحقّق بها تعظيم وتكرمة للغير.

فليعلم أنّ السجدة عبادة ذاتاً. توضيح ذلك: إنّ العبادة في اللّغة هي التـذلّل. والعبادة المأمور بها إذا أوجدها المكلّف لابدّ في تحقق عباديّتها أن يؤتى بقصد أمرها وعدم تحقّق الإخلاص لاينافي العباديّة فإنّ من الممكن أن تتحقّق العبادة مع وجود الاشتراك فتحصيل الإخلاص غير محقّق عنوان العبادة فانحصر تحقّق العبادة بقصد أمرها؛ والدواعي الأخر من طلب رضاه والخوف من النار والطمع في الجنّة إنّما هو في طول قصد الأمر لا في عرضه فلا محالة لايمكن تحقّق العباديّة بغير قصد الأمر نعم، بعد تحقّق العبادة فجميع الدواعي بالنسبة إلى تحصيل الخلوص متساوية الأقدام سواء كان قصد أمرها أو ما كان في طوله من الدواعي.

أمّا السجدة والذكر له تعالى وثناؤه وتسبيحه وتقديسه فلايحتاج في تحـقّق عباديّتها إلى قصد الأمر فيكفي في التعبد والتقرّب بها إلى الله تعالى حسنها الذاتي، فإنّ الثناء والسجدة والتمجيد من كلّ أحد بالنسبة إلى كلّ أحدٍ خضوع وتمجيد وتـذلّل وعبادة بذاتها من دون احتياج إلى قصد الأمر لا أنّها عبادة ذاتيّة له تعالى يستحيل وقوعها لغيره عقلاً ولا ينقلب عمّا هو عليه فإذن يحتاج في إثبات تحريم السجدة لغيره تعالى من دليل شرعي. والانصاف أنّ ماذكرناه من الرّوايات كافية في ذلك.

وأمّا سجدة الملائكة لآدم عليه السّلام فالتحقيق بحسب الروايـات أنّهـا إنّمـا بلحاظ كون آدم قبلة ومحراباً فلاتكون سجدة لآدم كما هو الظاهر من بعض الروايات المتقدمة ويدلّ عليه أيضاً ما في مروج الذهب ٣٣/١، مسـنداً عـن أمـير المـؤمنين صلوات الله عليه، قال:

فجعل آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة أسجد إليها الأبـرار والروحـانيّين الأنوار.

وأمّا التحيّة والتكرمة لآدم فقد شاء الله أن يكرم صفيّه وخليفته بأمره الملائكة أن يكرموه كيف وقد أمر الله تعالى بتعظيم أوليائه وأحبائه من حيث يريده وإن كان شاقًا على بعض المعاندين ولم يعلموا الفرق بين التعظيم بأمر الله ومن دون الله فقالوا ماقالوا من أنّ ولاية أولياء الله وتعظيمهم بأمر الله شرك بالله ولم يعلموا أنّ ردّ أمر الله بالنسبة إلى تكريم أوليائه نصب فالحكم لله العليّ الكبير.

وقد قرّرنا فيما تقدم أنّه يشترط في موضوع التكاليف الفرعيّة أن يكون مسلماً

أو مستسلماً فلا محصّل في تكليف الكافر المعاند بالأحكام الشرعيّة فـإبليس هـو المنافق المستسلم المتظاهر امتنع واستكبر وردّ على الله فصار كافراً. فلايحتاج بالقول بأنّه كان من الكافرين في علم الله فلا سبيل إلى القول بكـفر المنافقين المتظاهرين بالإسلام بحسب ظاهر الشرع مالم يظهروا الكفر. فقوله تعالى: «أبى واستكبر وكان من الكافرين» جرى على ظاهر الأمر وأنّ كفره نشـأ مـن فسقه ومعصيته لا أنّ المعصية من كفره.

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالىٰ: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة»

قال في لسان العرب ٩٩/١٣: الجنّة: البستان... والجنّة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنان.

أقول: المراد من الجنّة هو بستان ذو أشجار وأثمار على الإطلاق أي مـاكـان واحده كثير الثمار أو قليله؛ والفرد الكامل منه ذو هواء طيب وماء فرات وغيرهما من اللّذات والزخارف، مثل الجنّة الموعودة الّتي وعدها الله تعالى لأحبائه في الصحيفة الكاملة السجاديّة في دعائه في يوم عرفه قال عليه السّلام:

وجاور بي الأطيبين من أوليائك في الجنان الّتي زيّنتها لأصفيائك....

في تفسير القمي ٤٣/١، حدّثني أبي رفعه قال:

سئل الصادق عليه السّلام عن جنّة آدم أمن جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة؟ فقال: كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر. ولو كانت من جنان الآخرة ما أخرج منها أبداً ولم يدخلها إبليس...

وفي العلل ٦٠٠/، عن محمد بن الحسن مسنداً عن الحسن بن بشّار عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

سألته عن جنّة آدم فقال: جنّة من جنّات الدنيا تطلع عليه فيها الشمس والقمر ولو كانت من جنات الخلد ماخرج منها أبداً.

وفي فروع الكافي ٢٤٧/١، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن الحسين بن ميسّر قال:

سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن جنّة آدم، فقال: جنّة من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ماخرج منها أبداً.

قوله تعالى: «وكُلا منها رغداً حيث شئتما»

قال في لسان العرب ١٨٠/٣: أرغد فلان أصاب عيشاً واسعاً... عيشة رَغْد ورَغَد أي واسعة طيّبة والرغد: الكثير الواسع الّذي لايعييك من مال أو ماءٍ أو عيش أو كلإٍ.

قوله تعالى: «ولا تقربا هذه الشجرة»

الظاهر من النهي هو المنع.

قوله تعالى: «فتكونا من الظالمين». (٣٥)

أي، الظالمين على أنفسهم بحرمانهم عن محلّ النعيم لمخالفة أمر الله تبارك وتعالى. وفيه إشارة إلى أنّ المنع تحريمي.

فإن قلت: كيف يجوز نسبة ارتكاب الحرام إلى آدم عليه السّلام وهو نبيّ معصوم؟ قلت: الظاهر أنّ فعله هكذا قبل النبوّة قال تعالى:

«وعصىٰ آدم ربّه فغوىٰ * ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدىٰ». [طـه (٢٠) / ١٢١ ـ ١٢٢]

فهذه الآية تدلّ على أن قربة من الشجرة قد كان قبل النبوّة والرسالة.

في العيون ١٩٥/١، عن تميم بن عبدالله مسنداً عن علي بن محمّد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليهما السّلام، فقال له المأمون:

يابن رسول الله أليس من قولك: إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عزّ وجلّ: «فعصى آدم ربّه فغوى» فقال عليه السّلام: إنّ الله تبارك وتعالى قال لآدم: «اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة» وأشار لهما بالحيطة «فتكونا من الظالمين» ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة ولا ممّا كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة ولم يأكلا منها، وإنّما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان لهما وقال: «ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة» وإنّما ينهاكما أن تقربا غيرها ولم ينهكما عن الأكل منها، «إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما أنّي لكما من النّاصحين» [الأعراف (٧) / ٢٠ ـ ٢١] ولم يكن آدم وحوّاء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً «فدلّاهما بغرورٍ» فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوّة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحقّ به دخول النار وإنّما كان من الصغائر الموهوبة الّتي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلمّا اجتباه الله تعالى وجعله نبيًّا كان معصوماً لايذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله عزّ وجلّ: «وعصى آدم ربّه فغوى ثمّ اجتباه ربه فتاب عليه فهدى» وقال عزّ وجلّ: «إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» [آل عمران (٣) / ٣٤]....

إن قلت: أفلا تقولون: إن الأنبياء والرسل معصومون ومطهرون من الذنوب قبل نبوّتهم ورسالتهم أيضاً؟

قلت: نعم، إلّا أنّه لا دليل في المقام أنّ آدم عليه السّلام قد ارتكب شيئاً من ذلك، ويدلّ عليه قوله عليه السّلام في الرواية المتقدّمة: «ولم يكن ذلك بذنب كبير

استحقّ به دخول النار وإنّما كان من الصغائر الموهوبة الّتي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم».

وفي العيون ١٢٧/٢، عن حمزة بن محمّد مسنداً عن الفضل بن شاذان، عن الرضا عليه السّلام فيما كتبه للمأمون من محض الإسلام قال:

... إنّ ذنوب الأنبياء عليهم السّلام صغائرهم موهوبة.

قوله تعالى: «فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه»

قال في لسان العرب ٣٠٦/١١: إذا زلّت قدمه قيل زلّ، وإذا زلّ في مقال أو نحوه قيل زلّ زلّة وفي الخطيئة ونحوها.

وقال في مجمع البحرين ٣٨٧/٥: وقيل اسْتَزَلّهما: حملهما على الزلل وهو الخطأ والذنب.

أقول: الظاهر أنّ المراد من الزلّة والزّلل في المقام هو الخطأ في مقابل العمد. فالأولى لأهل الاستبصار المحافظة والمراقبة لأنفسهم لئلّا يزلّهم الشيطان ويخطئهم بخديعته ومكره فإن الزلل والخطأ يوجب سقوط أهل الاستبصار من مقامهم الأعلى إلى مادونه.

قوله تعالى: «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ». (٣٦)

الظاهر أنّ المراد من القول هو مشيّته وإرادته النافذة لهبوط آدم عن مقامه الأوّل إلى هذا المقام.

قوله تعالى: «فتلقّى آدم من ربّه كلمات»

فيه دلالة على آدم عليه السّلام تلقّى ما ألقي إليه من ربّه من الكرامة والعفو والصفح فهو سبحانه البادي بالإحسان قبل توجّه العابدين والجواد بالعطاء قبل الطالبين.

واختلفت الآراء والأقوال في تعيين ما ألقي إلى آدم عليه السّلام. والمتحصل فيه بعد النظر إلى جميع الوجوه الّتي وردت في المقام سيّما الأخبار المباركة، أنّه تعالى ألقى إليه أن يتوب إلى الله متوسّلاً ومستشفعاً بالرسول الأكرم وأهل بيته الطاهرين

المعصومين عليهم السّلام.

في النهج، الخطبة /١، قال عليه السّلام:

> ثمّ بسط الله سبحانه له في توبته ولقّاه كلمة رحمته ووعده المردّ إلى جنّته وأهبطه إلى دار البليّة.

وفي تفسير العيّاشي ٤١/١، عن محمد بن عيسى بن عبدالله العلوي عن أبيه عن عليّ عليه السّلام قال:

> الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه قال: ياربّ أسألك بحقّ محمّد لمّا تبت عليّ قال: وما علمك بمحمد؟ قال: رأيته في سرادقك الأعظم مكتوباً وأنا في الجنّة.

وفي معاني الأخبار /١٢٥، عن علي بن الفضل مسنداً عن ابن عباس، قال:

> سألت النبيّ صلّى الله عليه وآله عن الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه قال: سأله بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ فتاب الله عليه.

وفي البحار ١٨١/١١، عن قصص الأنبياء، مسنداً عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

> الكلمات الّتي تلقّ بهنّ آدم من ربّه فتاب عليه، قال: اللّهم لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت التّواب الرحيم لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت خير الغافرين.

قوله تعالى: «إنّه هو التّواب الرحيم». (٣٧)

التّواب من جملة أسمائه تعالى الحسنى وكلّ أسمائه حسنة. والتوبة بمعنى الرجوع وله إطلاقات بحسب موارد استعماله:

الأول، توبته تعالى على أوليائه أي رجوعه تعالى إليهم بكراماته وعواطفه الخاصّة قال تعالى:

> «لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة

العسرة» [التوبة (٩) / ١١٧]

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهما:

«ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم». [البقرة (٢) / ١٢٨]

الثاني، توبته تعالى على الكفّار والفساق إذا آمنوا وتابوا عن كفرهم وفسقهم فيتوب الله عليهم بالمغفرة عمّا سبق عليهم من الذنوب والآثام.

الثالث، توبة الكفّار والفسّاق إذا تابوا عن كفرهم ورجعوا إلى ربّهم واستغفروا من ذنوبهم.

الرابع، توبة الصالحين والمتقين واستغفارهم فلايشترط في صدق مفهوم التائب كون التوبة بعد ارتكاب الذنوب بل التوبة تجديد إيمان وتحكيم ميثاق بينه تعالى وبين أوليائه، فإنّهم كلّما تذكروا بعظمة الله وكبريائه جدّدوا إيماناً وأحكموا ميثاقاً.

فالتوّاب من أسمائه تعالى الحسنى يطلق عليه سبحانه في مقام الثناء والتمجيد ولايشترط في صدق مفهومه وإطلاقه عليه تعالى أن يكون رجوعه بعد إعراضه وسخطه.

قوله تعالى: «قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم منّي هُدىً فمن تبع هُداي فلاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون». (٣٨)

بعدما نزل آدم وحوّاء عليهما السّلام والشيطان إلى الأرض وسكنوا فيها أخبر تعالى بسنّته السنيّة المباركة في الدنيا من تشريع الشرائع وإرسال الرسل وتحكيم القوانين فمن تبع هداه تعالى فهو على شريعة قيّمة وبيّنة ثابتة من ربّه فلا محالة لايكون عليه خوف أن يفوته شيء من دينه وأحكامه ودنياه وكذلك لايفوت منه شيء من أمور آخرته وشؤونها كي يحزن على مافات منه.

قوله تعالى: «والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا»

أي، من الجبابرة والفراعنة وأتباعهم في الأرض بعد هبوط آدم وتقرّر التوحيد وتنظيم الشرائع وبلاغ الأحكام وتثبيتها.

قوله تعالى: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». (٣٩)

تهديد منه تعالى لهؤلاء الكفرة والفجرة جزاءً لكفرهم وتكذيبهم رسله

وأمنائه سبحانه.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ
أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي
ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ
وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ
وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالىٰ: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي الّتي...»

بيان: اسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام وتنتهي إليه سلسلة الأنبياء بعد إبراهيم أجمعين قال تعالى:

«وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلّاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيّته داود وسليان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين». [الأنعام (٦) / ٨٣ ـ ٨٤]

في تفسير القمي ٣٣٩/١، مسنداً عن جابر عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

إنّه كان من خبر يوسف عليه السّلام أنّه كان له أحد عشر أخاً... وكان يعقوب إسرائيل الله ـ ومعنى إسرائيل الله خالص الله ـ ابن إسحاق نبيّ الله ابن إبراهيم خليل الله....

أنبياء بني إسرائيل سكنوا في الشام ونشروا دعوة التوحيد وبلغت دعوتهم إلى الشرق والغرب ومنهم صاحب شريعة وكتاب كموسى وعيسى. وعيسى من ذريّة

إبراهيم من قبل أمّه مريم، إلّا أنّ ظاهر الآية هنا متوجّه إلى اليهود.

قال في مجمع البيان ٩٣/١: قيل حيث إنّ السورة مدنيّة واليهود مجتمعة فيها، وفي جوابها بدأ تعالى بالتعرّض لهم ولأسلافهم وما جرى بينهم وبين أنبيائهم.

أقول: هذا ليس بشيء إذ القرآن الحكيم وخطاباته ليست موجهة إلى أشخاص وأقوام بخصوصهم وإلى صقع وجيل وإنّما الخطاب لمن وقع من بني إسرائيل تحت دعوة أنبياء بني إسرائيل كائناً من كان في عصر النزول ومن بعده في الشرق والغرب. والسياق سياق الموعظة والتذكّر بالله وبآلائه ومواهبه، وترغيب وترهيب واحتجاج وتوبيخ وتجديد دعوة إلى الله وإلى دين أنبيائه المتّقين، وتحذير بأبلغ بيان وأتمّ برهان، وبأنّه لايجوز لهم تكرار الكفران والمبارزة والبغي على هذه الدعوة المباركة بما فعلوا بالسابقين من الأنبياء، وتلاعبوا بهوساتهم وشهواتهم بالحقائق البيّنة والبراهين التامّة والآيات الباهرة.

وهذه المخاطبة منه تعالى مع اليهود على لسان نبيّه الأعظم تعطي برهاناً نيّراً على إعجاز القرآن من هذه الناحية بخصوصها فإنّها تشتمل على علم الغيب بأصدق مايكون مع اشتمالها على جميع البراهين الإلهيّة للأنبياء من حيث إنّها براهين إلهيّة. وبديهي أنّ شهادة القرآن بصدقها وحقّيّتها وحقيقتها شهادة حقّة صادقة ودعوة إليها، ومدافعة عنها مع تعرّضها لها وبما كتموا منها وبتصحيح ماحرّفوا منها، ومع التعرّض لجميع ما جاهد به هؤلاء الرسل وما تحمّلوا من المحن والمعاناة وتشهد أيضاً على خلوصهم ووفائهم وصدقهم وإيمانهم وتوحيدهم وانقطاعهم في دعواتهم إلى الله في بواطنهم وسرائرهم وما واجهوا من فراعنتهم وجبابرتهم وما تحمّلوا منهم في جنب الله وفي مرضاته وما قوبلوا به من أممهم وأهل دعوتهم وما عاملت به تلك الأمم المخلصين منهم والمرتابين والمنافقين وما جرى بينهم وما فعل الله بهم من إجراء سنّته المقدّسة من الهلاك والعقاب والثواب والجزاء والترقيع والتوبيخ بحيث لايقدر على دفعه أحد ويظهر غاية الظهور أنّه صلّى الله عليه وآله يشكر سعيهم ويقدّس أعمالهم ويمجدها هاتفاً في المجامع البشريّة بأسمى التمجيدات وأنّهم أحباء الله وأولياؤه المطهّرون ويعظّم شأنهم ورفعة مكانهم، وأنّهم سلام الله عليهم أئمّة التوحيد وحملة العلم والموفون بعهد الله والذابون عن حريم كبريائه والحافظون لميثاقه.

ويذكّر أفاضل أمّة القرآن وكبراء قومه بمواقفهم ومشاهدهم في مجاهداتهم الحقّة ويتحبّبون إليهم بأعلى درجاته كأنّهم شركاء دعوتهم وأعوانهم وأنصارهم في إعلاء لواء التوحيد ودحض حجج الباطل.

الظاهر من الآيات الكريمة أنّه تعالى شرع في تحبيب نفسه إليهم بما اصطفاهم وأكرمهم بمواهبه وعواطفه كي يثير بهم حسن العاطفة ويشرق في قلوبهم نور النور ويحيي فيهم روح التحبّب كي يعرفوه تعالى بآيات لطفه وأعلام برّه وفضله وإحسانه ويشاهدون يده العاطفة البارّة إلى أوليائه وصنعه الجميل بهم. وهذا الطور من البيان أسرع وأقوى في إنفاذ روح التوحيد وجلب القلوب وإحياء النفوس مع اشتمال هذه المواهب على بيّنات وبراهين اختصهم الله بها ثمّ يذكّرهم بمجدهم وسيادتهم وأنّهم أئمّة الدين وفرسان المجتمع وذوو اليد والإحسان على الضعفاء وبهذا حازوا بفضل ربّهم سيادة قومهم ورياسة نحلتهم.

ثمّ ذكر في أثناء ذلك خضوع بني إسرائيل للمطامع وركوبهم للرذائل وانقيادهم للشهوات والهوسات وتأثّرهم بعادات الأقوام الوحشيّة والوثنيّة وقد فقدوا روح المجد والكبارة وانحطوا عن الحكومة ورتبة الزعامة وهم أشبه شيء بالنساء والصبيان، وكلّ ذلك عن علم وعيان وأين الحكومة والرياسة من أهل العالم بالحكومة الملكوتيّة والشريعة الإلهيّة.

ولا يخفى على أولي الألباب أنّ الآيات الكريمة في كونها عينها مخاطبة لبني إسرائيل ودعوتها إيّاهم بالرجوع إلى الحقّ والإقبال على الحقيقة، بعينها دعوة وتذكّر لأمّة الإسلام إلى حاقّ التوحيد ومحض الإيمان بأوفى بيان بحيث تزع من القلوب رين الكفر والنفاق ويشفي الصدور من أمراض الغيّ والبغي والضلال وأنّ سنّة الله في الأوّلين والآخرين في المؤمنين والكافرين سواء، فسبحانه من إله ما أنور برهانه وأوضح حجّته.

«توضيح وتفصيل»

سكنى إسماعيل وبنيه في الحجاز وما والاها معلوم وأمّا سكونة بني إسرائيل

وهجرتهم من الشام إلى يثرب وتمركزهم فيها غير صريحة في التواريخ ولعلّهم سكنوا عند جلائهم وفرارهم في بعض الحروب الّتي وقعت بينهم وبين جبابرة عصرهم على الإجمال كما يلوح ذلك من خطبة أمير المؤمنين صلوات الله عليه في النهج، الخطبة / ١٩٢ حيث قال عليه السّلام:

فاعتبروا بحال وُلْد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السّلام، فما أشدّ اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال.

تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشّيح ومهافي الريح ونَكَد المعاش فتركوهم عالة مساكين إخوان دَبَر ووَبَر، أذلّ الأمم داراً وأجدَبَهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ولا إلى ظلّ أُلفةٍ يعتمدون على عزّها. فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرّقة. في بلاءِ أزْلٍ وإطباق جهلٍ! من بناتٍ موؤودة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة....

قوله تعالى: «وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم»

الوفاء هو القيام بالعمل على نحو التمام والكمال.

قال في لسان العرب ٣٩٨/١٥: وَفَى الشيء أي تمّ، وأوفيته أنا أتممته... وكلّ شيء بلغ تمام الكمال فقد وفى وتمّ... وكلّ ماتمّ من كلام وغيره فقد وفى.

ومعنى «العهد» قد تقدم في تفسير قوله تعالى: «ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه» [البقرة (٢) / ٢٧]

قوله تعالى: «وإيّاي فارهبون». (٤٠)

قال في التبيان ١٨٤/١: الفرق بين الخوف والرهبة، أنّ الخوف هو شكّ في أنّ الضرر يقع أم لا والرهبة معها العلم بأنّ الضرر واقع عند شرط فإن لم يحصل ذلك الشرط لم يقع.

أقول: هذا موعظة وتذكّر بعد التذكّر بالوفاء بالعهد الإلهي واحترام الميثاق المأخوذ الّذي هو القيام بما علم من العقل والشرع من الأحكام الضروريّة العقليّة وأكّد

ذلك بقوله: «وإيّاي فارهبون»

قال في القاموس ١/٧٨: الترهّب، التعبد.

وقال في مجمع البحرين ٢/٧٦: «رهبان اللّيل أسد النهار» أي، متعبّدون باللّيل من خوف الله تعالى، شجعان في النهار بمجاهدة النفس والشيطان.

فليس المقام مقام تهديد وتخويف وتحذير بل أمر وتذكّر بعدم جواز إهمال التعبد وعدم جواز التسامح والتساهل في ساحة قدسه جلّ ثناؤه من الذلّ بفنائه والاستكانة العمليّة بين يديه والخضوع لسلطانه عزّ وجلّ، قال تعالى:

«وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهَبا وكانوا لنا خاشعين» [الأنبياء (٢١) / ٨٩ـ ٩٠]

في الكافي ٢/٤٨٠، عن العدّة مسنداً عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول:

مرّ بي رجلٌ وأنا أدعو في صلاتي بيساري فقال: يا أبا عبدالله بيمينك، فقلت: يا عبدالله: إن لله تبارك وتعالى حقًّا على هذه كحقّه على هذه. وقال: الرغبة تبسط يديك وتظهر باطنهما، والرهبة تبسط يديك وتظهر ظهرهما....

وفيه أيضاً /٤٧٩، عن العدّة مسنداً عن أبي إسحاق، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

الرغبة أن تستقبل ببطن كفّيك إلى السماء والرهبة أن تجعل ظهر كفّيك إلى السماء.

وفي معاني الأخبار /٣٧٠، عن مظفّر بن جعفر مسنداً عن علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السّلام قال:

التبتّل أن تقلّب كفّيك في الدعاء إذا دعوت والابتهال أن تبسطهما وتقدمهما، والرغبة أن تستقبل براحتيك السماء وتستقبل بهما وجهك،

والرهبة أن تكفّ كفّيك فترفعها إلى الوجه....

أقول: بعد التأمل في هذه الروايات وما في معناها من الروايات الأخر أنّ الرهبة ليست مرادفة للخوف. ولا نعني بإيراد هذه الروايات في المقام الاستدلال على المعنى اللّغوي وأنّ الموضوع له هو هذا المعنى المذكور في هذه الروايات بل المراد أنّ المعنى المذكور في الروايات هو المعنى اللّغوي أو من مصاديقه أو مايقاربه ويساعه استعمل فيه بضرب من العناية. وعلى جميع التقادير المعنى هو التعبّد أو من شؤونه مع اشتماله على مراعاة مقام الربّ المولى المهيمن.

قوله تعالى: «وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافرٍ به»

قد تقدّم تفسير الإيمان في قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله و...» [البقرة(٢)/٨]، وأنّ الإيمان كلّه عمل وأنّ هذه الفريضة الواجبة المؤكّدة منبسطة على الجوانح والجوارح وعلى القلوب والقوالب فالمؤمن بعمله الخارجي دون الجوانح مسلم منافق، والمؤمن بالقلب والأعضاء مؤمن ومسلم، فالخارج عن الإيمان مسلم وعن الإسلام كافر.

ويشكل الاستدلال بالآية على أنّ الكفّار مكلّفون بالفروع كما أنّهم مكلّفون بالأصول فإنّ التكليف بالأصول والفروع إذا كان في عرض واحد يمكن الاستدلال إلّا أنّ الآية الكريمة غير ظاهرة في هذا المعنى.

على أنّ الإيجاب بالنسبة إلى بعضها عقلي ضروريّ وبالنسبة بعضها مولوي شرعيّ فالتذكّر بماهو واجب بذاته ليس في مرتبة الأحكام المولويّة الشرعيّة كما لايخفى فليس وجوب كلا الطائفتين في عرض واحد وفي مرتبة واحدة كما أوضحنا في تفسير قوله تعالى: «يا أيها النّاس أعبدوا ربّكم الّذي خلقكم...» [البقرة(٢)/٢١]

والمراد من الموصول (بما) القرآن أو جميع ما أوحي إليه صلّى الله عليه وآله من القرآن ومن سننه الّتي سنّها في حياته. وقوله: «مصدّقاً لما معكم» حال من الموصول، وتصديق القرآن لما معهم هو أنّ القرآن المجيد مهيمن على جميع الكتب قال تعالى:

«وأنزلنا إليك الكتاب الحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه». [المائدة(٥)/٤٨]

والظاهر أنّ المعنى المتناسب في المقام للمهيمن، كون القرآن مراقباً ومرصداً

وحافظاً لجميع الكتب السماويّة من أن يزاد عليها أو ينقص منها شيء، فما أيّده القرآن فهو الحقّ المبين وما أبطله ليس إلّا من ارتياب الملحدين والمعاندين.

قوله تعالىٰ: «ولا تكونوا أوّل كافر به»

خطاب لليهود ولعلّ المعنى أنّهم كانوا علماءَ ذوي سابقة بالأديان ويشؤونها فكفرهم بالقرآن ليس على حدّ كفر غيرهم من الأعراب الساكنين بالحجاز ونواحيها بل كفرهم به من حيث إنّهم علماء بالكتب والصحف يوجب إضلال الناس وإدخال الشكوك على جميع الناس لاسيّما العوام والمستضعفين فحريّ بهم أن لايتبادروا بالكفر كالأراذل والسفلة التابعين للجبابرة والمتكبّرين بل الأحرى بهم أن يتقدّموا ويسبقوا الناس في الإيمان.

قوله تعالىٰ: «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً»

قال في لسان العرب ٤٢٧/١٤: شرى الشيء يشريه شِرًى وشراءً واشتراه سواء، وشراه واشتراه: باعه.

أقول: فالمعنى، لاتحلّ لكم أن تشتروا وتبيعوا بآياتي ثمناً قليلاً ضرورة أن هذه المعاملة السواء ليست إلّا معاملة بخسة سواء كان الثمن الّذي أخذوه قليلاً أو كثيراً.

قال في مجمع البيان ٩٥/١: روي عن أبي جعفر عليه السّلام في هذه الآية قال:

> كان حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود لهم مأكلة على اليهود في كلّ سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي صلّى الله عليه وآله فحرّفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره. فذلك الثمن الّذي أريد في الآية.

قوله تعالىٰ: «وإيّاي فاتّقون». (٤١)

تهديد منه سبحانه وتحذيره إيّاهم عن التسامح والتساهل في ساحته سبحانه فيأخذهم بجرمهم وخياناتهم الحقّ المبين أخذ عزيز مقتدر.

قوله تعالىٰ: «ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون». (٤٢)

واضح أنّ صفة النبي صلّى الله عليه وآله كانت معلومة واضحة ثابتة في التوراة والإنجيل لاريب فيها عندهم فأرادوا إخفاءه وكتمانه بالتحريف والتلبيس فنهاهم الله

سبحانه عن جرمهم وجنايتهم واحتجّ عليهم بأنّهم لايرتكبون هذا الجرم الشنيع إلّا عن علم وعيان.

قوله تعالىٰ: «وأقيموا الصلوٰة وآتوا الزكٰوة»

ظاهر أنّ الأمر بالصّلاة والزكاة والركوع لليهود والحال أنّ الأحكام الشرعيّة المولويّة تجب بعد إيمانهم ويمكن أن يقال: إنّ هذا الأمر بعد أمرهم بالايمان وتعهّدهم بذلك وهل هذا القدر يكفي في توجّه الأمر إليهم أم لا؟

ثمّ إنّ المراد من الصلاة هل هي الصلاة المشروعة في دين اليهود أو الّتي في الإسلام؟ فالظاهر هو الثاني إذ لامعنى لدعوته صلّى الله عليه وآله بالصلاة عندهم فهو سبحانه كما أمر المؤمنين بالصلاة بعد الايمان كذلك اليهود أيضاً والظاهر من كلمات اللّغويّين والفقهاء أنّ الصلاة هي الدعاء.

قال في لسان العرب ٤٦٤/١٤: الصلاة: الدعاء والاستغفار.

أقول: الظاهر أنّ الدعاء هو التوجّه والإقبال إلى الغير بعناية توجّه الغير إلى الداعي وإجابته بخلاف الصلاة فإنّ المراد منها هو التوجّه المطلق من دون العناية بطلب إقبال الغير إلى الداعي وعدم دخالة هذه العناية في تحقّق مفهوم الصلاة.

فالفقيه يأخذ بالمفهوم العام أو المطلق ويأخذ بالحدود والشرائط المعتبرة المقرّرة فيها وجوباً أو استحباباً عن أدلّة أخرى فتعيّن المأمور به عنده بتعدد الدالّ والمدلول فيصير هذا الفرد المحدود بالحدود والقيود مصادقة المعنى اللّغوي من أفراد العام والمطلق بالحقيقة وهذا هو العنوان الجامع بين جميع أنواع الصلاة وأفرادها. وهكذا الكلام في شرائطها وقيودها فكما يجب الأخذ في الصلاة بالمفهوم اللّغوي كذلك في شروطها وقيودها من دون توهم حقيقة شرعيّة في مفهوم الصلاة أو مفهوم شيء من شرائطها وقيودها.

قوله تعالىٰ: «واركع مع الراكعين». (٤٣)

قال في لسان العرب ١٣٣/٨: الركوع: الخضوع؛ عن ثعلب. ركع يركَعُ ركعاً وركوعاً: طأطأ رأسه. وكلّ قومة يتلوها الركوع والسجدتان من الصوات فهي ركعة.

من قام بها فلا محالة يدخل في عباده الصالحين والذاكرين لله والمسبّحين له سبحانه والراكعين والخاضعين لله تعالى. قال تعالى:

«وتوكّل على العزيز الرحيم * الّذي يراك حين تقوم * وتقلّبك في الساجدين * إنّه هو السميع العليم». [الشعراء (٢٦) / ٢١٧ ـ ٢٢٠]

قوله تعالىٰ: «أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب»

خطاب لعلماء اليهود وتوبيخه إيّاهم الّذين يدعون ويأمرون الناس بالبرّ والمعروف والتقوى مع أنّهم يرتكبون خلاف ذلك من التهاون والتساهل ويتعمّدون كتمان الحقائق في أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله فهم في نعسة المخذولين وسكرة المتهاونين مع كونهم يتلون الكتاب.

قوله تعالىٰ: «أفلا تعقلون». (٤٤)

توبيخ واحتجاج منه تعالى على كونهم من أهل الجناية والخيانة بالعقل الّذي حجّة من الله سبحانه بالبداهة والضرورة.

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالىٰ: «واستعينوا بالصبر والصّلوٰة»

بيان: الاستعانة طلب العون والتأييد والتمكّن من الأمر من الله سبحانه فهو الله سبحانه المستعان فقط ولابد للمؤمن من الإقرار والتزام بذلك وتمجيده تعالى بأنّه المتوحّد في كونه مستعاناً وفي التوصل بصالحات الأعمال في حصول الاستعانة من الله تعالى دخل عظيم.

والمراد من الصبر هو تحمّل المصائب والشدائد من دون جزع وفزع وطلب الاستخلاص والفرج من الله سبحانه. وقد يكون الصبر في مورد إيذاء الناس فلابدّ

من التحمّل من دون مقابلته بماهو أقبح منه. وقد يكون الصبر على الطاعات والحسنات بالمراقبة والمواظبة عليها وبالكفّ عن ارتكاب المحارم والمعاصي. وبيان موارد الصبر يحتاج إلى استقصاء بالغ.

في الكافي ٢ /٩٠، عن محمد بن يحيى مسنداً عن الأصبغ قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرّم الله عزّ وجلّ عليك....

وفيه أيضاً /٩٣، عن أبي علي الأشعري مسنداً عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السّلام:

ـ يرحمك الله ـ ما الصبر الجميل؟ قال: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس.

قوله تعالىٰ: «وإنّها كبيرة إلّا على الخاشعين». (٤٥)

الظاهر أنّ ضمير (إنّها) راجع إلى الصلاة والمراد من الصلاة في المقام هي الصلاة الّتي لايتمكّن منها إلّا القانتون والمخلصون راغبين وراهبين والصلاة بالمعنى الّذي ذكرناه لكبيرة وعظيمة إلّا على الخاشعين الّذين يخشون الله ويراقبونه في قلوبهم وصدورهم.

قوله تعالىٰ: «الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم...». (٤٦)

توصيف وتشريف للخاشعين والمراد بالظن هو اليقين.

في تفسير العياشي ١/ ٤٤، عن أبي معمر عن علي عليه السّلام في هذه الآية يقول:

يوقنون أنّهم مبعوثون والظّنّ منهم يقين.

وفي التوحيد /٢٦٧، عن أحمد بن يحيى مسنداً عن أبي معمر السعداني عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال:

... وكذلك ذكر المؤمنين «الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم» يعني يوقنون أنّهم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويجزون بالثواب والعقاب،

فالظنّ هٰهنا اليقين خاصّة....

قوله تعالىٰ: «يابني إسرائيل اذكروا نعمتي الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين». (٤٧)

بيان: يابني إسرائيل اذكروا نعمتي الّتي أنعمت عليكم وفضلتكم حين بعثنا فيكم موسى وهارون رسولاً يتلو عليكم آياتنا في المعارف ويبيّن لكم الأحكام من الحلال والحرام فلابد من العمل بها قرناً بعد قرن إلى أن يبعث الله رسولاً آخر وكتاباً آخر. وهذا دين ثابت وشرع مستقيم لايجوز تحريفه وتبديله بالهوسات والميول وللأسف فانّ اليهود ما نفّذوا تلك الوصيّة الإلٰهيّة وحرّفوا بعض أحكامها وأنكروا بعض حقائقها:

منها ما أوصى لهم أن يؤمنوا برسول الله صلّى الله عليه وآله وبقرآنه.

ومنها ما رواه في مجمع البيان ١٩٣/٣، عن الباقر عليه السّلام وجماعة من المفسّرين:

إنّ امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشرافهم وهما محصنان فكرهوا رجمها فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبي عن ذلك طمعاً في أن يأتي لهم برخصة فانطلق قوم، منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وشعبة بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم فقالوا: يامحمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ماحدّهما؟ فقال: وهل ترضون بقضائي في ذلك؟ قالوا: نعم، فنزل جبرائيل بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال جبرائيل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له فقال النبي: هل تعرفون شاباً أمرد، أبيض، أعور يسكن فدكاً يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأيّ رجل هو فيكم قالوا: أعلم يهوديّ بقي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى قال: فأرسلوا إليه ففعلوا فأتاهم عبدالله ابن صوريا، فقال له النبي: إنّي أنشدك الله الّذي لا إله إلّا هو الّذي أنزل التوراة على موسى وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوى هل تجدون في كتابكم الرجم

على من أحصن؟ قال ابن صوريا: نعم، والّذي ذكرتني به لولا خشية أن يحرقني ربّ التوراة أن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يامحمد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنّه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة عليه الرجم، قال ابن صوريا: هكذا أنزل الله في التوراة على موسى فقال له النبي: فماذا كان أوّل ماترخّصتم به أمر الله؟ قال: كنّا إذا زنى الشريف تركناه وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدّ فكثر الزنا في أشرافنا حتّى زنى ابن عمّ ملك لنا فلم نرجمه ثمّ زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فقال له قومه: لا، حتّى ترجم فلاناً يعنون ابن عمّه فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة ثمّ يسوّد وجوههما ثمّ يحملان على حمارين ويجعل وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما فجعلوا هذا مكان الرجم فقالت اليهود لابن صوريا ما أسرع ما أخبرته به وماكنت لما أتينا عليك بأهل ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك فقال: إنّه أنشدني بالتوراة ولولا ذلك لما أخبرته به فأمر بهما النّبي فرجما عند باب مسجده وقال: أنا أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه فأنزل الله فيه: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير» [المائدة (٥) / ١٥]....

قوله تعالى: «واتّقوا يوماً لاتجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولايقبل منها شفاعةٌ...». [٤٨]

قال في لسان العرب ٤٠٢/١٥: وقد توقّيت واتّقيت الشيء وتقيته أتقيه تُقىً وتقيّة وتقاءً: حذرته.

وفيه أيضاً ١٨٣/٨: الشفع: خلاف الوتر وهو الزوج.

وفي النهاية ٤٨٥/٢: قد تكرّر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلّق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم. يقال: شفَع يشفَع شفاعة، فهو شافع وشفيعٌ، والمشفِّع: الّذي يقبل الشفاعة، والمشَفَّع: الذي تقبل شفاعته.

أقول: كأنّ السائل مع مافيه من الإصرار والإلحاح طبعاً وتكويناً أو عملاً لإنجاح مقاصده من الغير يضمّ إلى نفسه من يعاضده ويعينه في السؤال والالتجاء إلى الغير، من كان أوجه منه عند المشفّع وأكرم وأقرب منزلة ومقاماً؛ وهذا المعنى أمر دائر بين عقلاء الأمم والملل إذا كان مورد الشفاعة ممّا يملكه المشفّع على الإطلاق ولو بتمليكه تعالى، وأمّا المتصدّون لإجراء القوانين الشرعيّة فليس لهم هذه السلطة. وكيف كان فلا إشكال في إمكانها بالنسبة إليه تعالى فإنّه جلّ ثناؤه حيث يملك الأمر بكلا طرفيه قبل شفاعة الشافعين وبعدها، وبيده العفو والأخذ وهو المالك لهما بالحقيقة فيعفو عن المجرم العاصي بفضله فيحمد ويشكر، ويأخذ بعدله فيمجّد ويقدّس؛ فالمرجّح بصدور الفعل وصدور أحد المتساويين بالنسبة إليه تعالى موجود قبل الشفاعة وليست الشفاعة في موردها علّة منحصرة لفضله بل العفو قبلها ومعها وبواسطة المرجّحات الأخر من توبته وإيمانه ودعائه وصدقاته وصلته إلى جيرانه وأرحامه وأهل دينه ممّا يوجب رضى ربّه وفضل سيّده، ومعها جميعها يدور الأمر بين العدل والفضل فيتفضّل بقبولها ويعفو عليه ويزيد ويأخذه بعدله لاستحقاقه الأخذ بمعاصيه أخذ عزيز مقتدر فبأيّهما فعل كان عن اختياره بعد تلك المرجحات فالعفو عن المجرم العاصي باختياره ورأيه في مورد الشفاعة عن ذاك المرجّح لابه وكذلك الأخذ والعدل أيضاً باختياره عن ذاك المرجّح لابه فلا إيجاب عليه بالنسبة إلى اختيار أحد الطرفين أزلاً وأبداً بالحقيقة.

وبعبارة أخرى أنّ الّذي لاريب فيه أنّه سبحانه مالك للعفو والأخذ من دون إيجاب أحدهما عليه تعالى فإذا قام الشفعاء فشفعوا للمذنبين فالشفاعة الّتي هي مرجّحة لطرف العفو لاتوجب تحديد مالكيته وقدرته تعالى فهو سبحانه مالك للعفو والعقاب في مرتبة الشفاعة أيضاً وقد كان مالكاً للعفو من غير شفاعة أيضاً ولكن لمّا كانت الشفاعة مرجّحة في طول المالكيّة لا في عرضها فالمالكيّة حاكمة على الشفاعة دون العكس فلو عفا سبحانه عند الشفاعة فالعفو للمالكيّة والقدرة وليس معلولاً للشفاعة ويستحيل صدور العفو عن الشفاعة وبالشفاعة مع فرض المالكيّة للعفو والأخذ.

وواضح عند أولي الألباب أنّ تفرّده وتوحّده سبحانه في جميع شؤون ألوهيّته وربوبيّته يقضي ويحكم أنّ أمر الخلق وجميع مايرجع إليه من شؤون التكوين

والتشريع ملك مطلق له تبارك وتعالى أزلاً وأبداً في الدنيا والآخرة ويكون ظهور تلك المالكيّة في الآخرة أظهر وأجلى لإبطال الاختيارات ورجوع الأمانات من القدرة والثروة والسلطة والنعمة إلى مالكها وواهبها الملك الحقّ القيّوم فعنت له الوجوه وخشعت له الأصوات مطيعين مقنعي رؤوسهم لايرتدّ إليهم طرفهم وافئدتهم هواء. قال تعالى:

«ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون إنّما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مُهطعين مُقنعي رؤوسهم لايرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء». [إبراهيم (١٤) / ٤٢ ـ ٤٣]

و«يوم هم بارزون لايخفىٰ على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار». [المؤمن (٤٠) / ١٦]

وممّا ذكرنا يعلم ضعف ما جاء في المنار ٣٠٧/١، في الشفاعة حيث قال: في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقاً كقوله تعالى في وصف يوم القيامة: «لابيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة» [البقرة (٢) / ٢٥٤] وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة كقوله عزّ وجلّ ٧٤:٤٨: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» وآيات تفيد النفي بمثل قوله ٢: ٢٥٥: «إلّا بإذنه» وقوله ٢١: ٢٨: «إلّا لمن ارتضى»... قال شيخنا: فما ورد في إثبات الشفاعة على هذا من المتشابهات وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم وأنّها مزيّة يختصّ الله بها من يشاء يوم القيامة عبّر عنها بهذه العبارات «الشفاعة» ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جلّ جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي. وأمّا مذهب الخلف في التأويل فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على أنّها دعاء يستجيبه الله تعالى.

والحقّ أنّ الشفاعة والتصرّف في العفو والأخذ في عباده بالعدل والفضل حقّ مطلق له تبارك وتعالى. والآيات الواردة في التذكير بهذا المعنى وإثبات التوحيد وتخصيص المالكيّة المطلقة له تعالى خارجة عن حريم البحث. قال تعالى:

«قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون». [الزمر (٣٩) / ٤٤]

و«من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه». [البقرة (٢) / ٢٥٥]

و«وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ماكنتم تزعمون». [الأنعام (٦) / ٩٤]

و«لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة». [البقرة (٢) / ٢٥٤]

و«فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا». [الأعراف (٧) / ٥٣]

فهذه الآيات سيقت لأجل التذكّر بتوحّده تعالى بالمالكيّة لاشريك له وهذا أجنبيّ عن البحث بأن الله تعالى قد ملّك عباده المقرّبين وأعطاهم أمر الشفاعة. وفي بعض هذه الآيات ردّ على الّذين اتّخذوا من دون الله شريكاً من عند أنفسهم بهوساتهم وخرافاتهم في مالكيّته تعالى للشفاعة ولم يتفطّنوا بأنّ الّذي ملك له تعالى بحقيقة المملوكيّة كيف يمكن أن يكون شريكاً له في الملك وكيف يكون شفيعاً للعصاة من دون الله سبحانه وهل هذا إلّا محالٌ من القول وشطط من الكلام، قال تعالى:

«ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتّقون». [الأنعام (٦) / ٥١]

و«ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبّئون الله بمالا يعلم في السّموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عمّا يشركون». [يونس (١٠) / ١٨]

و«الله الّذي خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون». [السّجدة (٣٢) / ٤]

فالعمدة في الباب هو التعرّض للآيات الشريفة الّتي هي موضع الشفاعة قال تعالى:

«وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون». [الأنبياء (٢١) / ٢٦ ـ ٢٨]

قد نصّت الآية الشريفة بأنّهم المأذونون في الشفاعة والمالكون لها بتمليك الله تعالى إلّا أنّهم لايشفعون إلّا لمن ارتضى أي، لابدّ أن يكون المشفّع له من الذين ارتضى الله عنهم والارتضاء على الظاهر لايحصل إلّا من حيث فعلهم وعقائدهم وخلاصة

القول دينهم.

و «يومئذٍ لاتنفع الشفاعة إلّا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً». [طه (٢٠) / ١٠٩]

وحيث إنّ الانتفاع متأخّر رتبة عن إذنه تعالى للشفاعة ووقوعها من الشافعين فمفاد الآية أنّ الشفاعة لاتنفع من أحد لأحد إلّا أن يكون الله تعالى أذن للشافعين في الشفاعة للمشفَّعين.

و «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً * لايملكون الشفاعة إلّا من اتّخذ عند الرّحمٰن عهداً». [مريم (١٩) / ٨٦ـ٨٧]

ضمير الفاعل في قوله: «لايملكون» إن كان راجعاً إلى المشفَّعين كما هو الظاهر فهم لايملكون الشفاعة إلّا من حيث إنهم يستفيدون من شفاعة الشافعين بشرط أن يكون بينه تعالى وبينهم عهد سابق على هذا الموقف. وعليه فلابدّ أن يكونوا ممّن قد عمل بعض الصالحات. وأمّا لو كان الضمير راجعاً إلى الشافعين فلا يضرّ في الاستدلال. وعلى كل الوجهين لاكلام في أنّ الآية نصّ في ثبوت الإذن للشفاعة من الله سبحانه.

و «وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى». [النجم (٥٣) / ٢٦]

الآية الكريمة تفيد أنّ الملائكة يشفعون لمن يشاء الله ويرضى دينه. وواضح أنّ المرضيّ عند الله هو الإيمان والأعمال الصالحة وهو تعالى لايرضى لعباده الكفر والأعمال السيّئة.

و «ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له حتّىٰ إذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العليّ الكبير». [سبأ (٣٤) / ٢٣]

تقريب الاستدلال أنّ المشفَّعين هم المأذون لهم بقبول شفاعة الشافعين في حقّهم.

و «ولا يملك الّذين يدعون من دونه الشفاعة إلّا من شهد بالحقّ وهم يعلمون». [الزخرف (٤٣) / ٨٦]

الاستثناء منقطع إذ لا مشاركة بين الّذين يدعون الأصنام والآلهة الباطلة من دونه وبين الشهداء بالحق والقوّامين بالقسط والربانيّين من الأمم والملل. فتفيد الآية أنّ الطائفة الثانية هم المأذونون في الشفاعة والمالكون لها بتمليكه تعالى.

هذا خلاصة الكلام في الشفاعة في القرآن الكريم ومن أراد تفصيل ذلك فليراجع كتابنا «بدائع الكلام» / ١٧٥ ـ ٢١٢.

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا
غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ
بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالىٰ: «وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب»

قال في لسان العرب ٣١٢/١٢: السُّومة والسِّيمة والسِّيماء والسِّيمياء: العلامة وسَوَّمَ الفرسَ: جعل عليه السِّيمة.

الآية الكريمة نصيحة من الله تعالى لبني إسرائيل وتذكرة لهم حيث نجّاهم من الجنايات الّتي كان يرتكبها آل فرعون في حقّهم وجعلوا ذلك العذاب والنكال علامة لهم بالاستكبار والاستبداد.

قوله تعالىٰ: «يذبّحون أبناءكم»

حذراً من تكثير النسل وبروز القدرة فيهم.

قوله تعالىٰ: «يستحيون نساءكم»

أي، يسلبون الحياء والعفاف منهنّ كيف شاؤوا وأرادوا.

قوله تعالى: «وفي ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم». (٤٩)

قال في مجمع البيان ١٠٦/١: «بلاء من ربّكم عظيم» أي، لما خلّى بينكم وبينه حتّى فعل بكم هذه الأفاعيل. وقيل في نجاتكم من فرعون وقومه نعمة عظيمة من الله عليكم.

قوله تعالىٰ: «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». (٥٠)

عطف على قوله: «وإذ نجّيناكم من آل...» وهذه نعمة وكرامة أخرى لبني إسرائيل حيث فلق لكم البحر وجعله أرضاً يابسة دخلتم فيها وخرجتم منها سالمين سيّما شاهدتم هلاك عدوّكم فرعون وآله وخزيهم وانتقامه تعالى منهم لأجلكم فلا سبيل بعد ذلك لعدو لكم عن الحق وكفران هذه النعمة الكبيرة فإنّ سنّته تعالى المقدّسة جرت بأن يجازي من كفر مواهبه تعالى وكراماته بسلب الكرامة والنعمة عن الكفر ويجعل ذلك عبرة للمعتبرين وموعظة للمتّقين.

قوله تعالىٰ: «وإذ واعدنا موسىٰ أربعين ليلةً»

بيان: الميعاد كان أصله موعاد مثل الميثاق. والظاهر أن هذا التوقيت أي أربعين يوماً، راجع إلى حضور موسى في الطور وإقامته فيها كي ينزل التوراة عليه فيها.

والوجه في حضور موسى فيها أنّ الطور وادٍ مقدّس قد تجلّى الله تعالى فيها لموسى وأكرمه بمقام النبوّة، قال تعالى:

«وهل أتاك حديث موسىٰ * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنّي آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النّار هدى * فلمّا أتاها نودي ياموسىٰ * إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدس طوًى» [طه (٢٠) / ٩ ـ ١٢]

فقد صرّح سبحانه أنّ الطور واد مقدس ولعلّ أمره تعالى بخلع نعليه يكون تشريفاً وتكريماً لهذا الوادي وصرّح أيضاً أنّه سبحانه اختص موسى بمقام الكرامة العليا وأراد أن يتجلّى لموسى ليست آية: «وأنا اخترتك فاستمع لما يوحىٰ» فقد بلغ موسى موقفاً خطيراً وموقعاً جليلاً وحان الحين أن يكرم موسى بقوله: «إنّني أنا الله» ويعرّف نفسه بموسى بمقام ألوهيّته وكبريائه ثمّ أمره تعالى أن يستمع لما يوحى إليه وأن يعبد ربّه ويقيم الصلاة لذكره سبحانه فإنّ الصلاة تشريف منه تعالى لأوليائه وأهل الكرامة عليه سبحانه ليتشرّفوا بحضوره في الصّلاة الّتي هي معراج للمؤمنين ونور عين للمتّقين ويتعهّدون بالتعبّد بالعبوديّة والعمل بوظائف الحضور وأدب العبوديّة.

قوله تعالى: «ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون». (٥١)

توبيخ وتقبيح لهم بما ارتكبوا من عبادة العجل والظلم الصريح على الحقّ المبين وعلى أنفسهم بعد إكرامه تعالى إيّاهم بإحضاره موسى للطور لاستماع الوحي وأخذ التوراة وبيان الحقائق والحلال والحرام لهم، قال تعالى:

«إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» [المائدة (٥) / ٤٤]

قوله تعالى: «ثمّ عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون». (٥٢)

قال في مجمع البيان ١ / ١١٠: «ثمّ عفونا عنكم» أي، وضعنا عنكم العقاب الّذي استحققتموه بقبول توبتكم من عبادة العجل «من بعد ذلك» أي من بعد اتّخاذكم إيّاه إلهاً.

أقول: لم أجد بحسب ظهور الآية أو بحسب معونة الروايات مايسكن النفس إليه في معنى العفو ههنا. وهل المراد منه ماقاله في المجمع أو غيره والله العالم.

قوله تعالى: «وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون». (٥٣)

بيان: الظاهر أنّ المراد من الكتاب هو التوراة والفرقان عطف تفسيري عليه بلحاظ كونه فارقاً بين الشرك والتوحيد، وبين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام.

قوله تعالىٰ: «وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم...». (٥٤)

جزاءً بما ارتكبتم من الجناية باتّخاذكم العجل معبوداً لأنفسكم والله العالم بالصواب.

قوله تعالىٰ: «وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة»

ظاهر الآية الكريمة يدلّ على أنّه كان مع موسى عليه السّلام في الموقف عدّة من بني إسرائيل وقالوا له: لن نؤمن ولم نصدّقك حتّى نرى الله جهرة كما ترى أنت.

في العيون ٢٠٠/١، تميم بن عبدالله مسنداً عن علي بن محمد بن الجهم عن الرضا علي بن موسى عليهما السّلام في مجلس عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السّلام قال:

> إنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السّلام علم أنّ الله تعالى أعزّ أن يرى بالأبصار ولكنه لمّا كلّمه الله عزّ وجلّ وقرّبه نجيّاً رجع إلى قومه فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ كلّمه وقرّبه وناجاه فقالوا: «لن نؤمن لك» حتّى نستمع كلامه كما سمعت وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثمّ منهم سبعمائة، ثمّ اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّهم فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى إلى الطور وسأل الله تعالى أن يكلّمه ويسمعهم كلامه فكلّمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراءٍ وأمام، ... فقالوا: «لن نؤمن لك» بأنّ هذا الذي سمعناه كلام الله: «حتّى نرى الله جهرة» فلمّا قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عزّ وجلّ عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا....

قوله تعالىٰ: «فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون». (٥٥)

قال في لسان العرب ١٩٨/١٠: الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد.

الظاهر أنّ المراد من الصاعقة هو النار الّتي تسقط من السماء بسبب الرعد، لأنهم كانوا يرونها ويشاهدونها عياناً والشاهد على ذلك قوله تعالى: «وأنتم تنظرون»

قوله تعالى: «ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون». (٥٦)

قال في لسان العرب ١١٧/٢: والبعث أيضاً: الإحياء من الله للموتى ومنه قوله تعالى: «ثمّ بعثناكم من بعد موتكم» أي أحييناكم. وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث.

وفي مجمع البحرين ٢٣٦/٢: بعث... ويكون إحياءً كقوله: «وكذلك بعثناهم» [الكهف (١٨) / ١٩] أي أحييناهم.

أقول: البعث من الألفاظ الّتي كثر ورودها في القرآن الكريم سيّما في الآيات الّتي تنطق بقيام الإنسان برّاً أو فاجراً من قبره إلى ربّ العالمين. وهذا الموقف من أعظم المواقف البرزخيّة فلابدّ للمؤمن الخبير من التوجّه إلى هذا الموقف وعدم الغفلة عنه وتجهيز نفسه للخروج عن عهدة الوظائف الّتي يستقبلها في هذا الموقف الخطير. فالآية الكريمة صريحة في المعاد الجسماني الذي هو من ضروريات الأديان الإلهيّة. والمعنى أنّه تعالى بعدما أماتهم وأهلكهم مجازاةً لقولهم السخيف ثمّ منّ الله سبحانه بإفاضته الحياة عليهم فأحياهم، فعليهم أن يشكروا الله تعالى على هذه النعمة الكريمة والموهبة الجزيلة لو يعقلون.

قوله تعالى: «وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى»

قال في لسان العرب ٤١٨/١٣: الجوهري: المنّ كالطَّرَنْجَبِين. وفي الحديث: الكَمْأَةُ من المنّ وماؤها شفاء للعين. ابن سيدة: المنّ طلّ ينزل من السماء وقيل: هو شبه العسل كان ينزل على بني إسرائيل. وفي التنزيل العزيز: «وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى» قال الليث: المنّ كان يسقط على بني إسرائيل من السماء إذ هم في التيه، وكان كالعسل الحامس حلاوةً... وأهل التفسير يقولون: إنّ المنّ شيء كان يسقط على الشجر حلوٌ يشرب ويقال: إنّه الترنجبين.

وفيه أيضاً ٣٩٥/١٤: وفي التنزيل العزيز: «وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى» السلوى طائر، وقيل: طائر أبيض مثل السُّماني واحدته سلْواة... قال المفسّرون: المنّ الترنجبين والسلوى السُّماني.

أقول: واضح إنّ عبادة بني إسرائيل للعجل وارتدادهم عن دينهم قد كان في مصر فكذلك رجوع موسى من الطور إليهم وتوبيخهم بعبادة العجل وكفرهم بعد الإيمان أيضاً كان في مصر وأمّا التضليل بالغمام وإرسال المنّ والسلوى كان بعد خروجهم من المصر وعبورهم البحر إلى المفازة وكذلك قولهم لموسى: «إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون» [المائدة (٥) / ٢٤]

فتاهوا فيها أربعين سنة وكانوا يتأذّون من حرّ الشمس فظلّلهم الله سبحانه بالغمام ومنّ عليهم بالمنّ والسلوى وكانوا يأخذونها ويأكلونها حتى توفّي موسى وهارون عليهما السّلام في التّيه، قال تعالى:

«يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزّلنا عليكم المنّ والسلوى». [طه (٢٠) / ٨٥]

في البحار ١٨٢/١٣، عن التهذيب، قال الصادق عليه السّلام:

نومة الغداة مشومة تطرد الرزق وتصفّر اللّون وتغيّره وتقبّحه، وهو نوم كلّ مشوم، إنّ الله تعالى يقسّم الأرزاق مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وإيّاكم وتلك النومة. وكان المنّ والسلوى ينزل على بني إسرائيل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فمن نام تلك الساعة لم ينزل نصيبه وكان إذا انتبه فلايرى نصيبه احتاج إلى السؤال والطلب.

قوله تعالىٰ: «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون». (٥٧)

خاطَبَ موسى قومه بأنّكم خالفتموني وعصيتموني في جميع ما أمرتكم من العهود والمواثيق فعبدتم العجل وكفرتم بعد إيمانكم ثمّ اخترتم سبعين رجلاً من كبراء قومكم الّذين يرجى فيهم الرشد ونيل الحقّ فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة كما أنت تراه وما كانت هذه الزّلات والانحرافات إلّا ظلماً لانفسكم وحرماناً من هداية الله سبحانه وكرامته لكم.

قوله تعالىٰ: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجّداً»

قال في مجمع البحرين ٦٣/٣: وقد تكرّر في الحديث ذكر «السّجود» وهو في اللّغة الميل والخضوع والتطامن والإذلال. وكلّ شيء ذلّ فقد سَجَدَ، ومنه سجد البعير،

إذا خفض رأسه عند ركوعه.

وقال في لسان العرب ٢٠٥/٣: أبو بكر: سجد إذا انحنى وتطامن إلى الأرض... وكلّ من ذلّ وخضع لما أمر به فقد سجد.

أقول: فقوله تعالى «ادخلوا الباب سجّداً» أي، ادخلوا باب القرية خاضعين ومنحنين.

قال العلّامة البلاغي في تفسيره آلاء الرحمٰن /٩٥: لا أعرف قرية في زمان موسى عليه السّلام أمروا بدخولها ودخول بابها سجّداً على ماهو مذكور في الآية نسق هذه القصص، ومن البعيد جدًّا أن يراد بها الخيمة الّتي نصبها موسى في البرّ قدّسها للعبادة إذ لايناسبها اسم القرية ولا قوله تعالى: «وكلوا منها حيث شئتم رغداً» نعم يناسبها أن تكون قرية بيت المقدس الّذي بناه سليمان وكان بنو إسرائيل يأتونها في مواسمهم للعبادة ويتمتعون فيها بالرغد والأمن.

وفي مروج الذهب ٥٠/١: لمّا قبض الله عزّ وجلّ موسى بن عمران سار يوشع ابن نون ببني إسرائيل إلى بلاد الشام وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام فأسرى إليهم يوشع بن نون سرايا وكانت له معهم وقائع فافتتح بلاد أريحاء [وزغر] من أرض الغور... وكانت مدّة يوشع بن نون في بني إسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران تسعاً وعشرين سنة.

قوله تعالى: «وقولوا حطّة نغفر لكم خطاياكم»

أمرهم بالدّعاء والاستغفار ولقّنهم أن يقولوا: «حطّة» أي، ضع أوزار سيّئاتنا. وهذا قريب المفاد من قولنا: كفّر عنّا سيّئاتنا.

قوله تعالى: «وسنزيد المحسنين». (٥٨)

هذه سنة الله المقدّسة وكونه تعالى شكوراً ينمي ثواب المحسنين إنماءً حسناً ولو كان مثقال ذرّة، فيقبل تعالى قليل ما يتحف به ويشكر سبحانه يسير مايعمل له.

قوله تعالى: «فبدّل الّذين ظلموا قولاً غير الّذي قيل لهم فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون». (٥٩)

الظاهر أنّ بعض المنافقين والسفلة من بني إسرائيل جعلوا أمره تعالى بالاستغفار سخريّة فبدّلوه غير الّذي أمرهم الله سبحانه به فجزى الله الّذين ظلموا

وأنزل عليهم من السماء عذاباً بما كانوا يفسقون. وفي التعبير بقوله تعالى: «بما كانوا يفسقون» دلالة وشهادة على أنّ هذه السنّة السيّئة كانت دأبهم وديدنهم، للفرق البيّن بين قوله تعالى: «بما كانوا يفسقون» وبين «بما يفسقون».

قوله تعالىٰ: «وإذا آستسقىٰ موسىٰ لقومه فقلنا آضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علِم كلّ أناسٍ مشربهم».

عطف على قوله تعالى: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية» والظاهر أنّ موسى عليه السّلام طلب السقي لقومه من الله سبحانه فأجاب الله تعالى دعوته فقال: فاضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل وقد علم كلّ أناس محل شربهم الذي أعدّ لكلّ واحد منهم.

قوله تعالىٰ: «كُلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين». (٦٠)

إن قلنا: إنّ الآية في سياق الامتنان منه سبحانه عليهم تفيد الإكرام والإحسان إليهم ولا تفيد حكماً شرعيًّا؛ وإن قلنا: إنّها للترخيص فلا محالة تفيد الإباحة.

قال في جوامع الجامع / ١٥: «ولا تعثوا» العثي أشدّ الفساد أي لا تتمادوا في الفساد. مفسدين أي في حال إفسادكم.

قوله تعالىٰ: «وإذ قلتم ياموسىٰ لن نصبر علىٰ طعام واحدٍ فادعُ لنا ربّك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها»

فيه دلالة وشهادة على بلاهتهم وحمقهم وعدم تشخيص ماهم فيه من عظمة الاختصاص بإعطائه تعالى من المنّ والسّلوى على نحو الإعجاز والإكرام فاقترحوا على الله وعلى موسى أن يبدّل ذلك بالأغذية المتعارفة العادية الّتي كانت بين أعين الناس من البقل والقثّاء وهو نوع من النبات يشبه ثمر الخيار وقال في المعجم الوسيط ٧٢٢/٢: القثّاء نوع من البطيخ نباتيًّا، قريب من الخيار لكنّه أطول. واحدته: قثّاءة.

والفوم وهو الحبّة ممّا يخبز أي الحنطة أو سائر الحبوب الّتي تخبز.

والعدس والبصل وهو بقل زراعي من فصيلة الزنبقيّات.

قوله تعالىٰ: «قال أتستبدلون الّذي هو أدنىٰ بالّذي هو خيرٌ اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم وضُرِبت عليهم الذّلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله»

الاستفهام إنكاريّ وفيه توبيخ وتقبيح لهم بأنّهم كيف لم يعقلوا موقعيّة هذه الكرامة الإلهيّة والضيافة الخاصّة الرحميّة يأكلون أجود الطعام وأزكاه وأطيبه وألذّه، ينزل عليهم على سبيل الإعجاز والإكرام، وخاصّة كان الرسول الكليم الكريم المطهّر المعصوم عليه السّلام يحاورهم ويبيّن لهم الحلال والحرام وخاصّة المعارف القيّمة الحقّة الإلهيّة من معرفته تعالى وتوحيده والمبدأ والمعاد وغيرها؛ وهذا أجلّ بهجة وأعظم كرامة لهم فاستنزلوا من هذه الكرامة الكبرى ورضوا بما هو أدنى وأخس من الحياة العادية تحت حكومة الجبابرة والفراعنة الّذين يحكمون في أنفسهم وأموالهم كيف شاؤوا وأرادوا فقال تعالى: «اهبطوا مصراً» أي مصراً من الأمصار ولزم عليهم واحيط بهم الهوان والخذلان واستحقّوا بغضب من الله فرضي الله سبحانه بما رضوا لأنفسهم من سلب المواهب والنعماء عنهم فوقعوا في ضنك العيش وشقاء الحياة.

قوله تعالى: «ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله»

ذلك إشارة إلى ماتقدّم من عصيانهم وطغيانهم واستبدالهم ماهو الأعلى والأجلّ بماهو أخس وأدنى. وفي التعبير بقوله: «بأنّهم كانوا يفكرون...» دلالة على أنّ ذلك الكفر كان سنّتهم الخبيثة كما ذكرنا في قوله تعالى: «كانوا يفسقون».

قوله تعالى: «ويقتلون النبيّين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». (٦١)

هذا جناية أخرى منهم فانّهم كانوا يقتلون الأنبياء المعصومين وأولياء الله الطاهرين. وقوله: «ذلك» إشارة إلى قتل الأنبياء. وهل المراد من القتل هو القتل بالسيف والسنان وأمثالها أو المراد منه الاستخفاف بهم واحتقارهم وإسقاطهم عن مراتبهم الّتي رتّبهم الله فيها من الأمر والنهي والبلاغ والتعليم؟ الظاهر هو الثاني.

في تفسير العياشي ٤٥/١، عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السّلام قال في هذه الآية:

والله ماضربوهم بأيديهم ولا قتلوهم بأسيافهم ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فصار قتلاً واعتداءً ومعصية.

وقوله: «بما عصوا وكانوا يعتدون» إشارة إلى أنّ ذلك القتل إنّما كان بعصيانهم وتجاوزهم واعتدائهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

بيان: الآية الكريمة تدلّ على أنّ كلّ من سمع دعوة نبيّ سواء كان في عصره أو قبله يجب عليه أن يؤمن به ويصلح نفسه به وكذا لو أمر النبيّ الحاضر أمّته أن يؤمنوا بنبوّة نبيّ بعده مثل أمر موسى بنبوّة عيسى القدّيس وكذلك بشارة عيسى برسول يأتي بعده اسمه أحمد يجب عليهم أن يقرّوا به أيضاً. وهذا حق في بابه وساطع المنار.

قال في لسان العرب ١٠٨/١: قد صَبَأَ يَصْبَأُ صَبأً وصُبُوءاً وصَبُؤَ يصبُؤ صَبْأً وصُبُوءاً كلاهما: خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها... أبو إسحق الزجاج في قوله تعالى: «والصابئين» معناه الخارجين من دين إلى دين.

وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا

هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾

قوله تعالى: «وإذ أخذنا ميثاقكم»

قال في لسان العرب ٣٧١/١٠: الميثاق: العهد، مفعال من الوَثاق، وهو في الأصل حبل أو قيد يشدّ به الأسير والدّابّة... التهذيب: الميثاق من المواثقة والمعاهدة ومنه المَوْثِق.

أقول: واضح أنّ المراد من الميثاق في الآية الكريمة هو الإيمان بالله تعالى ووحدانيّته ونعوت جلاله وكماله والامتثال عند أمره والانتهاء عند نهيه كما يشهد على ذلك قوله تعالى: «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا...» [المائدة(٥)/٧]، والامتثال على ذلك الميثاق والعهد واجب بذاته بالبداهة.

قال مولانا سيّد العابدين عليه السّلام في الصحيفة السجاديّة في دعائه عند ذكر التوبة وطلبها:

ولك شرطي ألّا أعود في مكروهك وضماني ألّا أرجع في مذمومك وعهدي أن أهجر جميع معاصيك.

وقد تقدّم بعض الكلام في الميثاق في تفسير قوله تعالى: «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه» [البقرة(٢)/٢٧].

قوله تعالى: «ورفعنا فوقكم الطور»

قال عليّ بن إبراهيم في تفسيره ٤٩/١: فإنّ موسى عليه السّلام لمّا رجع إلى بني إسرائيل ومعه التوراة لم يقبلوا منه فرفع الله جبل طور سيناء فوقهم وقال لهم موسى: لئن لم تقبلوا ليقعنّ الجبل عليكم وليقتلنكم فنكسوا رؤوسهم فقالوا نقبله.

قوله تعالى: «خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا مافيه»

أمره تعالى بالأخذ في المقام أمر إرشادي ضرورة أنّ وجوب الأخذ بما أمر الله سبحانه واجب ببداهة العقل وكذلك الكلام بعينه في قوله: «واذكروا مافيه». والقوة هي التصميم والجدّ بحسب القدرة والاختيار الّتي ملّكها الله سبحانه إيّاهم.

في تفسير العياشي ٤٥/١، عن إسحاق بن عمار قال:

سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله: «خذوا ما آتيناكم بقوّة» أقوّة الأبدان أم قوّة في القلوب؟ قال فيهما جميعاً.

قوله تعالىٰ: «لعلّكم تتّقون». (٦٣)

بيان: «لعلّ» بمعنى التوقّع الّذي يليق بشأن المقام وهو الطلب. وهذا التوقّع والطلب أمر إرشادي في المقام ضرورة أنّ الاتّقاء في ساحته تعالى ومقام كبريائه واجب بضرورة العقول.

قوله تعالىٰ: «ثمّ تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين». (٦٤)

أي أعرضتم وخالفتم بعد هذه الكرامات الّتي أكرمكم الله تعالى بها وأنتم أولى بالسلب والحرمان «فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين» فإنّ الله سبحانه أولى بالإحسان وأعود بالامتنان.

قوله تعالىٰ: «ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين». (٦٥)

قال في لسان العرب ٥٥/٣: المسخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها، وفي التهذيب: تحويل خلق إلى صورة أخرى.

أقول: الآية الكريمة تذكرة وإرشاد إلى سنّة الله تعالى المقدّسة بأخذ الظالمين والناكثين فيجعله عبرة للمعتبرين وموعظة للمتقين في عصرهم وغيره من الأعصار خلفاً بعد خلف. وقد علمتم قضيّة السبت وجرأتهم على الله سبحانه في تحريف أحكامه ودينه بالحيل وعلمتم أيضاً كيف أخذهم الله سبحانه فجعل عليهم الهوان والخذلان والعذاب نكالاً وسلب الله سبحانه عنهم ما أعطى الإنسان وأكرمه به من الصورة الحسنى والاستقامة في البدن والمشاعر في العين والسمع وغيرها وكيف مسخهم الله على صورة القردة الخاسئين أي المبعدين المحرومين عن مواهبه تعالى.

وليس المراد من المسخ تبديل حقيقة الإنسان بحقيقة القردة بل الظاهر أنّ المراد منه تغيير ما أعطاه الله تعالى من الصورة الحسنى الّتي ذكرها الله سبحانه في كتابه وقال:

«الّذي خلقك فسوّاك فعدلك * في أيّ صورة ما شاء ركّبك».
[الانفطار (٨٢) / ٧ـ٨]

و«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم». [التين (٩٥) / ٤]

قوله تعالى: «فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتّقين». (٦٦)

قال في لسان العرب ٦٧٧/١١: اللّيث: النكل اسم لما جعلته نكالاً لغيره إذا رآه خاف أن يعمل عمله. الجوهري: نكّل به تنكيلاً إذ جعله نكالاً وعبرة لغيره. ويقال: نكّلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تنكّل غيره عن ارتكاب مثله.

وفي تفسير العيّاشي ٤٦/١، عن زرارة، عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السّلام في هذه الآية قال:

لما معها ينظر إليها من أهل القرى ولما خلفها قال: ونحن ولنا فيها موعظة.

قوله تعالى: «وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا...»

بيان: صرف الكلام عن خطاب بني إسرائيل وتوبيخهم والاحتجاج عليهم إلى الغيبة وشرح قصّة موسى عليه السّلام مع قومه في ذبح البقرة وتوضيح أطراف القصّة وما جرى بين موسى وقومه، وما ارتكبوا في هذه القضيّة أيضاً من سوء معاملتهم، ليتمكّن المقام بالمخاطبة بعدما جرى منهم في هذه المخاصمة وما صدر منهم بعد هذه البيّنة الباهرة والكرامة الظاهرة.

وحيث إنّ المقام مقام فصل الخصومة ومحلّ القضاوة ورفع التنازع ودفع الاتّهام فهي قضيّة شخصيّة في مورد خاصّ بنحو الإعجاز وخرق العادة فالمناسب للموضوع والمورد هو الإطلاق والإرسال في الحكم ومتعلّقه وحدوده لا التقييد اعتماداً إلى البيان المتأخّر ولا الإجمال والإبهام متوسّماً ومستشرفاً للتوضيح والتبيين. فعليه الأمر بذبح البقرة مطلق من حيث الحكم والمتعلّق والموضوع فيجب عليهم المبادرة إلى ذبح بقرة ما أيّ بقرة كانت لا المعارضة مع رسول الله بقولهم: «أتتّخذنا هزواً» بحماقة منهم ولجاج. وأيّ عذر لهم في تأخير الطاعة ورميهم نبيّهم عليه السّلام بما يرمى به الجهّال وعدم اعتذارهم منه صلوات الله عليه، فلم يكن لهم تجديد الكلام والمداخلة والتصرف في الأمر الصادر من الله تعالى ومن موسى عليه السّلام والاستيضاح منه في المقام بل له صلوات الله عليه تتميم كلامه وتشريع أمره لوكان له نقص.

فإذن لايجوز الاستدلال بفعل هؤلاء الحمقاء على أنّه لو تمّ الكلام من الله تعالى

وانعقد الإطلاق والإرسال له لما كان لسؤالهم وجه؛ فليس لسؤالهم وجه أصلاً وليس يجوز لهم بل يجب عليهم إيكال الأمر إلى الله القاضي بالفصل والحاكم بالعدل والإتيان بإطلاق الأمر.

في العيون ١٣/٢، مسنداً عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السّلام يقول:

إنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له ثمّ أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثمّ جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى عليه السّلام: إنّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبرنا من قتله، قال: ايتوني ببقرة: «قالوا أتتّخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة أجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم «قالوا أدع لنا ربّك يبيّن لنا ماهي قال إنّه يقول إنّها بقرة لا فارض ولا بكر» يعني لا صغيرة ولا كبيرة «عوان بين ذلك» ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة أجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم «قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها قال إنّه يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين» ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة لأجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم «قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ماهي إنّ البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون. قال إنّه يقول إنّها بقرة لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحقّ» فطلبوها....

وفي البحار ٢٦٦/١٣، عن قصص الأنبياء بإسناده عن مقاتل بن مقاتل عن أبي الحسن عليه السّلام قال:

إنّ الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وكان يجزيهم ماذبحوا وما تيسّر من البقر فعنتوا وشدّدوا فشدّد عليهم.

وفيه أيضاً عنه بإسناده عن محمد بن عبيدة، عن الرضا عليه السّلام قال:

إنّ بني إسرائيل شدّدوا فشدّد الله عليهم. قال لهم موسى عليه السّلام: اذبحوا بقرة. قالوا: مالونها؟ فلم يزالوا شدّدوا حتّى ذبحوا بقرة بملء

جلدها ذهباً.

وفيه أيضاً ٢٧٧/، عن سعد السعود لابن طاووس قال: وجدت في تفسير منسوب إلى أبي جعفر الباقر عليه السّلام:

وأمّا قول الله تعالى: «إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» ...

وقال مامعناه: إنّهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ولو ذبحوا في الأوّل أيّ بقرة، كانت كافية فوجدوا البقرة لامرأة فلم تبعها لهم إلّا بملء جلدها ذهباً وضربوا المقتول ببعضها، فعاش فأخبرهم بقاتله....

وفي تفسير العياشي ٤٧/١، عن الحسن بن علي بن محبوب عن علي بن يقطين قال:

سمعت أبا الحسن صلوات الله عليه يقول: إنّ الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وإنّما كانوا يحتاجون إلى ذنبها [فشدّدوا] فشدّد الله عليهم.

هذا ما تلونا عليك من الأخبار ممّن عندهم علم الكتاب وقد صرّحوا بأنّ اليهود اقترحوا على الله وشدّدوا فشدّد الله عليهم. وخلاصة القول هو ما ذكرناه في أوّل البحث من أنّ المقام مقام القضاء ورفع التنازع بنحو الإعجاز وخرق العادة والطبيعة لا بنحو الحكومة الشرعيّة طبق الحكم المجعول على العموم في طيّ الأزمان والدّهور.

قال في المنار ٣٤٧/١: يقول أهل الشبهات في القرآن: إنّ بني إسرائيل لايعرفون هذه القصّة إذ لا وجود لها في التوراة فن أين جاء بها القرآن؟

أقول: ما ذكره اليهود وأهل الشبهة في القرآن المنكرون لهذه القصّة وأنّها غير مذكورة في التوراة لا وزن لها ولا قيمة بداهة أنّ وجود التوراة ثبت عندنا على النحو الّذي جاء بها القرآن الكريم سواء كان في التوراة الّتي عند اليهود أم لا. وحيث إنّ القرآن الكريم معجزة وحجّة بذاته لذاته وحجّة على جميع محتوياته مهيمن على جميع الكتب السماويّة المستندة إلى الوحي قبل القرآن قال تعالى:

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ». [المائدة (٥) / ٤٨]

وفي الصحيفة المباركة السجاديّة في دعائه عند ختم القرآن قال عليه السّلام:

اللّهمّ إنّك أعنتني على ختم كتابك الّذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كلّ كتاب أنزلته وفضّلته على كلّ حديث قصصته.

وفي أصول الكافي ٦٠١/٢، مسنداً عن سعد الإسكاف قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: أعطيت السور الطوال مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضّلت بالمفصّل ثمان وستّون سورة وهو مهيمن على سائر الكتب والتوراة لموسى والإنجيل لعيسى والزبور لداود.

والظاهر أنّ المعنى المناسب في المقام للمهيمن كون القرآن مراقباً ومرصداً وحافظاً على جميع الكتب السماويّة من أن يزاد عليها أو ينقص منها شيء، فالإيمان بالتوراة والإنجيل وما فيهما من الحقائق والمعارف وكذا غيرهما من الكتب الإلهيّة إنّما هو بوساطة القرآن وبتصديقه فما صدّقه القرآن فهو الحقّ ويجب الإيمان به وما كذّبه القرآن يجب أن يكفر به.

وكيف كان فقد أمروا في المقام بذبح بقرة. فالواجب بنصّ الآية هو ذبح بقرة والبقرة نكرة سارية في أفرادها لا على التعيين والإطلاق الملحوظ. والساري في هذا الفرد المنتشر إنّما هو بحسب الحالات والصفات وحيث إنّ انطباق الفرد المنتشر على جميع الأفراد على البدل وفي جميع الحالات والصفات انطباق قهريٌّ فلا محالة للمكلّفين من اختيار أيّ فرد شاؤوا وأرادوا فيكون التخيير عقليًّا لا شرعيًّا جعليًّا. فلمّا شدّدوا شدّد الله عليهم.

فالفرد المشدّد الجامع لجميع الصفات المذكورة في الآية هو في عرض غير الجامع لها. وشمول الحكم لهذين الفردين ولغيرهما في عرض واحد ومتساوي الأقدام، فاحتمال التخصيص أو النسخ احتمال باطل.

فليت شعري أليس الواجب من أوّل الأمر هو ذبح البقرة فوقع الامتثال في آخر الأمر بذبح البقرة أيضاً، فلايجوز أن يقال: إنّ للصّفات الطارئة بالمتعلّق دخلاً في تعلّق الحكم به فعليه لايجوّز للقول بالنسخ أو التخصيص ضرورة أنّ التقييد والتخصيص بهذه الصفات إنّما هو لغرض التشديد منه تعالى على المشدّدين لا لغرض

التشريع في المتعلق، فليس من باب نسخ الحكم الشرعي ولا من باب تقييد المصطلح الأصولي.

فإن قيل: قوله تعالى: «يأمركم» وقوله: «أن تذبحوا» وقوله: «ما تـؤمرون» فعل مضارع دالّ على الاستقبال.

قلت: منتقض بكثير من الموارد التي إنشاء الحكم فيها بصيغة المضارع قـال تعالى:

«إنّ الله يأمر بـالعدل والإحسـان وإيتـاء ذي القـربى ويـنهى عـن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون». [النحل (٢٧) / ٩٠]

و «إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها». [النساء (٤) / ٥٨]

إلى غير ذلك من الآيات.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ الرّوايات المباركة الصريحة الدّالّة على الإطلاق والتوسعة في أوّل الأمر موافقة لصريح الآية الكريمة الناصّة على الإطلاق والتوسّع لا أنّ الآية الكريمة ظاهرة في الإجمال والإبهام فيتبيّن شيئاً فشيئاً.

قوله تعالى: «يقول إنّها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك». (٦٨)

قال في لسان العرب ٧٣/٤: البقر: اسم جنس. ابن سيدة: البقرة من الأهلي والوحشي يكون للمذكّر والمؤنث... قال غيره: وإنّما دخلته الهاء على أنّه واحد مـن جنس.

وفيه أيضاً ٧٩/: وبقرة بكر: لم تَحْمِل... وفي التنزيل: لا فارض ولا بكر؛ أي ليست بكبيرة ولا صغيرة ومعنى ذلك: بين البكر والفارض.

وفيه أيضاً ٢٩٩/١٣: العوان من البقر وغيرها: النّصف في سنّها... أبو زيـد: عانت البقرة تعون عُؤُوناً إذ صارت عواناً والعوان: النصف الّتي بين الفارض وهـي المسنّة وبين البكر وهي الصغيرة.

قوله تعالى: «إنّه يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين». (٦٩)

قال في لسان العرب ٢٥٥/٨: قد فَقَع يفقَعُ ويَفقُعُ فُقُوعاً إذا خلصت صفرته. وفي التنزيل: صفراء فاقع لونها. وأصفر فاقع وفقاعيّ: شديد الصفرة.

قوله تعالى: «إنّه يقول إنّها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث»

قال في لسان العرب ٢٥٧/١١، الذّلّ ـ بالكسر ـ: اللّين وهو ضد الصعوبة... ذلّ يذِلّ ذُلاًّ، فهو ذلولٌ، يكون في الإنسان والدّابّة.

قوله تعالى: «مسلّمة لاشية فيها»

قال في لسان العرب ٣٩٢/١٥: الشِّية: سواد في بياض أو بياض في سواد. الجوهري وغيره: الشّية كلّ لون يخالف معظم لون الفرس وغيره، وأصله من الوَشْي، والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوّله كالزِّنة والوزن، والجمع شِيات... وفي التنزيل العزيز: «لا شية فيها» أي ليس فيها لون يخالف سائر لونها.

قوله تعالى: «فذبحوها وما كادوا يفعلون». (٧١)

أي ذبحوها على تثاقل وليس فيهم نشاط الامتثال والا إخلاص العبوديّة لله جلّ شأنه وحسن الاستماع لأولي الأمر من الأنبياء والأصفياء وقد رسخ فيهم عرق الاستعصاء واستحكمت فيهم رذيلة العناد واللّجاج.

قوله تعالى: «وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون». (٧٢)

قال في لسان العرب ٧١/١: دَرَأه يدْرَؤُه درءاً ودرأةً: دفعه... وفي التنزيل العزيز: «فادّارأْتم فيها» وتقول: تدارأتم، أي اختلفتم وتدافعتم وكذلك ادّارأتم وأصله تدارأتم، فأدغمت التاء في الدّال واجتُلبت الألف ليصحّ الابتداء بها.

أقول: كان هناك تخاصم وتنازع في موضوع القتل واتّهام وتدافع بينهم والله سبحانه سيظهر الأمر ويبيّن ما هم يخفونه من أمر القتيل من حيث قاتله ويظهر أيضاً ماظهر منهم من إساءة الأدب لموسى نبيّ الله ونسبتهم إليه مالا يليق بساحته ورميهم إيّاه بالاستهزاء.

قوله تعالى: «فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون». (٧٣)

أي اضربوا القتيل ببعض البقرة فإذن تشاهدون وترون بأعينكم إحياء القتيل، فهذا برهان ودليل على أنّه تعالى قادر على إحياء جميع الموتى ويحييها إذا أراد وشاء، وهذا أي إحياء الموتى في الدنيا حينما أراد الله وفي يوم البعث قد اتّفقت عليه كلمة

الأنبياء ونطقت به جميع الصحف الإلهيّة واجتمع عليه جميع أمم التوحيد. ومن الناس من استبعده وأوّل الآيات الدّالّة على الإحياء في الدنيا والآخرة.

فليعلم أنّه لايسوغ لمن قصر فهمه في المحسوسات وتوغّل في العلوم الطبيعيّة واعتنى بشأنها أنّ يتصدّى لتفسير القرآن والخوض في إلهياته والبحث عن التوحيد والربوبيّات وأسرار القرآن من علم المعاد والنبوّات والولايات.

تذكرة: هذه السورة المباركة من أوّلها إلى آخرها مشتملة على كثير من المعجزات الخارقة لسنّة العادة والطبيعة.

١ ـ إحياء عدّة من بني إسرائيل حين اقترحوا على موسى عليه السّلام رؤيته تعالى فأخذتهم الصاعقة. قال تعالى:

«ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون». [الآية / ٥٦]

فإنزال الصاعقة أخذاً لهم آية معجزة لا أمر طبيعي تصادف عليهم وإحياؤهم بعد موتهم معجزة أخرى.

٢ ـ قوله تعالى:

«وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». [الآية / ٥٠]

فرق البحر اثني عشر معبراً لعبور الأسباط آية معجزة خارقة للعادة والطبيعة.

٣ ـ قوله تعالى:

«فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم». [الآية / ٦٠]

٤ ـ قوله تعالى:

«وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى». [الآية / ٥٧]

٥ ـ قوله تعالى:

«وظلّلنا عليكم الغمام». [الآية / ٥٧]

٦ ـ قوله تعالى:

«ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة». [الآية / ٦٣]

٧ ـ قوله تعالى:

«ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين». [الآية / ٦٥]

٨ ـ قوله تعالى:

«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون». [الآية / ٥٣]

٩ ـ قوله تعالى:

«فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى». [الآية / ٧٣]

١٠ ـ قوله تعالى:

«ألم تر إلى الّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم». [الآية / ٢٤٣]

١١ ـ قوله تعالى:

«أو كالّذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه». [الآية / ٢٥٩]

١٢ ـ قوله تعالى:

«وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى... ثمّ ادعهُنّ يأتينك سعياً». [الآية / ٢٦٠]

فهذه الآيات المعجزات المذكورة في هذه السورة المباركة في القرآن وغيرها في غير هذه السورة أثبتها القرآن وأسندها إلى الأنبياء، نوح وموسى وعيسى ونبيّنا وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدم بعض الكلام في معنى الإعجاز وحقيقته في قوله تعالى: «وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله» [البقرة (٢) / ٢٣]

ونرى ونشهد قديماً وحديثاً من أهل الريبة والشك يرمون الرّوايات المشتملة على الإعجاز بالضعف والجعل وبالنسبة إلى الآيات القرآنيّة سيّما المتشبهين منهم بالعلماء والمتحلين للدّين فتحوا باب التأويل مثلاً في نزول الملك وحقيقة الوحي وأمثال ذلك من الحقائق الدينيّة والظواهر الشرعيّة مع الهمز واللّمز على حملة الفقه

وحماة الدين، فهم ملبّسون مقاصدهم الفاسدة على ضعفاء الناس والدارسين بعبارات معجبة مزيّنة ويعدّون أنفسهم من الراسخين في العلم والمعرفة ويحسبون أنّهم يحسنون فسوف يعلمون.

ومن الناس من اعتمد في نفسه على العلوم الطبيعيّة الواقعة على السطح المشهود بالتجربة والعيان وحصر العلم والمعرفة فيها ولم يدر أنّ الحكم بالحصر على الحس ليس محسوساً وأنّ الحسّ من جملة المدارك العلميّة وهو متّكٍ ومعتمد أيضاً في إدراكه على العلم؛ فلولا الشعور الواقعي في وجود الإنسان كالغافل والنائم والسكران لما يدرك بحسّه شيئاً ولما يقدر على تنظيم أداة المدارك الحسيّة، ولم يتمكّن من الحكم الّذي هو بالعقل والإدراك فليس للجاهل على العالم حجّة فهؤلاء بين مفرط ومفرّط وباغٍ وعادٍ.

فالفريق الأولّ قد أفرطوا وبغوا وزعموا أنّ ماهو الحاصل لهم من طريق البرهان والرياضات هو عين الحقّ وقد اختلفوا في مسألة واحدة على أقوال يطعن بعضهم بعضاً وعلومهم في معرض التحوّل قرناً بعد قرن والمنصفون من الكشفيين يقولون: إنّ المعارف الحاصلة بحسب الرياضات والشهود فلابد من عرضها على على الكتاب والسنّة لأنّ المكاشفات إمّا شيطانيّة أو رحمانيّة.

قال المحقّق الإلهيّ القمشي (قده) في تعليقته على تمهيد القواعد /٣٨: طائفة من الصوفيّة قد ذهبت... ولعلّهم يسندون ذلك (القول) إلى مكاشفاتهم ويلزمهم نفي الشرائع والملل وإنزال الكتب وإرسال الرسل ويكذّبهم الحسّ والعقل كما عرفت، وهذا إمّا من غلبة حكم الوحدة عليهم وإمّا من مداخلة الشيطان في مكاشفاتهم.

فعلى هذا فأيّ وجه وعذر لهم في تأويل صريح كلام الغير من عند أنفسهم. مثلاً أيّ دليل لهم على تأويل الملك بتجسّم خيال الرسول وأيّ معنىً معقول لتأويل النار وعذابها والجنّة ونعيمها بالمثال المنفصل.

والفريق الثاني قد فرّطوا وعادوا بحصرهم العلم والمعرفة في الحسّ والتجربة فقط فلذا ترونهم يؤولون أكثر المعارف العالية الإلهيّة الحقّة الّتي ليس للحسّ والتجربة إليها سبيل من عند أنفسهم بما لايرضى به مَن له أدنى إيمانٍ بالشرائع الإلهيّة.

قوله تعالى: «ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة...»

قال في لسان العرب ١٥/١٨٠: القسوة: الصلابة في كلّ شيء و... وقال أبو إسحق في قوله تعالى: «ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك» فتأويل قست في اللّغة غلظت ويبست وعست.

أقول: الخطاب لبني إسرائيل الّذين رأوا الآيات وشاهدوا المعجزات أو الّذين في عصر النزول. والظاهر هو الأوّل. ويدخل فيهم من تبعهم ومن يجري مجراهم فبالمآل يكون الخطاب عامّا لأوائلهم وأواخرهم. وفي التعبير بثمّ دلالة على عروض القسوة بعد شهود الآيات وتكميل الحجج وانقطاع الأعذار فهي على حدّ قوله تعالى:

«فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية». [المائدة (٥) / ١٣]

و «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين». [الزمر (٣٩) / ٢٢]

فالمراد من القسوة في الآيات الكريمة هو سلب أنوار الهداية والمعارف والتوحيد وسائر الكمالات. وبعدما تبيّنت الهدايات وقامت الحجج والبيّنات عندهم استخفّوا وظلموا بها ولما قاموا بوظيفة العلم والمعرفة من الوجوب الضروريّ الأكيد بالامتثال والانقياد والخضوع والاستكانة بساحته تعالى وحسن الاستماع لأولياء الله تعالى من المصطفين والمقرّبين. فبناءً على ماذكرنا فقد استعمل القسوة في الآيات الكريمة في معناها اللّغوي.

فخلاصة القول: إنّ أدنى مراتب القسوة هو فقدان الإنسان روح العاطفة والوداد والترحّم على الضعفاء وغيرها يرجع عند التحليل إلى فقدان إدراك تلك الفضائل أو نقص في إدراكها أو فقدان إدراك العمل بتلك الفضائل والقيام والاتّصاف به.

فتحصّل أنّ القساوة هي سلب الكمالات والهداية من قلب العبد بسوء فعله وجزاءً لمعصيته وعقوبة على كفره وكذلك يجعل الله الرجس على الّذين لايعقلون.

إن قلت: إنّ وجه الشبه بين صلابة القلوب والأحجار هو عدم تأثر الأحجار مما يرد عليها وعدم تأثّر القلوب ممّا يساق إليها من المواعظ والحكم والنذر.

قلت: عدم تأثّر القلوب القاسية من الحكم والنذر حقّ لاريب فيه وهو من أوضح مصاديق القساوة إلّا أنّ الظاهر من الآية تشبيه القلوب بالأحجار من حيث

الصدور والفيض وهو الأنسب بالمقام، فإنّ اليهود هم المتظاهرون بـالديانة وبـعض منهم منتحلون لمقام الولاية والقداسة فلو كان الأمر كما ادّعوا وانتحلوا فأين أنوارهم، إن هم إلّا كمثل الحمار يحمل أسفاراً. فبالحقيقة عدم صدور الخيرات من قلوبهم دليل قطعي على عدم ورود الحكم والمواعظ والحقائق على قلوبهم فلاتكون مصدراً للحقّ ولا منبعاً للفيض ولا مورداً لها أيضاً فإنّ لكلّ دعوىً بيّنة وبيّنة دعوى الايمان هو العمل الصالح.

ووجه مزيّة الأحجار على القلوب القاسية أنّ من الحجارة مايكون مجاري الخيرات الكثيرة بحيث ينفجر منها الأنهار والعيون الكبار بدفع وشدّة، ومنها تترشّح المياه بعد انشقاقها، ومنها مايهبط من خشية الله تواضعاً لسلطانه وخضوعاً لجلاله وكبريائه؛ فما المناسبة بين هذه الأحجار والقلوب القاسية. والشاهد على ذلك أنّ الكلام متوجّه على الّذين يدّعون مقام القداسة ولايقبلون سيّد رسل الله تعالى وأكبر سفرائه صلّى الله عليه وآله ولا يأذنون له بالدخول في حريم التوحيد.

فيظهر ممّا ذكرنا أنّ وجه الشبه هو حيث صدور الخيرات والبركات لاصلابة الأحجار ولينة الماء.

قوله تعالى: «وإنّ منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عمّا تعملون». (٧٤)

الخشية هو الخوف والظاهر أنّ الخوف أعم منها فـإنّ الخشـية لاتـتحقق إلّا بالعلم والشعور والتوجّه الأكيد والخوف يتحقق من الحيوانات أيضاً.

إن قلت: فأيّ مانع أن يقال: إنّ سقوط الأحجار مستند إلى العلل الطبيعيّة مثل الزلازل والصواعق وأنّ هبوط الحجارة وتأثّرها وانفعالها من أسبابها الخاصّة المنتهية إلى الله تعالى انفعال من أمره تعالى وهي شاعرة شعوراً تكوينيّاً لأمر ربّها.

قلت: فيه أوّلاً، إنّ إثبات الشيء لا ينافي ثبوت ماعداه. وثـانياً، الظـاهر أنّ الخشية هو العلم المقرون بالخشوع. وثالثاً، كون النظام الجاري في العالم مستنداً إلى نظام العلّيّة والمعلوليّة على سبيل الايجاب ينافي البراهين الإلهيّة القائمة على تـوحّده تعالى بالخالقيّة بالقدرة والإرادة والاختيار. والآيات الكريمة نـاظرة إلى ذلك لا إلى نظام العلّيّة والمعلوليّة، قال تعالى:

«وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير وكنّا فاعلين». [الأنبياء (٢١) / ٧٩]

و«ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السّموات والأرض والطّير صافّات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون». [النور (٢٤) / ٤١]

و«إن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم». [الإسراء (١٧) / ٤٤]

و«ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته». [الرعد (١٣) / ١٣]

و«يسبّح لله ما في السّموات وما في الأرض». [الجمعة (٦٢) / ١، والتغابن (٦٤) / ١]

في البحار ٣٧/٤٦، عن مناقب ابن شهرآشوب، عن كتاب الإرشاد للزهري قال سعيد بن المسيّب:

كان الناس لايخرجون من مكّة حتّى يخرج علي بن الحسين عليهما السّلام فخرج وخرجت معه فنزل في بعض المنازل فصلّى ركعتين سبّح في سجوده فلم يبق شجر ولا مدر إلّا سبّح معه، ففزعت منه فرفع رأسه فقال: ياسعيد أفزعت؟ قلت: نعم يابن رسول الله، قال: هذا التسبيح الأعظم.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

الآيات الكريمة تقريع وتوبيخ لليهود الحاضرين عصر النزول من حيث خيانتهم للحق ومعاداتهم لما يعلمون ويستنفرون من صريح الصدق. فصرف الخطاب عنهم وتوجيهه نحو الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله لبيان سوء سرائرهم وإذعانهم وإقرارهم مع ما هم عليه من المعاندة لصريح الصدق وتحريف الحق والخيانة عليه. فإنّهم بتحريفهم العلوم الحقّة يخونون أهل العالم ويجعلونهم في ظلمة عمياء على تعمد منهم وعرفان كامل وتثبيت تامّ منهم، يرثون هذه الخيانة خلفاً عن سلف وقد رسخت هذه الرذيلة في طباعهم واستحكمت في غرائزهم فكيف الرجاء منهم أن يذعنوا لما أوحينا إليك من النور المبين.

وفي التعبير بصيغة الجمع دلالة على أنّ هذا التكريم والتشريف يشمل النبي صلّى الله عليه وآله والحماة من رجال الحقّ من أوليائه الناصرين له صلّى الله عليه وآله في دعوته وإعلاء كلمته المصرّين الملحّين على إيمان الناس مع شدّة الشوق والحرص الأكيد منهم على ذلك.

وكذلك توبيخ لليهود واحتجاج عليهم وتأكيد للحجّة والبلاغ الصريح في مقام الدّعوة وكشف سرائرهم وذمّهم على عاداتهم الخبيثة ورذائلهم الفاسدة.

وليس معنى الخطاب وسياقه أنّ الله تعالى سجّل عليهم الضّلال وختم بهم الشقاء وعزم عليهم الكفر كي يصير أولياؤه الدّاعون آيسين قانطين من إيمانهم فإنّهم إذا تابوا عن كفرهم يتوب الله عليهم بقبوله توبتهم وإن عادوا عن خيانتهم وجنايتهم يعود الله عليهم بفضله وإحسانه.

قوله تعالى: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم»

قطب الخطاب ومركزه الذي يدور عليه الكلام هو شخصه صلّى الله عليه وآله. وشمول الكلام في طول الخطاب له صلّى الله عليه وآله وبوساطته للمؤمنين والموحّدين والناصرين له صلّى الله عليه وآله لا إشكال فيه.

قوله تعالى: «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون». (٧٥)

الظاهر من جميع الأدلّة من الآيات في هذه السورة وفي غيرها من الآيات والروايات والتواريخ أنّ ديدن اليهود من أوّل الأمر التحريف والتغيير والتأويل لدين الله وكلماته العليا في عصر النزول وقبله.

توضيح ذلك: إنّ التوراة المنزّلة المكتوبة من قبل الله تعالى ليست في أيدي غير الأنبياء وأوصيائهم فستحيل أن تتلاعب أيدي المتهوّسين من الفراعنة والجبابرة وأتباعهم فيها، فهي مصونة ومحفوظة من أن يمسّها إلّا المطهّرون. فهي بحسب الروايات الكثيرة عن أئمّة أهل البيت صلوات الله عليهم ورثها الأوصياء المستحفظون كابراً بعد كابر حتّى انتقلت مع غيرها من ذخائر الأنبياء ومواريثهم إلى نبيّنا صلّى الله عليه وآله ومنه إلى أوصيائه القائمين مقامه.

وظاهر الآيات وصريح الرّوايات أنّ التوراة نزلت مكتوبة على الألواح لا أنّ

حقائقها ومعارفها نزلت على موسى وكتبها موسى على الألواح. وكانت هذه التوراة عند موسى وأودعها عند وصيّه وورثها رهط بعد رهط حتّى انتقلت إلى نبيّنا صلّى الله عليه وآله ومنه إلى أوصيائه.

وفي بعض الرّوايات أنّ موسى أودعها في صخرة حتى انتقلت إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، فلاتعارض بين الروايات من هذه الجهة ضرورة أنّه لا منافاة بين المثبتات وإنّما التنافي بين المثبت والنافي، وإن كانت الروايات الدالّة على أنّها كانت عند الأنبياء من بني إسرائيل يتبرّكون بها في الشدائد والمهامّ وهي في التابوت مع عصا موسى، الأرجح والأكثر.

في معاني الأخبار ٢٨٢/، عن محمد بن الحسن مسنداً عن يونس بن عبدالرحمن، عن أبي الحسن عليه السّلام قال:

سألته فقلت: جعلت فداك ماكان تابوت موسى؟ وما كان سعته؟ قال: ثلاثة أذرع في ذراعين، قلت: ما كان فيه؟ قال: عصا موسى والسكينة....

وفي تفسير القمي ٨١/١، مسنداً عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السّلام:

إنّ بني إسرائيل بعد موسى عملوا بالمعاصي وغيّروا دين الله وعتوا عن أمر ربّهم... وكان التابوت الّذي أنزله الله على موسى فوضعته فيه أمّه وألقته في اليمّ، فكان في بني إسرائيل معظّماً يتبرّكون به فلمّا حضرت موسى الوفاة وضع فيه الألواح وما كان عنده من آيات النبوّة وأودعه يوشع وصيّه فلم يزل التابوت بينهم حتّى استخفّوا به، وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عزّ وشرف مادام التابوت عندهم، فلمّا عملوا بالمعاصي واستخفّوا بالتابوت رفعه الله عنهم فلمّا سألوا النبي وبعث الله طالوت عليهم يقاتل معهم ردّ الله عليهم التابوت....

وفي البحار ١٨٣/٢٦، عن البصائر، عن أيّوب بن نوح مسنداً عن ضريس الكناسي قال:

كنت عند أبي عبدالله عليه السّلام وعنده أبو بصير فقال أبو عبدالله

عليه السّلام إنّ داود ورث الأنبياء، وإن سليمان ورث داود وإنّ محمّداً ورث سليمان وما هناك، وأنّا ورثنا محمداً صلّى الله عليه وآله وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى.

وفيه /١٨٤، عنه أيضاً، عن محمد بن عبدالجبّار مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

قال لي: يا أبا محمد إنّ الله لم يعط الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطاه محمداً، وقد أعطى محمداً جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصحف الّتي قال الله : «صحف إبراهيم وموسى» [الأعلى (٨٧) / ١٩] قلت: جعلت فداك وهي الألواح؟ قال: نعم.

وفيه أيضاً عنه، عن أحمد بن محمد مسنداً عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السّلام:

أنّه سأله عن قول الله تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر» [الأنبياء (٢١) / ١٠٥] ما الذكر وما الزبور؟ قال: الذكر عند الله، والزبور الّذي نزل على داود وكلّ كتاب نزل فهو عند العالم.

وفيه أيضاً عنه، عن عليّ بن خالد مسنداً عن ليث المرادي أنّه حدّثه عن سدير بحديث فأتيته فقلت: إنّ ليث المرادي حدّثني عنك بحديث فقال: وماهو؟ قلت: جعلت فداك حديث اليماني قال:

كنت عند أبي جعفر عليه السّلام فمرّ بنا رجل من أهل اليمن فسأله أبو جعفر عليه السّلام عن اليمن فأقبل يحدّث فقال له أبو جعفر عليه السّلام: هل تعرف دار كذا وكذا؟ قال: نعم ورأيتها، قال: فقال له أبو جعفر عليه السّلام: هل تعرف صخرة عندها في موضع كذا؟ قال: نعم ورأيتها، فقال الرّجل: ما رأيت رجلاً أعرف بالبلاد منك.

فلمّا قام الرّجل قال لي أبو جعفر عليه السّلام: يا أبا الفضل تلك الصخرة الّتي حيث غضب موسى عليه السّلام فألقى الألواح فما ذهب من التوراة التقمته الصخرة، فلمّا بعث الله رسوله أدّته إليه وهي عندنا.

وفيه /١٨٥ عنه أيضاً، عن أحمد بن محمّد مسنداً عن أبي بصير قال:

قال أبو عبدالله عليه السّلام: يا أبا محمد عندنا الصحف الّتي قال الله: «صحف إبراهيم وموسى» قلت: الصحف هي الألواح؟ قال: نعم.

وفي التوحيد /٢٧٥، مسنداً عن هشام بن الحكم عن أبي عبدالله عليه السّلام:

... فقال بريهة: جعلت فداك أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟ قال: هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرؤوها ونقولها كما قالوها، إنّ الله لايجعل حجّة في أرضه يُسأل عن شيء فيقول: لا أدري....

فخلاصة القول أنّه لا كلام في أنّ التوراة الّتي أنزلت في الألواح والصحف باقية بشخصها وعينها وإنّما الكلام في أنّ التوراة الباقية عند اليهود والدائرة بينهم هل ارتفعت من بينهم بالكليّة وحرّفت وبدّلت أم لا؟

فنقول: أمّا التوراة الدائرة عندهم والّتي عليها مدار شرعهم ونحلتهم في عصر نزول القرآن وقبله وبعده إلى الآن فالظاهر أنّه لا شكّ في تحريفها على أهوائهم وهوساتهم وفق أغراضهم الشخصية وحسب ميول المتسلطين والمتنفّذين. وأمّا ارتفاعها كلّها من بينهم بعد موسى إلى زمان الرسول صلّى الله عليه وآله فيمكن أن يقال ببقائها عند بعض العلماء المؤمنين بالرسول صلّى الله عليه وآله باطناً والمخفين إيمانهم تقيّة. وأمّا بعد تقوية الإسلام ورفع التقيّة لاسبيل لنا إلى نفيه وإثباته.

قوله تعالى: «وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربّكم أفلا تعقلون». (٧٦)

هل المراد من الفريق الّذين أظهروا الإسلام عند المؤمنين هم المنافقون الّذين هم عيون على المسلمين أو الّذين تمايلوا إلى الإسلام واقعاً من عوامهم البسطاء وأظهروا بعضاً ممّا سمعوا فيما بينهم من نعوته صلّى الله عليه وآله؟ الظاهر هو الثاني فإنّ كبراءهم نهوهم عن هذا التسالم منهم عند المسلمين بأنّه يلزم من هذا التسالم تقوية حجج المسلمين وضعف حجج اليهود وتكونون محاججين عند الله ولايكون لكم عذر عنده. وهذا النهي منهم يدلّ على شدّة عنادهم ولجاجهم مع اعترافهم أنّهم محاججون عند الله ينهون عن الإيمان وإظهار الحقّ ببيان نعوت النّبي صلّى الله عليه وآله.

قوله تعالى: «أولا يعلمون أنّ الله يعلم مايسرّون وما يعلنون». (٧٧)

هذا ردّ من الله عليهم، فإنّ كتمان الأمر والحكوميّة عن المؤمنين لاينفعهم عند الله لأنّ الله تعالى يعلم مايسرّون وما يعلنون، فكتمان مايبطل حججهم وإظهاره عند الله سواء. ويمكن أن يقال: إنّه توبيخ وردّ منه تعالى بالنسبة إلى جميع سيّئاتهم من تحريف الكتاب وسدّ سبيل الناس ونهيهم الأكيد عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وآله وكتمان خيانتهم عن الله.

قوله تعالى: «ومنهم أميّون لايعلمون الكتاب إلّا أمانيّ وإن هم إلّا يظنّون». (٧٨)

هؤلاء فريق آخر من اليهود وهم الأميّون الّذين لم يكتسبوا علماً ليقدروا به على الكتابة والقراءة وهم بسيطون كما ولدتهم أمّهاتهم وما علمهم بالكتاب إلّا على نحو الأماني. والأماني ليست القراءة فإنّ الأمّي المحض لايقدر على القراءة، والظاهر من موارد استعمالات هذا اللفظ في الآيات والأخبار أنّها المشتهيات والهوسات الّتي يريد صاحبها ثبوتها وتحقّقها حبّاً لها وتعصّباً. وهذه الهوسات تُعميه وتُصمّه عن إحقاق الحقّ وإبطال الباطل كما في قوله تعالى:

«ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً». [النساء (٤) / ١٢٣]

و«وقالوا لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين». [البقرة (٢) / ١١١]

و«ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور». [الحديد (٥٧) / ١٤]

قال في مجمع البيان ١٤٥/١: وقيل أمانيّ يتخرّصون الكذب ويقولون الباطل. والتمنّي في هذا الموضع هو تخلّق الكذب وتخرّصه.

وقال في المنار ٣٥٩/١: وفسّر بعضهم الأمانيّ بالأكاذيب ابتداءً.

وقال في الميزان ٢١٨/١: والأماني جمع أمنيّة وهي الأكاذيب.

أقول: هذه الأقوال لاتناسب المقام ولا تساعدها الموارد الّتي يستعمل فيها هذا اللّفظ بل الأنسب في المقام هو ما ذكرناه.

ويؤيّده ما في تفسير القمي ١٤٦/١، مسنداً عن حفص بن غياث قال:

قال أبو عبدالله عليه السّلام: ... ثمّ تلا قوله: «تلك الدار الآخرة» الآية [القصص (٢٨) / ٨٣] وجعل يبكي ويقول ذهبت والله الأمانيّ عند هذه الآية....

قال في المنار ٣٥٩/١: ثمّ إنّ الآية تدلّ على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه وقد مضى على هذا إجماع الصدر الأوّل وأهل القرون الثلاثة وإنّما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها والأحكام بروايتها ولا يتقلّد رأيه كيف ما كان.

أقول: هذا ليس من باب التقليد بشيء؛ أمّا في الأحكام فواضح، ضرورة أنّ عوام اليهود ما قلّدوهم في باب العمل بالأحكام ولو كانت كذباً وكذلك في أصول الدّين فإنّهم لايخبرون بأصول الدّين كي يتّبعهم عوام اليهود ويقلّدوهم فيها بل الآية في مقام توبيخهم وتقريعهم على شدّة عنادهم وإبطال أصول أديانهم وقرعهم الله وشنّع عليهم بأنّ علماءهم ورهبانهم قد تلاعبوا بأمر الدّين وحرّفوا كلام الله بعد ماعقلوه ومع العلم بحقانيّة الكتاب وما فيه. وقد جدّوا وأصرّوا غايته أن يطفئوا ويبطلوا كلمة الله العليا وأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، فهم من أكبر المعاندين لله وأشد الكافرين كفراً به وتوحيده.

قوله تعالى: «فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً».

قال في لسان العرب ٧٣٧/١١: ويل، كلمة مثل ويح إلّا أنّها كلمة عذاب... والويل حلول الشرّ والويلة الفضيحة والبليّة.

قال في التبيان ٣٢٢/١: وروي عن أبي جعفر عليه السّلام وذكره جماعة من أهل التأويل أنّ أحبار اليهود كانت غيّرت صفة النبي صلّى الله عليه وآله ليوقعوا الشكّ للمستضعفين من اليهود.

وقال في مجمع البيان ١٤٦/١: وقيل كانت صفته في التوراة «أسْمَر رَبْعَة» فجعلوه «آدم طويلاً». وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال: إنّ أحبار اليهود وجدوا صفة النبي صلّى الله عليه وآله مكتوبة في التوراة «أكحل أعين رَبْعَة حسن الوجه»

فمحوه من التوراة حسداً وبغياً فأتاهم نفر من قريش فقالوا: أتجدون في التوراة نبيّاً منّا قالوا: نعم، نجده طويلاً أزرق، سبط الشعر. ذكره الواحدي بإسناده في الوسيط.

أقول: الآية الكريمة فيها دلالة وشهادة على أنّ أحبار اليهود كانوا يغيّرون صفة النّبي صلّى الله عليه وآله لايجاد التشكيك والارتياب عند العوام وليبق لهم ماكـانوا يأكلون منهم بالاستثمار بكل مايتمكّنون.

في مجمع البيان ٩٥/١: وقوله «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» روي عـن أبي جعفر عليه السّلام في هذه الآية قال:

كان حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود لهم مأكلة على اليهود في كلّ سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي صلّى الله عليه وآله فحرّفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره فذلك الثمن الّذي أريد في الآية.

قوله تعالى: «فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون». (٧٩)

دعاء عليهم بما يختانون من التغيير والتبديل والتحريف والكذب بحلول الشرّ والبلايا والعذاب من الله سبحانه على ساحتهم.

قوله تعالى: «وقالوا لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودة قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون». (٨٠)

ليس المراد من المسّ هو الوقوع في النّار بل المتعارف من المسّ في كثير من آيات القرآن ما هو الظاهر في موارد استعماله مثل مسّ الضر والمرض والجوع. وكيف كان فلا دليل على قولهم: «لن تمسّنا النار...» بحسب العقل والنقل. وأبطل الله تعالى ذلك القول منهم بقوله: «قل أتّخذتم عند الله عهداً...» فإنّه لاعلم لكم بما تـقولون وليس إلّا جزافاً من القول وتخرّصاً وكذبا.

قوله تعالى: «بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». (٨١)

بلى، ردّ على ما قالت اليهود من قولهم: «لن تمسّنا النار...» وصرّح به في مجمع البيان ١٤٨/١، وآلاء الرحمن / ١٠٣.

أقول: الكسب عبارة عن تحصيل المال بعناية إليه إلى مجاريه وكيفيّته مع إهمال

الدقّة والجزم اللّائق في المقام، وفيه إشعار أنّ ارتكاب الذنوب واغتراف المعاصي ليس أمراً صدفياً وقهرياً وبلا عمد إليها وبدون شعور واختيار لها وبدون إعمال الحيل والمشاقّ في الوصول إليها كما في المورد وأعمال اليهود فإنّ السعي إلى إطفاء نور الله وإبطال كلمته يحتاج إلى عناية أكيدة وعزم شديد.

والسيّئة من ساء، يسُوء ما يقابل الحسن ثمّ توسع فيه واستعمل في كلّ أمر غير ملائم للطبع ومنافر له. لا أقول إنّه استعمل فيه مجازاً بل بعناية معناه اللّغوي أينما وجد، قال تعالى:

«وبلوناهم بالحسنات والسيّئات لعلّهم يرجعون». [الأعراف (٧) / ١٦٨]

و «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئة يطيّروا بموسى ومن معه». [الأعراف (٧) / ١٣١]

قال في لسان العرب ٩٥/١: ساءه يسوؤه سَوءاً وسُوءاً وسَواءً وسَواءةً وسَوايةً وسَوائيةً ومَساءةً ومَسايةً ومساءً ومسائيةً: فعل به مايكره نقيض سرّه... ساء الشيء يسوء سوءاً فهو سيّئٌ إذ أقبح... وأساء الشيء: أفسده ولم يحسن عمله... والسيّئة: الخطيئة.

وفيه أيضاً ٦٦/١: خَطِئَ الرجل يخطأ خِطأً وخِطأةً ـ على فِعْلة ـ: أذنب... والخطيئة: الذنب على عمد والخِطْءُ: الذّنب وفي قوله تعالى: «إنّ قتلهم كان خِطأً كبيراً» أي إثماً.

أقول: إن كانت الآية رداً على ما زعمته اليهود من أنّهم مع سيّئاتهم الّتي هي من أعظم الكفر لن تمسّهم النار فتكون قرينة قطعية على أنّ المراد من السيّئة والخطيئة هو الكفر مطلقاً فهذه السيّئة الّتي هي أمّ السيّئات يستحقّ صاحبها من الله العدل المنتقم أن يحرمه من جميع ما يتمنّاه، فهذه السيّئة هي الشقاء المحض محيط بصاحبه وبجميع ما أتى به من القربات فلن يقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً.

قال في المنار ٣٦٣/١: وقال الأستاذ: للسيّئة هنا إطلاقها... ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب ووجدانه كأنه محبوس فيها لايجد لنفسه مخرجاً منها. يرى نفسه حرًّا مطلقا وهو أسير الشهوات سجين الموبقات،

ورهين الظلمات وإنّما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب والتمادي على الإصرار... لمثل هذا كان السلف يقولون: المعاصي بريد الكفر.

أقول فيه: إنّ ماذكره مفاد الآيات الكثيرة والأدلّة القطعيّة وأمّا الآية محلّ البحث فهي أجنبيّة عمّا ذكره، وإطلاق السيّئة إطلاق بدلي والقرائن القطعيّة قيّدها بما ارتكبه اليهود من كفرهم الصريح.

قال في الميزان ٢١٨/١: الخطيئة هي الحالة الحاصلة للنفس من كسب السيّئة.

وفيه أنّ الخطيئة في الآية الكريمة هو الكفر ولا شاهد ولا دليل لتفسيرها بالحالة النفسانية.

قوله تعالى: «هم فيها خالدون». (٨٢)

بيان: الآيات الكثيرة والرّوايات القطعيّة الدالّة على خلود الكفّار في النّار تغنينا عن تجشّم الاستدلال العقلي عليه.

قال الرازي في تفسيره ١٤٤/٣: واختلف أهل القبلة في وعيد أصحاب الكبائر، فن الناس من قطع بوعيدهم وهم فريقان: منهم من أثبت الوعيد المؤبّد وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج... أمّا المعتزلة فإنّهم عوّلوا على العمومات الواردة في هذا الباب.

أقول: الإطلاقات والعمومات الدّالّة على خلود أهل الكبائر من المؤمنين في النار في معرض التقييد والتخصيص وقد قيّدت بالقيود الشرعيّة من الكتاب والسنّة فعلى هذا لايمكن القول بخلودهم في النّار.

في التوحيد ٤٠٧/، عن أحمد بن زياد مسنداً عن محمد بن أبي عمير قال:

سمعت موسى بن جعفر عليهما السّلام يقول: لايخلّد الله في النار إلّا أهل الكفر والجحود وأهل الضلال والشرك، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يُسأل عن الصغائر، قال الله تبارك وتعالى: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً» [النساء (٤) / ٣١] قال: فقلت له: يا ابن رسول الله فالشفاعة لمن تجب من المذنبين؟ قال: حدّثني أبي، عن آبائه، عن علي عليه السّلام قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من

أمّتي، فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل.

قال ابن أبي عمير: فقلت له: يا ابن رسول الله فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى ذكره يقول: «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» [الأنبياء (٢١) / ٢٨] ومن يرتكب الكبائر لايكون مرتضىً. فقال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه، وقد قال النبي صلّى الله عليه وآله: كفى بالندم توبة. وقال عليه السّلام: من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن؛ فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً والله تعالى ذكره يقول: «وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» [المؤمن (٤٠) / ١٨]

فقلت له: يا ابن رسول الله وكيف لايكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا أحمد ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنّه سيعاقب عليها إلّا ندم على ما ارتكب ومتى ندم كان تائباً مستحقّاً للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً والمصرّ لايغفر له لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: لاكبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

وأمّا قول الله عزّ وجلّ: «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى» فإنّهم لايشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه، والدّين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيّئات، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذّنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة.

قال في كشف المراد /٢٦١: أجمع المسلمون كافة على أنّ عذاب الكافر مؤبّد لاينقطع واختلفوا في أصحاب الكبائر من المسلمين فالوعيديّة على أنّه كذلك، وذهبت الإماميّة وطائفة كثيرة من المعتزلة والأشاعرة إلى أنّ عذابه منقطع.

تذكرة: ما يتراءى من كلمات بعض المتصوّفة وبعض الفلاسفة في البحث عن المعاد الجسماني ومعنى الخلود في النار فلايهمّنا التعرض إليه، فإنّ الكلام في الخلود

وعدمه إنّما هو بعد القول بحقانيّة المعاد الجسماني والعذاب الجسماني الّذي من ضروريات الدّين بحسب محكمات الكتاب والسنّة. وهؤلاء المتهوّسون اختلقوا زخرفاً من القول في المعاد الجسماني بتأويلات باردة موهونة، من استحالة المعاد الجسماني. وإيّاك أن تجعل هذه المجازفات ملاكاً في تفسير الآيات الكريمة والروايات المباركة وأصلاً في العقائد الدينيّة. الحكم لله العلي الكبير.

قوله تعالى: «الّذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون». (٨٢)

بيان: قد قدّمنا شرحاً شافياً في معنى الإيمان في تفسير قوله تعالى: «ومن النّاس من يقول آمنّا بالله...» [البقرة (٢) / ٨]، وقلنا: إنّ الإيمان ليس هو الإذعان فقط بل الإيمان كلّه عمل والإذعان أيضاً من جملة ذلك العمل. فعلى هذا إذا كان الإيمان هو العمل كلّه لا سيّما في المقام الّذي سجّل على المؤمنين الجنّة وخلودها فلا محالة تكون الجملة التالية أي قوله تعالى: «وعملوا الصالحات» عطفاً تفسيريًّا، على حدّ قوله تعالى: «الّذين كفروا وكذّبوا بآيات الله».

وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا

مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ
بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: «وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل»

الظّاهر أنّ الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في هذه الآية المباركة هو ما أخذ عنهم بإرسال الكتب وتشريع الشرائع بإبلاغ الرسل فيكون الميثاق تشريعيّاً لاتكوينيّاً. يعني أخذ عليهم الميثاق بما أودع الله في عقولهم من المواهب وبما احتجّ عليهم من الحجج والبراهين البيّنة بالذّات. فإنّ ذلك لاينافي كون الميثاق تشريعيًّا لأنّ كلّ ما بالعرض لابدّ أن ينتهي إلى الأمر الذاتي فلولا البراهين الذاتيّة الفطريّة لما قام

للشرائع أساس. بعبارة أخرى واضحة، لولا ثبوت توحيده تعالى وحقيّة ذاته القدّوس وما يرجع إلى شؤون ذاته وكبريائه من وجوب الإقرار ووجوب التعظيم والتّصديق لذاته الحقّ الواضح ولزوم التسليم لحكمه والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه بالوجوب العقليّ الذاتي لما ثبت قدم لواحد من الأحكام الشرعيّة والأوامر العباديّة.

فالميثاق المأخوذ الّذي هو الشرائع الحقّة في عين كونه أمراً تشريعيًّا لاينافي كون أمّهاته وأساسه أموراً إرشاديّةً غير مجعولة بجعل جاعل وبذلك التذكّر والإرشاد أحياها وأثبتها بعدما كانت مغفول عنها منكره غير معروفه. واحتجّ الله تعالى بها على الأمم واستحكم بها أساس الشرائع وأصول الأديان.

والأخذ من الله تعالى والالتزام من العباد ليس أمراً مجعولاً شرعيًّا بل وجوب الالتزام بهذه الأحكام المجعولة ولزوم التسليم في مقابل هذا الدّين المشروع من قبل الله أمر واقعي وكذا مطالبته تعالى بهذا الالتزام من عباده طبق الحقّ الثابت حسب ربوبيّته ومالكيّته الذاتيّة لاغير، فله الحكم والأمر والنهي وله التشريع وكلّ ذلك بحق مولويّته ومالكيّته الواقعيّة، فظهر أنّ الأخذ من قبله تعالى والالتزام من العباد لهذا الميثاق أمر واقعي وليس بجعل تعبديّ.

قوله تعالى: «لاتعبدون إلّا الله»

أمر وإيجاب بصورة الإخبار وبيان للميثاق ومن مصاديقه البارزة فيقال: توحيده تعالى هو الميثاق المأخوذ على الأمم.

قال في المنار ٣٦٥/١: أقول: وهذا النهي عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى ولم يصرّح به لأنّهم كانوا يعبدون الله وإنّما يخشى عليهم الشرك به كما وقع منهم في بعض الأجيال ومن غيرهم من الشعوب، فالأصل الأوّل لدين الله على ألسنة جميع رسله هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به عبادة أحد سواه من ملك ولا بشر ولا مادونها بدعاء ولا بغيره من أنواع العبادة كما قال: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» فالتوحيد لايحصل إلّا بالجمع بين الأمرين.

أقول: الظاهر أنّ الآية والغرض المسوق له الكلام هو التوحيد يعني انحصار المعبود به تعالى ونفي الأنداد عنه تعالى وخلع الأضداد له وإن كان ذلك مستلزماً بتحريم العبادة لغيره سبحانه لأنّ الآية سيقت لتحريم العبادة لغيره وتدلّ بالاستلزام

على انحصار المعبوديّة به تعالى.

قد تقدم الكلام في معنى العبادة وأنّ المراد منها كلّ ما كانت في صدورها وتحقّقها من الفاعل الحرّ العاقل مستندة إلى أمره تعالى مستقيماً أو بالوسائط البعيدة، فسجود الملائكة لآدم سواء كان باعتبار أنّه عليه السّلام قبلة أو بلحاظ أنّه مقصود بالسجدة عبادة له تعالى بالحقيقة، وكما أن الامتناع عن السجدة لآدم عليه السّلام عصيان لله تعالى بالحقيقة وكذلك الطواف حول الكعبة وتقبيل الحجر ولمسه ومسحه بالأيدي عبادة لله بالحقيقة لا أن يكون خضوعاً للحجر والمدر بالأصالة وهكذا الولاية لأوليائه تعالى والعداوة لأعدائه، وهذا هو التوحيد الخالص ودين الله الّذي ارتضاه لأوليائه وأمنائه فالتكبّر على أوليائه تعالى والتودّد لأعدائه شرك وطاعة بالحقيقة وموالاة لأعدائه تعالى وإطاعتهم اتّخاذ صنم يطاع من دون الله.

قوله تعالى: «وبالوالدين إحساناً»

الجار متعلّق بمحذوف وهو الناصب للإحسان أي، تحسنون بالوالدين إحساناً.

البرّ بالوالدين هو إعمال الوداد وصرف العواطف مطلقاً بحسب الموارد المختلفة وهذا من جملة الفروق المهمّة بين أرباب الشرائع وبين الماديّين، وقد اهتموا بشأن العواطف وإحيائها وتثبيتها وتأكيدها وتنويرها كما أنّهم وعلى العكس اهتموا بتكذيبها وإماتتها والتشكيك فيها. وهل هي أعمال مزاجيّة طبيعيّة وانفعالات نفسانيّة من العادات القوميّة أو أمور واقعيّة وعلم بسيط يعبّر عنه بنور الفطرة؟ الظاهر بحسب الأدلّة وبحسب التذكّر بهذه الحقيقة المقدّسة هو الثاني، فهي من مواهبه تعالى فإنّه تعالى فطر الخلق عليها فيها يتراحمون ويتعاطفون.

والعطف والحنان للوالدين جزاء لإحسانها وبذل جهدهما في تربيته وكفالته أو لأجل الحب الفطري الّذي هو من سننه تعالى قد أكدها القرآن في عدّة آيات:

«وقضى ربّك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكِبَرَ أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما * واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهُما كما ربّياني صغيراً». [الإسراء (١٧) / ٢٣ ـ ٢٤]

ولا ريب أنّ الجدّ في هذا العطف والحنان والعزية الأكيدة في كسبه وتحصيله

مكرمة عقليّة ولاريب أيضاً أنّ الزائد على هذا المقدار فضيلة وكرامة لاتنبغي لأرباب الفضائل وطلّاب المجد والشرافة..

في الصحيفة المباركة السجاديّة في دعائه عليه السّلام لأبويه، قال:

يارب فهما أوجب حقّاً عليّ، وأقدم إحساناً إليّ، وأعظم منّة لديّ من أن أقاصّهما بعدل أو أجازيهما على مثل، أين إذاً يا إلهي طول شغلهما بتربيتي وأين شدّة تعبهما في حراستي وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة عليّ، هيهات مايستوفيان منّي حقّهما ولا إدراك مايجب عليّ لهما...

قوله تعالى: «وذي القربىٰ»

أي قرابات الإنسان من جانب الأب والأمّ، فإنّه قد ورد الحثّ الأكيد على صلة الأرحام والبرّ بهم وذكر في العمل بها آثار وضعيّة مباركة ميمونة وتوعّد على تركها بآثار وضعيّة مشومة، قال تعالى:

«واتّقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً». [النساء (٤) / ١]

و«إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون». [النحل (١٦) / ٩٠]

وفي الكافي ٢/ ١٥٠، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن جميل بن درّاج قال:

سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله جلّ ذكره: «واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً» قال: هي أرحام الناس، إنّ الله عزّ وجلّ أمر بصلتها وعظّمها، ألا ترى أنّه جعلها منه.

وفيه أيضاً /١٥٥، مسند عن أبي بصير عن أبي عبدالله السّلام قال:

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: صلوا أرحامكم ولو بالتسليم يقول الله تبارك وتعالى: «واتّقوا الله الّذي...»

وفيه أيضاً /١٥٦، مسنداً عن الرضا عليه السّلام قال:

إنّ رحم آل محمد ـ الأئمّة عليهم السّلام ـ لمعلّقة بالعرش تقول: اللّهمّ صلّ من وصلني واقطع من قطعني ثمّ هي جارية بعدها في أرحام

المؤمنين، ثمّ تلا هذه الآية: «واتّقوا الله الّذي...»

وفيه أيضاً ١٥١/، عن محمد بن يحيى مسنداً عن أبي حمزة، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

صلة الأرحام تحسن الخلق وتسمّح الكفّ وتطيّب النفس وتزيد في الرزق وتنسئ في الأجل.

وفيه أيضاً ١٥٧/، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن عبدالصمد بن بشير قال:

قال أبو عبدالله عليه السّلام: صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء....

ولا يخفى أنّ الاعتماد والاعتبار في هذا الباب على الأدلّة الشرعيّة القيّمة واستقلال العقل بحسن الإحسان مطلقاً لاسيّما الرحم الماسّة بالإنسان. وممّا ذكرنا يعلم أنّه لا احتياج في إثبات المطلوب التشبّث ببعض الوجوه الاستحسانيّة.

قال في المنار ٣٦٧/١: والأمّة تتألّف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها. وههنا قال الأستاذ كلمة جليلة وهي: من لم يكن له بيت لاتكون له أمّة. وذلك أنّ عاطفة الراحم وداعية التعاون إنّما تكونان على أشدّها وأكملها في الفطرة بين الوالدين والأولاد ثمّ سائر الأقربين فمن فسدت فطرته حتّى لاخير فيه لأهله فأيّ خير يرجى منه للبعداء والأبعدين؟.

أقول: تشكيل أمة فاضلة ذات شرف ومجد وقدرة وعظمة متوقّف على علل وأسباب شتّى، ومن لحاظ الأفراد أفراد صالحة فاضلة علماً وعملاً، مطهّرين من دنس الرذائل ودرن الجرائم سواء كانوا من بيت واحد أو بيوت قريبة أو كانوا من شعوب مختلفة. وهذا الذي ذكره يكذّبه ما جرىٰ من بني أميّة على آل هاشم من قتل وسبي وغارة وإسارة مخدّرات آل الرسول وأطفاله وإهانتهم وسوقهم في البلاد سوق الأسارى، وهكذا من بني العباس على أولاد علي بن أبي طالب كيف قتلوا أولاد علي بالسمّ وسدّوا أبواب العلم على أمّة الإسلام من المعارف والأحكام وكفى بالله خصيماً.

قوله تعالى: «واليتامى والمساكين»

أقول: اليتيم من فقدان الأب في الإنسان والأمّ في غير الإنسان.

قال في لسان العرب ٦٤٥/١٢: اليتيم: الفرد. واليُتْم واليَتَم: فقدان الأب. قال ابن السكّيت: اليُتْمُ في الناس من قبل الأب وفي البهائم من قبل الأمّ. ولا يقال لمن فقد الأمّ من الناس: يتيم، ولكن منقطع.... اللّيث: اليتيم الّذي مات أبوه فهو يتيم حتّى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم. والجمع أيتام ويتامى ويَتَمة.

اليتيم والمسكين اللّذان لايستطيعان حيلة ولا يهتديان سبيلاً عضوان من المجتمع وإهمال أمرهما وترك إصلاح شأنهما إهمال لحقّ المجتمع. فالإهمال لعدّة مهمّة من المجتمع ـ اليتامى والمساكين ـ كي يهلكوا ضياعاً، جناية على المجتمع وخلاف التعاون والتعاطف والتراحم فهي آية السقوط ودليل الانحطاط وإهلاك الفضائل، فأفراد الأمّة كما أنّهم مسؤولون في قبال مصالح المجتمع مسؤولون في كفاية اليتامى والضعفاء أيضاً فإنّها من أهمّ شؤونه، ومسؤولون أيضاً في إحياء العواطف بتحريكها وتثبيتها. فالمتكفّل والمتصدّي لهذا الشأن الخطير مَن عليه أمر الأمّة وتكفّل مصالحها بحسب استحقاقه الواقعي وبحسب شخصيّتها الممتازة من حيث كرائم الأخلاق الّتي يذكّر بها الشارع.

والآية الكريمة تأمر بالإحسان إلى اليتامى والمساكين سواء كان الإحسان فرديًّا أو اجتماعيًّا، وهو القيام بإصلاح شأنهم وحيث ليس كلّ أحد يصلح لكلّ شأن من أمور اليتامى والضعفاء بل هذا بالضرورة مقيّد بقيود فلايجوز لكلّ أحد القيام بكفالتهم والآية الكريمة مطلقة لابدّ من تقييدها بأدلّة أخرى في الباب فلو أبقي على إطلاقه يستلزم إصلاحهم بهذا النحو إفسادهم وإضرارهم.

فتلخّص أنّ البرّ بالوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين وصيّة الله تعالى لعباده وعهده سبحانه إليهم بأعمال العطف والحنان والرحمة في مجتمع البيوت المحيطة بالآباء والأبناء وأوسع منه الأقرباء والأرحام الماسّة بالانسان وأوسع منه يتامى ملّته وضعفاء نحلته ممّا تفردت به الشرائع، وفيه إحياء لفضائل النفس وكرائم الأخلاق وتحكيم الروابط وتثبيت العواطف الّتي جرت عليها سنن الخلقة والتناسل. وأمّا غير أرباب الشرائع فليس في مجتمعهم عاطفة ولا فضيلة وما قاموا بإصلاح اليتامى والضعفاء إلّا من حيث احتياجاتهم الطبيعيّة كما في سائر شؤونهم الطبيعية. فإنّ أمر النسل والتوليد فيهم مع إلغاء جميع العواطف المودعة طبق سنن الخليقة بين الآباء

والأبناء والأمّهات والأقرباء ليس إلّا كأمر الأغنام والأحشام على حسب احتياجاتهم في شؤونهم المختلفة.

قوله تعالى: «وقولوا للنّاس حسناً»

القول هو التكلّم في كلّ مورد يحتاج إليه الإنسان. والمراد بالناس أعمّ من المؤمن والكافر. والحسن والقبح واضح عند العاقل يعرفها وينالها بعقله ولها مراتب إلى أن يبلغ حدّ الوجوب والحرمة فيكون مصداقاً للواجب والحرام. قال تعالى:

«ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً». [فصّلت(٤١)/٣٣]

فبما ذكرنا من العموم بحسب الموضوع والإطلاق بحسب المتعلّق تسقط الأقوال المذكورة في المقام.

قال في مجمع البيان ١٥٠/١: قيل هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن سفيان الثوري.

أقول: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كلّ أحد بالنسبة إلى كلّ أحد ولاسيّما من المؤمنين بالنسبة إلى الكافرين لاتحصّل له ضرورة أنّ قوله تعالى: «حسناً» سواء كان نكرة أو جنساً له إطلاق بدليّ فلامعنى للأخذ بالعموم في التكليف فيه.

وقال في التبيان ٣٣٠/١: وقال ابن جريج: «قولوا للناس حسناً» أي صدقاً في شأن محمّد صلّى الله عليه وآله. قال ابن عباس: يأمرون بأن لا إله إلّا الله... قال: والحُسن أيضاً من لين القول من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم.

أقول: كلّ واحد من الأقوال ناظرة إلى تعيين شيء من الحسن وهو خلاف ما ذكرناه من الإطلاق البدلي في الحسن.

والرّوايات الواردة في هذا الباب بيان لشيء من مصاديق قوله تعالى: «حسناً» وأمّا الإحسان العملي فلايجوز الاستدلال عليه بهذه الآية الكريمة.

في تفسير العياشي ٤٨/١، عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سمعته يقول:

اتّقوا الله ولا تحملوا الناس على أكتافكم إنّ الله يقول في كتابه: «وقولوا للنّاس حسناً» قال: وعودوا مرضاهم واشهدوا جنائزهم وصلّوا معهم

في مساجدهم...

وفي الكافي ١٦٤/٢، عن العدّة مسنداً عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السّلام في هذه الآية قال:

قولوا للنّاس حسناً ولا تقولوا إلّا خيراً حتّى تعلموا ماهو.

وفيه أيضاً /١٦٥، عن العدّة مسنداً عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر عليه السّلام قال في هذه الآية:

قولوا للنّاس أحسن ماتحبّون أن يقال فيكم.

وفي البحار ٤٠١/٧٥، عن تفسير الإمام، قوله عزّ وجلّ: «وقولوا للناس حسناً» قال الصادق عليه السّلام:

«قولوا للناس حسناً» أي للنّاس كلّهم، مؤمنهم ومخالفهم أمّا المؤمنون فيبسط لهم وجهه وأمّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الايمان فإنّه بأيسر من ذلك يكفّ شرورهم عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين....

قد يستفاد من الرواية الأولى أنّ الإمام عليه السّلام قد أفاد في باب المعاشرات أزيد ممّا تدلّ عليه الآية الكريمة فيقتصر في ذلك على الأمور الموجودة في الروايات.

قوله تعالى: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»

عطف على قوله تعالى: «لاتعبدون إلّا الله...»

قوله تعالى: «ثمّ تولّيتم إلّا قليلاً منكم وأنتم معرضون». (٨٣)

الظاهر أنّ «ثمّ» للتراخي رتبةً لا زماناً فإنّ الحقائق الزمانيّة وإن كانت لاتخلو من الزمان إلّا أنّ الظاهر توبيخهم وتقريعهم على ارتكاب الضدّين وبيان خفّة عقولهم.

و«تولّيتم» أي أعرضتم وخالفتم الميثاق الّذي أخذ الله منكم وكنتم على هداية وعرفان بما تعهّدتم.

قوله تعالى: «وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تشهدون». (٨٤)

قد تقدّم معنى الميثاق في الآية السابقة ونسبة أخذ الميثاق إلى نفسه سبحانه

فيها دلالة وشهادة على أنّ هذا الميثاق إنّما أخذ منهم عند نزول التوارة في زمن موسى عليه السّلام على سبيل التشريع بالوحي وكذلك إقرارهم على ذلك وشهادتهم عليه وتقرّر ذلك بين أظهرهم واجتماعهم.

قوله تعالى: «ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان»

هذا توبيخ لهم وتقريع عليهم لنقضهم الميثاق المأخوذ الجاري بينه تعالى وبينهم، وبقتلهم أنفسهم وإخراج بعضهم بعضاً بشخصه وعيالاته من ديارهم أو إخراج بعضهم من أبنائه وأولاده ويتظاهر بعضهم على بعض من الجنايات القبيحة والعدوان والطغيان الصريح.

قوله تعالى: «وإن يأتوكم أسارىٰ تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم»

عطف على قوله: «لاتسفكون دماءكم». أراد تعالى أنكم تعهّدتم وأخذنا منكم الميثاق أنّه إن جاءكم الأسارى يجب عليكم تخليصهم من الأعداء بالفدية في عين أنّه كان إخراجهم من المجتمع محرّماً عليكم أيضاً.

قوله تعالى: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكرون ببعض»

الظاهر في المقام أنّ سنّة اليهود وسيرتهم الفاسدة الشائعة بينهم أن يأخذوا بالكتاب وأحكامه إذا كان حكم الكتاب مطابقاً وموافقاً لميولهم وهوساتهم وأمّا إذا كان مخالفاً لخياناتهم وجناياتهم كانوا يتركونه ويخالفونه.

فإن قلت: كيف يجوز الجمع بين الإيمان والكفر؟

قلت: ليس المراد من الكفر هو الكفر الإنكاري بل المراد من هذا الكفر هو ترك ما أمر الله به مثل قوله تعالى:

«ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين». [آل عمران (٣) / ٩٧]

ومعنى قوله: «من كفر» أي ترك. كما هو صريح عدّة من الروايات في تفسيره.

في الكافي ٢/٢٩٠، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

... والوجه الرابع من الكفر ترك ما أمر الله عزّ وجلّ به وهو قول الله عزّ وجلّ: «وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم» فكفّرهم بترك ما أمر الله عزّ وجلّ به ونسبهم إلى الايمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال: «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزي في الحيوٰة الدّنيا....».

قوله تعالى: «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزي في الحيوٰة الدّنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب»

الظّاهر أنّه تعالى أراد أن يذكّرهم ويعظهم بالاجتناب عن هذه المفاسد والمعاصي الّتي لاتليق بالأمة الفاضلة، ومن ارتكب شيئاً من ذلك فالله سبحانه يأخذه أخذ عزيز مقتدر ويخزيه ويضلّه في الدّنيا، ويوم القيامة يردّ إلى أشدّ العذاب.

قوله تعالى: «وما الله بغافل عمّا تعملون». (٨٥)

أي، إنّ الله سبحانه لايهمل أمر المجتمع وليس بغافل عمّا يعمل الظالمون في الأرض.

قوله تعالى: «أولئك الّذين اشتروا الحيوٰة الدّنيا بالآخرة فلايخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون». (٨٦)

هذه الآية الكريمة خلاصة في شناعة ما ارتكبه اليهود، حيث نكصوا وتركوا القيام بأمر الميثاق الّذي أخذه الله تعالى منهم، ولم يعرفوا موقعيّة هذا الميثاق بينه تعالى وبينهم من كونه ضروري الوجوب أوّلاً وتأكيده وتشديده بعد الميثاق ثانياً.

قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتاب»

ذكر تعالى رسالة موسى وما جرى بينه وبين بني إسرائيل كما أوضحناه في الآيات المتقدّمة.

قوله تعالى: «وقفّينا من بعده بالرّسل»

أي، أرسلنا بعد موسى رسلاً يعقب بعضهم بعضاً. وفيه دلالة وإشارة إلى أنّه قد جرت سنّته تعالى الفاضلة الحكيمة أن لايخلي الأرض من حجّة بيّنة، نبيًّا كان أو

وصيًّا، قال تعالى:

«ووهبنا له إسحٰق ويعقوب كلّاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كلّ من الصّالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلّاً فضّلنا على العالمين». [الأنعام (٦) / ٨٤_٨٦]

في إقبال / ٦٦٠، في دعاء أمّ داود عن الصّادق عليه السّلام قال:

اللّهمّ صلّ على هابيل وشيث... وموسى وهارون ويوشع وميشا والخضر وذي القرنين ويونس وإلياس واليسع وذي الكفل وطالوت وداود وسليمان وآصف وزكريّا وشعيا ويحيى وتورخ ومتى وإرميا وحيقوق ودانيال وعزير....

قوله تعالىٰ: «وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات»

أي: إنّ عيسى الصدّيق ابن مريم الصديقة المعصومة آتيناه البيّنات حيث تكلّم بعد ساعات يسيرة من ولادته وادّعى النبوّة والرسالة أيضاً في تلك الساعة، قال تعالى:

«قال إنّي عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصّلوٰة والزّكوٰة ما دمتُ حيّاً». [مريم (١٩) / ٣٠_٣١]

وكذلك الآيات الّتي أتى بها في زمن حياته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأرض وغير ذلك، قال تعالى:

«ورسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربّكم أنّي أخلق لكم من الطّين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين». [آل عمران (٣) / ٤٩]

و«إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتورىٰة والإنجيل وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير بإذني

فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات فقال الّذين كفروا منهم إن هذا إلّا سحر مبين». [المائدة (٥) / ١١٠]

قوله تعالى: «وأيّدناه بروح القدس»

أقول: روح القدس عبارة عن العلم المفاض الّذي يكون على نحو خارق للعادة.

في الكافي ٢٧٢/١، عن محمد بن يحيى مسنداً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سألته عن علم العالم، فقال لي:

يا جابر إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح الحياة وروح القوّة وروح الشهوة. فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى، ثمّ قال: يا جابر إنّ هذه الأربعة أرواح يصيبها الحدثان إلّا روح القدس فإنّها لاتلهو ولا تلعب.

وفي البحار ٥٧/٢٥، عن البصائر، عن الحسين بن محمد مسنداً عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخيٌّ عليه ستره فقال:

يا مفضّل إنّ الله تبارك وتعالى جعل للنّبيّ صلّى الله عليه وآله خمسة أرواح: روح الحياة فبه دبّ ودرج، وروح القوّة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه أمر وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوّة. فإذا قبض النّبيّ صلّى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار في الإمام.

وروح القدس لاينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو، والأربعة الأرواح تنام وتلهو وتغفل وتسهو، وروح القدس ثابت يرى به ما في شرق الأرض وغربها وبرّها وبحرها. قلت: جعلت فداك يتناول الإمام ما ببغداد بيده؟ قال: نعم، وما دون العرش.

قد بسطنا الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: «يوم يقوم الرّوح والملائكة صفّا...» [النبأ (٧٨) / ٣٨].

قوله تعالى: «أفكلّما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون». (٨٧)

بيان: الآية الكريمة مسوقة لتشنيع وتقبيح ماجرت عليه سنّة اليهود وسيرتهم الخبيثة بالنسبة إلى موسى ومن بعده من الرسل، فإنّ أنبياءهم إذا جاؤوهم بأحكام ومعارف مما لايوافق أهواءهم وهوساتهم يكذّبونهم ويقتلونهم.

في القمي ١٠٢/١، عن أحمد بن محمد مسنداً عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السّلام في قوله: «وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم» [آل عمران(٣) / ٤٩] قال:

> فإنّ عيسى عليه السّلام كان يقول لبني إسرائيل: إنّي رسول الله إليكم، وإنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص، الأكمه هو الأعمى، قالوا: مانرى الّذي تصنع إلّا سحراً فأرنا آية نعلم أنك صادق قال: أرأيتم إن أخبرتكم «بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم» ـ يقول: ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا وما ادّخرتم إلى اللّيل ـ تعلمون أنّي صادق؟ قالوا: نعم، فكان يقول للرّجل: أكلت كذا وكذا، وشربت كذا وكذا، ورفعت كذا وكذا، فمنهم من يقبل منه فيؤمن ومنهم من ينكر فيكفر وكان لهم في ذلك آية إن كانوا مؤمنين.

وفي البحار ١٨١/١٤، عن قصص الأنبياء، مسنداً عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

> إنّ زكريّا عليه السّلام كان خائفاً فهرب فالتجأ إلى شجرة فانفجرت له وقالت: يا زكريّا ادخل فيّ، فجاء حتّى دخل فيها، فطلبوه فلم يجدوه فأتاهم إبليس وكان رآه فدلّهم عليه فقال لهم: هو في هذه الشجرة فاقطعوها، وقد كانوا يعبدون تلك الشجرة، فقالوا: لانقطعها فلم يزل بهم حتّى شقّوها وشقّوا زكريّا عليه السّلام.

وفي المقام روايات أخر أوردها المجلسي في البحار ج ١٤ فأعرضنا عن ذكرها طلباً للاختصار.

قوله تعالى: «وقالوا قلوبنا غلف» أي: إنّ في قلوبنا ستراً وختماً لايمكن أن تدرك مايقوله الأنبياء والرسل. وللقلوب في الكتاب والسنّة إطلاقات كثيرة، والظاهر في أمثال المقام أنّ القلب هو الرّوح الواجد للشعور الّذي به يدرك الحقّ والباطل، والخير والشرّ، قال تعالى:

«لهم قلوب لايفقهون بها». [الأعراف (٧) / ١٧٩]

و «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها». [الحجّ (٢٢) / ٤٦]

و «كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لايعلمون». [الروم (٣٠) / ٥٩]

و «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب». [الرعد (١٣) / ٢٨]

قوله تعالى: «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً مايؤمنون». (٨٨)

ردّ الله تعالى عليهم بأنّه سبحانه لعنهم وطردهم مؤاخذة لهم، ومنعهم عن كرامة معرفة الحقّ والإيمان به جزاءً على سيّئاتهم كما هو سنّته تعالى في جميع المعاندين والأشقياء والجبابرة مجازاةً لهم وخزياً وخذلاناً لهم.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ

أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟
مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالىٰ: «ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به».

قال في لسان العرب ٥٣٧/٢: استفتحت الشيء وافتتحته؛ والاستفتاح: الاستنصار.

بيان: لمّا جاءهم القرآن من عند الله مصدّقاً لما كان عندهم من التوراة والإنجيل ـ وكانوا قبل بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وآله ينتظرون الاستنصار به صلّى الله عليه وآله على عبدة الأصنام ـ فلمّا جاءهم ماعرفوا من القرآن والرسول الأكرم كفروا به، لما رأوا أنّ القرآن لايصدّقهم ولا يوافقهم فيما شاع بينهم من الأقاويل الباطلة واتّباع الباطل واستحكام السنن السيّئة بينهم من العدول عن الحق إلى الباطل وأمثاله.

قوله تعالىٰ: «فلعنة الله على الكافرين». (٨٩)

هذا دعاء من الله تعالى عليهم بحلول نقمته وبأسه على ساحة الكافرين في الدّنيا والآخرة. وفي هذا الدعاء من الله سبحانه عليهم دلالة وشهادة على أنّه لايرجى منهم اتّباع الحقّ إيماناً ولاترك أمنيّاتهم الباطلة عملاً.

في تفسير القمي ١/ ٣٢، مسنداً عن حريز، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى: «الّذين آتيناهم الكتاب» يعني التوراة والإنجيل «يعرفونه» يعني رسول الله صلّى الله عليه وآله «كما يعرفون أبناءهم» [البقرة (٢) / ١٦٦] لأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل عليهم في التوراة والزّبور والإنجيل صفة محمّد صلّى الله عليه وآله وصفة أصحابه ومبعثه وهجرته وهو قوله: «محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تريهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التورية ومثلهم في الإنجيل» [الفتح (٤٨) / ٢٩] هذه صفة رسول الله صلّى الله عليه وآله وأصحابه في التوراة والإنجيل فلمّا بعثه الله عزّ وجلّ عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: «فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به» وكان اليهود يقولون للعرب قبل مجيء النّبيّ: أيها العرب هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة وتكون هجرته بالمدينة، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يلبس الشملة، يجتزئ بالكسرة والتميرات، ويركب الحمار عريّة وهو الضّحوك، القتّال يضع سيفه على عاتقه لايبالي من لاقى، يبلغ سلطانه منقطع الخفّ والحافر، وليقتلنّكم الله به يا معشر العرب قتل عاد. فلمّا بعث الله نبيّه بهذه الصفة حسدوه وكفروا به كما قال الله: «وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به» ....

وفي روضة الكافي / ٣٠٩، عن محمد بن يحيى مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا» فقال:

... وكانت اليهود تقول لهم: أما لو قد بعث محمد ليخرجنّكم من ديارنا وأموالنا فلمّا بعث الله عزّ وجلّ محمداً صلّى الله عليه وآله آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود وهو قول الله عزّ وجلّ: «وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله

على الكافرين».

وفيه أيضاً / ٣١٠، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله تبارك وتعالى: «وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به» قال:

كان قوم فيما بين محمد وعيسى صلّى الله عليهما وكانوا يتوعّدون أهل الأصنام بالنّبيّ صلّى الله عليه وآله ويقولون: ليخرجنّ نبيّ فليكسّرنّ أصنامكم وليفعلنّ بكم [وليفعلنّ] فلمّا خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله كفروا به.

قوله تعالى: «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب».

قال في لسان العرب ٣٦/١: بوأ: باءَ إلى الشيء يبوءُ بوْءاً: رجع... قال الأخفش: و«باؤوا بغضب من الله»: رجعوا به أي صار عليهم.

فالمعنى، بئس ما باعوا به أنفسهم وهو الكفر بعد الهدى بغياً واستكباراً عن قبول الحقّ والصلاح والسداد وما أنزل الله على رسله وأنبيائه من المعارف الحقيقيّة من المبدإ والمعاد والأخلاق الفاضلة الكريمة والأحكام البيّنة القيّمة من الحلال والحرام، فإنّهم كانوا قبل بعثة الرسول صلّى الله عليه وآله مستنصرين على عَبَدة الأصنام برسول الله صلّى الله عليه وآله ولمّا بعثه الله سبحانه فهاجر إلى المدينة رجعوا وانقطعوا عن الإيمان به ونصرته وصاروا مستحقّين غضب من الله.

قال في جوامع الجامع ٢٠/: «فباؤوا بغضب على غضب» فصاروا أحقّاء لغضب متوال لأنّهم كفروا بنبيّ الحقّ وبغوا عليه.

قوله تعالى: «وللكافرين عذاب مهين». (٩٠)

دعاء من الله تعالى عليهم بحلول نقمته وبأسه الشديد، وإنزال الهوان والذلّة على ساحتهم في الدنيا والآخرة أخذاً لإطلاق قوله تعالى: «وللكافرين عذاب مهين».

قوله تعالى: «وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا».

أقول: الآية الكريمة مسوقة لبيان شنيعة أخرى من اليهود، فإنّه إذا قال لهم أنبياؤهم ورسلهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا فقط.

قوله تعالىٰ: «ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدّقاً لما معهم».

توبيخ وعتاب لهم لما يكفرون وينكرون ماوراءه، والحال أنّه الحق المبين الّذي يصدّق بما أنزل الله على اليهود فلا مناص بضرورة العقل عن قبوله والإيمان به لانّ الواجب الضروريّ أن يؤمن الناس على جميع ما أنزل الله على أنبيائه ورسله ولايجوز التفريق بين أحد منهم في الإيمان بهم وبما جاؤوا به من المعارف والعقائد الحقّة، والأحكام والشرائع البيّنة بوجه أصلاً.

قوله تعالىٰ: «قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين». (٩١)

أقول: إنّه على فرض كون اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليهم ليس قتلهم الأنبياء المبعوثين إليهم إلّا لجاجاً وعناداً.

قوله تعالىٰ: «ولقد جاءكم موسىٰ بالبيّنات ثمّ اتّخذتم العجل من بعده».

توبيخ لليهود حيث جاء موسى إليهم بالآيات الباهرة والدلائل القاطعة فآمنوا به وصدّقوه ثمّ إذا غاب عنهم موسى عليه السّلام أيّاماً قليلة كفروا بالله سبحانه واختاروا عبادة العجل.

قوله تعالىٰ: «وأنتم ظالمون». (٩٢)

أي: ظالمون للحق المبين والشريعة الثابتة؛ وما ارتكبتم هذا الجرم الشنيع إلّا حمقاً وسفاهة، ضرورة أنّ مقام الإنسانيّة ومرتبتها أعلى وأجلّ من مرتبة العجل الّذي اتّخذوه إلهاً معبوداً.

قوله تعالىٰ: «وإذ أخذنا ميثاقكم».

المراد من الميثاق هو الميثاق عند قيام الدلائل والشواهد على نبوّة موسى، فإنّ اليهود قد آمنوا به وصدّقوه في جميع ما جاء به من عند الله من المعارف والحقائق والأحكام.

قوله تعالىٰ: «ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا».

بيان: رفعه تعالى الطّور فوقهم تهديد لهم كي يأخذوا ويؤمنوا ويعملوا بجميع

ما جاء به موسى من الكتاب الّذي فيه المعارف الحقّة والشرائع القيّمة. وقوله تعالى: «بقوّة»، متعلّق بقوله «خذوا» والظاهر أنّ القوّة هو التصميم الجدّي بحسب القلب والقيام العملي بحسب الجوارح والأعضاء فإنّ الإيمان منبثّ في القلب والجوارح كلّها. وقوله تعالى: «واسمعوا» تأكيد على ماتقدّم من الإيمان والعمل.

قوله تعالىٰ: «قالوا سمعنا وعصينا».

ليس مرادهم من السماع في المقام هو الإيمان والعمل بل مرادهم هو السماع بحسب اللّفظ فقط؛ وهذا الجواب كفر ونكث ونكص بعد القبول وتكذيب بعد الإيمان بما جاء به موسى وغيره من الأنبياء والمرسلين أجمعين، وهو حرام بضرورة جميع العقول فمن نكص على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وهو غنيّ عن طاعتهم فيأخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر ويجازيهم على كفرهم وطغيانهم.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

> اللّهم أيّما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة غير الجائرة والمصلحة غير المفسدة في الدّين والدنيا، فأبى بعد سمعه لها إلّا النكوص عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك فإنّا نستشهدك عليه بأكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع ما أسكنته أرضك وسماواتك، ثمّ أنت بعدُ المغني عن نصره والآخذ له بذنبه. (النهج، الخطبة / ٢١٢)

قوله تعالىٰ: «وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم».

قال في مجمع البحرين ٨٢/٢: قوله تعالى: «واشربوا في قلوبهم العجل» أي: حبّ العجل. أي: خالط قلوبهم من قولهم: «أشرب فلان حبّ فلان» أي: خالط قلبه.

قوله تعالىٰ: «قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين». (٩٣)

قال في آلاء الرحمٰن ١٠٨/١: ثم عاد الكلام على توبيخهم وردّهم في قولهم الكاذب: «نؤمن بما أنزل إلينا» بما معناه أنّ الإيمان يأمر ويحمل على اتّباع ما آمن الإنسان به والعمل به؛ والّذي أنزل عليكم يأمركم بتوحيد الله ومجانبة الأوثان وعبادته وحده وطاعة الأنبياء واحترامهم والإيمان برسول الله وكتابه، أفتقولون: إنّ إيمانكم المزعوم الموهوم أمركم بما ذكر من أفعالكم القبيحة إذن «قل بئسما يأمركم به إيمانكم» وأين منكم الإيمان ولكن قيل: «إن كنتم مؤمنين» المجاراة في خطابهم

والتنازل من النفي إلى صورة التشكيك وهذا من بديع الأساليب في التفريع والتوبيخ.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ
مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ
مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين». (٩٤)

احتجّ الله تعالى على اليهود وأبطل قولهم: إنّهم أولياء لله من دون الناس وإنّ الدار الآخرة خالصة لهم ووقف خاصّ بهم لايشرك معهم أحد. فأمرهم وتحدّاهم بتمنّي الموت فإنّه لاينبغي لمؤمن موحّد يخاف من عمله ويرجو ربّه، أن يدّعي ما ادّعاه اليهود، فإنّ المؤمن لايزال خائفاً راجياً لايغيّره شيء من عمله ولايزال خائفاً

ووجلاً حتّى يتخلّص من مواقف البرزخ ويفرغ من حسابه يوم لقائه تعالى ولا يتخلّص منها إلّا من شملته العناية الإلهيّة. ومنشأ هذه الدّعوى من اليهود ليس إلّا الحمق وعدم المعرفة بالله تعالى وبسنّته سبحانه فيما يفعله لعباده في الدّنيا ودار جزائه.

والتظاهر بهذه الدّعوى منهم من جملة سيّئاتهم. وقد أمنوا بأس الله ونقمته حين قابلوا هذه الدعوى الكاذبة بالنبيّ الصادق الأمين. فالمورد يشبه التحدّي والمباهلة ولأجله دعاهم الله تعالى إلى تمنّي الموت إن كانوا صادقين.

قوله تعالى: «ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين». (٩٥)

أخبر الله سبحانه أنّهم لن يتمنّوه أبداً فإنّ الله يعلم أسرار عباده وبواطنهم وأمنيّاتهم وكم بين اليهود وبين الإيقان بدار الآخرة. فضلاً عن التهيّؤ لها والخوف من أهوالها وشدائدها.

قوله تعالى: «ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة الدّنيا ومن الّذين أشركوا».

أخبر الله سبحانه أنّهم أحرص الناس على حياة الدنيا والسّكون إليها والخضوع لمطامعها وزخارفها حتّى من المشركين الّذين لايقرّون بيوم الجزاء. والظاهر أنّ المشركين الّذين قوبلوا هنا باليهود وهم الّذين بين أظهرهم، مخالطون لهم أو الأعمّ منهم ومن غيرهم لا المجوس فقط كما فسّره في الصافي ٤١/ وقال: «ومن الّذين أشركوا» وأحرص من الّذين أشركوا يعني المجوس الّذين لايرون النعيم إلّا في الدّنيا ولا يأملون خيراً في الآخرة.

وكما قال في مجمع البيان ١٦٥/١: «ومن الّذين أشركوا» أي، ولتجدنّهم أحرص من الّذين أشركوا وهم المجوس ومن لايؤمن بالبعث.

قوله تعالى: «يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر».

قال في المغني ٣٤٩/١. في معاني «لو»: والثالث، أن تكون حرفاً مصدريًا بمنزلة «أن» إلّا أنّها لاتنصب. وأكثر وقوع هذه بعد ودّ أو يودّ نحو. «ودّوا لو تدهن» «يودّ أحدهم لو يعمّر».

أقول: فالمعنى، يودّ أحدهم يعني اليهود، أن يعمر ألف سنة أو عمر ألف سنة.

قال في مجمع البيان ١٦٦/١: وقوله: «يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة» ذكر

الألف لأنّها نهاية ماكان المجوس يدعو به بعضهم لبعض. وتحيّي به الملوك. يقولون: عِش ألف نوروز وألف مهرجان. قال ابن عباس: هو قول أحدهم لمن عطس: «هزار سال بزی».

وقال في المنار ٣٩١/١: فإنّ لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبّر به عن المبالغة في الكثرة.

أقول: لاوجه للمناسبات الّتي ذكروها في تعيين المراد من الألف في المقام بل الظاهر أنّه كانت سنّة العرب وديدنهم في دعاء أحدهم لأحد، التعبير بالألف. و«ما» نافية والضمير راجع إمّا إلى التمنّي أو للشأن. و«أن يعمّر» فاعل لقوله: «مزحزحه».

قوله تعالىٰ: «والله بصير بما يعملون». (٩٦)

البصير من أسماء الله الحسنى، يطلق عليه تعالى بالاشتراك اللّفظي من حيث علمه سبحانه بالمبصرات عند الناس.

قوله تعالىٰ: «قل من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين». (٩٧)

في هذه الآية دلالة على أنّ اليهود كانوا يبغضون جبرئيل سلام الله عليه بمساعدته بالوحي وغيره للأنبياء كما تدلّ على ذلك الأخبار الواردة في شأن نزولها.

ثمّ لايخفى أنّ الضروريّ من دين الإسلام أنّ جبرئيل أتى بهذا القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وآله وقرأه عليه، لا أنّه أمر معنويّ أفاض الله تعالى على قلبه فإنّ القراءة في الظاهر لاتنفكّ عن النزول في القلب. وفرق بين النزول المعنوي على القلب وبين النزول والتكليم والقراءة في الظاهر. وفي الثاني المسؤول بالحفظ والتلقّي هو القلب بحسب المجرى العادي.

والقلب له شأن عجيب في الآيات القرآنيّة قد أسند الله تعالى إليه الأحكام، قال الله تعالى:

«إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد». [ق (٥٠) / ٣٧]

و«هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع

إيمانهم». [الفتح (٤٨) / ٤]

و«ثمّ قفّينا على آثارهم برُسلنا وقفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفة ورحمة». [الحديد (٥٧) / ٢٧]

و«وما جعله الله إلّا بشرى ولتطمئنّ به قلوبكم وما النصر إلّا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم». [الأنفال (٨) / ١٠]

و«ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب». [الحجّ (٢٢) / ٣٢]

و«يوم لاينفع مال ولا بنون * إلّا من أتى الله بقلب سليم». [الشعراء (٢٦) / ٨٨ـ ٨٩]

أقول: ليس المراد من القلب في هذه الآيات هو العضو المخصوص الّذي ليس إلّا كسائر أعضاء الإنسان وليس له علم وإدراك، وعرفان وشعور، وإرادة ونهي وأمر، وجدّ ونشاط، وحبّ وبغض، ورضاء وغضب. ولا يبعد أن يقال: إنّ القلب هو الإنسان التامّ بلحاظ أنّه ركن أعظم وعماد أقوم. فإنّ الإنسان هو المركّب من روح وبدن والرّوح مقامه أجلّ والبدن مقامه أدون، وهو السرّ في أنّ أعضاء الإنسان مع تفرّق شؤونها واشتغال كلّ منها بأمر يخصّه، إنّما تكون تحت أمر القلب وأمره فيها أسرع وأنفذ من سريان البرق وهذا الأمر من أعجب آيات الله سبحانه في وجود الإنسان. فالعين مثلاً إذا أقدمت على معصية بأمر القلب ثمّ توجّه قلب العاقل فارتدع وتاب فما بين قصد المعصية والارتداع مع هذه المقدمات العريضة إلّا كلمح البصر، وما لبث أن يشتغل بأمره الأوّل فارتدع وعزم على الطاعة.

وهذا المعنى يكفي في تأييد هذا المعنى إلّا أنّه ورد في الرّوايات الشريفة أنّ المراد من القلب هو العقل.

في الكافي ١٦/١، عن هشام بن الحكم، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام، قال:

يا هشام إنّ الله تعالى يقول في كتابه: «إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب» يعني: عقل.

قوله تعالى: «من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإنّ الله

عدوٌّ للكافرين». (٩٨)

هذا ردّ من الله تعالى على اليهود بأن جبرئيل وأمثاله من الملائكة المقرّبين عباد مأمورون والقرآن إنّما نزل بأمر الله لا بأمر جبرئيل، فمابالهم يبغضون جبرئيل ثمّ مابالهم يبغضون القرآن والقرآن مصدّق لما بين يديه من الكتب وهداية وبشرى للمؤمنين، فليس بغضهم للقرآن مع تصديقه لجميع الأنبياء وكونه هداية وبشارة لأهل الايمان إلّا من فرط حماقتهم ولجاجهم وعنادهم ولعبهم بالحقائق والعلوم، وعداوتهم ومكايرتهم مع الله تعالى ورسله وملائكته، أفلا يعلمون أنّ الله عدوّ للكافرين؟!

قوله تعالىٰ: «ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلّا الفاسقون». (٩٩)

أقول: فيه دلالة أنّ الفسق يتبعه الكفر بالقرآن.

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالىٰ: «أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم».

الظاهر أنّ الاستفهام المذكور في الآية الكريمة استفهام إنكاري وفيه تقريع وتوبيخ للّذين نبذوا عهد الله وميثاقه الّذي عاهدوه. وهل المراد من العهد هو تعاهد اليهود مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فقط أو مطلق أنبيائه تعالى ورسله مع أممهم؟ الظاهر هو الإطلاق، والقدر المتيقن منه تعاهد اليهود مع رسول الله صلّى الله عليه وآله. وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله مراقباً لحفظ التعاهد الذي وقع بينه صلّى الله عليه وآله وبينهم إلى أن تظاهروا على نبذ تعاهدهم ونقضه، فرفع رسول الله صلّى الله

عليه وآله الأمان الذي أعطاهم وأمر عليًا عليه السّلام بغزوهم وقتلهم وطردهم من المدينة.

في تفسير القمي ۳۵۸/۲، في قوله تعالى: «سبّح لله ما في السّموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الّذي أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا» [الحشر (٥٩) / ١ـ٢] قال:

سبب نزول ذلك أنّه كان بالمدينة ثلاثة أبطنٍ من اليهود: بنو النضير، وقريظة، وقينقاع، وكان بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله عهد ومدّة فنقضوا عهدهم وكان سبب ذلك من بني النضير في نقض عهدهم أنّه أتاهم رسول الله صلّى الله عليه وآله يستسلفهم دية رجلين قتلهما رجل من أصحابه غيلةً، يعني: يستقرض، وكان قصد كعب بن الأشرف، فلمّا دخل على كعب قال: مرحباً يا أبا القاسم وأهلاً! وقام كأنّه يضع له الطعام وحدث نفسه أن يقتل رسول الله صلّى الله عليه وآله ويتّبع أصحابه، فنزل جبرئيل عليه السّلام فأخبره بذلك، فرجع رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى المدينة وقال لمحمد بن مسلمة الأنصاري: اذهب إلى بني النضير فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ قد أخبرني بما هممتم به من الغدر، فإمّا أن تخرجوا من بلدنا وإمّا أن تأذنوا بحرب، فقالوا: نخرج من بلادك. فبعث إليهم عبدالله ابن أبيّ ألّا تخرجوا وتقيموا وتنابذوا محمداً الحرب فإنّي أنصركم أنا وقومي وحلفائي، فإن خرجتم خرجت معكم وإن قاتلتم قاتلت معكم. فأقاموا وأصلحوا حصونهم وتهيّؤوا للقتال، وبعثوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله إنّا لانخرج فاصنع ما أنت صانع.

فقام رسول الله صلّى الله عليه وآله وكبّر، وكبّر أصحابه وقال لأمير المؤمنين عليه السّلام: تقدّم إلى بني النضير. فأخذ أمير المؤمنين عليه السّلام الراية وتقدّم، وجاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وأحاط بحصنهم، وغدر بهم عبدالله بن أبيّ وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله إذا ظهر بمقدّم بيوتهم حصنوا ما يليهم وخربوا ما يليه، وكان الرجل

منهم ممّن كان له بيت حسن خربه وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر بقطع نخلهم فجزعوا من ذلك وقالوا: يامحمد إنّ الله يأمرك بالفساد؟ إن كان لك هذا فخذه وإن كان لنا فلا تقطعه. فلمّا كان بعد ذلك قالوا: يامحمد نخرج من بلادك وأعطنا مالنا. فقال: لا، ولكن تخرجون ولكم ماحملت الإبل، فلم يقبلوا ذلك فبقوا أيّاماً، ثمّ قالوا: نخرج ولنا ماحملت الإبل، فقال: لا، ولكن تخرجون ولايحمل أحدٌ منكم شيئاً فمن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه، فخرجوا على ذلك ووقع قوم منهم إلى فدك ووادي القرى، وخرج منهم قوم إلى الشام.... حدّثنا به محمد بن أحمد بن ثابت عن... أحمد بن ميثم عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة، عن أبان بن عثمان، عن أبي بصير في غزوة بني النضير....

قوله تعالىٰ: «بل أكثرهم لايؤمنون». (١٠٠)

أقول: لا دلالة فيها على أنّ هذا النقض مختصّ بالمتعاقدين النابذين الناقضين بل كثير من غير المتعاهدين أيضاً كانوا من الكافرين من غير تعاهد ونقض.

قوله تعالىٰ: «ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الّذين أُوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لايعلمون» (١٠١)

الظاهر أنّ الآية الكريمة ناظرة إلى خيانة اليهود وعنادهم مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فلمّا جاء رسول الله صلّى الله عليه وآله بالقرآن مصدّقاً لما معهم من التوراة، ولما فيه من المعارف الحقّة الإلهيّة من توحيده تعالى ونعوت كماله وجلاله، ولما فيه من الشرائع والأحكام لم يعتنوا بشيء من ذلك بل نبذوا عهد الله وميثاقه وراء ظهورهم وتجاهلوا وكتموا مايعرفون من الحقّ المبين كأنّهم لايعقلون ولايعرفون شيئاً من القرآن، ومن رسالة رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالىٰ: «واتّبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان»

أقول: قوله تعالى: «تتلوا» إمّا من التلاوة مثل قوله تعالى: «وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب» [العنكبوت (٢٩) / ٤٨]؛ أو من التِلْو. والظاهر هو الوجه الثاني، والمراد منه هو التقوّل والكذب على ملك سليمان وعزّته وشوكته.

وقوله تعالى: «الشياطين» الظاهر بحسب الروايات أنّ المراد منهم هم الجِنّة ومن مَرَدَتهم فإنّ الشيطان على ما في اللّغة هو الخبيث.

قال في لسان العرب ٢٣٨/١٣: الشاطن: الخبيث.... والشيطان: معروف، وكلّ عاتٍ متمرّد من الجنّ والإنس والدوابّ شيطان.

وكيف كان المستفاد من الروايات أنّ الشيطان المعروف الّذي عارض السجود لآدم ولُعن وأُخرج هو إبليس وهو من الجِنّة، ومن أولاد الجانّ مؤمن موحّد ويهود ونصارى ومجوس وأنّ فساقهم وعتاتهم هم الشياطين، قال تعالى:

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه أفتتخذونه وذرّيّته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلاً». [الكهف (١٨) / ٥٠]

في تفسير العيّاشي ٣٢٨/٢، عن جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

سألته عن إبليس أكان من الملائكة؟ وهل كان يلي من أمر السماء شيئاً؟ قال: إنّه لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من أمر السماء شيئاً، كان من الجنّ وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة تراه أنّه منها وكان الله يعلم أنّه ليس منها فلمّا أمر بالسجود كان منه الّذي كان.

وقوله تعالى: «على ملك سليمان» قد تقدّم في تفسير الفاتحة معنى المُلك والمِلك والمالك والمَلِك والمليك.

قوله تعالى: «وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر»

أقول: قد أُرجف بينهم وخاصّة الكافرين، منهم أنّ سليمان ما كان نبيّاً وإنّما فعل مافعل بالسحر، فردّ الله تعالى ونزّه ساحة سليمان ممّا نسبوا إليه من السحر، وأنّ تلك الآيات الكونيّة والتصرّفات في الخلق إنّما كان بتسخير الله إيّاها له.

قال في لسان العرب ٣٤٨/٤: السحر: الأخذة. وكلّ ما لطف مأخذه ودقّ، فهو سحر، والجمع أسحار وسحور.... والسحر: الخديعة.

وقال في البحار ٣/٦٣: قال النيسابوري: السحر في اللّغة عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفي سببه.

أقول: السحر كلّ عمل لطف مأخذه ودقّ بحيث خفي على عامّة الناس ويتظاهر به الساحر ويجعله كرامة لنفسه وأحياناً برهاناً لإثبات تلك الكرامة الكاذبة، والتظاهر بكون هذه الخطيئة كرامة لنفسه أضرّ وأقبح من نفس الخطيئة، وإذ ظهر الأمر على العامّة أنّه ليس بكرامة ولا إعجاز بل هو صنعة يعلمون أنّه لايستعمله إلّا أن يرتزق ويكتسب به.

ولو قيست هذه الخديعة الكاذبة بالصناعات والفنون والمكاشفات الحادثة بالتجارب والعلوم الدائرة اليوم لكانت هذه الصناعات في أيّام السابقة دليلاً على

الكرامة والقداسة.

وخلاصة الكلام، أنّ جميع الفنون والأعمال الخارقة للعادة العموميّة مستندةٌ إلى عللها وأسبابها، اختصّ علمها بطائفة خاصّة من الناس، والّذين يستفيدون من تلك العلوم الطبيعيّة بما يضرّ الناس الفاقدين لهذه العلوم، فعملهم هذا قبيح، وأقبح من هذا تظاهر بعضٍ منهم بخلاف الواقع، وإلّا فكم من أناس شرفاء حازوا جميع ما في أيدي الناس من تلك الغرائب ولم يتظاهروا بشيء فضلاً عن التظاهر بالكرامة والولاية وفضلاً عن إضراره بالنّاس.

ولا يخفى أنّ كلّ عمل طبيعيّ له واقعيّة بحسب مجاري العادة والطبيعة، فلا يخرج من سلسلة الأسباب والمسبّبات شيء من الأعمال إلّا أنّ بعضاً منها كان في بدو ظهوره واكتشافه من العجائب ثمّ بعد ظهوره وشيوعه بين الناس صار عملاً عاديًا وشائعاً. فما كان منها أمر سائغ مشروع فللناس تحصيله والتكسّب به، وما كان غير مشروع شرعاً وقبيحاً عقلاً فيحرم على الناس ارتكابه والعمل به. ومنه يعلم أنّ السحر الّذي ادّعى صاحبه أنّه عمل خارج عن الأسباب والعلل، كذب محض وخدعة للناس وحرام بالضرورة. وقد بسط الكلام في ذلك شيخنا العلّامة الأنصاري (قده) في المكاسب /٣٢. ومن أراد التحقيق في ذلك فليراجعه.

وأمّا معجزات الأنبياء والأوصياء فليست من هذا الباب بل هي فعل الله تعالى، فإنّ الله تعالى يفيض القدرة والاستطاعة على النبيّ صلوات الله عليه فيفعل مايفعل بتلك الاستطاعة المملوكة من الله سبحانه. وحيث إنّ هذا التمليك بيد الله تعالى فتكون مالكيّة النبيّ في طول مالكيّته تعالى فهو تعالى أملك بها فلاتفويض، وحيث إنّ العبد مالك للقدرة حقيقة فلا جبر. وعلى ذلك شواهد كثيرة والبحث عنها خارج عن حوصلة المقام، قال تعالى:

«وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين». [البقرة (٢) / ٢٣]

و«فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب». [ص (٣٨) / ٣٦]

و«قال الّذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلمّا رءاه مستقرّاً عنده قال هذا من فضل ربّي ليبلوني ءَ أشكر

أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم».
[النمل (٢٧) / ٤٠]

في العيون ٢٦٦/١، عن محمد بن القاسم المفسّر مسنداً عن الصادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «واتّبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان» قال:

اتّبعوا ماتتلوا كفرة الشياطين من السحر والنيرنجات على ملك سليمان الّذين يزعمون أنّ سليمان به ملك ونحن أيضاً به، فظهرت العجائب حتّى ينقاد لنا الناس. وقالوا: كان سليمان كافراً ساحراً ماهراً بسحره، ملك ماملك وقدر ماقدر. فردّ الله عليهم فقال: «وما كفر سليمان» ولا استعمل السحر الّذي نسبوه إلى سليمان وإلى «ما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» وكان بعد نوح عليه السّلام قد كثر السحرة والمموهون فبعث الله عزّ وجلّ ملكين إلى نبيّ ذلك الزّمان بذكر ما تسحر به السحرة وذكر مايبطل به سحرهم ويردّ به كيدهم، فتلقّاه النّبيّ عليه السّلام عن الملكين وأدّاه إلى عباد الله بأمر الله عزّ وجلّ فأمرهم أن يقضوا به على السحر وأن يبطلوه، ونهاهم أن يسحروا به الناس. وهذا كما يدلّ على السمّ ماهو؟ وعلى مايدفع به غائلة السمّ. ثمّ قال عزّ وجلّ: «وما يعلّمان من أحد حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلاتكفر» يعني: إنّ ذلك النبيّ عليه السّلام أمر الملكين أن يظهرا للناس بصورة بشرين ويعلّماهم ما علّمهما الله من ذلك، فقال الله عزّ وجلّ: «وما يعلّمان من أحدٍ» ذلك السحر وإبطاله «حتّى يقولا» للمتعلّم: «إنّما نحن فتنة» وامتحان للعباد ليطيعوا الله عزّ وجلّ فيما يتعلّمون من هذا ويبطلوا به كيد السحرة ولا يسحروهم. «فلا تكفر» باستعمال هذا السحر وطلب الإضرار به ودعاء الناس إلى أن يعتقدوا أنّك به تحيي وتميت وتفعل مالايقدر عليه إلّا الله عزّ وجلّ فإنّ ذلك كفر. قال الله عزّ وجلّ: «فيتعلّمون» يعني: طالبي السحر «منهما» يعني: ممّا كتبت الشياطين على ملك سليمان من النيرنجات، وممّا «أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» يتعلّمون من هذين الصنفين «ما يفرّقون به

بين المرء وزوجه» هذا مايتعلّم الإضرار بالناس، يتعلّمون الضرب بضروب الحيل والتمائم والايهام وأنّه قد دفن في موضع كذا وعمل كذا ليحبّب المرأة إلى الرّجل والرّجل إلى المرأة، ويؤدّي إلى الفراق بينهما فقال عزّ وجلّ: «وما هم بضارّين به من أحد إلّا بإذن الله» أي: ما المتعلّمون بذلك بضارّين من أحد إلّا بإذن الله يعني بتخلية الله وعلمه، فإنّه لو شاء لمنعهم بالجبر والقهر. ثمّ قال: «ويتعلّمون مايضرّهم ولاينفعهم» لأنّهم إذا تعلّموا عن دين الله بذلك «ولقد علموا» هؤلاء المتعلمون «لمن اشتراه» بدينه الّذي ينسلخ عنه بتعلّمه «ماله في الآخرة من خلاق» أي من نصيب في ثواب الجنّة. ثمّ قال عزّ وجلّ: «ولبئس ماشروا به أنفسهم» ورهنوها بالعذاب «لو كانوا يعلمون» أنّهم قد باعوا الآخرة وتركوا نصيبهم من الجنّة، لأنّ المتعلّمين لهذا السحر الذين يعتقدون أن لا رسول، ولا إله، ولا بعث ولا نشور، فقال: «ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق» لأنّهم يعتقدون أن لا آخرة، فهم يعتقدون أنّها إذا لم تكن آخرة فلا خلاق لهم في دار بعد الدّنيا وإن كانت بعد الدّنيا آخرة فهم مع كفرهم بها لاخلاق لهم فيها. ثم قال: «ولبئس ماشروا به أنفسهم» بالعذاب إذ باعوا الآخرة بالدّنيا ورهنوا بالعذاب الدائم أنفسهم «لو كانوا يعلمون» أنّهم قد باعوا أنفسهم بالعذاب ولكن لايعلمون ذلك، لكفرهم به، فلمّا تركوا النظر في حجج الله حتّى يعلموا عذابهم على اعتقادهم الباطل وجحدهم الحق.

أقول: حيث إنّ السحر قد شاع بين الناس وكان الناس معتقدين أنّ السحر عمل قدسيّ وخارق للعادة لايقدر عليه أحد غير السحرة وأنّ للساحر مقاماً شامخاً وله القداسة والكياسة فأراد الله تعالى إبطال ذلك وأمر الملكين هاروت وماروت أن يعلّما الناس السحر وبيان حقيقته وإبطال تلك الشيطنة الكاذبة الّتي يرتكبها السحرة وأن يعلّما الناس أيضاً أنّه عمل عاديّ ليس له القداسة والكرامة، وأنّه حرام على كلّ من ارتكبه من الملائكة والنّاس.

قوله تعالى: «ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق» أي: إنّ السحرة يعلمون أنّ هذه السنّة السيّئة الّتي ارتكبوها واكتسبوا بها في الدّنيا جاهاً

ومقاماً بين الناس ليس نصيبهم منها إلّا هذا ومالهم في الآخرة من نصيب ولبئس ما شروا به أنفسهم لوكانوا يعلمون.

قوله تعالى: «ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون». (١٠٣)

الظاهر أنّ الله تعالى يريد هداية الناس ويعظهم بأن يختاروا مافيه فلاحهم ونجاحهم ويذكّرهم أنّهم لو تركوا ماهو دأبهم وديدنهم من الأعمال الشنيعة وآمنوا واتّقوا الله حق تقاته لنالوا منزلة كريمة ومثوبة هنيئة من الله سبحانه لوكانوا يعلمون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا...».

بيان: هذا خطاب من الله سبحانه للمؤمنين أن لايقولوا في مقام مخاطبتهم رسول الله صلّى الله عليه وآله: راعنا، وأمرهم أن يقولوا: انظرنا. فإنّه في اللّغة العبرانيّة دعاء على المخاطب بالشرّ.

قال في التبيان ٣٨٩/١: قال أبو جعفر عليه السّلام: هذه الكلمة سبّ بالعبرانيّة.

وقال في آلاء الرحمن ١١٣/١: أقول: وقد تتبعت العهد القديم العبرانيّ فوجدت أنّ كلمة «راع» ـ بفتحة مشالة إلى الألف وتسمى عندهم «قامص» ـ تكون بمعنى الشرّ أو القبيح....

قوله تعالى: «وللكافرين عذاب أليم». (١٠٤)

أقول: لايبعد أن يكون دعاءً منه تعالى عليهم بالعذاب الأليم كما قال تعالى:
«إنّه فكّر وقدّر * فقتل كيف قدّر * ثمّ قتل كيف قدّر» [المدّثر (٧٤) / ١٨ ـ ٢٠]

ودعاؤه تعالى على الكافرين والظالمين عبارة عن تحقّق التهديد وحلول نقمته تعالى على ساحة من دعا عليه. ويمكن أن يكون مسوقاً لبيان استحقاق الكافرين العذاب الأليم منه تعالى.

قوله تعالى: «ما يودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب...». (١٠٥)

أي: إنّ اليهود والمشركين لم يرضوا ولم يحبّوا أن ينزّل الله سبحانه على رسوله صلّى الله عليه وآله خيراً وكرامة منه تعالى بل يسوؤهم ويكرهونه بغياً وحسداً فأخبر الله تعالى أنّه سبحانه لم يقطع كرامته وإحسانه عن رسوله صلّى الله عليه وآله وعلى المؤمنين رغماً على أنوفهم. وما أنزل الله على المؤمنين خيراً وبركة أعظم وأجلّ من القرآن الكريم فأكرم الله تعالى بالقرآن رسوله الأكرم صلّى الله عليه وآله وأولياءه المؤمنين ونزول كرامته تعالى رسوله صلّى الله عليه وآله وعلى المؤمنين فضيحة وعار ونكبة على اليهود والمشركين.

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: «ما ننسخ»

قال في لسان العرب ٦١/٣: النسخ: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه... ابن الأعرابي: النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره. ونسخ الآية بالآية: إزالة مثل حكمها. والنسخ: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو.... الفراء وأبو سعيد: مسخه الله قرداً ونسخه قرداً بمعنى واحد.

أقول: كلّ واحد من المعاني المذكورة قد استعمل فيها لفظ النسخ ولا يهمّنا تحقيق أنّ ذلك بحسب الوضع أو بضرب من العناية. والظاهر أنّ الأصل المأخوذ في الموارد المذكورة هو حيث الإزالة والتغيير والتحويل والتبديل، فتكون الموارد المذكورة كلّها من المعاني اللّغويّة واتّسع استعمال اللّفظ فيها بالعناية المأخوذة في الموضوع له، فعلى عهدة الفقيه تعيين المعنى المراد في كلّ واحد من الموارد بحسب القرائن، قال تعالى:

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم». [الحجّ(٢٢) / ٥٢]

و«هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون». [الجاثية(٤٥) / ٢٩]

و«ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدًى ورحمة للّذين هم لربّهم يرهبون». [الأعراف(٧) / ١٥٤]

قوله تعالى: «من آية» أي: من علامة. والآية مطلقة تشمل كلّ مايصدق عليه العلامة سواء كانت تشريعيّةً أو تكوينيةً، فالتشريعيّة مثل الآية الدالّة على حكم من الأحكام فتكون حاكية عن جعله وثبوته والتكوينيّة مثل مايدلّ على وجود الصانع أو على شيء من نعوته وأسمائه جلّ ثناؤه من الأعيان.

ويظهر من آلاء الرحمٰن /١١٤، أنّ المراد من الآية في المقام هو ما في الكتب الإلهيّة السابقة لإطلاق الآية والآيات عليها في عدّة من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: «ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء اللّيل وهم يسجدون» [آل عمران(٣) / ١١٣]. وغيرها من الآيات.

أقول: إطلاق الآية والآيات على تلك الكتب لايوجب تقييد الآية بها ولا انحصارها فيها. ولعلّ منشأ هذا أنّه زعم جواز نسخ حكم من أحكام الشرائع السابقة بالقرآن وعدم جواز نسخ شيء من أحكام القرآن بالقرآن. ولا دليل على هذا، فإنّ الدّين الّذي اختاره وارتضاه سبحانه لأنبيائه وأصفيائه هو الإسلام، قال تعالى:

«لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون». [البقرة(٢) / ١٣٦]

و«إنّ الدّين عند الله الإسلام وما اختلف الّذين أُوتوا الكتاب إلّا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب». [آل عمران (٣) / ١٩]

فالدّين الّذي جاء به الأنبياء الكرام واحد غير أنّ الله سبحانه جعل لكلّ أحدٍ من أنبيائه شرعة ومنهاجاً، قال تعالى:

«لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً». [المائدة (٥) / ٤٨]

فليس نسخ حكم في الشريعة السابقة بشيء من أحكام الشريعة اللّاحقة إلّا كنسخ حكم في الشريعة الواحدة بشيء من تلك الشريعة بعينها.

قوله تعالى: «أَوْ نُنْسِهَا»

أقول: هذا عطف على قوله: «ننسخ» ومجزوم بما جزم به المعطوف عليه. وهو من باب الإفعال بمعنى الإذهاب من الذكر والحفظ وإنساء الآية إذهابها من الذكر وجعلها نسياً منسيّاً بين الناس بحيث لايذكرها ولايعرفها أحد من الناس. وليس في الآية الكريمة مايدلّ على إنسائه تعالى شيئاً من آياته عن ذكر النبي وحفظه وليس سياق الآية الكريمة في بيان شيء من ذلك وإنّما الظاهر منها بيان مالكيته تعالى ملكاً تكوينيّاً وتشريعيّاً على الإطلاق ونفوذ قدرته وسلطانه فيما يملكه ويتصرّفه ويحكم بما يشاء ويريد طبق الحكمة البالغة والتدبير العلمي على ماسيأتي توضيحه في ذيل الآية إن شاء الله. هذا أوّلاً؛

وثانياً، إنّ هذه الآية الكريمة في سورة البقرة وهي مدنيّة. وقوله تعالى: «سنقرئك فلا تنسى * إلّا ما شاء الله إنّه يعلم الجهر وما يخفى * ونيسّرك لليسرى» [الأعلى (٨٧) / ٦ ـ ٨]، في سورة الأعلى وهي نازلة بمكّة في أوائل أمره صلّى الله عليه وآله وهذا صريح في أنّ قراءته صلّى الله عليه وآله إنّما هي بالله وبفعله تعالى وبعنايته الخاصّة به صلّى الله عليه وآله وهو بقرينة قوله تعالى: «لا تنسى» الّذي هو صريح في نفي النسيان عنه صلّى الله عليه وآله على نحو الاستمرار والدوام، يدلّ على إفاضته تعالى العلم بالقراءة وبذكرها وحفظها إليه صلّى الله عليه وآله.

فإن قلت: فما تقول في الاستثناء بقوله: «إلّا ما شاء الله» أي: إلّا ما شاء الله أن لايقرئه تعالى وينسى؟

قلت: الآية الكريمة في سياق الامتنان والحنان على رسول الله صلّى الله عليه وآله والاستثناء بالوجه المذكور خلاف صريح السياق. وصريح في تنزيل الأمر منزلة الأمور العادية وتنزيل شخص رسول الله صلّى الله عليه وآله منزلة الأشخاص العادية. بل العناية في هذا الاستثناء هو أنّه سبحانه ليس مغلول اليد وأنّ كرامته تعالى على رسوله كانت قبل مرتبة العطاء أو في مرتبة فعليّة العطاء ليست على نحو الإيجاب عليه تعالى بل هي تفضّل منه تعالى عليه صلّى الله عليه وآله.

فإن قلت: إنّ أقصى ما تدلّ عليه هذه الآية من عصمته صلّى الله عليه وآله عن النسيان إنّما هو بعد نزول سورة الأعلى فلاتشمل قبل نزولها.

قلت: كلّا، إنّ الآية الكريمة ليست في مقام الإخبار عمّا يفعل على رسوله من الكرامة في المستقبل. وليست أيضاً في مقام الميعاد له صلّى الله عليه وآله من صيانته وعصمته بإفاضته تعالى العلم الّذي عبّر عنه بروح القدس عليه صلّى الله عليه وآله وبيان تيسيره لليسرى. وواضح أنّ الأفعال المذكورة في مرحلة الامتنان سواء كانت بلفظ الماضي أو المضارع يراد بها تحقّق الفعل من غير تقييد بالزّمان وجريانه على نحو الاستمرار والدوام، فالماضي مثل قوله تعالى:

«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس». [المائدة(٥) / ١١٠]

والمضارع مثل قوله تعالى:

«الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والّذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات». [البقرة(٢) / ٢٥٧]

و«إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبي يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً». [الأحزاب(٣٣) / ٥٦]

وحيث إن الفعل المذكور في مقام الامتنان يراد به تحقّق الفعل فقط من دون عناية إلى الزمان فإذا دخلت عليه السين تفيد تأكيد هذا المعنى.

هذا كلّه على قراءة «نُنْسِها» ـ من باب الإفعال من نَسِيَ يَنْسَى ـ وأمّا على قراءة «نَنْسَئْهَا» بإثبات الهمزة في آخرها، كما قال في التبيان ٣٩٢/١: «وقرأ ابن كثير

وأبو عمرو «نَنْسَأْها» ـ بفتح النون والسين إثبات الهمزة الساكنة بعد السين ـ » فمعناها التأخير أي: تأخير الآية المنسوخة عن الوقت المضروب له قليلاً أو كثيراً ثمّ إذا شاء نسخه.

قد تحصّل من جميع ما ذكرنا أنّ الآية الكريمة مطلقة تشمل جميع ما تمسّ عليه يد الخلقة والجعل من الأعيان والآيات التكوينيّة أو الأحكام التشريعيّة المجعولة. وكذلك مطلقة بالنسبة إلى الآية المنسيّة سواء كانت المنسيّة تكوينيّةً أو تشريعيّة.

وقوله تعالى: «نأت بخير منها أو مثلها» جواب للشرط المذكور في صدر الآية ومجزوم بما جزم به الشرط.

قال ابن هشام في المغني ٣٩٨/١ في البحث عن معاني ما: النوع الثاني، الشرطيّة وهي نوعان: غير زمانيّة، نحو «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» [البقرة(٢) / ١٩٧] و «ما ننسخ من الآية...».

فالمعنى: تأتي بشيء خير في الحكمة والمصلحة من المنسوخ والمنسيّ أو نأتي بشيء خير من جنس المنسوخ ومن سنخه بناءً على تجريد أفعل من التفاضل.

وقوله تعالى: «أو مثلها» أي: ماتشابه المنسوخ والمنسيّ ويساويها في الحكمة والمصلحة.

ولا يخفى أنّ ماذكرنا من الإطلاق، إطلاق بدلي. أي: من الآيات مايجوز ويمكن أن يكون منسوخاً أو منسيّاً. وهذا الإطلاق في معرض التقييد لأنّ من آياته، مالايجري فيه النسخ والنسيان مثل الأحكام الثابتة؛ كوجوب التقوى وتحريم الفجور. فعلى عُهدة المفسّر والفقيه، الفحص والطلب عن المخصّصات والمقيّدات المتّصلة والمنفصلة والتفقّه فيها من الكتاب والسنّة وكذلك المقيّدات العقليّة والتدبّر والتأمّل فيها.

ثمّ إنّه لادليل ولاظهور في الآية الكريمة على كون الناسخ في طول المنسوخ والمنسيّ ومقيّداً بزمان بعد زمان المنسوخ ومشروطاً لنسخه، بل الآية الكريمة مطلقة من هذا الحيث أيضاً. ومن الممكن بحسب الواقع والثبوت أن تكون للآية المنسوخة والمنسيّة أمثال ونظائر في عرضها أيضاً متساوياً بعضها في الحكمة والمصلحة مع بعض آخر، فله تعالى أن يأتي بواحدة أخرى بعد رفع الأولى. والكلام في تخصيص كلّ منها بزمان دون زمان مثل الكلام في اختيار الأمور المترجّحة المتساوية ولا دليل على انحصار المثل بأن يكون في طول المنسوخ منحصراً بفرد واحد، فالمعتمد في ذلك هو

ظهور الآية وإطلاقها.

ثمّ إنّه لا دليل على أنّ هذا التبديل والتحويل والإتيان بالخير والمثل بدل المنسوخ والمنسيّ مستند إلى المشيئة الأزليّة كي يكون الإتيان بالمثل إظهاراً وإبرازاً لزوال المنسوخ والمنسيّ وامّحائه بانتهاء أمدها، لأنّه على هذا لايكون الإتيان بالناسخ شروعاً وابتداءً في الناسخ بدل المنسوخ والمنسيّ بل يكون إيجاداً لما كان ثابتاً في الأزل بالمشيئة الأزليّة فعلى هذا لايكون النسخ بمعنى التغيير والإزالة والإبطال بل يكون معناه إظهاراً لزوال عين أو حكم وكذلك لايكون هناك إتيان شيء لم يكن، بل هو إيجاد لما كان ثابتاً في الأزل وهذا عين الالتزام بمقالة اليهود.

فإن قلت: إنّ المقطوع من الكتاب والسنّة أنّ الحوادث الجارية في العالم كلّها لابدّ أن تكون عن تقدير سابق.

قلت: نعم، لابدّ في كل حادثة من مشيئة وإرادة وقدر وقضاءٍ سابق إلّا أنّ المقطوع من الكتاب والسنّة أنّ هذه الحقائق كلّها حادثة بالحدوث الحقيقي لم يكن بوجهٍ ثمّ كان، فالنسخ المسبوق بها لايكون إلّا حادثاً بالحقيقة لأنّه جارٍ عن مشيئة وإرادة وقدر وقضاءٍ حادث مملوك لله سبحانه بالمالكيّة الذاتيّة، فيشاء سبحانه من جهة أنّه مالك لمشيئته وهكذا في إرادته وقدره وقضائه.

قوله تعالى: «ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير». (١٠٦)

أقول: الاستفهام تقريريّ، وواضح أنّ الجواب إقرار وإثبات أي: تعلم ونشهد على أنّه تعالى على كلّ شيء قدير. وهذه الجملة المباركة في مرحلة التعليل لماتقدّم في صدر الآية من جواز نسخ آية وإذهابها أو تأخيرها عن الوقت المضروب عليها وإتيان آية خير من المنسوخة والمنسيّة أو مثلها. وهذه الجملة تقرير لسعة اقتداره تعالى على التبديل والتحويل بإزالة آية ومحوها وإثبات آية أخرى مكانها.

وفيها احتجاج على إبطال قول اليهود: إنّ الحوادث تجري طبق النظام المقدّر المقضيّ في الأزل وليس المراد إلّا إجراء ماكان مكتوباً في الأزل طبق ماكتب لايقدر على تحويل شيء ممّا في هذا الكتاب ولايقدر على كتابة جديدة لم تكتب في الكتاب الأزلي.

قوله تعالى: «ألم تعلم أنّ الله له ملك السّموات والأرض»

هذا تعليل آخر لما تقدّم في صدر الآية الكريمة من جواز إزالة آية وإثبات آية

أخرى مكانها. والفرق بين هذا وسابقه، أنّ السابق لبيان سعة اقتداره تكويناً على تبديل آية مكان آية سواء كانت تكوينيّة أو تشريعيّة واستحالة أن يمتنع عليه تعالى شيء من ذلك بخلاف هذا، فإن هذا تذكرة وتثبيت لشمول مالكيّته تعالى لكلّ شيء ملكاً حقيقيّاً ذاتيّاً تشريعيّاً وتكوينيّاً وليس تصرّفه سبحانه في جميع السماوات والأرض وما فيها ومن فيها إلّا تصرّف ذي حقّ في حقّه فيفعل تعالى مايشاء ويحكم مايريد في نظام التكوين والتشريع طبق المصلحة والحكمة.

وقوله تعالى: «مالكم من دون الله من وليّ ولانصير». (١٠٧)

بمنزلة التفريع على عموم قدرته وملكه تعالى وشمولها لجميع من سواه وما سواه سبحانه. والظاهر أنّ المراد من الوليّ والنصير، من له الولاية الحقّة تكويناً وتشريعاً في القيام بأمرهم وإصلاح شؤونهم في دينهم ودنياهم وينصرهم على ذلك.

والخطاب في قوله: «ألم تعلم أنّ الله...» و«ألم تعلم أن الله له ملك...» و«مالكم من دون الله...» ليس خطاباً مولويّاً كي يسأل عن وجه تخصيص الخطاب في الأوّلين برسول الله صلّى الله عليه وآله وعن وجه تعميمه بالمؤمنين في الثالث، فإنّ الخطاب في الموارد الثلاثة للتنبيه والتذكير بحقيقة تكوينيّة إلّا أنّ في الأوّلين تشريفاً خاصّاً برسول الله صلّى الله عليه وآله حيث جعله صلّى الله عليه وآله شاهداً على سعة اقتداره وشمول ملكه على كلّ شيء وشاهداً على بطلان مقالة اليهود ومن يتبعهم. وفي الخطاب إبراز العطوفة والحنان عليهم بأنّه وليّهم وناصرهم.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟

وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ
١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم
مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ
١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ
تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ
فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢
وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ
لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ
وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ
فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥

قوله تعالى: «أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن

يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل». (١٠٨)

كان دأبهم وسنّتهم الخبيثة إيذاء الأنبياء والسؤال عنهم والاقتراح عليهم بإنزال مايشتهون ويحبّون. قال تعالى:

«يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثمّ اتّخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البيّنات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً». [النساء(٤)/١٥٣]

و«يا أيّها الّذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبدلكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بهاكافرين». [المائدة(٥)/١٠١ و١٠٢]

فالسؤال وكثرته في غير المورد الّذي ندب إليه الشرع قد نهى الله تعالى عنه على ماهو ظاهر الآية في سورة المائدة وكذلك الاقتراح على الأنبياء بإنزال الآيات عليهم وعدم الاقتناع والاكتفاء بما أنزل الله تعالى. والسرّ في ذلك أنّ الكفر بالحجج القيّمة والبيّنات الواضحة الّتي خصّهم الله بها هو الكفر بعد الإيمان والجحود بعد قيام البرهان فمن كان كذلك فهو ضالّ عن الطريق الواضح.

قوله تعالى: «ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبيّن لهم الحقّ».

أقول: الظاهر أنّ المراد من ودّهم وأمنيّتهم بأن يردّوا المسلمين كفّاراً على أعقابهم بعد إيمانهم ليس هو صرف التمنّي القلبي، فإنّ هذا لازم عاديّ لكفرهم، فالحسد المذكور لابدّ أن يكون بتظاهرهم وإيجادهم الغوائل عليهم في مرحلة الإيمان والعمل بإلقاء الشبهة وإعمال النكرى والشيطنة عليهم.

قوله تعالى: «فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي الله بأمره إنّ الله على كلّ شيء قدير». (١٠٩)

أمر الله تعالى بالعفو والصفح والمداراة لهم والغضّ عنهم.

إن قيل: كيف يكون العفو والصفح من المسلمين مع أنّهم لم يكونوا أقوياء ذوي

عدّة وعُدّة وإنّما كان المخالفون أعزّة بين عشائرهم وأقوامهم وحلفائهم.

قلنا: واضح أنّ الباطل وأهله أذلّاء وهما زاهقان؛ والحق وأهله أقوياء باقون فأمروا بالعفو والصفح والغضّ وعدم المؤاخذة لأنّهم متمكنون بالمآل من المؤاخذة فاللازم لهم وقتئذٍ أن يعملوا بما يعمل أهل المجد والكرامة وأهل العزّة والشرافة.

قال في مجمع البيان ١٨٥/١: (وقيل «بأمره» بالقتال. عن قتادة. فإنّه قال: هذه الآية منسوخة بقوله: «قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» الآية. وبه قال الربيع والسدي... وروى عن الباقر عليه السّلام أنّه قال: لم يؤمر رسول الله صلّى الله عليه وآله بقتال ولا أذن له فيه حتّى نزل جبرئيل عليه السّلام بهذه الآية: «أُذن للّذين يقاتلون بأنّهم ظلموا» وقلده سيفا).

قال المولى الأجلّ العلّامة الخوئي (قده) في البيان /١٩٧، ما ملخّصه: إنّ هذه الآية غير منسوخة لأنّ الناسخ لابدّ أن يكون متعرّضاً بلسانه لحال المنسوخ، والمنسوخ يكون موقّتا ومؤبّداً فالموقّت ينقضي بانقضاء وقته والمؤبّد يزاحم دليل الناسخ ويعارضه. الآية الكريمة في المقام مقيّدة بإتيان أمر الله سبحانه فليست مطلقة ولا عامّة ولا ظاهرة في التأبيد كي يرد عليه دليل الناسخ.

أقول: هذا صحيح إذا كان المنسوخ مقيّداً بأمر تشريعيّ وأمّا إذا كان مقيّداً بأمر تكوينيّ متوقّف على مشيئة الله تعالى وغير معلوم لنا بوجه فلايكون إلّا منسوخاً. والعفو والصفح في المقام مقيّد بأمر تكويني وهو عزّة الإسلام وشوكة المسلمين مثلاً لو كانا معلومين.

والحاصل أنّه (قده) قد خلط بين الغاية التكوينيّة والقيد التشريعيّ، فعلى الأوّل يكون نسخاً وعلى الثاني لايكون نسخاً بل ينتهي الحكم بانتهاء أمده.

إن قيل: إنّ في الآية الكريمة إيماء إلى أنّ حكمه تعالى وأمره سبحانه بالعفو والصفح ليس بظاهرة مؤبّداً؛

قلنا: إنّ الأحكام من حيث الإبلاغ تدريجيّة فكلّ حكم سكت الرسول عن إبلاغه كوجوب الجهاد والزكاة والحجّ وتحريم الخمر وأمثالها. فلايمكن القول بعدم وجوبها وعدم تحريم الخمر وبعد البلاغ لايقال: إن الوجوب والتحريم ناسخان للإباحة الأوّليّة. وهذا بخلاف ماكان من أوّل الإسلام في مورد حكم ظاهر في العموم

بحسب الأزمان، فهذا وإن كان عمومه ضعيفاً يلوح من أقطارها أنّه حكم لعلّه يزول إلّا أنّ الدليل القائم على رفعه لايسمّى إلّا ناسخاً.

على أنّ الآية الكريمة المبحوثة ليست من كلا القبيلين إذ لو لم يكن قوله تعالى: «قاتلوا الّذين...» [التوبة (٩) / ٢٩]، لما كان في البين على رفع العفو والصفح دليل. فالآية الكريمة تكون ظاهرة في التأبيد والعموم بحسب الأزمان.

فالمستفاد من روايات الباب، وهو الحق ـ هو أنّ آية العفو منسوخة بآية السيف أي: قوله تعالى: «قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر...» [التوبة (٩)/ ٢٩].

في الخصال ٢٧٤/١، مسنداً عن حفص بن غياث، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سأل رجل أبا عبدالله عليه السّلام عن حروب أميرالمؤمنين عليه السّلام وكان السائل من محبّينا، فقال له أبو عبدالله عليه السّلام:

> إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمداً صلّى الله عليه وآله بخمسة أسياف.... والسيف الثاني على أهل الذمّة قال الله عزّ وجلّ: «وقولوا للنّاس حسناً» [البقرة (٢) / ٨٣]. نزلت في أهل الذّمة ثمّ نسخها قوله: «قاتلوا الّذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» [التوبة (٩) / ٢٩]، فمن كان منهم في دار الإسلام لم يقبل منه إلّا الجزية أو القتل فإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم، وحرمت أموالهم، وحلّ لنا مناكحتهم. ومن كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سبيهم وأموالهم ولم يحلّ لنا نكاحهم ولم يقبل منهم إلّا القتل أو الدخول في الإسلام....

قال تعالى:

«وقاتلوهم حتىٰ لاتكون فتنة ويكون الدين لله» [البقرة (٢) / ١٩٣]

في روضة الكافي ٢٠١/، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن محمد بن مسلم قال:

> قلت لأبي جعفر عليه السّلام: قول الله عزّ وجلّ: «وقاتلوهم حتّى لاتكون فتنة ويكون الدين لله» فقال: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد. إنّ

رسول الله صلّى الله عليه وآله رخّص لهم لحاجته وحاجة أصحابه فلو جاء تأويلها لم يقبل منهم لكنّهم يقتلون حتّى يوحّد الله عزّ وجلّ حتّى لايكون شرك.

وفي الكافي ١٣/٧، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن عبدالكريم بن عتبة الهاشمي قال:

كنت قاعداً عند أبي عبدالله عليه السّلام بمكّة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة فيهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وحفص بن سالم مولى ابن هبيرة وناس من رؤسائهم... فقال لهم أبو عبدالله عليه السّلام: إنّكم قد أكثرتم عليّ فأسندوا أمركم إلى رجل منكم وليتكلّم بحججكم ويوجز. فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فتكلّم... فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروّة وموضع ومعدن للخلافة وهو محمد بن عبدالله بن الحسن فأردنا أن نجتمع عليه فنبايعه ثمّ نظهر معه فمن كان بايعنا فهو منّا وكنّا منه... وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك فتدخل معنا فإنّه لاغنى بنا عن مثلك لموضعك وكثرة شيعتك. فلمّا فرغ قال أبو عبدالله عليه السّلام: أكلكم على مثل ما قال عمرو؟

قالوا: نعم. فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النّبي صلّى الله عليه وآله ثمّ قال: ... يا عمرو دع ذا أرأيت لو بايعت صاحبك الّذي تدعوني إلى بيعته ثمّ اجتمعت لكم الأمّة فلم يختلف عليكم رجلان فيها فأفضتم إلى المشركين الّذين لايسلمون ولا يؤدّون الجزية أكان عندكم وعند صاحبكم من العلم ماتسيرون بسيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله في المشركين في حروبه؟

قال: نعم.

قال: فتصنع ماذا؟

قال: تدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال: وإن كانوا مجوساً ليسوا بأهل الكتاب؟

قال: سواءٌ.

قال: وإن كانوا مشركي العرب وعبدة الأوثان؟

قال: سواءٌ.

قال: أخبرني عن القرآن تقرؤه؟

قال: نعم.

قال: إقرأ: «قاتلوا الّذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ماحرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» فاستثناء الله عزّ وجلّ واشتراطه من الّذين أوتوا الكتاب فهم والّذين لم يؤتوا الكتاب سواء؟

قال: نعم.

قال: عمّن أخذت ذا؟

قال: سمعت الناس يقولون.

قال: فدع ذا....

فظهر من جميع ماذكرنا أنّ الآية المشتملة على العفو والصفح منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: «وأقيموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إنّ الله بما تعملون بصير». (١١٠)

أقول: الظاهر أنّ «أقيموا» عطف على قوله: «فاعفوا» أي: إنّ التشاغل بأمر اليهود ليس بشيء والّلازم هو التشاغل بفرائض الدين والقيام بإتيانها وتقديمها إلى الموت والإيقان بالفوز بها ولن يفوت من العاملين شيء فإنّها بعين الله وكفى بالله عليماً.

قوله تعالى: «وقالوا لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارىٰ».

أقول: قال اليهود لن يدخل الجنّة من كان يهوديًا وقال النصارى لن يدخل الجنّة إلّا من كان نصرانيًا. فعبّر بجملة واحدة والّتي عند التحليل جملتان بالحقيقة.

قال في المجمع ١٨٦/١: «ثمّ حكى سبحانه نبذاً من أقوال اليهود ودعاويهم الباطلة فقال: «وقالوا لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى» وهذا على الإيجاز وتقديره: قالت اليهود لن يدخل الجنّة إلّا من كان يهوديًا وقالت النصارى لن

يدخل الجنّة إلّا من كان نصرانيًّا. ووحّد «كان» لأنّ لفظة «مَن» قد تكون للواحد وقد تكون للجماعة. وإنّما قلنا: إن الكلام مقدر هذا التقدير، لأنّ من المعلوم أنّ اليهود لايشهدون للنصارى بالجنّة ولا النصارى لليهود فعلمنا أنّه أدرج الخبر عنهما للإيجاز من غير إخلال بشيء من المعنى فإنّ شهرة الحال تغني عن البيان الذي ذكرناه».

قوله تعالىٰ: «تلك أمانيُّهم».

قال في النهاية ٣٦٧/٤: التمنّي: تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وما لايكون.

أقول: الظاهر أنّ الأمانيّ بصيغة الجمع باعتبار القائلين لا باعتبار مايستتبع تلك الأمانيّ من عزّتهم وهوان أعدائهم وغيرها. والمراد من الأمنيّة مايخطر ببال صاحبه ويتصوّر كذا وكذا من العزّة والمال والجاه وإذا اشتغل بشيء يغفل عنه ويبطل أمنيّاته أيضاً.

قوله تعالىٰ: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين». (١١١)

أمر الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يطلب منهم البرهان والدليل على دعواهم. والبرهان هو الحجّة والحجّيّة الذاتيّة ليس إلّا للعلم والعقل. وإطلاق البرهان على ذلك في القرآن قال تعالى:

«قد جاءكم برهان من ربّكم». [النساء (٤) / ١٧٤]

و«لولا أن رأى برهان ربّه». [يوسف (١٢) / ٢٤]

و«أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربّك فرعون». [القصص (٢٨)/ ٣٢]

و«ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به». [المؤمنون (٢٣) / ١١٧]

قوله تعالىٰ: «بلىٰ من أسلم وجهه لله».

الإسلام هو دين الله الّذي ارتضاه لأنبيائه ورسله وأوليائه قال تعالى:

«إنّ الدين عند الله الإسلام». [آل عمران (٣) / ١٩]

والمراد من إسلام الوجه لله تبارك وتعالى هو تسليمه نفسه وشخصه بكليّتها لله

مع اشتراط هذا التسليم بالإحسان في نفس التسليم وما يستتبعه من صالحات الأعمال متورّعاً ومخلصاً لله سبحانه. والإسلام بهذا المعنى لاينفكّ عن الإيمان الّذي هو عين الأعمال الخالصة من الجوانح والجوارح.

في معجم مقاييس اللّغة ٨٨/٦، وجه... وربّما عبّر عن الذات بالوجه.

أقول: الوجه هو العضو المعروف. وينبغي أن يقال: إنّ الوجه إذا أضيف إلى الله لامعنى لتفسيره بالعضو المخصوص هو نفس المضاف إليه قال تعالى:

«وجّهت وجهي للّذي فطر السّمٰوات والأرض حنيفاً». [الأنعام (٦) / ٧٩]

و«ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن». [النساء (٤) / ١٢٥]

فإنّ توجيه العضو المخصوص لامعنى له في المقام.

قوله تعالىٰ: «وهو محسن» حال من فاعل «أسلم»، بالإحسان قيد للإسلام فلايكفي في النجاح إسلام الوجه لله فقط بل لابدّ معه أن يكون محسناً ومطيعاً في جميع ما يتوجّه به إليه من العبوديّة فلايكون محسناً لو أهمل وظائفه واستخفّ شؤون مولاه وهتك حريمه.

قوله تعالىٰ: «فله أجره عنده ربّه».

حيث إنّ الشكور من جملة أسمائه تعالى الحسنى فيستحيل في سنّته المقدّسة الفاضلة الإهمال في التفضّل على ثواب المحسنين ولو كان مثقال ذرّة وما دونها، فهو تعالى يقبل يسير مايعتف به ويشكر قليل مايعمل له. قال تعالى:

«إنّ الّذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصّلوٰة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرًّا وعلانيّة يرجون تجارة لن تبور * ليوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنّه غفور شكور». [فاطر (٣٥) / ٢٩ـ ٣٠]

في دار السّلام ٦/٣، في دعاءٍ يسمّى بدعاء الصحيفة:

سبحان الله العظيم وبحمده... وسبحانه من قايل ما أشكره وسبحانه من شكور ما أغفره....

قوله تعالىٰ: «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». (١١٢)

هذا بشارة من الله للمحسنين بالأمان من الخوف وكذلك عدم ابتلائهم بالحزن، لأنّ الحزن ينشأ من الفائتة فلن يفوت لديه تعالى أجر المحسنين.

قوله تعالىٰ: «وقالت اليهود ليست النصارىٰ علىٰ شيءٍ وقالت النصارىٰ ليست اليهود علىٰ شيءٍ وهم يتلون الكتاب كذٰلك قال الّذين لايعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيٰمة فيما كانوا فيه يختلفون». (١١٣)

هذا نزاع بين اليهود والنصارى وقد كذّبهم الله تعالى في نزاعهم هذا، كيف والحال أنّ موسى وعيسى من أنبياء الله الكرام وكتاب اليهود يبشّر بعيسى وكتابه الإنجيل وكذلك كتاب النصارى يصدّق مابين يديه من الرسل وخاصّة موسى عليه السّلام. ومنشأ هذا النزاع العصبيّة السيّئة الّتي أوجبت تكذيب بعضهم بعضاً وشاع التشاجر والتنازع بينهم مع أنّهم يتلون الكتاب وهو القاضي الفاصل بينهم ولاينبغي ولا يحلّ لهم ذلك. وكذلك قال الّذين لايعلمون من عوامهم والأمّيّين منهم مثل قولهم.

وهذا جارٍ بعينه فيما وقع بين اليهود والنصارى في حقّ رسول الله صلّى الله عليه وآله فإنّ اليهود كانوا يعرفون رسول الله صلّى الله عليه وآله ويعرفون محلّ هجرته وعزموا على يثرب وما حولها طلباً لرسول الله صلّى الله عليه وآله ودرك حضوره ليؤمنوا به فلمّا جاؤوا يثرب وسكنوا فيها وعرفوا رسول الله صلّى الله عليه وآله كذّبوه وأعلنوا عداوته. وكذلك عيسى عليه السّلام يصدّق جميع مابين يديه من رسل الله الكرام ويبشّر أيضاً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد. قال تعالى:

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين». [الصفّ (٦١) /٦]

فالآية الكريمة جارية بعموم الحكم وشموله كما يجري اللّيل والنهار، والشمس والقمر إلى يوم القيامة. وممّا ذكرنا يظهروهن ما ذكر من الأقوال:

قال العلّامة البلاغي في آلاء الرحمٰن /١١٨: «وفي المقام تفاسير عجيبة وغريبة. منها ما ذكره الواحدي عن قتادة وذكره غيره عن الحسن أيضاً وهو أنّ بختنصر خرّب بيت المقدس وأعانته على ذلك النصارى. وليت شعري أين بختنصر

من النصارى وهو قبل المسيح بنحو ستمائة سنة. وقريب منه في الغرابة ما ذكره الواحدي. وروي عن كعب الأحبار».

وفي الكشّاف ١٧٩/١: «قال» الجهلة «الّذين» لاعلم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطّلة ونحوهم قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء.

أقول: هذا غير معلوم ولا يدلّ عليه ظاهر الآية.

وفيه أيضاً ١٨٠/: وروي أنّ وفد نجران لمّا قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتّى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدّين وكفروا بعيسى والإنجيل. وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى والتوراة.

والظاهر أنّه لا احتياج إلى ملاحظة شأن نزول الآية فإنّ العصبيّة والبغضاء والعداوة بينهم أمر شائع فضلاً عن التكاذب.

وقوله تعالى: «فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» بتفريق الحقّ عن الباطل والانتصار وللمظلوم على الظالم.

قوله تعالى: «ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها». توبيخ وتهديد على من منع المسلمين والمؤمنين أن يذكروا الله ويعظّموه ويعبدوه في بيوت أذن الله أن ترفع وأمر أن يذكر فيها اسمه. وليس هذا قصّة تاريخيّة ولا قضيّة شخصيّة في واقعة بل هو حكم تكليفيّ مولوي غير منسوخ فالآية شاملة لجميع المانعين وجميع المساجد.

قال الرازي في تفسيره ٩/٤: إلّا أنّهم اختلفوا في أنّ الّذين منعوا من عمارة المسجد وسعوا في خرابه من هم؟ وذكروا فيه أربعة أوجه:

أوّلها: قال ابن عباس: إنّ ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه وألقى فيه الجيف وحاصر أهله وقتلهم وسبى البقيّة وأحرق التوراة ولم يزل بيت المقدس خراباً حتّى بناه أهل الإسلام في زمن عمر.

وثانيها: قال الحسن وقتادة والسدي: نزلت في نبوخذ نصر حيث خرب بيت المقدس وبعض النصارى أعانه على ذلك بغضاً لليهود.

وثالثها: إنّها نزلت في مشركي العرب الّذين منعوا الرسول عليه الصلاة والسّلام عن الدعاء إلى الله بمكّة وألجؤوه إلى الهجرة فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام.

ورابعها: قال أبو مسلم: المراد منه الّذين صدّوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة علم الحديبيّة واستشهد بقوله تعالى: «هم الّذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام» [الفتح (٤٨) / ٢٥] بقوله: «ومالهم ألّا يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام» [الأنفال (٨) / ٣٤].

أقول: ما ذكر من الوجوه والأقوال إنّما هي من المصاديق والموارد الّتي تصدق عليها الآية لا في شأن نزول الآية. على أنّ في ثاني الوجوه ما ذكرنا عن آلاء الرحمٰن. وكيف كان فلا إشكال في إفادة الآية الكريمة تحريم التعرّض لعموم المساجد بتخريبها وصدّ الناس عنها والتعرّض لإقامة ذكر الله فيها.

قال في كنز العرفان ١٠٥/١: «مساجد الله» عام في كلّ مسجد لأنّ الجمع المضاف للعموم كما بيّن في أصول الفقه إن قلت: قيل: إنّها نزلت في الروم لما خربوا بيت المقدس وطرحوا الأذى فيه ومنعوا من دخوله وأحرقوا التوراة. وقيل نزلت في المشركين لما منعوا رسول الله صلّى الله عليه وآله من دخول المسجد الحرام عام الحديبيّة.

قلت: قد بيّن في الأصول أيضاً أنّ خصوص السبب لايخصص العام بل الاعتبار بعموم اللّفظ.

وقال في المنار ٤٣٢/١: (قال شيخنا): سواء كانت الآية في حادثة واقعة أو منتظرة أم كانت وعيداً للّذين لايحترمون المعابد على الإطلاق هي على كلّ حال ناطقة بوجوب احترام كلّ معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبتحريم السعي في خراب المعابد وبالحكم على الّذين يصدّون الناس عنها ويسعون في خرابها أي: هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها، بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الإنكار.

قوله تعالى: «أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلّا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم». (١١٤)

تهديد للمتعرّضين ووعيد لهم من بأس الله الشديد ونقمته، أو تشريع من الله سبحانه بالمنع من دخولهم وإدخال الخوف والذلّ عليهم.

ومال إلى الأخير شيخ الطائفة (قده) في تبيانه ٤٢٠/١، فقال: «وهو الّذي يليق بمذهبنا ويمكن الاستدلال به على أنّ الكفّار لايجوز أن يمكّنوا من دخول المساجد على كلّ حال. فأمّا المسجد الحرام خاصّة فإنّ المشركين يمنعون من دخوله ولايتركون ليدخلوه لحكومة ولا غيرها لأنّ الله تعالى قد أمر بمنعهم من دخوله بقوله: «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر» [التوبة (٩) / ١٧]... وقال الزجّاج: أعلم الله أنّ أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم حتى لايمكن دخول مخالف إلى مساجدهم إلّا خائفاً وهو كقوله: «ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون» [التوبة (٩) / ٣٣] كأنّه قيل: أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلّا خائفين لإعزاز الله الدّين وإظهار المسلمين.

أقول: القول بأنه إخبار عمّا يفعل الله بهم من إظهار المسلمين عليهم ضعيف جدًّا لأنّ الله سبحانه يعظ الكفّار ويذكّرهم أن يخافوا الله ولا يرتكبوا ذلك. وهذا ليس من باب التعبّد بل هو تذكار وموعظة لهم عن المحرّمات والمقبّحات العقليّة لو كانوا يعقلون. ويشهد على ذلك ذيل الآية الكريمة أيضاً: «لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم».

قوله تعالى: «ولله المشرق والمغرب»

أقول: اللّام للملك وكون المشرق والمغرب ملكاً لله تعالى ليس أمراً اعتباريًّا مثل الملك الموجود في المجتمعات. فإنّه إمّا اعتباري محض وكناية عن جواز الانتفاع من العين بحسب العقل والشرع ـ على ماذكروه ـ أو من الأمور الواقعيّة مثل مالكيّة الإنسان لأفعاله من القبض والبسط والفعل والترك. إلّا أنّ الإنسان لمكان مملوكيّته لله تعالى من حيث ذاته ومن حيث ما كان واجداً لمواهبه تعالى من الحياة والعلم والقدرة ليس ملكه لذاته بذاته بل هو مالك بالغير بخلاف مالكيّته تعالى للمشرق والمغرب ولجميع ماسواه فإنّ مالكيّته ذاتيّة.

فالآية الكريمة مسوقة لبيان مالكيّته تعالى للمشرق والمغرب تكويناً وأنّ له تعالى الحكم والتصرّف فيهما كيف شاء، وأراد بحسب التشريع أيضاً.

قوله تعالىٰ: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله»

تفريع ممّا تقدّم من مالكيّته للمشرق والمغرب. وقد رخّص تعالى لعباده أن يولّوا وجوههم أينما شاؤوا. وهذا مطلق يقيّده قوله تعالى: «فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولّوا وجوهكم شطره» [البقرة (٢) / ١٤٤] وهذا في الفرائض؛ ويكون قوله تعالى: «فأينما تولّوا فثم وجه...» يعني أينما تولّوا وجوهكم في النوافل فثمّ وجه الله.

قال الجصّاص في كتابه أحكام القرآن ٧٧/١: وروى معمّر عن قتادة في قوله تعالى: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» قال: هي القبلة الأولى ثمّ نسختها الصلاة إلى المسجد الحرام.

وفيه أوّلاً: إنّ لازم ذلك القول أنّه صلّى الله عليه وآله والمسلمون كانوا قبل كون الكعبة قبلة لهم مخيّرين أينما صلّوا وليست لهم قبلة متعيّنة. وقد ثبت في محلّه بطلان ذلك وأنّ بيت المقدس كان قبل الكعبة قبلة لهم تعيّناً.

وثانياً: إنّ نسبة هذه الآية المبحوث عنها بالنسبة إلى قوله تعالى: «فولّ وجهك...» نسبة العام إلى الخاصّ فلا تعارض بين العام والخاصّ حتى نلتزم بالنسخ.

وثالثاً: إنّ القول بالنسخ متوقّف على العلم بتقدّم نزول هذه الآية عن قوله تعالى: «فولّ وجهك...» ولا دليل على ذلك غير أنّ هذه الآية كتبت في المصحف قبل قوله تعالى: «فولّ وجهك...» وهو لا يعدّ دليلاً.

وقال في مجمع البيان ٢٢٨/١: عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السّلام في قوله تعالى: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» فإنّ هذه الآية عندنا مخصوصة بالنوافل في حال السفر.

وفي الوسائل ٢٢٧/٣، مسنداً عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السّلام أنّه قال له:

> استقبل القبلة بوجهك ولا تقلب بوجهك عن القبلة فتفسد صلاتك فإنّ الله عزّ وجلّ يقول لنبيّه في الفريضة: «فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولّوا وجوهكم شطره» و....

وفيه أيضاً ٢٤٢/: محمد بن الحسن في «النهاية» عن الصادق عليه السّلام في

قوله تعالى: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» قال:

هذا في النوافل خاصّة في حال السفر. فأمّا الفرائض فلابدّ فيها من استقبال القبلة.

وقال الفيض (قده) في الصافي ٤٦: «ولله المشرق والمغرب» يعني ناحيتي الأرض أي: له كلّها «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» قيل: أي: ذاته إذ لايخلو منه مكان.

أقول: يوهم كلامه صدراً وذيلاً وسياقاً اختياره هذا القول. ويرد عليه أنّه لا دلالة في الآية الكريمة على شيء من ذلك ولم يطلق لفظ الوجه على ذاته سبحانه في القرآن، بل الظاهر من لفظ الوجه في القرآن هو مايتوجّه به إلى الله ويتقرّب به إليه سبحانه قال تعالى:

«وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله». [البقرة (٢) / ٢٧٢]

و«فآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للّذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون». [الروم (٣٠) / ٣٨]

و«ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلّا هو كلّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون». [القصص (٢٨) / ٨٨]

أقول: قد نهى الله سبحانه أن يدعى مع الله إله آخر.

قوله تعالى: «كلّ شيء هالك...» في مرتبة التعليل للنهي المذكور في صدر الآية والمراد من الهالك ماهو بمعنى اسم الفاعل بحسب اللّغة أي: يهلك ويفنى، لا الهالك الذاتي بالمعنى الاصطلاحي ضرورة أنّه لايجوز تفسير القرآن بالمعاني المصطلحة والمستحدثة بعد قرون من الإسلام، أي: أنتم وعباداتكم والآلهة الّتي تعبدونها من دون الله وجميع ماسواه تعالى هالك إلّا وجه الله الّذي تتقرّبون وتتوجّهون به إلى الله سبحانه من الأعمال الصالحات الباقيات. وقد وردت عدّة كثيرة من الروايات في تفسير الوجه بهذا المعنى، وفي بعضها أنّ وجه الله هو دين الله. وفي بعضها أنّه النبوّة. وفي بعضها أنّه الإمام، إلى غير ذلك من المصاديق.

في التوحيد /١٤٩، مسنداً عن أبي حمزة قال: قلت لأبي جعفر عليه السّلام قول الله عزّ وجلّ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» قال:

فيهلك كلّ شيء ويبق الوجه. إنّ الله أعظم من أن يوصف بالوجه ولكن معناه كلّ شيء هالك إلّا دينه والوجه الّذي يؤتى منه.

وفيه أيضاً /١٤٩، مسنداً عن صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله عليه السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» قال:

من أتى الله بما أمر به من طاعة محمد والأئمّة من بعده صلوات الله عليهم فهو الوجه الّذي لايهلك ثم قرأ: «من يطع الرسول فقد أطاع الله».

وفيه أيضاً /١٤٩، مسنداً عن الحارث بن المغيرة النضري قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله عزّ وجلّ: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» قال:

كلّ شيء هالك إلّا من أخذ طريق الحق.

وفي الكافي ١٤٤/١، مسنداً عن مروان بن صبّاح قال: قال عبدالله عليه السّلام:

إنّ الله خلقنا فأحسن صورنا وجعلنا عينه في عباده و... وجهه الّذي يؤتى منه.

وفي هذا الباب روايات كثيرة من أرادها فليراجعها. وفيها شهادة ودلالة على أنّ الوجه في هذه الآية الكريمة وكذلك في غيرها من الآيات ليس بمعنى ذاته تعالى. وفيها تصريح أيضاً على أنّ الوجه في القرآن الكريم لم يطلق على الذات.

ومن العجيب أنّ المحقّق الكاشاني (قده) ذكر في الصافي /٤١١، بعد ذكر عدّة من الروايات: «وربّما يفسّر الوجه بالذات وليس ذلك ببعيد».

وممّا ذكرناه من البيان اتّضح تفسير قوله تعالى: «كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام» [(٥٥) / ٢٦ ـ ٢٧]. ويزيد الأمر هنا وضوحاً أنّ الوجه الباقي فيها قد ذكر في مقابل ماهو الفاني على الأرض فلامحالة يكون الوجه الباقي من جملة ما على ظهر الأرض، فإنّ الله سبحانه يجلّ ويعظم عن مقايسته بماهو الفاني على الأرض واستثناؤه سبحانه من جملة ذلك الفاني.

قال في الكشاف ٤٤٦/٤: «وقرأ عبدالله: «ذي» على صفة ربك».

وممّا ذكرنا يعلم أنّ هذه الآية الكريمة أيضاً لاتصلح للاستدلال بها على أنّ

الوجه المذكور فيها بقرينة «ذو الجلال والإكرام» هو ذات الله سبحانه.

قوله تعالى: «إنّ الله واسع عليم». (١١٥)

يمكن أن يقال: إنّه سبحانه واسع الفضل والرحمة لم يشدّد عليكم في أمر القبلة وما جعل عليكم في الدّين من حرج. «عليم» يضع ويجعل من الأحكام ما يصلحكم وتنتفعون بها في دنياكم وآخرتكم.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: «وقالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السّموات والأرض كل له قانتون». (١١٦)

قال في لسان العرب ٧٣/٢: القنوت: الخشوع والإقرار بالعبوديّة والقيام بالطاعة الّتي ليس معها معصيّة.

بيان: الآية الكريمة توبيخ لليهود والنصارى من حيث جهلهم بالله تعالى واعتقادهم فيه سبحانه بالجزاف والخرافة إذ قالت اليهود: عزيز ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقالت اليهود في جدالهم مع رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ ذلك على سبيل القرب والكرامة عليه تعالى والمكانة منه سبحانه. قال تعالى:

«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه قل فلِمَ يعذّبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممّن خلق...». [المائدة(٥) / ١٨]

في الاحتجاج ١٧/١، في احتجاج النبي صلّى الله عليه وآله مع أهل الأديان الخمس اليهود والنصارى والدهريّة والثنويّة ومشركي العرب:

... ثم قال ـ صلّى الله عليه وآله ـ لليهود: أجئتموني لأقبل قولكم بغير حجّة؟

قالوا: لا.

قال: فما الّذي دعاكم إلى القول بأنّ عزيراً ابن الله؟

قالوا: لأنّه أحيى لبني إسرائيل التوراة بعدما ذهبت ولم يفعل بها هذا إلّا لأنّه ابنه.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: فكيف صار عزيز ابن الله دون موسى وهو الّذي جاءهم بالتوراة؟! ورئي منه من المعجزات ما قد علمتم. ولئن كان عزير ابن الله لما ظهر من إكرامه بإحياء التوراة فلقد كان موسى بالبنوّة أولى وأحق؛ ولئن كان هذا المقدار من إكرامه لعزيز يوجب له أنّه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى توجب له منزلة أجلّ من البنوّة، لأنّكم إن كنتم إنّما تريدون بالبنوّة الدلالة على سبيل ما تشاهدونه في دنياكم من ولادة الأمّهات الأولاد بوطء آبائهم لهنّ فقد كفرتم بالله وشبّهتموه بخلقه وأوجبتم فيه صفات المحدثين، فوجب عندكم أن يكون محدثاً مخلوقاً وأن يكون له خالق صنعه وابتدعه.

قالوا: لسنا نعني هذا، فإنّ هذا كفر كما دللت لكنّا نعني أنّه ابنه على معنى الكرامة وإن لم يكن هناك ولادة....

أقول: أبطل صلّى الله عليه وآله كون عزيز ابن الله بكلا وجهيه، فإنّ دعواهم أن المسيح وعزيز ابن الله تعالى على وجه الكرامة والقرب منه تعالى بطلانها بديهي نعم هذا صحيح حيث يقول عظيم من عظماء البشر للشخص الأجنبي منه نسباً: هذا ابني، إكراماً له وإبانة لفضله لأنّ المورد ممّا يجوز أن يكون له ولدٌ فينزّل الأجنبي منزلة الحقيقي بخلاف المورد الّذي يستحيل فيه نسبة الأبوّة والبنوّة الحقيقيتين، فحيث لاحقيقة فلا مجاز.

ولا يقاس ذلك باتّخاذ الخليل والحبيب لعدم استحالة نسبة الحبّ والخلّة بين أوليائه سبحانه وبينه تعالى، بخلاف البنوّة الحقيقيّة فإنّ بطلانها بيّن عند أولي الألباب بل «له ما في السّمٰوات والأرض كلٌّ له قانتون» فما سواه تعالى مملوك له وقائم به ومتقلّب تحت تدبيره وقهره. وأنّى تتحقّق نسبة البنوّة بين من هو مالك وقيّوم بذاته لما سواه وبين ماهو مملوك بذاته له وشيء به ومتقوّم به، فإنّ نسبة الأبوّة والبنوّة لاتجوز إلّا بين الأمور الّتي تكون في عرض واحد والمورد ليس كذلك، فإنّ المالك والقيّوم

شيء بحقيقة الشيئيّة وما سواه ليس إلّا شيئاً به.

فهذا البرهان هو مفاد الآية الكريمة لا ماذكره الرازي في تفسيره ٢٣/٤، من أنّ الآية تدلّ على برهان الوجوب والإمكان، والقدم والحدوث؛ وإن كان جميع البراهين الحقّة قائمة بإبطال مقالتهم السخيفة إلّا أنّ الكلام في مفاد الآية الكريمة وأنّ ملاك الأمر فيها هو عنوان المالكيّة والقيّوميّة.

قوله تعالى: «بديع السّمٰوات والأرض».

قال في لسان العرب ٦/٨: بدع الشيء يبدَعُه بدعاً وابتدعه: أنشأه وبدأه وبدع الركيّة: استنبطها وأحدثها... والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء.

وقال في رياض السالكين ٣٨/: قال الجوهري: ابتدعت الشيء: اخترعته لا على مثال. وقال الزمخشري في الأساس: اخترع الله الأشياء: ابتدعها من غير سبب انتهى. وربّما خصّ الابتداع بالإيجاد لا لعلّة والاختراع بالإيجاد لا من شيء وهو تخصيص اصطلاحيّ لا أصل له في اللّغة.

أقول: هذا عين مفاد الحديث المرويّ في الكافي ١٠٥/١، مسنداً عن محمد بن يزيد قال: جئت إلى الرضا أسأله عن التوحيد فأملى عليّ:

الحمد لله فاطر الأشياء إنشاءً ومبتدعها ابتداءً بقدرته وحكمته لا من شيء فيبطل الاختراع ولا لعلّة فلايصح الابتداع....

وفي الصحيفة المباركة السجّاديّة في دعائه عليه السّلام في التحميد قال عليه السّلام:

ابتدع بقدرته الخلق ابتداعاً واخترعهم على مشيّته اختراعاً....

وفيه أيضاً في دعائه عليه السّلام في يوم عرفة قال:

اللّهمّ بديع السّمٰوات والأرض... أنشأت الأشياء من غير سنخ وصوّرت ما صورت من غير مثال وابتدعت المبتدعات بلا احتذاء....

فالبديع من أسمائه تعالى أي: يوجد الأشياء ويخترعها بلا اقتداء لصانع وبلا سبق مثالٍ عليها. وهذا المضمون من مسلّمات الكتاب والسنّة وهو مساوق لمفاد البداء أيضاً والإيجاد بلا احتذاءٍ والإنشاء ينافي أزليّة العالم والأشياء وقدمها وأنّها من لوازم

ذاته سبحانه كما أنّه يدلّ على عدم أصلٍ مسانخ للمبدَع ـ بالفتح ـ مجرداً كان أو ماديًّا. فالمبدع ـ بالفتح ـ هو الحادث من حيث إنه غير متّكٍ على أصول أزليّة ولا أوائل أبديّة.

والفرق بين البدع والبدء أنّ العناية في الأوّل عدم تماثل المبدع ـ بالفتح ـ بشيء غيره وفي الثاني عدم مسبوقيّة المبدأ بشيء. والتصادق من حيث المورد أصدق شاهد على ما ذكرناه.

قوله تعالى: «وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون». (١١٧)

قال في لسان العرب ١٨٦/١٥: القضاء: الحكم... يقال: قضى يقضي قضاءً فهو قاض إذا حكم وفصل... والقضاء بمعنى العمل... وقوله تعالى: «فاقض ما أنت قاض» معناه: فاعمل ما أنت عامل.

المراد من القضاء في الآية الكريمة هو القضاء الصادر منه تعالى في أفعاله وسننه ومقام هذا القضاء بحسب الروايات المباركة هو المرتبة الرابعة في أفعاله تعالى أي: شاء وأراد وقدّر وقضى. فلا محالة يتعين معنى القضاء في مرتبة وقوع الفعل منه تعالى. وينطبق هذا المفهوم على الحكم أيضاً والحكم متّحد معه بحسب المورد لابحسب المفهوم. وهذا من الموارد الّتي يفترق فيه مفاد الآيات والروايات عن مقالة الفلاسفة. فالمشيئة والإرادة والتقدير والقضاء فعل اختياريّ له تعالى والمدار في هذا الباب أنّ كلّ صفة وفعل له تعالى وقع مورداً للنفي والإثبات فهو فعل له تعالى نحو ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن قال تعالى:

«إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً». [الأحزاب (٣٣) / ٣٣]

و«وما الله يريد ظلماً للعالمين». [آل عمران (٣) / ١٠٨]

بخلاف العالم والحيّ فإنّهما من النعوت الذاتيّة فلامعنى لنفيها عنه تعالى وحيث إنّ عندهم البراهين القطعيّة بزعمهم أوّلوا جميع ماورد في الكتاب والسنّة ممّا يدلّ على حدوث المشيئة والإرادة. ولا يخفى على الباحث الخبير أنّ الكتاب والروايات على كثرتها وتنصيصها غير قابلة للتأويل وكيف يرضى الفقيه المنصف بتأويل ما ورد في

احتجاج مولانا أبي الحسن الرضا صلوات الله عليه مع سليمان المـــروزي في إبـطال مقالته بأنّ الإرادة هي عين العلم.

في التوحيد /٤٤١، مسنداً عن الحسن بن محمد النـوفلي قـال: قـدم سـليمان المروزي متكلّم خراسان على المأمون... فقال سليمان:

... يا سيّدي أسألك؟

قال الرضا عليه السّلام: سل عما بدا لك.

قال: ما تقول فيمن جعل الإرادة اسماً وصفة مثل حي وسميع وبـصير وقدير؟

قال الرضا عليه السّلام: إنّما قلتم: حدثت الأشياء واختلفت لأنّه شاء وأراد ولم تقولوا: حدثت واختلفت لأنّه سميع بصير، فهذا دليل على أنّها ليست بمثل سميع ولا بصير ولا قدير.

قال سليمان: فإنّه لم يزل مريداً.

قال: ياسليمان فإرادته غيره؟

قال: نعم.

قال: فقد أثبتّ معه شيئاً غيره لم يزل.

قال سليمان: ما أثبتّ.

قال الرضا عليه السّلام: أهي محدثة؟

قال سلميان: لا، ماهي محدثة. فصاح به المأمون وقال:

ياسليمان مثله يعايا أو يكابر، عليك بالإنصاف أما ترى من حولك من أهل النظر، ثم قال: كلّمه يا أبا الحسن فإنّه متكلّم خراسان.

فأعاد عليه السّلام المسألة فقال: هي محدثة ياسليمان، فإنّ الشيء إذا لم يكن أزليّا كان محدثاً وإذا لم يكن محدثاً كان أزليّا.

قال سليمان: إرادته منه كما أنّ سمعه منه وبصره منه وعلمه منه.

قال الرضا عليه السّلام: فإرادته نفسه؟

قال: لا.

قال عليه السّلام: فليس المريد مثل السميع والبصير....

وكيف كان فالمدار في هذا الباب مارواه في الكافي ١٤٨/١، عن الحسين بن محمّد، عن معلّى بن محمّد قال: سئل العالم عليه السّلام كيف علم الله؟

قال: علم وشاء وأراد وقدّر وقضى وأمضى؛ فأمضى ماقضى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة وبمشيئته كانت الإرادة وبإرادته كان التقدير وبتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء؛ والعلم متقدّم على المشيئة والمشيئة ثانية والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء.

فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما أراد لتقدير الأشياء فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء، فالعلم في المعلوم قبل كونه والمشيئة في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الأجسام المدركات بالحواسّ من ذوي لون وريح ووزن وكيل وما دبّ ودرج من إنس وجنّ وطير وسباع وغير ذلك ممّا يدرك بالحواسّ.

فللّه تبارك وتعالى فيه البداء ممّا لاعين له، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء، والله يفعل مايشاء فبالعلم علم الأشياء قبل كونها وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها، وبالإرادة ميّز أنفسها في ألوانها وصفاتها، وبالتقدير قدّر أقواتها وعرف أوّلها وآخرها وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلّهم عليها وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم.

هذه الرواية الشريفة شارحة لجميع روايات الباب الواردة في المقام بالبسط تارة وبالقبض تارة، فالمحصّل من جميع ما ذكرناه أنّ القضاء هو آخر مرتبة من مراتب تحقّق الكائنات عن أمره تعالى فبالقضاء يتحقّق والإمضاء هو إنفاذ القضاء وإيقاع الأمر العيني، فالظاهر أنّ هذا المقام هو المعبر عنه بـ«كن فيكون» بلا لفظ ولا نطق.

قوله تعالى: «أمراً» الأمر هذا هو مفرد «الأمور» لا «الأوامر». وما من أمر مجعولٍ مخلوق إلّا لابدّ في تحقّقه من المشيئة والإرادة والتقدير والقضاء والإمضاء. وفي بعض الروايات بزيادة الإذن والكتاب والأجل. والظاهر إرجاع الإذن إلى الإمضاء والأجل والكتاب إلى التقدير.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: «وقال الّذين لايعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الّذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم»

الأشبه بالمقام أنّ الّذين لايعلمون هم اليهود، إذ لم يعهد من مشركي العرب وعبدة الأوثان من اقترح على نبيّنا صلّى الله عليه وآله وعلى سائر الأنبياء بالكلام معه تعالى. ويؤيّد ذلك لو قلنا: إنّ المقترحين على الأنبياء الأوّلين والآخرين من نفس القوم كما هو الأنسب، وحيث إنّ هذا الاقتراح ليس من باب الاهتداء وطلب الحقّ بل من باب اللّجاج والخصام والتعنّت فلايهتدون بأيّة آية كانت. وكيف لم تكفهم الآيات البيّنة والحجج القيّمة؟! وليس هذا إلّا أنّهم مدبرون ومعروضون قد تشابهت قلوبهم في إيجاد الشبهات والانحراف عن منهج الصواب، والتعنّت واللّجاج والعناد. فمن تأمّل في كفّار الأعصار القديمة والحديثة يرى ويشهد أنّ حججهم داحضة وليسوا إلّا مغرضين. ومنشأ ذلك هو بغضهم لأهل الدّين واستكبارهم وتمرّدهم على الحقّ، وعدولهم عن التواضع والتسليم في مقابله، فإنّهم يتعلّلون بالشبهات وحبّهم لأهوائهم وهوساتهم يعمي قلوبهم ويصمّ أسماعهم فيميلون عن الحقّ وإحقاقه والنظر فيه بمراحل.

قوله تعالى: «قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون». (١١٨)

فإنّ العلماء الراسخين، وأهل التقوى واليقين، وأهل الفكر والمعرفة لايرتابون في آيات الله الكونيّة والآيات المنزلة على رسوله بل إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحق.

لايقال: إنّ اليقين لابدّ أن يكون حاصلاً من القرآن فلوكان القرآن مواجهاً للموقنين بآياته يلزم الدور.

لأنّا نقول: قد قدّمنا شطراً شافياً في هذا الباب في قوله تعالى: «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين» فإنّ القرآن هو الهادي السائق المكمّل فالقرآن ليس خطاباً للكافرين فقط ووقفاً خاصّاً لهم بل هو حجّة على المبطل وبرهان على المنكر وهداية للمنيب الخاشع الخائف، وريّ لعطش العلماء، وربيع لقلوب الفقهاء، وشفاء للمؤمنين وخسار للظالمين ودواء لداء الغيّ والضلال والجهالة، وتبيان من العمىٰ وبصيرة وبصائر وإرشاد للمتعلم وتذكرة للغافل، وغير ذلك من أوصافه الّتي ذكرت في روايات أئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

فلا محصّل لتأويل الآية المبحوثة عنها بالكفّار الّذين فيهم استعداد اليقين وتنظيم البراهين والخلوص من الهوى والانحراف وبين أهل اليقين وبين الكافر المنصف مراحل واليقين فوق التقوى بدرجات كما هو صريح كثير من الروايات.

قوله تعالى: «إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم». (١١٩)

البشارة للمؤمنين والإنذار للمسيئين فضل من الله وتأييد وتشويق لأهل الإحسان وهما من وظائف النبوّة ومناصبها، وبإذن الله وأمره حقّ على الفقيه في الدين، العالم لعلوم المبدأ والمعاد ولما يحبّه ويبغضه تعالى من أفعال العباد. قال تعالى:

«فلولا نفر من كلّ فرقة منهم ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون». [التوبة (٩) / ١٢٢]

وفي الآية الكريمة تسلية للنّبي صلّى الله عليه وآله وتقدير لما بلّغ من رسالات ربّه ولما نصح لأمّته وبذل غاية جهده في إنفاذ أمره تعالى وتحكيم دينه، وما على المحسنين من سبيل وسؤال وليس هو صلّى الله عليه وآله مسؤولاً من قبل أصحاب

الجحيم وإنّما عليه البلاغ وعلى الله الحساب من عباده.

قال في جوامع الجامع /٢٤: ولا نسألك عن أصحاب الجحيم مالهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغتَ واجتهدتَ في الدّعوة.

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ
ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا
لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: «ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتّى تتّبع ملّتهم قل إنّ هدى الله هو الهدىٰ».

بيان: الآية الكريمة ظاهرة في ذمّ اليهود والنصارى حيث إنّ رضاهم وغضبهم ناشئان عن عصبيّتهم القوميّة لا عن الحقّ والصدق فلا محالة لاينفعل ولا يتأثّر رسول الله صلّى الله عليه وآله من سننهم السيّئة وتقليدهم الواهي فأمر الله سبحانه ولقّنه أن يعظهم وينصحهم ويذكّرهم أنّ الهدى هدى الله وهو الأحقّ والأولى بالاتباع والتديّن به.

قوله تعالى: «ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذي جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا نصيرٍ». (١٢٠)

تعالى: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» [الزمر (٣٩) / ٦٥]

ثمّ خاطب الله سبحانه نبيّه صلّى الله عليه وآله بقوله: «ولئن اتّبعت...» وواضح أنّ هذا الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وآله لابدّ من تأويله مثل بقوله تعالىٰ «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» [الزمر (٣٩) / ٦٥]

في العيون ١٩٥/١، عن عبدالله بن تميم القرشي مسنداً عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليّ بن موسى عليهما السّلام فقال له المأمون:

يابن رسول الله أليس من قولك: إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى... فقال له المأمون: لله درّك يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله تعالى: «عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم» [التوبة (٩) / ٤٣] قال الرضا عليه السّلام: هذا ممّا نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة؛ خاطب الله بذلك نبيّه وأراد به أمّته. وكذلك قوله تعالى: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين» وقوله عزّ وجلّ: «ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» [الإسراء (١٧) / ٧٤]

قال: صدقت يابن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وقال في تفسير القمي ٢٥١/٢: ثمّ خاطب الله نبيّه فقال: «ولقد أوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونّن من الخاسرين» فهذه مخاطبة للنبي صلّى الله عليه وآله والمعنى لأمّته.

قوله تعالىٰ: «الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به».

ظاهر الآية الكريمة أنّ المراد من «آتيناهم» أي: أعطيناهم على نحو الكرامة والإجلال. وواضح أنّ المراد من الكتاب هو القرآن الكريم لا التوراة والإنجيل ولا يتمكّن أحد يتلوه حقّ تلاوته إلّا أمّة فاضلة تحت عناياته تعالى وكراماته الخاصّة، المؤمنين به والعاملين والعارفين بمقاصده ومراميه ومعارفه وحقائقه وشرائعه وأحكامه فلا محالة لاينطبق هذا التوصيف والتعبير إلّا على الأئمّة الطاهرين من آل الرسول صلّى الله عليه وآله.

في البرهان ١٤٧/١، عن الحسن بن أبي الحسن الديلمي عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام في قوله تعالى: «الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته» قال:

يرتّلون آياته يتفقّهون به ويعملون بأحكامه ويرجعون وعده ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه ويأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه. ماهو ـ والله ـ حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه قال تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته» [ص (٣٨) / ٢٩].

قوله تعالى: «ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون». (١٢١)

الظاهر أن هذا الكفر ليس من باب الجهل بهذا الكتاب وعدم علمه والعرفان به وبأهله بل ظاهر السياق أنّ المراد من هذا الكفر هو العداوة والحسد والعناد لمن يعرف هذا الكتاب.

قوله تعالى: «يابني إسرائيل اذكروا نعمتي الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين». (١٢٢)

الظاهر أنّ الآية الكريمة مسوقة للتذكّر والإرشاد إلى دوام وجوب العمل والثبات عليه طبق ماكانوا يعملون عليه وعدم جواز العدول والنسخ عمّا كانوا يعملونه بالشبهات الواهية المضلّة الّتي لاتستند إلى شيء من الدليل.

قوله تعالى: «واتّقوا يوماً لاتجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون». (١٢٣)

أقول: قد تقدّم تفسيره في قوله تعالى: «واتّقوا يوماً...». [البقرة (٢) / ٤٨]

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: «وإذ ابتلى إبراهيم ربّه».

قال في القاموس ٣٠٦/٤: ابتليته: اختبرته والرجل فأبلاني استخبرته فأخبرني وامتحنته واختبرته كبلوته بلواءً وبلاءً. والاسم البلوى والبليّة والبلوة

ـ بالكسر ـ.

أقول: ليس غرضه تعالى من الامتحان الاستطلاع على سرائر عباده واستكشاف ما في بواطنهم لاستحالة ذلك في حقّه تعالى فإنّه لايخفى عليه نجيّات الصدور وسرائر القلوب بل المراد منه هي العناية الخاصّة والاهتمام الأكيد منه جلّ ثناؤه من سنّته الحكيمة الحميدة في تربية أوليائه وتكميل أحبائه.

وفي معاني الأخبار /١٢٦، عن علي بن أحمد بن محمد مسنداً عن المفضّل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السّلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: «وإذ ابتلى إبراهيم ربّه» فتاب بكلمات ما هذه الكلمات؟ قال:

... والابتلاء على ضربين: أحدهما مستحيل على الله تعالى ذكره والآخرة جائز، أمّا ما يستحيل فهو أن يختبرة ليعلم ماتكشف الأيّام عنه وهذا ما لايصلح لأنّه عزّ وجلّ علّام الغيوب، والضرب الآخر من الابتلاء أن يبتليه حتّى يصبر فيما يبتليه به فيكون مايعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق.

قوله تعالى: «بكلمات».

بيان: هذه الكلمات من كبار التكاليف وعظام الأمور وأشرف المواهب وأعظم العطايا ضرورة أنّ ظرف هذا الابتلاء وموقفه ومورده بعد تشرّف إبراهيم بمقام النبوّة والرسالة وبعد تحلّيه بلباس الاصطفاء والخلّة؛ وقد تأدّب بأدب العبوديّة وحصلت له الطمأنينة والسكينة الإلهيّة، وقد تمكّن من حمل أثقال النبوّة والرسالة وقد حان الحين أن يعرج إلى سماء الإمامة الرفيعة ويتّكئ على كرسيّ الكرامة. وليس المراد من الكلمات هي الخصال العشرة الّتي سنّها إبراهيم عليه السّلام قبل رسالته ونبوّته كي يكون بإتيانها مستحقًّا ونائلاً مقام الرسالة والنبوّة أو امتحن بها في مرتبة الرسالة والنبوّة فصار بامتثالها نائلاً مقام الإمامة على ما سيجيء الكلام في ذلك في معنى الإمام المذكور في الآية الكريمة.

وواضح أنّ المراد من الكلمات ليس ماهو المصطلح عند الناس من جنس القول واللّفظ، بل المراد منها أو من بعضها هي الأمور العينيّة سواء كانت من الموجودات الخارجيّة أو حكماً إلزاميًّا أو عهداً أو ميثاقاً أو بلاءً ومحنة وشدّة وعزيمة.

وقد شاع إطلاق الكلمة في القرآن على هذه الأمور. قال تعالى:

«إذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم...». [آل عمران (٣) / ٤٥]

و «فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيّداً وحصوراً ونبيًّا من الصّالحين». [آل عمران (٣)/ ٣٩]

وعليك باستخراج الموارد من الآيات القرآنيّة وسنذكر بعضها في طيّ الأبحاث الآتية إن شاء الله. والظاهر أنّ وجه إطلاق الكلمة على هذه الأعيان والحوادث من قبيل إطلاق الايجاد على الوجود أي: من باب إطلاق السبب على المسبب فإنّ الوجود يتحقّق بالايجاد ووجود كلّ من الأعيان والحوادث والعهود والمواثيق إنّما يتحقّق بكلمة «كن» قال تعالى:

«إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» [يس (٣٦) / ٨٢]

في التوحيد /١٣٣، عن جعفر بن محمد مسنداً عن مقاتل بن سليمان، قال: قال أبو عبدالله الصادق عليه السّلام:

لمّا صعد موسى عليه السّلام إلى الطور فنادى ربّه عزّ وجلّ قال: ياربّ أرني خزائنك، فقال: ياموسى إنّما خزائني إذا أردت شيئاً أن أقول له: كن فيكون.

فيصير جميع مايتحقّق ويوجد بأمره تعالى من الحقائق والأعيان والأمر والعزيمة والأخذ والعطاء والإهانة والإكرام والعهود والمواثيق كلّه موجوداً ومتحقّقاً بكلمة «كن» فيكون جميع ما اختبره الله سبحانه إبراهيم به من العطايا والمواهب والرغائب والمحن والشدائد وغيرها كلّها ممّا يصدق عليه الكلمة.

وحيث إنّ العناية في المقام هو التذكّر بمقام إبراهيم وبيان عطفه وحنانه تعالى عليه والتقدير والتشكّر له وفي بيان ما اصطفاه سبحانه بها من المواهب الكريمة الإلهيّة ولم يكن تعداد الكلمات وشرح حقيقتها دخيلاً في غرض الآية، فأجمل تعالى وأبهم ذكرها فعلى عهدة المفسّر استخراجها واستنباطها من الآيات القرآنيّة أو من الآثار المرويّة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعن آله الأوصياء الأئمّة.

وأمّا بيان حقيقة هذه الكلمة الّتي عبّر عنها في القرآن الكريم بكلمة «كن» ووجه إطلاق الكلمة على هذه الحقيقة القرآنيّة فخارج عن محل البحث.

ابتلاءات إبراهيم عليه السّلام.

من الموارد الّتي امتحن الله سبحانه بها إبراهيم عليه السّلام ابتلاؤه بنار نمرود، قال تعالى:

«وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين * ونجيناه ولوطاً إلى الأرض الّتي باركنا فيها للعالمين» [الأنبياء (٢١) / ٧٠ ـ ٧١]

ومنها ابتلاؤه بإرادة الملكوت له، قال تعالى:

«وكذلك نري إبراهيم ملكوت السّموات والأرض وليكون من الموقنين» [الأنعام (٦) / ٧٥]

ومنها ابتلاؤه بتسريح هاجر وإسماعيل وإسكانهما بين جبال في واد غير ذي زرع، قال تعالى:

«ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيّتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم» [إبراهيم (١٤) / ٣٧]

ومنها ابتلاؤه بذبح ولده، قال تعالى:

«فلمّا أسلما وتلّهُ للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنّا كذٰلك نجزي المحسنين * إنّ هذا لهو البلاءُ المبين» [الصافات (٣٧) / ١٠٣ ـ ١٠٦]

ومنها ابتلاؤه بالقبطي وما نجّاه تعالى من شرّه، وغير ذلك من مواقفه الجميلة. وقد وردت بعض هذه الموارد فيما رواه في معاني الأخبار /١٢٦.

إن قيل: أيّ مانع أن يقال: إنّ المراد من الكلمات ماكان من جنس القول واللّفظ في هذه الآية وفي غيرها من الآيات الّتي فيها لفظ الكلمة.

قلت: إنّ كثيراً من الآيات لايوافق ذلك كما في قوله تعالى:

«إذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم...». [آل عمران (٣) / ٤٥]

قال في كنز العرفان ٥٥/١: «إنّ المراد بالكلمات هي الخصال العشر الّتي سنّها إبراهيم عليه السّلام: خمس في الرأس وخمس في البدن. أمّا الرأس فالمضمضة والاستنشاق والفرق وقصّ الشارب والسواك. وأمّا البدن فالختان وحلق العانة وتقليم الأظفار ونتف الإبطين والاستنجاء بالماء وإذا كانت هذه من شريعة إبراهيم كانت أيضاً من شريعة نبيّنا (ص) لقوله تعالى: «واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً» [النساء (٤) / ١٢٥] ولقوله تعالى: «ملّة أبيكم إبراهيم» [الحج (٢٢) / ٧٨].

وقريب منه عبارة الأردبيلي في زبدة البيان /٤٤، وعبارة الجزائري في قلائد الدرر ٧٣/١.

أقول: هذا القول ضعيف من وجوه:

١ ـ إنّ الآيتين لا دلالة فيهما على شيء من المدّعى، أمّا الآية الأولى وهي قوله تعالى: «ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً واتّخذ الله إبراهيم خليلاً» [النساء (٤) / ١٢٥].

فالآية الكريمة كما ترى مسوقة في مقام التذكّر إلى وجوب الإيمان بالتوحيد والتسليم المحض وإسلام الوجه بكلّيته لله سبحانه اقتداءً واتباعاً لملّة إبراهيم فإنّه قد كان ـ عليه السّلام ـ ممن أسلم وجهه لله سبحانه قال تعالى:

«ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين». [البقرة (٢) / ١٣٠ ـ ١٣١]

فهذه الآية الكريمة في مقام الثناء على إبراهيم عليه السّلام والتقدير والتشكّر له وصريحة في أنّه أسلم لله وانقطع إلى جنابه جلّ ثناؤه وهذا الموقف الخطير من أجلّ مواقفه ولم يطأ هذا الموقف أحدٌ إلّا قليل من المقرّبين وقد دخل حريم القرب ومجلس الأنس، وقد كان عليه السّلام مراقباً ومحافظاً لأدب الحضور حيث كلّمه ربّه تعالى بقوله: «أسلم» وقال في الجواب: «أسلمت لربّ العالمين» مراعياً لجلاله تعالى وكبريائه ولم يرسل نفسه ولم يقل: أسلمت لك ونظائرها من الأجوبة.

فاتّضح ممّا ذكرنا أنّ قوله تعالى: «واتّبعَ ملّة إبراهيم حنيفاً» عطف تفسيريّ لقوله تعالى: «أسلم وجهه لله» وأجنبيّ عمّا قالوا من أنّ الاتباع إنّما هو في أمثال

الخصال العشر.

والظاهر من هذه الآية الكريمة ونظائرها في القرآن الكريم أنّ المراد من ملّة إبراهيم في هذه الآيات هو التوحيد الّذي جاهد إبراهيم في إبلاغه وتحكيمه مجاهدات كثيرة؛ قال تعالى حكاية عن يوسف الصديق: «واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون» [يوسف (١٢) / ٣٨]

وأمّا الآية الثانية وهي قوله تعالى: «وجاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدّين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس». [الحجّ (٢٢) / ٧٨]

قال في المجمع ٩٦/٧: «ملّة أبيكم» منصوبة بإضمار فعل تقديره: واتّبعوا والزموا ملّة أبيكم.

أقول: فعلى هذا تكون هذه الآية أيضاً كما في نظائرها مسوقة للتذكّر إلى التوحيد أي: اتّبعوا صراط التوحيد ومنهاج الإسلام. وهي أيضاً أجنبيّة عمّا ذكروه من أنّ المراد من الكلمات هي الخصال العشر في الآية المبحوث عنها، وأنّ المراد من وجوب اتّباع الملّة، اتّباع إبراهيم عليه السّلام في الاتيان بالخصال المذكورة أو ما يعمّها ويشملها.

فإن قلت: فأيّ مانع من القول بإطلاق الملّة وشمولها للخصال العشر؟

قلت: لاكلام في أنّ الخصال العشر بحسب الأدلّة من أجزاء الدين إلّا أنّ الآيات مسوقة للتذكير بالتوحيد والاحتجاج على المشركين في إثباته وتحكيمه ووجوب اتباعه، وإبطال الشرك وتقبيح اتّباعه، فورد النفي والإثبات هو التوحيد والشرك لا الدين على الإطلاق.

٢ ـ ظاهر الآية أنّ الله سبحانه اختبر إبراهيم عليه السّلام بهذه الكلمات فأتمّها إبراهيم عليه السّلام وعمل بها فجعله تعالى وسيلة لنيل مقام الإمامة، فلو كان مورد الاختبار والامتحان قبل مرتبة الرسالة والنبوّة والإمامة فلامحالة يتوقّف تسنينها وتقنينها على أن يكون إبراهيم رسولاً ونبيّاً وإماماً، إذ لا محصّل لأن يكون الانسان

العادي غير الرسول والإمام قد سنّ من عند نفسه خصالاً وعمل بها فجعله تعالى بامتثالها رسولاً إماماً بداهة أنّه ليس له حقّ التشريع والتقنين فضلاً عن أن يكون هذا التشريع والعمل به وسيلة إلى نيله بالرسالة والإمامة.

٣ ـ إن كان المراد من الخصال الّتي سنّها إبراهيم عليه السّلام أي: سنها تعالى وأمر بإتيانها في مرتبة الرسالة والنبوّة فأتمّها إبراهيم وصار بها مستحقاً لمقام الإمامة.

فيرد عليه أنّ الخصال المذكورة تخرج عن عهدة امتثالها أضعف المؤمنين فكيف يصح أن يقال: إنّ الله تعالى اختبر أعظم نبيّ من أنبيائه بها فجعله بامتثالها إماماً للناس.

قوله تعالى: «فأتمّهنّ».

المناسب للسياق أنّ فاعل «أتمّ» هو الله سبحانه. ومعنى إتمامه تعالى الكلمات في شأن إبراهيم عليه السّلام، أنّه بعد ابتلائه بالكلمات قام بها قيام المخلصين وجدّ واجتهد في امتثالها اجتهاد العابدين ووفى بعهده تعالى وابتغى مرضاته بأتمّ مايمكن وأكمل مايكون؛ وحيث إنّه كان تحت حمايته تعالى ومستظلاً في ظلّ عناياته وولايته وعصمته، نسب الإتمام إلى نفسه القدّوس بعناية المساعدة الكاملة والتأييد في حقّه. وفي هذا التعبير غاية التشريف لإبراهيم عليه السّلام كما في قوله تعالى: «وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى» [الأنفال (٨) / ١٧] وفيه إشعار لإبراز التشكّر والتقدير لوفائه وإخلاصه عليه السّلام. ويمكن أن يكون الضمير عائداً إلى إبراهيم على خلاف السياق.

قوله تعالى: «إنّي جاعلك للنّاس إماماً».

تنقيح البحث في المقام يحتاج إلى تحرير أمور:

١ ـ لا يخفى أنّ هذه الجملة وهذا القول منه تعالى متفرّع ومترتّب على إتمامه تعالى الكلمات ووفاء إبراهيم عليه السّلام وخروجه من عهدتها وقد شكر الله سبحانه سعي إبراهيم عليه السّلام وتقبّل منه قبولاً حسناً وأعطى له مثوبة كريمة وجعله إماماً وجعل الإمامة له ذكراً باقياً وثناءً خالداً بخلود القرآن الكريم وأهله، يقرع به أسماع الجنّ والإنس وأسماع المقرّبين من أولياء محمد وآله الطاهرين عليهم السّلام فإنّهم يقرؤون هذه الآية آناء اللّيل والنهار. وهذه سنّته تعالى الحميدة في هذا الكتاب الكريم

في التنويه بأسماء أحبائه والتشريف بشأن أوليائه فليست هذه الجملة مستأنفة ولا مفصولة عمّا قبلها كما توهّمه بعض المفسّرين على ما سنشير إليه ذيلاً.

٢ ـ لا يخفى عند أولي الألباب أنّ القول المذكور في الآية والأمر المجعول به إذا كان مترتّباً ومتوقّفاً على الابتلاء بالكلمات وفي مرتبة الابتلاء بها فلايجوز أن يقال: إنّ هذا القول والأمر المجعول به في مرتبة إتمام الكلمات والابتلاء بها فلا محالة يكون هذا القول والأمر المجعول به متأخّراً عن الابتلاء زماناً ورتبة. والاستنباط والاستظهار على ماسنشير إليه يساعدان أنّ موطن ابتلائه عليه السّلام بهذه الكلمات إنّما كان في ظرف نبوّته ورسالته لاقبلهما فإنّه عليه السّلام قد كان نبيًّا ورسولاً قبل هذا الابتلاء وقبل هذا القول والجعل لأن هذا القول منه تعالى ليس إلّا على سبيل الوحي وليس أوّل وحي يوحيه تعالى إلى إبراهيم بحيث تنبّأ به مبتدئاً به ولم يكن نبيًّا ولا رسولاً قبل هذا حتّى جعله تعالى رسولاً ونبيًّا بهذا الوحي، وإن أبيت ذلك تعصّباً وتجاهلاً فإطلاق الآية الكريمة قاطع وحاكم ببطلان ما توهّم أن الابتلاء كان قبل النبوّة والرسالة.

ومن العجيب ما في المنار ٤٥٥/١، حيث قال: «وقد فصلت الجملة عمّا قبلها لأنّها جواب عن سؤال مقدّر تدلّ عليه القرينة. قال شيخنا: ولم يقل: فقال إنّي جاعلك، للإشعار بأن هذه الإمامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات فإنّ الإمامة هنا عبارة عن الرسالة وهي لاتنال بكسب».

٣ ـ نسب تعالى الجعل إلى نفسه العليم الحكيم فإنّه سبحانه أعلم حيث يجعل إمامته كما أنّه أعلم حيث يجعل رسالته. فليس جعله مرادفاً لخلق. فالجعل في الأعيان والتكوين مثل قوله تعالى: «وجعل اللّيل سكناً» [الأنعام(٦) / ٩٦] ونظائرها أي: خلقها وقرّرها لذلك بحكمته وتدبيره وأمّا الجعل في غير الأعيان كما في الآية المبحوث عنها وأمثالها. فالعناية الملحوظة متوجهة إلى حيث التشريع والتعبد المولويّ بحيث لولا جعله تعالى لما تحقّق بجعل جاعل غيره سبحانه فإنّ الجعل والتشريع حقّ طلق له سبحانه ومن شؤون مالكيّته تعالى على الخلق وعلى التصرّف في أمورهم وشؤونهم فلايملك الخلقَ والتصرّف في شؤونهم إلّا الله وحده لاشريك له فمن نصب نفسه أو غيره إماماً من دون الله تعالى ومن غير إذنه سبحانه فقد نازع سلطان الربّ تعالى

وهو حرام بالضرورة العقليّة.

وأمّا بناءً على أنّ الإمام هو الرسول كما نقلنا عن المنار أو النبي كما صرّح به الرازي في تفسيره ٣٩/٤، فيكون المجعول أمراً تكوينيًا على ما سنشير إليه وعلى ما ذكرنا يكون المجعول أمراً مولويًا في مرتبة متأخّرة عن الرسالة والنبوّة. ومن المناصب المجعولة للإنسان الرسول والنبي حقّ التصرّف والرتق والفتق في أمور الناس؛ وهذا من الأمور الوضعيّة.

وقد أنكر الرازي في تفسيره ٤٠/٤، على من استدلّ بهذه الآية على أنّ الإمامة لاتثبت إلّا بالنّص وقال ما خلاصته: إنّ النصّ طريق إلى إثبات الإمامة ولانزاع فيه وإنّما النّزاع في أنّها هل تثبت بغير النّص؟ وليس في الآية تعرّض لهذه الجهة لا بالنّفي ولا بالإثبات.

أقول: هذا خروج عن البحث التفسيري وخلط بينه وبين البحث الكلامي فالآية الكريمة نصّ في أنّ الجاعل للإمامة هو الله سبحانه وظاهرة أيضاً أنّ حقيقة الإمامة غير النبوّة والرسالة وأنّ محلّ هذه الإمامة ومقرّها هو إبراهيم الرسول والنّبي. وكم فرق بين مقام ثبوت الإمامة في نفس الأمر بجعله تعالى وبين مقام إثباتها بعد الفرغ من ثبوتها. والآية الكريمة ناظرة إلى الجهة الأولى وناصّة في أنّ جعل الإمامة بيده تعالى ولاتحصل إلّا بجعله سبحانه وتنصيصه على ذلك.

ثمّ لايخفى أنّ قوله تعالى: «إنّي جاعلك» ليس مواعدة بينه تعالى وبين إبراهيم عليه السّلام بمعنى أنّه سيجعله إماماً كما زعمه الرازي بل الظاهر أنّ إخباره بذلك لإبراهيم عين جعله تعالى إماماً وعين عطائه تعالى الإمامة إيّاه.

قوله تعالى: «للنّاس»

أقول: لايجوز الاستدلال بهذا على عموم إمامته عليه السّلام بحسب الأزمان والأشخاص والأحكام حتّى يكون إماماً للكلّ ضرورة أنّ هذا لايدلّ على عموم مافيه الائتمام وموارده فالقدر المسلّم من عموم «الناس» هو عموم أهل دعوته المسؤولين بالائتمام به وأمّا بالنسبة إلى غير أهل دعوته من الأنبياء الأئمّة بعده والأمم المسؤولين باتّباعهم والائتمام بهم وكذلك بالنسبة إلى الأنبياء غير الأئمّة وأممهم، فلا محالة ينحصر مورد الإمامة والائتمام بإبراهيم عليه السّلام بالأحكام المولويّة الّتي لم

تنسخ وأمّا بالنسبة إلى غير هذه الموارد فلا يصدق الاتّباع والائتمام فيها سواء كانت من المعارف والأصول أو غيرها من الأحكام.

توضيح ذلك: إنّ من عرف الله ربّه بحقيقة إيمانه وعرف توحيده سبحانه ونعوته وكمالاته ومعاني أسمائه يجب عليه بضرورة من عقله وعلمه، الإيمان والتصديق بما عرف وعلم. وكذلك باب المستقلّات العقليّة في الأحكام وباب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ومساويها على عرضها العريض فإنّ كل ذلك معلوم بضرورة العقول وقد تمّت الحجّة الإلهيّة فيها على ذوي العقول فلا محصّل للاتّباع والائتمام في تلك الأمور فيبقى مورد الإمامة والائتمام في الأحكام المولويّة الموروثة عن إبراهيم وعن غيره من الأنبياء الأئمّة عليهم السّلام الّتي لم تنسخ بعد؛ وما من شك في أن تلك الأحكام منسوخة فالظاهر أنّها تستصحب كما هو المقرّر في محلّه.

ولا يخفى أيضاً أنّه لايصحّ الاستدلال على عموم إمامة إبراهيم عليه السّلام بقوله تعالى: «ثمّ أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً» [النحل (١٦) / ١٢٣]. وقوله تعالى: «ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً» [النساء (٤) / ١٢٥]. ونظائرهما من الآيات، لأنّا ذكرنا شرحاً شافياً فيما تقدّم أنّ تلك الآيات في سياق الدعوة والإرشاد، التذكير بالدين الخالص عن الشرك، وإلى وجوب الإيمان بالتوحيد، وفي سياق الترغيب والتشويق، وفي تثبيت من آمن واتّبع صراط التوحيد، وفي بيان أنّ على النّاس أسوة حسنة في إبراهيم عليه السّلام، وأنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتبعوه ولا دلالة في هذه الآيات للاتّباع المولوي التشريعي. وفي هذه الآيات دلالات وإشارات على أنّ لإبراهيم مواقف كريمة ومجاهدات كثيرة في القيام بأمر التوحيد.

فإن قلت: فأيّ مانع من الأخذ بإطلاق هذه الآيات في وجوب الاتباع في غير مورد التوحيد وفي امتثال الأحكام التشريعيّة أيضاً.

قلت: الأوامر الارشاديّة لا إطلاق فيها ولاتقييد وإنّما تدور مدار الأمر المرشد إليه سعة وضيقاً، هذا أوّلاً: وثانياً لايمكن القول بسريان الأمر الإرشادي إلى موارد الأمر المولوي وكذلك بالعكس. وسيأتي مزيد توضيح لذلك في طيّ الأبحاث إن شاء الله.

قال الرازي في تفسير المقام: «لمّا وعده تعالى أن يجعله إماماً للناس حقّق الله تعالى ذلك الوعد فيه إلى مقام الساعة فإنّ أهل الأديان مع شدّة اختلافها ونهاية تنافيها يعظّمون إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ويتشرّفون بالانتساب إليه إمّا في النسب أو في الدين والشريعة حتّى أنّ عبدة الأوثان كانوا معظّمين لإبراهيم عليه السّلام».

أقول: هذا الوجه في نهاية الوهن والسقوط فإنّ الآية الكريمة في سياق التقدير لإبراهيم وإعطاء الإمامة إيّاه عليه السّلام تشريفاً وتكريماً في مرحلة الثواب لإتمام الكلمات. ولا شاهد في المقام أنّ ذلك وعد لإبراهيم سيحقّقه تعالى ويجعله إماماً إلى قيام الساعة. ولا ندري أيّ مناسبة بين إبراهيم وبين الوثنيين وبين اليهود والنصارى القائلين بأنّ عزير ابن الله والمسيح ابن الله، والحال أنّه تعالى يقول: «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبي والّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين» [آل عمران (٣) / ٦٨]

فتحصّل في المقام أنّ مورد الاتّباع والائتمام بإبراهيم الإمام هي السنن الّتي سنّها إبراهيم عليه السّلام وأمر بها ونهى عنها بأمر الله تعالى وبإذنه بالإمامة الّتي أعطاها وكذلك فيما يفعل ويحكم ويأتي ويترك في الشؤون الاجتماعيّة من القبض والبسط في أمور العباد؛ والطريق في إثبات ذلك السنن والأحكام هي الأدلّة الشرعيّة أي: القرآن الكريم والروايات المعتبرة المأثورة عن النّبي صلّى الله عليه وآله وعن آله الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام.

قوله تعالى: «إماماً»

قال في لسان العرب ٢٤/١٢: ابن سيده: والإمام ما ائتمّ به من رئيس وغيره والجمع أئمّة.

وقال في القاموس ٧٨/٣: الإمام مايؤتمّ به وغيره.

أقول: قوله تعالى «إماماً» مفعول ثان لقوله تعالى «جاعلك» والظاهر أنّه مصدر من أمّ يؤمّ بمعنى المأموم مثل الإله بمعنى المألوه فيه.

قال في رياض السالكين /٤٧٦: الإمام بمعنى المأموم كما نصّ عليه الجوهري.

وقال الرازي في تفسيره ٣٩/٤: الإمام اسم من يؤتمّ به كالإزار اسم لما يؤتزر

أي: يأتمّون بك في دينك.

أقول: الظاهر ماذكره من أنّ الإمام مصدر من أمّ يؤمّ قد روعي فيه المعنى الوصفي والاشتقاقي وأمّا ما ذكره الرازي من أنّه اسم من يؤتمّ به كالإزار فبعيد جدًّا لما فيه من عدم العناية إلى المعنى الوصفي.

وكيف كان فالأمر المجعول بقوله تعالى: «جاعلك للناس إماماً» أي: نجعلك مؤتمّاً بك ومقتدي بك في جميع ما أمرت ونهيت، وفي كلّ ماتفعل وتترك من الشؤون الدينيّة. ولايجوز تفسير ذلك بالرسالة ـ كما فسّره بذلك في المنار ـ ولا بالنبوّة ـ كما فعله الرازي ـ إذ لامناسبة ولا مساس بين مفهوم النبوّة والرسالة والإمامة ومصداقها.

توضيح ذلك: إنّ النبي والرسول صفتان مشبهتان أخذتا من فعل لازم فالرسول أخذ من رسل يرسُلُ باعتبار كونه حاملاً للرسالة الّتي تلقّاها من رسل السماء والنبيّ أخذ من نبأ باعتبار أخذه النبأ من الله سبحانه من غير واسطة وصار حاملاً إيّاه من دون عناية أخذه من سفير أو رسول وكلاهما يقع مفعولاً لبعث وأرسل قال تعالى:

«فبعث الله النبيّين». [البقرة (٢) / ٢١٣]

و«هو الّذي بعث في الأميّين رسولاً». [الجمعة (٦٢) / ٢]

و«هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ». [التوبة (٩) / ٣٣]

وممّا ذكرنا يعلم أنّ تفسير الرسول بمن أرسل إليه الوحي وأمر بالبلاغ؛ والنبي من أوحي إليه سواء أمر بالبلاغ أم لا، في نهاية الوهن والسقوط ضرورة أنّ البلاغ وعدمه خارجان عن مفهوم اللّفظين وأجنبيّان عنه لما عرفت أنّهما مأخوذان من الفعل اللّازم فلا محصّل لأن يقع الرسول والنبيّ بعد الأمر بالبلاغ مفعولاً لبعث وأرسل. وليت شعري كيف يصح تفسير الإمام بالرسول والنبيّ مع تباينهما مفهوماً ومصداقاً وتباين كلا اللّفظين مع الإمام مفهوماً ومصداقاً فإنّ الإمامة أمر تشريعيّ مولوي على ما سيأتي بيانه إن شاء الله والرسالة والنبوّة أمران عينيّان خارجيّان لأنّهما عبارتان من العلم المفاض من الله سبحانه على انسان مع الواسطة أو بدونها.

فإن قلت: إنّ الإمام في اللّغة من يؤتمّ ويقتدى به وهو ينطبق على من يقتدى به في الدّين ولاريب أنّ الأنبياء والرسل يجب الاقتداء بهم فأيّ مانع أن يقال: إنّ

الامام المذكور في الآية هو الرسول والنبي اللّذين يجب الاقتداء بهما.

قلت: قد توهّم الرازي ذلك في تفسيره وذكر وجوهاً ضعيفة لاثباته وقد أعرضنا عن إيرادها. وهذا القول واضح الفساد ضرورة أنّ وجوب اتّباع الرسول والنبيّ فيما يتلقّيانه عن الله سبحانه من مصاديق الامتثال لأمره تعالى وبديهي أنّ امتثال أمره تعالى واجب باستقلالٍ وضرورة من العقل وجوباً ذاتيًا لا تناله يد الجعل المولوي، فلا يعقل أن يكون مجعولاً تشريعيًا. وعلى هذا يكون وجوب الائتمام بالرسول والنّبي وجوباً طريقيًا إلى امتثال أمره تعالى ويكون الائتمام بهما واجباً بعين وجوب امتثال أمر الله فلا يصحّ أن يقال: إنّ وجوب اتّباع الرسول والنّبيّ فيما يتلقّيانه عن الله في المعارف والعقائد والأحكام مجعول بالجعل المولوي ولايجوز أن يقال: إن الإمامة المجعولة في الآية الكريمة عبارة عن جعل الرسول والنبيّ باعتبار وجوب طاعتهما تشريعاً، ولا يجوز الالتزام بترادف الإمام مع الرسول والنبي باعتبار وجوب طاعتهما بوجوب طاعته تعالى.

فالّذي ينبغي أن يقال هو أنّ الإمام من تجب طاعته والاقتداء به في الدين بالوجوب الموضوعي لا بالوجوب الطريقي فإنّ الوجوب الطريقي هو عين وجوب طاعته تعالى وقد ذكرنا أنّه لايحتاج إلى جعل جاعل بخلاف الوجوب الموضوعي، فإنّه لايتحقّق ولا يوجد بوجه إلّا بجعله وحده لا شريك له لأنّ الله سبحانه كما أنّ له ولاية التكوين والإيجاد كذلك له سبحانه ولاية التصرّف في كلّ ماسواه بكلّ أنحائه ومنها ولاية التشريع والتقنين والأمر والنهي والقبض والبسط، إذ كلّ ماسواه مملوك له تعالى وله الطاعة المفترضة بالذات على جميع من سواه؛ ولا طاعة لأحد على أحد بوجه من الوجوه لأنهم كلّهم مملوكون له تعالى في عرض سواء. ولايجوز تصرّف أحد من شأن أحد لعدم أولويّة أحد على أحد.

فمن وثب على رقاب الناس وملك أمورهم وحكم فيهم بما شاء وأراد فإنّما يتصرّف في سلطان الربّ تعالى، ولايسوّغ ذلك رضاء الناس، ولا يصحّحه بوجهٍ أبداً لأنّ ذلك حقّ طلق له تعالى فلابدّ في ذلك من إذنه تعالى وأمره، فمن افترض الله طاعته على الناس فقد جعله إماماً عليهم يجب طاعته واتّباع سنّته وسيرته فيما سنّ من السنن الحكيمة بأمر الله وإذنه بالوجوب الموضوعي كما أنّه يجب اتّباعه فيما جاء به

من الله من الأمر والنهي بالوجوب الطريق فعلى عهدة المفسّر تفكيك كلّ واحد من العنوانين وتخليصه عن الآخر في كلّ مايريد عليه من الآيات والروايات المسوقة في هذا الشأن الخطير.

فقد تحصّل من جميع ما قدّمناه من البيان أنّ إبراهيم عليه السّلام بعدما تشرّف بشرف النبوّة والرسالة وبعدما ابتلاه تعالى بالكلمات وإتمامها ووفائه بتلك المواثيق والعهود أكرمه تعالى بكرامة عظمى وجعله إماماً للنّاس أي: مؤتمّاً ومقتدى به فصارت تصرّفاته وأوامره ونواهيه وسننه الحكيمة الّتي سنّها بإذن الله سبحانه شريعة إلهيّة يجب اتّباعه والاقتداء به.

فعلى هذا تكون الإمامة المجعولة في الآية عطاء تعالى وتمليكه حقّ الأمر والنهي والقبض والبسط فحينئذٍ يكون وجوب اتّباعه وافتراض طاعته من باب وجوب طاعة من له الأمر والنهي من الله سبحانه أو يقال: إنّ المجعول افتراض طاعته على كلّ من كان إماماً لهم، وسيجيء الكلام في ذلك مستوفىً إن شاء الله.

وفي معنى الإمام وتفسيره أقوال أخرى:

منها ما قدّمناه أنّ الإمام في الآية هو النبي أو الرسول وذكرنا بطلان القولين.

ومنها ما ذكره بعضهم أنّ قوله تعالى: «إماماً» أي: مرجعاً ومقصداً أو زعيماً في أمور الدين والدنيا. (آلاء الرحمٰن / ١٢٣).

ومنها ماذكره بعضهم أنّ معناه ما أريد منه التقدّم والخلافة والمطاعيّة والوصاية والرئاسة في أمور الدّين والدنيا ومصدريّة الحكم في الاجتماع.

أقول: ليس الكلام في صحّة استعمال لفظ الإمام في الموارد المذكورة وفي إمام الجماعة والجمعة وأئمّة الكفر والضلال والأئمّة الذين يدعون إلى النار وغيرها من الموارد، فلا يغرّنك ماترى من التوسعة في موارد استعمال لفظ الإمام فلاتجوز مداخلة شيء منها في تفسير الآية الكريمة فإنّ المدار في تفسيرها هي الشروط المأخوذة في تعيين المراد فيها فإنّ صريح الآية أنّها مجعولة بجعله تعالى جعلاً مولويًّا وظاهرها وظاهر غيرها من الآيات أنّ محلّ الإمامة المذكورة ومقرّها هو الإنسان النبي والرسول بل الخليل أيضاً على ماسيأتي من البيان.

وذكر في الميزان ٢٧٤/١ ماخلاصته: إنّ الإمام المذكور في هذه الآية

ونظائرها، من هو الواسطة في الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب أي: من هو هادٍ بتصرّفه التكويني في نفوس الناس بالهداية إلى كمال ونقلها من كمالٍ إلى كمال آخر؛ واستند في ذلك إلى قوله تعالى: «وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا» [الأنبياء (٢١) / ٧٣] وإلى قوله: «وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا» [السجدة (٣٢) / ٢٤]

وجه الاستدلال أنّ قوله تعالى: «يهدون بأمرنا» يجري مجرى التفسير والتعريف لقوله: «جعلناهم أئمّة» في الآية الأولى و«جعلنا منهم أئمّة» في الثانية وقوله تعالى: «بأمرنا» في الآيتين، ليس المراد منه هو الأمر التشريعي الاعتباري بل المراد ما يفسّره قوله تعالى: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» [يس (٣٦) / ٨٢] وهو الأمر التكويني فلا محالة يكون المراد من الإمام المجعول في الآيتين من كان هادياً بالتكوين أي: بتصرفه في نفوس الناس بالهداية إلى كمال ونقلها وسيرها من كمال إلى كمال آخر يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم ويتلبسون بها رحمة من ربّهم ولابدّ أن يكونوا متلبّسين بهذه الهداية وواجدين إيّاها، هذا أوّلاً. وثانياً: لاريب بحسب ظواهر الآيات الكريمة أنّ إبراهيم عليه السّلام قد كان متشرّفاً بمقام النبوّة والرسالة ونائلاً لها قبل نيله مقام الإمامة؛ فلامحالة كان واجداً لمقام الهداية بمعنى إراءة الطريق ولا تنفكّ وظيفة النبوّة والرسالة عن الهداية بمعنى إراءة الطريق فلايبق مورد لهداية الإمام بما هو إمام إلّا الهداية التكوينيّة.

في الكافي ٢١٦/١، عن محمد بن يحيى مسنداً عن طلحة بن زيد، عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال:

> إنّ الأئمّة في كتاب الله عزّ وجلّ إمامان قال الله تبارك وتعالى: «وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا» لا بأمر الناس، يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم. قال: «وجعلناهم أئمّة يدعون إلى النار» [القصص (٢٨) / ٤١] يقدّمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجلّ.

وفي البحار ١٥٦/٢٤، عن البصائر مسنداً عن طلحة بن زيد وأيضاً عن عبدالجبّار بغير هذا الإسناد يرفعه إلى طلحة بن زيد عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

> قرأت في كتاب أبي: الأئمّة في كتاب الله إمامان: إمام هدى وإمام ضلال

أمّا أئمّة الهدى فيقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم وأمّا أئمّة الضلال فإنّهم يقدّمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله اتّباعاً لأهوائهم وخلافاً لما في الكتاب.

٤ ـ إنّ سنّته تعالى الحميدة في اصطفائه عبداً من عباده بمقام السفارة ليست على سبيل المجازفة فمن المستحيل أن يصطفي بكرامة النبوّة والرسالة رجلاً جافياً ينام رذلاً جلفاً وأصبح قد صار نبيًّا ورسولاً ذا مكانة عنده تعالى وذا كرامة عليه سبحانه بل المعلوم من سنّته الحكيمة في من أراد اصطفاءه بفضيلة النبوّة والرسالة أن يراعيه بعين رعايته وعنايته ويسلكه في مسالك العبوديّة شيئاً فشيئاً فلايزال يؤيّده ويسدده ويؤدّبه أدب الأبرار، ويربّيه الأحرار الأخيار حتّى يستكمل قدمه في صراط العبوديّة ويثبّتها ويطمئنّ قلبه ويشرح صدره حتّى يصير أهلاً بأن يرتبط بعالم الغيب وعالم الآخرة ويعرف ما هنالك ويستأهل لتلقّ العلوم والأحكام وحملها وبلاغها.

فإذا شرّفه الله تعالى بموهبة النبوّة فلا محالة يتعبّده بأنواع من التعبّد ويختبره بأنحاءٍ من الشدائد حتّى صار ذا قوّة بحمل أثقالها وحمل العلوم والمعارف المناسبة لذلك الموقف الخطير والعمل بوظائفها والصبر على مشاقّها.

وكذلك بعد نيله مقام الرسالة فيقوم بوظائفها من الجدّ الأكيد في العمل بما يوجب عليه من التكاليف والوفاء الصادق فيما يستقبله من العهود والمواثيق وإتمام مايبتلى به من الكلمات فقد حان الحين أن تشمله العناية الإلهيّة الأخرى أن يكرمه بموهبة عظيمة ويتفضّل عليه بمثوبة كريمة ويشرّفه بقوله: «إنّي جاعلك للناس إماماً» يرفع به ذكره ذكراً باقياً وثناءً خالداً فإنّه سبحانه وفيّ شكور لايضيع لديه أجر المحسنين ولا يجعل المتقين كالفجّار.

وفي الروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام تذكرة وإرشاد إلى هذه السنّة الإلهيّة وإلى هذه الحقيقة القرآنيّة.

في الكافي ١٩٩/١، عن أبي محمد القاسم بن العلاء رفعه عبدالعزيز بن مسلم قال: كنّا مع الرضا عليه السّلام بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيّدي عليه السّلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسّم عليه السّلام ثم قال:

... إنّ الإمامة خصّ الله عزّ وجلّ بها إبراهيم الخليل عليه السّلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره فقال: «إنّي جاعلك للناس إماماً» فقال الخليل سروراً بها: «ومن ذرّيّتي» قال الله تبارك وتعالى: «لاينال عهدي الظالمين». فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة، ثمّ أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذرّيّته أهل الصفوة والطهارة فقال: «ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلًّا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصّلوٰة وإيتاء الزكوٰة وكانوا لنا عابدين» [الأنبياء (٢١) / ٧٢ ـ ٧٣]

فلم تزل في ذرّيّته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتّى ورّثها الله تعالى النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقال جلّ وتعالى: «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيّ والّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين» [آل عمران (٣) / ٦٨] فكانت له خاصّة فقلّدها صلّى الله عليه وآله عليًّا عليه السّلام بأمر الله تعالى على رسم مافرض الله فصارت في ذرّيّته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم والإيمان....[١]

أقول: صرّح عليه السّلام ـ أنّ إبراهيم عليه السّلام شرّفه الله تعالى بالإمامة بعد الخلّة والنبوّة مرتبة ثالثة وأشاد بها ذكره.

وفيه أيضاً /١٧٥، عن علي بن محمد مسنداً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سمعته يقول:

إنّ الله اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيًّا واتّخذه نبيًّا قبل أن يتّخذه رسولاً واتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً واتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً فلمّا جمع له هذه الأشياء ـ وقبض يده ـ قال له: يا إبراهيم إنّي جاعلك للناس إماماً فن عظمها في عين إبراهيم عليه السّلام قال: يارب ومن ذرّيّتي، قال: لاينال عهدي الظالمين.

وفيه أيضاً /١٧٤، عن محمد بن يحيى مسنداً عن هشام بن سالم؛ ودرست بن

---

١ ـ رواها الصدوق في معاني الأخبار /٩٦، عن محمد بن إبراهيم مسنداً عن عبدالعزيز بن مسلم.

أبي منصور، عنه قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام:

الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبيٌّ منبّأ في نفسه لايعدو غيرها، ونبيّ يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة ولم يبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط عليهما السّلام، ونبيّ يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا، كيونس قال الله ليونس: «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» [الصّافات (٣٧) / ١٤٧] قال: يزيدون ثلاثين ألفاً وعليه إمام، والّذي يرى في نومه ويسمع ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولي العزم وقد كان إبراهيم عليه السّلام نبيًّا وليس بإمام حتّى قال الله: «إنّي جاعلك للنّاس إماماً قال ومن ذرّيّتي» فقال الله: «لاينال عهدي الظالمين» من عبد صنماً أو وثناً لايكون إماماً.

أقول: مورد التقسيم في الرواية الشريفة الأنبياء والمرسلون والظاهر بقرينة عطف المرسلين على الأنبياء أنّ المرسلين غير الأنبياء أي ليس المراد في تقسيم الأنبياء المرسلين؛ ويشهد على ذلك قوله عليه السّلام: «مثل أولي العزم» فإن من أولي العزم من كان رسولاً أيضاً فلا دلالة في الآية الكريمة أنّ إبراهيم عليه السّلام كان نبيًّا وإماماً وليس برسول.

وفيه أيضاً / ١٧٥، عن محمد بن الحسن، عمّن ذكره مسنداً عن زيد الشحّام قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول:

إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه خليلاً وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: «إنّي جاعلك للنّاس إماماً» قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: «ومن ذرّيّتي قال لاينال عهدي الظالمين» قال: لايكون السفيه إمام التّقي.

أقول: ويظفر الباحث الخبير على أزيد ممّا ذكرناه من الروايات وهي كما ترى موافقة لما تفيد الآية الكريمة بالتفصيل الّذي ذكرناه.

قوله تعالى: «ومن ذريتي»

أي: واجعل بعض ذرّيّتي إماماً؛ بناءً على أنّ «من» تفيد التبعيض. ويمكن أن

يقال: إنّ «من» بمعنى «في» والمعنى: واجعل في ذرّيتي إماماً. وعند التحليل يكون المعنى واجعل الإمامة في ذرّيتي. وعلى كلا الوجهين تفيد الآية الكريمة أنّ الإمامة لاتحصل لأحد إلّا بجعله تعالى كما أسلفنا الكلام في ذلك في قوله تعالى: «إنّي جاعلك للناس إماماً».

وهذا الدعاء منه عليه السّلام موافق لما هو المعلوم والمشهود من سنّته تعالى أن يجعل في كلّ قوم شهيداً عليهم من أنفسهم وأن يبعث في كلّ قوم نذيراً وهادياً، ولم يعرف سنّته تعالى أن يجعل القوم كلّهم أنبياء وأئمّة يستغني بعضهم عن بعض فيما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم.

في البحار ١٤١/٢٥، عن البصائر، عن محمد بن عبدالجبار مسنداً عن عبدالحميد بن نصر قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام:

> ينكرون الإمام المفترض الطّاعة ويجحدون به، والله ما في الأرض منزلة أعظم عند الله من مفترض الطاعة فقد كان إبراهيم دهراً ينزل عليه الأمر من الله وما كان مفترض الطاعة حتّى بدا لله أن يكرمه ويعظّمه فقال: «إنّي جاعلك للنّاس إماماً» فعرف إبراهيم مافيها من الفضل فقال: «ومن ذريتي» فقال: «لاينال عهدي الظالمين» قال أبو عبدالله عليه السّلام: أي: إنّما هي في ذرّيّتك لايكون في غيرهم.

أقول: قوله عليه السّلام: «أي: واجعل ذلك في ذرّيّتي» يظهر منه أنّه فسّر «من» بمعنى «في» لا أن يكون ذلك قراءته عليه السّلام. فدعا إبراهيم عليه السّلام أن يجعل الله تعالى الإمامة في ذرّيّته الطاهرة وأن لايخرج الإمامة من بيته إلى غيره فأكرمه الله سبحانه بإجابة دعوته وقضاء حاجته فقرّر الإمامة في ذرّيّته وفي بيته الرفيع يرثها بعضهم عن بعض قرناً بعد قرون حتّى ورّثها الله أشرف ذرّيّته خاتم النبيّين وإمام الأئمّة الموحدين فقلّدها رسول الله صلّى الله عليه وآله وعليّاً وذرّيّته المصطفين يرثها كابر وصالح بعد صالح حتّى أورثها الله تعالى خاتم الأئمّة ومنقذ الأمّة وغاية النور.

وقد حكى الله تعالى عنه عليه السّلام في القرآن الكريم الدعاء لذرّيّته في مواقف شتّى قال تعالى:

«ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم * ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم». [البقرة (٢) / ١٢٨ ـ ١٢٩]

و «وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام».

و «ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلوٰة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون» و «ربّ اجعلني مقيم الصلوٰة ومن ذرّيّتي ربّنا وتقبّل دعاءِ». [إبراهيم (١٤) / ٣٥ و٣٧ و٤٠].

وقال في مجمع البيان ٢٠١/١: "وقوله تعالى: «قال ومن ذرّيّتي»... وقيل إنّما قال ذلك على جهة التعرف ليعلم هل يكون في عقبه أئمّة يقتدى بهم".

وقال الرازي في تفسيره ٤٠/٤: «قال بعضهم: إنّه تعالى أعلمه في أنّ ذرّيّته أنبياء فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلّهم أو في بعضهم وهل يصلح جميعهم لذلك الأمر فأعلمه الله تعالى أنّ فيهم ظالماً لايصلح لذلك».

أقول: لايخفى أنّ هذين القولين اقتراح محض وقول بلا دليل والحقّ المبين ماذكرناه أنّه لمّا رأى من فضل ربّه تعالى عليه سرّ به فسأل ربّه بقلب مطمئن واثق أن يجعل ذلك في ذرّيّته أيضاً. والظاهر أنّ موقف هذه المسألة قد كان في أواخر عمره فإنّ الظاهر من الآيات الكريمة أنّه عليه السّلام جاءته البشرى بالولد بعدما هاجر من وطنه وبعدما جرى بينه وبين نمرود الجبّار. ويظهر من بعض الروايات أنّ هاجر أمّ إسماعيل كانت قبطيّة ووهبها الملك القبطي لسارة زوجة إبراهيم فابتاعها إبراهيم من سارة فولدت له إسماعيل عليه السّلام. قال تعالى حكاية عن إبراهيم:

«وقال إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين * ربّ هب لي من الصالحين * فبشّرناه بغلام حليم * فلمّا بلغ معه السعي قال يا بنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك...». [الصّافات (٣٧) / ٩٩ ـ ١٠٢]

و «لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام...

وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت ياويلتىٰ ءَألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء عجاب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد». [هود (١١) / ٦٩ ـ ٧٣]

و «قالوا لاتوجل إنّا نبشّرك بغلام عليم * قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشّرون * قالوا بشّرناك بالحقّ فلاتكن من القانطين». [الحجر (١٥) / ٥٣ ـ ٥٥]

في مروج الذهب ٤٥/١، قال: «وولد لابراهيم إسماعيل عليهما السّلام وذلك بعد أن مضى من عمره ست وثمانون سنة [أو سبع وثمانون سنة] وقيل تسعون سنة».

وفيه أيضاً ٤٦/: «ثمّ ولد لابراهيم من سارة إسحاق عليه السّلام وذلك بعد مضي عشرين ومائة سنة من عمره».

أقول: المستفاد من هذه الآيات المباركة أنّ إبراهيم عليه السّلام قد جاءته البشرى بالولد بعدما مسّه الكبر وصار شيخاً؛ وما وهب الله له ولداً إلّا بعد كبره لقوله تعالى: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسمٰعيل وإسحٰق» [إبراهيم (١٤) / ٣٩]. وصريح قوله تعالى: «ربّ إنّي أسكنت من ذرّيّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم» يدلّ على أنّ دعاءه هذا كان حال كبره لذرّيّته الموجودة.

أمّا على دعاؤه لذرّيّته في الآية المبحوث عنها (ومن ذرّيّتي) فلاريب بحسب صريح الآية أنّه قد كان بعد نيله منصب الإمامة وقد ذكرنا فيما تقدّم أنّ نيله عليه السّلام للإمامة قد كان بعد إتمامه تعالى الكلمات الّتي ابتلاه بها في ظرف نبوّته ورسالته. وتؤيّده الروايات المصرّحة بأنّ إمامته عليه السّلام قد كانت بعد طيّه مراتب النبوّة والرسالة والخلّة. فالآية الكريمة قابلة الانطباق مع الآيات الدالّة على أنّ دعاءه لذرّيّته في كبره وأواخر عمره.

ولا يخفى عند أولي الألباب أن دعاء إبراهيم عليه السّلام لنفسه ولذرّيّته في هذه الآية ونظائرها من الآيات وكذلك دعوات غيره من الأنبياء والرسل الكرام أدلّ دليل على أهمّيّة الدعاء وموقعيّته العظيمة في دعوة القرآن الكريم وبلاغه المبين.

قوله تعالىٰ: «ولاينال عهدي الظالمين». (١٢٤)

الظاهر من لفظ «العهد» في الآية الكريمة ـ بل هو كالصريح ـ أنّ المراد منه هي الإمامة الّتي سألها إبراهيم عليه السّلام أن يجعلها تعالى لذرّيّته كما جعلها له في قوله تعالى: «إنّي جاعلك للناس إماماً». ولفظ العهد وإن كثرت موارد استعماله لعنايات مختلفة إلّا أنّ الغالب فيه أنّ العهد ممّا يجب الوفاء به ويحرم نقضه ونكثه. قال تعالى:

«واوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم» [البقرة (٢) / ٤٠]

وفي تفسير هذه الآية روايات شاهدة لما ذكرنا. فعلى هذا يجب على النّاس التسليم والطاعة لله تعالى في جعله الإمامة لإبراهيم وذرّيّته كما أنّه يجب الطاعة والتسليم تعالى مطلقاً سواء كان أمراً وضعيًّا أو أمراً تكليفيًّا فالأوّل مثل إعطاء الأمر والنهي، والثاني مثل افتراض الطاعة.

وقوله تعالى: «الظالمين» قد حكم وقضى سبحانه ـ ولايحكم ولايقضي إلّا حقًّا وقسطاً ـ أن يكون محل هذا العهد ومقرّه مطهّراً ومنزّهاً عن دنس الظلم ومعصوماً بعصمة إلهيّة. والظلم هو التعدّي عن الحدّ والتجاوز إلى حقّ الغير سواء كان بالقهر والغلبة على من دونه أو بمعصية من كان فوقه ممّن يجب امتثال أمره ونهيه فيشمل الكفر والشرك والمعاصي الكبيرة والصغيرة، سواء كان في حقّه تعالى أو في حقّ الناس. وفسّره في القاموس أنّه وضع الشيء في غير موضعه وهو منطبق على ما ذكرناه.

و «الظالمين» جمع محلّى بالألف واللّام الدّالة على الاستغراق والعموم وحيث إنّ القضيّة حقيقيّة والعموم والإطلاق فيها يكونان من حيث الأنواع والأفراد كما أنّ التخصيص والتقييد فيها أيضاً يكونان من حيث الأنواع فلا محالة يشمل ويستغرق «الظالمين» جميع أنواع الظالمين في عرض سواء: الكفر والشرك والمعاصي كبائرها وصغائرها؛ وسواء كان ظالماً دائماً ومقيماً عليه أو موقّتاً قبل إسلامه وقبل توبته فإنّ كلّ واحد من الأنواع موضوع مستقلّ برأسه في حرمان الظالم عن نيل العهد الإلهي إلّا أن يرد عليه مخصّص متصل أو منفصل بالنسبة إلى بعض الأنواع.

قال الجصاص في كتابه أحكام القرآن ٨٨/١ ماخلاصته: احتجّ الرافضة بقوله تعالى: «لاينال عهدي الظالمين» على ردّ إمامة أبي بكر وعمر بأنّهما كانا ظالمين حين كانا مشركين في الجاهليّة. وهذا جهل مفرط لأنّ هذه السمة تلحق من كان مقيماً على

الظلم أمّا التائب فهذه السمة زائلة عنه فزال الحكم المتعلق بهذه السمة بزوالها. ألا ترى أنّ قوله تعالى: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا» [هود(١١)/ ١١٣] نهى عن الركون إليهم ماداموا مقيمين عليه، وقوله تعالى: «ما على المحسنين من سبيل» [التوبة (٩)/ ٩١] نفي السبيل عنهم ماداموا على الاحسان. وألا ترى أنّه لايشمل الكافر من تاب عن كفره ولايسمّى من تاب عن فسقه فاسقاً فقوله: «لاينال عهدي الظالمين» لم ينف به العهد عمّن تاب عن ظلمه لأنّه في هذه الحالة لايسمّى ظالماً كما لايسمّى من تاب من الكفر كافر ومن تاب من الفسق فاسق.

وقريب منه عبارة الرازي في تفسيره ٤/ ٤١.

أقول: ويرد عليه أنّ ماذكره من دوران الحكم حول السمة المأخوذة في الموضوع فيزول الحكم بزوال السمة، غير تامّ على إطلاقه فمن الجائز أن تكون السمة المأخوذة في موضوع الحكم مأخوذة من حيث حدوث الحكم فقط من غير اشتراط بقاء الحكم ببقائها. توضيح ذلك: إنّ أخذ الصفة في موضوع الحكم يتصوّر بحسب الواقع ونفس الأمر على نحوين: أحدهما أن تكون مأخوذة من حيث حدوث الحكم وبقائه مثل في الغنم السائمة زكاة. وثانيهما أن تكون الصفة مأخوذة من حيث حدوث الحكم فقط، ومن هذا القبيل قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» [المائدة(٥)/ ٣٨] و«الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة» [النور (٢٤)/ ٢] و«حرّمت عليكم أمّهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمّهاتكم اللّاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمّهات نسائكم...» [النساء(٤)/ ٢٣] و«ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين» [آل عمران/(٣)/ ٩٧].

فإنّ الحكم المعلّق على الصفة في هذه الآيات لايزول بزوال الصفة بضرورة من الفقه. وبديهيّ أنّ الصفة في موضوع تلك الأحكام إنّما أخذت من حيث الحدوث فقط. فالمتّبع في هذا الباب وكيفيّة أخذ الصفة في موضوع الحكم هو لسان الدليل والجصّاص وغيره خرجوا عن مسير البحث الفقهي والتفسيري وتشبّثوا بأمثلة جزئيّة في النقض والإبرام وهذا لايحسم مادّة النزاع؛ والّذي يليق بطور البحث هو أن يقال: إنّ الوصف المأخوذ في موضوع الحكم إن كان منوّعاً للموضوع وكان هناك

عموم أو إطلاق فلابدّ أن يؤخذ بهذا العموم والإطلاق وتسرية الحكم إلى جميع الأنواع المندرجة في العام وإلى جميع الأفراد المندرجة تحت الأنواع كما في القضايا الحقيقيّة، ضرورة أنّ الحكم فيها ألقي على الموضوعات المفروض وجودها ولا يصير الحكم فعليًا بفعليّة موضوعة المفروض.

وحيث إن الحكم ألقي على تلك الأنواع في عرض سواء فلا محالة يسري الحكم ويشمل ويعمّ جميع الأنواع في عرض واحد سواء، من غير فرق بين فرد وفرد من أفراد الموضوع، فوجوب الحجّ مثلاً إنّما ألقي على الإنسان المستطيع فيشمل جميع أنواعه من العرب والعجم والأبيض والأسود وهكذا. وهل يجوز أن يقال بالفرق من حيث شمول الحكم وسريانه إلى تلك الأنواع وأفرادها؟! وكذلك حرمان الظالم من مثل العهد إنّما ألقي على الظالمين فبالضرورة يشمل جميع أنواع الظالم بالكفر الدائم والظالم بالشرك الدائم والظالم الموقت بالكفر أو الشرك قبل إسلامه أو بعد إسلامه، والظالم بالكبيرة مصرًّا عليه أو تائباً، والظالم بالصغيرة قبل توبته وبعد توبته، بداهة أنّ من يرتكب المعصية الصغيرة قسم خاص من الظالم في مقابل الظالم بالكفر الدائم.

فالقول بخروج الظالم بالصغيرة التائب منها قول بلا دليل واقتراح محض إلّا بالتخصيص بدليل متّصل أو منفصل آخر.

وأمّا إذا لم يكن الوصف في الموضوع منوّعاً إيّاه أو لايكون للموضوع أنواع كما في القضايا الشخصيّة الخارجيّة مثل قولنا أعط من في الدار مصليًا ديناراً وليس في الدار إلّا فرد واحد أو أفراد معدودين وليس للفرد أو الأفراد إلّا حالة واحدة فلا محالة ينتفي الحكم بانتفاء الوصف.

فتبيّن أنّ ما ذكره الجصّاص والرّازي غفلة وخلط بين القضايا الحقيقيّة والخارجيّة وأمّا ماتشبّث به في النقض من قوله تعالى: «ولا تركنوا إلى الّذين ظلموا» وفيه أنّه قال في مجمع البيان ١٩٩/٥: إنّ الركون إلى الشيء هو السكون إليه بالمحبّة والانصات إليه ونقيضه النفور عنه.

فالركون إلى الظالمين حرام باستقلال من العقل؛ والنهي إرشاد وتذكرة إلى مايدركه الإنسان بعقله والأمر والنهي الإرشادي لا إطلاق فيها ولا تقييد وإنّما يدوران مدار الأمر المرشد إليه.

وأمّا تشبّثه بقوله تعالى: «ما على المحسنين من سبيل». وفيه أنّ هذه الآية نزلت في شأن أولي الأعذار الّذين رخّص الله تعالى لهم في ترك الخروج إلى الجهاد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله. والظاهر أنّ هذا كان في غزوة تبوك قال تعالى:

«ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الّذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الّذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً الّا يجدوا ماينفقون * إنّما السبيلَ على الّذين يستأذنون وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف...». [التوبة (٩) / ٩١ـ٩٣]

أقول: الآية الكريمة لاتختصّ بمورد نزولها بل هي عامّة وشاملة لكلّ ما يمكن أن يكون مصداقاً لها ومنطبقاً عليها إلّا أنّها مخصّصة ومقيّدة بجميع الأدلّة الدالّة على إثبات السبيل والضمان في الخسارات الواردة على نفوس الناس وأعراضهم وأموالهم. والله تعالى استثنى المحسنين في الجملة لاعلى الإطلاق بل شرط بشرائط خاصّة في موارد خاصّة وتفصيل ذلك موكول إلى عهدة الفقيه وحيث إنّ هذه الآية مخصصة من جهات شتّى فلايكون نقضاً في الامية المبحوث عنها.

قال في مجمع البيان ٢٠٢/١: «فإن قيل: إنّما نفى أن يناله ظالم في حال ظلمه فإذا تاب لايسمّى ظالماً فيصحّ أن يناله. فالجواب أنّ الظالم وإن تاب فلايخرج من أن تكون الآية قد تناولته في حال كونه ظالماً فإذا نفى أن يناله فقد حكم عليه بأنّه لاينالها والآية مطلقة غير مقيّدة بوقت دون وقت فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلّها فلا ينالها الظالم وإن تاب فيما بعد».

ونظيره عبارة الشيخ (قده) في تبيانه ٢٢٩/١.

أقول: قول هذين العلمين الكبيرين بأنّ الآية مطلقة غير مقيّدة لوقت دون وقت هو ماذكرناه من أنّ الآية عامّة شاملة لجميع أنواع الظالم أي: أيّ ظالم كان من غير اختصاص بنوع دون نوع.

في الاحتجاج ٣٧٣/، عن أمير المؤمنين عليه السّلام في احتجاجه على زنديق في آي متشابهة قال عليه السّلام:

... إذ كان الله قد حظر على من ماسه الكفر تقلّد ما فوّضه إلى أنبيائه وأوليائه بقوله لإبراهيم: «لا ينال عهدي الظالمين» أي: المشركين فإنّه سمّى الظلم شركاً بقوله: «إنّ الشرك لظلم عظيم» [لقمان(٣١) / ١٣] فلمّا علم إبراهيم أنّ عهد الله تبارك اسمه بالإمامة لاينالة عبدة الأصنام قال: «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام» [إبراهيم(١٤) / ٣٥].

وفي البحار ٢٥/٢٠٠، عن الأمالي، عن الحفّار مسنداً عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أنا دعوة إبراهيم. قلنا: يارسول الله وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى إبراهيم: «إنّي جاعلك للنّاس إماماً» فاستخفّ إبراهيم الفرح فقال: ياربّ ومن ذرّيّتي أئمّة مثلي. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن يا إبراهيم إنّي لا أعطي لك عهداً أفي لك به. قال: ياربّ ما العهد الّذي لاتفي لي به؟ قال: لا أعطيك عهد الظالم من ذرّيّتك. قال: يا ربّ ومن الظالم من ولدي لاينال عهدي؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا أجعله إماماً أبداً ولا يصح أن يكون إماماً. قال إبراهيم: «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ربّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس» قال النبي صلّى الله عليه وآله: فانتهت الدعوة إليّ وإلى أخي عليّ عليه السّلام لم يسجد أحدٌ منّا لصنم قطّ فاتّخذني الله نبيًّا وعليًّا وصيًّا.

أقول: الرواية الشريفة واضحة البيان كما في غيرها من الروايات أن من عبد صنماً أو وثناً أو تمثالاً لايكون إماماً. وفي بعض روايات العامّة أيضاً مايدلّ على ذلك.

فقد تحصّل في المقام أنّ المجعول بجعله تعالى هو الإمام. ومعناه بتصريح أهل اللّغة، المؤتمّ به فيدور الأمر بين أن يقال: إنّ المجعول بجعله تعالى بعنوانه الأوّلي هو حيث الائتمام به فيما يأمر وينهى ويترك ويبق والتصرف في جميع شؤون حياة المجتمع وهذا منصب إلهيّ ملّكه تعالى لوليّه وصفيّه ويكون افتراض طاعته ووجوب الائتمام به من باب وجوب طاعة من له الأمر والنهي من قبله تعالى؛ وهذا هو معنى الخلافة الإلهيّة. أو يقال: إن المجعول بالعنوان الأوّلي هو افتراض الطاعة فيما يأمر وينهى. فالأقرب الألصق بلفظ الإمام هو الأوّل والأوفق الأنسب بظواهر الأدلّة من الآيات

والروايات هو المعنى الثاني. والّذي يسهّل الأمر أن مرجع كلا الأمرين عند التحليل إلى أمر واحد.

هذا تمام الكلام في تفسير الآية وإمامة إبراهيم عليه السّلام وأمّا إمامة رسول الله صلّى الله عليه وآله وأولاده الأئمّة عليهم السّلام ففي ظاهر الآية الكريمة دلالة وشهادة على أنّ الله قد قبل دعاء إبراهيم عليه السّلام في ذرّيّته الّذين لم يسجدوا لصنم ووثن ولم يرتكبوا كبيرة ولا صغيرة. فإنّهم واجدون العهد ومالكون له بتمليكه تعالى إيّاهم. وقد تقدمت بعض الروايات الدالّة على ذلك وتؤيده أيضاً روايات أخرى واردة في هذا الباب.

في الكافي ٢٠٦/١، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن بريد العجليّ عن أبي جعفر عليه السّلام في قوله الله تبارك وتعالى: «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» [النساء (٤) / ٥٤] قال:

> جعل منهم الرسل والأنبياء والأئمّة فكيف يقرّون في آل إبراهيم عليه السّلام وينكرونه في آل محمد صلّى الله عليه وآله؟!

قال: قلت: «وآتيناهم ملكاً عظيماً»؟ قال: الملك العظيم أن جعل فيهم أئمّة؛ من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم.

وفي معاني الأخبار ٩٦/، عن محمد بن إبراهيم مسنداً عن عبدالعزيز بن مسلم عن أبي الحسن الرضا عليه السّلام قال:

> ... إنّ الله عزّ وجلّ لم يقبض نبيّه صلّى الله عليه وآله حتّى أكمل لهم الدين وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كلّ شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع مايحتاج الناس إليه كملاً فقال عزّ وجلّ: «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» [الأنعام (٦) / ٣٨] فأنزل في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلّى الله عليه وآله: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» [المائدة (٥) / ٣] فأمر الإمامة من تمام الدين فلم يمض صلّى الله عليه وآله حتّى بيّن لأمّته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد سبيل الحقّ وأقام لهم عليًا عليه السّلام علماً وإماماً وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمّة

إلّا بيّنه، فمن زعم أنّ الله عزّ وجلّ لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله ومن ردّ كتاب الله فهو كافر.

هل تعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمّة فيجوز فيها اختيارهم؟ إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم.

إنّ الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل عليه السّلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره فقال عزّ وجلّ: «إنّي جاعلك للناس إماماً» فقال الخليل عليه السّلام سروراً بها «ومن ذرّيّتي» قال الله تبارك وتعالى: «لاينال عهدي الظالمين» فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة فصارت في الصفوة.

ثمّ أكرمه الله بأن جعلها في ذرّيّته أهل الصفوة والطهارة فقال: «ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلّاً جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصّلوٰة وإيتاء الزكوٰة وكانوا لنا عابدين» [الأنبياء(٢١) / ٧٢ـ٧٣] فلم تزل في ذرّيّته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتّى ورّثها النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال جلّ جلاله: «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيّ والّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين» [آل عمران(٣) / ٦٨] فكانت له خاصّة فقلّدها رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً عليه السّلام بأمر الله عزّ وجلّ على رسم مافرضها الله، فصارت في ذرّيّته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم والإيمان لقوله عزّ وجلّ: «وقال الّذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث» [الروم(٣٠) / ٥٦] فهي في ولد علي عليه السّلام [خاصّة] إلى يوم القيامة إذ لانبيّ بعد محمد صلّى الله عليه وآله فمن أين يختار هؤلاء الجهال الإمام؟ ...

وفي تفسير القمي ٣٧١/١، عن أبيه، عن حمّاد، عن أبي جعفر عليه السّلام في قوله: «ربّنا إنّي أسكنتُ من ذرّيّتي» الآية قال:

نحن والله بقيّة تلك العترة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً».

قال في لسان العرب ٢٤٣/١: ثاب الرجل يثوب ثوباً وثوباناً: رجع بعد ذهابه. ويقال: ثاب فلان إلى الله وتاب ـ بالثاء والتاء ـ أي: عاد ورجع إلى طاعته... والمثابة: الموضع الّذي يثاب إليه أي: يرجع إليه مرّة بعد أخرى ومنه قوله تعالى: «وإذ جعلنا البيت مثابة...».

أقول: الظاهر أنّ الجعل هنا من حيث كون البيت مثابة وأمناً تشريعي لاتكويني. والآية الكريمة لبيان التشريع في الحجّ إلى بيت الله لا للتوطئة لتشريع الصلاة كما قاله في الميزان ٢٨٤/١ «الظاهر أنّ قوله «جعلنا البيت مثابة...» بمنزلة التوطئة أشير به إلى مناط تشريع الصلاة ولذا لم يقل وصلّوا في مقام إبراهيم بل قال: «واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلى...» فلم يعلّق الأمر بالصلاة في المقام بل علّق على اتّخاذ المصلّى منه».

وهذا التشريع غير ناظر إلى التشريع في دين الإسلام بل يدور مدار وجود البيت ولمّا كان البيت موجوداً قبل الإسلام كان التوب إليه وكونه دار أمن وأمان بأمر الله يتحقّق البيت؛ وهي الكعبة زادها الله شرفاً وتكريماً.

والمفسّرون تنازعوا في معنى البيت فقال بعضهم كما في تفسير الرازي ٤٥/٤: إنّ البيت المراد منه الحرم وكونه مثابة غير مختص بالبيت بل الحرم والمسجد مشترك معها أيضاً فإنّها جميعاً مواقف للنسك المخصوصة فالنّاس يثوبون إليها ويأتون البيت آمنين.

قلت: اشتراك المواقف في بعض الأحكام مع البيت لايسوّغ تعميم البيت ومعناها إلى غيرها ولعلّ لها أحكاماً خاصّة. فيتّضح أنّ إطلاق البيت بلحاظ اشتراكها مع غيرها في بعض الأحكام ليس بشيء.

ولا دليل على أنّ الآية الكريمة ناظرة وتوطئة إلى تشريع الحجّ والصلاة في دين الإسلام، أو إلى تشريع الصلاة في مقام إبراهيم، بل إخبار من الله تعالى عن تشريع الحجّ إلى بيت الله، والصلاة في مقام إبراهيم؛ فإن الوفود إلى البيت إنّما كان بعد حدوث البيت، واتّخاذ المصلّى في المقام بعد إبراهيم، والحجّ إلى البيت كان قبل الإسلام، ولا ترديد فيه؛ وإنّما الكلام في أنّ البيت هل كان تأسيسه من إبراهيم وإسماعيل بأمر الله أو كان قبلهما بيت وإبراهيم عليه السّلام جدّده وأعاد بناءه؟ ظاهر بعض الآيات وصريح بعض الروايات أنّ البيت كان قبل إبراهيم عليه السّلام وقد حجّ إليه قبله آدم عليه السّلام قال تعالى:

«ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصّلوٰة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون». [إبراهيم (١٤) / ٣٧]

فإنّ الظاهر من الروايات والتفاسير أنّ تلك المناجاة من إبراهيم عليه السّلام كان حين ماسرّح إسماعيل وهاجر في وسط الوادي ورجع إلى سارة في الشام قبل بناء البيت.

في تفسير العيّاشي ٢٣٢/٢، عن الفضل بن موسى الكاتب عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام قال:

إنّ إبراهيم صلوات الله عليه لمّا أسكن إسماعيل صلوات الله عليه وهاجر مكّة ودّعهما لينصرف عنهما، بكيا فقال لهما إبراهيم: ما يبكيكما فقد خلفتكما في أحبّ الأرض إلى الله وفي حرم الله. فقالت له هاجر: يا إبراهيم ماكنت أرى أنّ نبيًّا مثلك يفعل مافعلت. قال: وما فعلت؟ فقالت: إنّك خلفت امرأة ضعيفة وغلاماً ضعيفاً لاحيلة لهما بلا أنيس من بشر، ولا ماء يظهر، ولا زرع قد بلغ، ولا ضرع يحلب. قال: فرقّ إبراهيم ودمعت عيناه عندما سمع منها فأقبل حتّى انتهى إلى باب بيت الله الحرام فأخذ بعضادتي الكعبة ثمّ قال: اللهمّ «إنّي أسكنت من ذرّيّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون».

قال أبو الحسن: فأوحى الله إلى إبراهيم أن اصعد أبا قبيس بمكّة فنادِ في الناس: يامعشر الخلائق إنّ الله يأمركم بحجّ هذا البيت الّذي بمكّة محرماً من استطاع إليه سبيلاً، فريضة من الله. قال: فصعد إبراهيم أبا قبيس فنادى في الناس بأعلى صوته: يامعشر الخلائق إنّ الله يأمركم بحجّ هذا البيت الّذي بمكّة محرماً من استطاع إليه سبيلاً، فريضة من الله. قال: فمدّ الله لإبراهيم في صوته حتّى أسمع به أهل المشرق والمغرب ومابينهما من جميع ماقدّر الله وقضى في أصلاب الرجال من النطف وجميع ماقدّر الله وقضى في أرحام النساء إلى يوم القيامة. فهناك يافضل وجب الحجّ على جميع الخلائق. فالتلبية من الحاجّ في أيّام الحجّ هي إجابة لنداء إبراهيم عليه السّلام يومئذٍ بالحجّ عن الله.

وفي هذه الرواية، أنّه عليه السّلام رجع إلى الكعبة وأخذ بعضادتي الباب ونادى

ربّه: «إنّي أسكنت...» صريح في أنّ البيت قد كان قبل إبراهيم عليه السّلام.

وفي نهج البلاغة، الخطبة القاصعة /١٩٢، قال عليه السّلام:

... ثمّ أمر آدم عليه السّلام وولده أن يثنُوا أعطافهم نحوه (البيت) فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغايةً لملقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة...

وفي الوسائل ٧/٨، عن الفقيه مسنداً عن زرارة قال:

قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: جعلني الله فداك أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتيني. فقال: يازرارة بيت حجّ إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفتي مسائله في أربعين عاماً.

وفي تفسير القمي ٤٤/١، عن أبيه مسنداً عن أبان بن عثمان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

إنّ آدم عليه السّلام بقي على الصفا أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة وعلى خروجه من الجنّة من جوار الله عزّ وجلّ فنزل عليه جبرئيل عليه السّلام فقال: ياآدم مالك تبكي؟ فقال: ياجبرئيل مالي لا أبكي وقد أخرجني الله من الجنّة من جواره واهبطني إلى الدنيا.

فقال: ياآدم تب إليه. قال: كيف أتوب؟ فأنزل الله عليه قبّة من نور فيه موضع البيت فسطع نورها في جبال مكّة فهو الحرم فأمر الله جبرئيل أن يضع عليه الأعوام قال: قم ياآدم، فخرج به يوم التروية وأمره أن يغتسل ويحرم. وأخرج من الجنّة أوّل يوم من ذي القعدة فلمّا كان يوم الثامن من ذي الحجّة أخرجه جبرئيل عليه السّلام إلى منى فبات بها فلمّا أصبح أخرجه إلى عرفات وقد كان علّمه حين أخرجه من مكّة الإحرام وعلّمه التلبية فلمّا زالت الشمس يوم عرفة قطع التلبيه وأمره أن يغتسل فلمّا صلّى العصر أوقفه بعرفات وعلّمه الكلمات الّتي تلقّاها من ربّه وهي «سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفرلي إنّك أنت الغفور الرحيم. سبحانك اللّهم وبحمدك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي

واعترفت بذنبي فاغفرلي إنّك خير الغافرين. سبحانك اللّهم وبحمدك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفرلي إنّك أنت التواب الرحيم» فبقي إلى أن غابت الشمس رافعاً يديه إلى السّماء يتضرّع ويبكي إلى الله فلمّا غابت الشمس ردّه إلى المشعر فبات بها فلمّا أصبح قام على المشعر الحرام فدعا الله تعالى بكلمات وتاب إليه ثمّ أفضى إلى مِنىً وأمره جبرئيل أن يحلق الشعر الّذي عليه فحلقه ثمّ ردّه إلى مكّة فأتى به عند الجمرة الأولى فعرض له إبليس عندها فقال: ياآدم أين تريد؟ فأمره جبرئيل أن يرميه بسبع حصيات فرمى وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة ثمّ ذهب فعرض له إبليس لعنه الله وقال له جبرئيل: إنّك لن تراه بعد هذا اليوم أبداً فانطلق به إلى البيت الحرام وأمره أن يطوف به سبع مرّات ففعل فقال له: إنّ الله قد قبل توبتك وحلّت لك زوجتك.

وانظر إلى الكافي ١٩٠/٤ ح ١ وص ١٩١ ح ٢ وص ٢٠٢ ح ٣.

أقول: هذه الروايات وإن كان بينها تناف في بعض الجزئيّات إلّا أنّها متّفقة الدلالة والمضمون في أنّ لله تعالى بيتاً وحرماً آمناً حجّ إليه الملائكة وآدم ونوح وسائر النبيّين فعلى هذا تكون هذه الجملة إخباراً عن تشريع سابق فيجب الأخذ بمفاد تلك الروايات.

قوله تعالى: «واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى».

مقام إبراهيم عليه السّلام هو المكان الخارج عن المطاف في شمال البيت تجاه باب الكعبة وفيه الحجر الّذي فيه أثر قدم إبراهيم عليه السّلام ونحن في فسحة للتحقيق في مقام إبراهيم إذ رواياتنا متّفقة المفاد في أنّ هنا مقام إبراهيم ويجب صلاة الطواف فيه.

في الوسائل ٤٧٩/٩، عن التهذيب عن علي بن إبراهيم مسنداً عند معاذ بن مسلم قال: قال لي أبو عبدالله عليه السّلام:

إقرأ في الركعتين للطّواف بقل هو الله أحد وقل يا أيّها الكافرون.

وفي الكافي ٤٢٣/٤، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن معاوية بن عمّار قال: قال

أبو عبدالله عليه السّلام:

إذا فرغت من طوافك فأتِ مقام إبراهيم عليه السّلام فصلّ ركعتين واجعله أماماً واقرأ في الأولى منهما سورة التوحيد «قل هو الله أحد» وفي الثانية «قل يا أيّها الكافرون» ثم تشهّد واحمد الله واثن عليه وصلّ على النبي صلّى الله عليه وآله واسأله أن يتقبّل منك وهاتان الركعتان هما الفريضة ليس يكره لك أن تصلّيها في أيّ الساعات شئت عند طلوع الشمس وعند غروبها ولا تؤخّرها ساعة تطوف وتفرغ فصلّها.

قال في مجمع البيان ٢٠٣/١: «قال ابن عباس: الحجّ كلّه مقام إبراهيم. وقال عطاء: مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار. وقال مجاهد: الحرم كلّه مقام إبراهيم».

أقول: ممّا ذكرنا يعلم بطلان هذه الأقوال. وحيث إنّ الأمر باتّخاذ مكان من المقام للصلاة، ظاهر في الوجوب فيدلّ بالملازمة القطعيّة على وجوب الصلاة في المكان المتّخذ لها. والصلاة هنا هي الصلاة المشروعة عن أدلتها الشرعيّة لا الدعاء فقط كما قال في الميزان ٢٨٣/١: «والمصلّى، اسم مكان من الصلاة بمعنى الدّعاء أي: اتّخذوا من مقامه عليه السّلام مكاناً للدّعاء».

وقال في مجمع البيان ٢٠٤/١: وقوله «مصلّى» فيه أقوال: قيل: مدّعىً من صلّيت أي: دعوت، عن مجاهد.

أقول: الصلاة المشروعة عن أدلّتها من الكتاب والسنّة على أنحائها المختلفة في الشرائع الإلهيّة من لدن آدم إلى يومنا هذا من جميع الأنبياء والموحّدين والملائكة وإبليس من أفراد الصلاة بالمعنى اللّغوي وهو التوجّه واللّين والخشوع. والظاهر من كلمات اللّغويّين والفقهاء أنّ الصلاة بمعنى الدعاء وهذا على الظاهر غير سديد ولابدّ من توجيه كلماتهم، فإنّ الصلاة فعل متعد يتعدى إلى مفعوله بأداة التعدية بخلاف الدعاء فإنّه متعدّ بنفسه فيبعد ماذكروه من أنّ الصلاة بمعنى الدعاء والظاهر أنّ الدعاء هو التوجّه والإقبال إلى الغير بعناية توجّه الغير إلى الداعي وإجابته بخلاف الصلاة فإنّ المراد منها هو التوجّه المطلق من دون عناية بطلب إقبال الغير إلى الداعي وعدم دخالة هذه العناية في تحقّق مفهومها.

فالصلاة تمجيد وتسبيح وتهليل وتكبير وذكر وقول ودعوة وقراءة قرآن بما أنّه عهد الله إلى خلقه ومنشور ولايته جل ثناؤه فالصّلاة هي التوجّه المخصوص بالأفعال المخصوصة من أفراد التوجّه العام المطلق لا الدعاء نعم، يكون الدعاء من حدودها وأفعالها المندوبة وعلى هذا قد تتحقّق الصلاة بالدعاء أيضاً.

فالفقيه يأخذ بالمفهوم العامّ أو المطلق ويأخذ بالحدود والشرائط المعتبرة المقرّرة فيها وجوباً واستحباباً عن أدلّة أخرى فتعيّن المأمور به عنده بتعدد الدالّ والمدلول فيصير هذا الفرد بالمحدود بالحدود والقيود مصادقة المعنى اللّغوي من أفراد العام والمطلق بالحقيقة وهذا هو العنوان الجامع بين جميع أنواع الصلاة وأفرادها وهكذا الكلام في شرائطها وقيودها. وهذا باب مطرّد في جميع أبواب الفقه.

قوله تعالى: «وعهدنا إلى إبراهيم وإسمٰعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكع السجود». (١٢٥)

أقول: العهد منه سبحانه هو الإلزام بتطهير البيت ونظافته.

قال في المنار ٤٦٢/١: «ولم يذكر مايجب أن يطهّراه منه ليشمل جميع الرجس الحسّي والمعنوي كالشرك وأصنامه واللّغو والرفث والتنازع».

وفيه أنّ الأقذار المعنويّة ليست في عرض الأقذار الظاهريّة الحسيّة فلايحلّ للمفسّر إدخال أحدهما في الآخر إلّا بوساطة دليل لفظيّ وشاهد قطعي من ظاهر القرآن أو بنصّ خاصّ من المعصوم عليه السّلام. والظاهر أنّ الأمر في الآية الشريفة إنّما هو في زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام وفي حياتهما وعقيب بنائهما البيت وليس هناك مع وجود إبراهيم عليه السّلام صنم ولا لوث ولا قذارة بل الظاهر المستفاد من روايات العترة الطاهرة صلوات الله عليهم أنّ هذا الأمر أمر تشريعيّ من الله تعالى بطهارة البيت على ماهو المسلّم عند الفقهاء في حكم المساجد المشرّفة. فتجب المراقبة لتطهير المساجد ونظافتها من القذارات ويحرم تنجيسها ويستحب طهارتها من القذى والغبار ويحرم أيضاً دخول الجنب والحائض فيها. ويشهد على ذلك مارواه في الوسائل ٤٩٧/٣، عن التهذيب مسنداً عن محمد بن حمران عن أبي عبدالله عليه السّلام في حديث قال:

وروى أصحابنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: لاينام في

مسجدي أحد ولا يجنب فيه (أحد). وقال: إنّ الله أولى إليّ أن أتخذ مسجداً طهوراً لا يحلّ لأحد أن يجنب فيه إلّا أنا وعلي والحسن والحسين. قال: ثمّ أمر بسدّ أبوابهم وترك باب عليّ فتكلّموا في ذلك فقال: ما أنا سددت أبوابكم وتركت باب عليّ ولكن الله أمر بسدّها وترك باب علي.

قوله تعالى: «وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر».

دعا عليه السّلام أن يجعل الله تعالى هذا البلد ذا أمن وأن يرزق المؤمنين السعة في الرزق. وقيّد عليه السّلام مورد دعائه بالمؤمنين بالله واليوم الآخر فأجاب الله دعوته أن يرزق المؤمنين، والكافرين أيضاً فإنّ اختصاص المؤمنين بنعمه تعالى إنّما هو من حيث إنّه ذو كرامة عليه تعالى وتنعم الكافرين ليس من هذا الحيث وإنّما هو حكمة من الله سبحانه أن يرزق برحمانيّته العامّة الّتي وسعت كلّ شيء، المؤمن والكافر والصديق والعدوّ في الدنيا. وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: «الرحمن الرحيم» شرحاً شافياً في هذا الباب.

وأمّا كون البلد بلداً ذا أمن فقد كثرت الآيات والروايات بأن البيت كان من لدن آدم حرماً لله بحسب التشريع قال تعالى:

«إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا...». [آل عمران (٣) / ٩٦ و ٩٧]

و «وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنا...». [إبراهيم (١٤) / ٣٥]

و «أو لم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً...» [العنكبوت (٢٩) / ٦٧]

و «والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين». [التين (٩٥) / ١ ـ ٣]

و «فليعبدوا ربّ هذا البيت * الّذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف». [قريش (١٠٦) / ٣ ـ ٤]

دعا عليه السّلام ربّه تعالى وناجاه وأصرّ في المسألة أن يحقّق أمله ويقرّ عينه

بإزهاق الباطل وإحقاق الحق، وأن لايعبد إلّا الله وحده، وأن يجعل البلد دار أمن لأهله ولمن استجار به. وليس هذا إلّا بحسب التشريع لا التكوين وأن يجعل الأرزاق تجبى إليه من الآفاق كي يتمكّن أهله والوافدون إليهم من المُقام به والوقوف في تلك المشاعر العظام والمواقف الكرام؛ وقد أعطى الله سبحانه سؤله ومثّل آماله بين عينيه فإنّ البلد كما أنّه حرم من لدن خلق السّماوات والأرض كذلك حرمتها باقية إلى يوم القيامة.

في الكافي ٢٢٦/٤، مسنداً عن معاوية بن عمّار قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم فتح مكّة:

> إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض وهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحلّ لأحدٍ قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي ولم تحلّ لي إلّا ساعة من نهار.

وفيه أيضاً /٢٢٥، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن حريز عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

> لما قدم رسول الله صلّى الله عليه وآله مكّة يوم افتتحها، فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال: لا إله إلّا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ماذا تقولون وماذا تظنّون؟ قالوا: نظنّ خيراً ونقول خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. قال: فإنّي أقول: كما قال أخي يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين» [يوسف (١٢) / ٩٢] ألا إنّ الله قد حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لاينفر صيدها ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا تحلّ لقطتها إلّا لمنشدها....

وفي البحار ١٣٢/٢١، عن أعلام الورى، عن أبان عن بشير النبّال عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

> لمّا كان فتح مكّة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: عند من المفتاح؟ قالوا: عند أمّ شيبة، فدعا شيبة فقال: إذهب إلى أمّك فقل لها: ترسل

بالمفتاح. فقالت: قل له: قتلت مقالتنا وتريد أن تأخذ منّا مكرمتنا؟ فقال: لترسلنّ به أولاً قتلتك، فوضعته في يد الغلام فأخذه ودعا عمر فقال له: هذا تأويل رؤياي من قبل. ثمّ قام صلّى الله عليه وآله ففتحه وستره فمن يومئذٍ يستر. ثمّ دعا الغلام فبسط رداءه فجعل فيه المفتاح وقال: ردّه إلى أمّك. قال: ودخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنّون أنّ السيف لايرفع عنهم، فأتى رسول الله صلّى الله عليه وآله البيت وأخذ بعضادتي الباب ثمّ قال: لا إله إلّا الله أنجز وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده ثمّ قال: ماتظنّون؟ وما أنتم قائلون؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظنّ خيراً أخ كريم وابن عمّ. قال: فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف: «لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» [يوسف (١٢) / ٩٢] ألا إنّ كلّ دم ومال ومأثرة كان في الجاهليّة فإنّه موضوع تحت قدمي إلّا سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ فإنّهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إنّ مكّة محرّمة بتحريم الله لم تحلّ لأحدٍ كان قبلي ولم تحلّ لي إلّا ساعة من نهار فهي محرّمة إلى أن تقوم الساعة لايختلى خلاها ولايقطع شجرها ولا ينفر صيدها ولا تحلّ لقطتها إلّا لمنشد. ثمّ قال: ألا لبئس جيران النبي كنتم لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وفللتم ثمّ مارضيتم حتّى جئتموني في بلادي تقاتلوني فاذهبوا أنتم الطلقاء فخرج القوم كأنّما انشروا من القبور.

فتلخّص أنّ دعاءه عليه السّلام بكون مكّة بلداً آمناً قبل كونه بلداً وبعد بناء البيت وأنّ دعاءه ومسألته للأمن تأكيد لما كان قبله، أو أنّه يسأل إدامة ذلك الأمان التشريعي على لسان رسله وكتبه وقد استجاب الله دعوته. فالكعبة حرم ومحرّم إلى يوم القيامة تشريعاً لاتكويناً قبل دعوة إبراهيم وبعدها ولا احتياج إلى مانقله في مجمع البيان ٢٠٦/١ وهو: «قيل كانت مكّة حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً بعد الدّعوة فالأوّل بمنع الله إيّاها من الاصطدام والانتفاك كما لحق ذلك غيرها من البلاد وبما جعل في النفوس من تعظيمها والهيبة لها والثاني بالأمر بتعظيمها على ألسنة الرسل فأجابه الله تعالى إلى ما سأل وإنّما سأله أن يجعلها آمنة من الجدب والقحط لأنّه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع ولم يسأله أمنها من

الانتفاك والخسف الّذي كان حاصلاً لها».

وقوله تعالى: «وارزق أهله من الثمرات...» هل هو دعاء منه عليه السّلام لرفع القحط والجدب عنهم بالكلّيّة وكونهم دائماً على الخصب والرخاء أو أنّه عليه السّلام دعا أن يرزقهم الله تعالى من الثمرات إجمالاً لأنّ الأرض واد غير ذي زرع وذو أحجار خشنة مايتوقع منه ثمر ولا نبت ولا برّ ولا غيرها، الظاهر هو الثاني إذ التواريخ الكثيرة والقرائن القطعيّة تدلّ وتحكي أنّ القحط والغلاء والجدب والبلاء قد أصاب مكّة وأهلها كما أصاب سائر البلاد وأهاليها.

قوله تعالى: «قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثمّ أضطرّه إلى عذاب النار وبئس المصير». (١٢٦)

فإن قيل: إنّ قوله تعالى: «ومن كفر...» استدراك عن دعاء إبراهيم عليه السّلام لعدم إمكان التبعيض في الحياة الدنياويّة بين المؤمن والكافر فالمستجاب من الدعاء هو مايكون موافقاً لسنّة العادة والطبيعة.

قلت: إنّ هذا شطط من الكلام وجزاف من القول فإنّ الحوادث والأعمال الدائرة في العالم بأمر الله وقضائه جلّ ثناؤه تجري على سنّة العدل فتارة يوافق ارتزاق المؤمنين والكافرين من مواهبه ومن عوائده تعالى فالمؤمن لكرامته على الله والكافر لحكمة الاستدراج والإملاء. وتارة يفترق أحدهما عن الآخر فكم مؤمن متقٍّ موحّد بين الكفّار والظلمة يحتاج إلى قرصة شعير يسدّ بها رمقه والكفّار والظلمة متنعمون ومنغمرون في أنواع النعم وشهوات أنفسهم.

وخلاصة القول أنّ الله تعالى يختصّ برحمته من يشاء كيف يشاء فبإحسانه وإكرامه تعالى وهكذا هو أنّه وخذلانه بالنسبة إلى الأمم وبالنسبة إلى الأفراد والأشخاص لايمكن أن يكون جزافاً ومستهلكاً في ضمن المصالح النوعيّة بل لابدّ من المصلحة لكلّ واحد واحد من الأفراد فلا إشكال في تفكيك مصالح أفعاله تعالى بالنسبة إلى الأفراد وتبعيضها.

قوله تعالى: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا...».

قد أخبر سبحانه حبيبه وصفيّه محمداً صلّى الله عليه وآله وقصّ له موقفاً جميلاً

وجليلاً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام حين استخلصا أنفسهما عن جميع ماسواه تعالى ببناء البيت المكرّم متذكّرين ومستشعرين بموقعيّته ومكانته، حيث إنّه بيت أسّس وبني تذكاراً لتوحيد الله جلّ شأنه، وتمجيده وخلع الأنداد والأضداد من دون الله وسيكون مسجداً ومعبداً لأئمّة التوحيد وكبراء الإسلام يعبدون الله ويكبّرون كبرياءه ويعظّمون جلاله ويؤمّه ويقصده الأنبياء المقرّبون والأوصياء الطاهرون وأتباعهم الكاملون والمخلصون مادام للتوحيد وأهله في الدنيا سلطان.

وقد مثّل الله تعالى بهذه الآية المباركة شخصيّة هذا النبي المكرّم المعظّم مع آماله المقدّسة وأمنياته الحميدة، أن لايعبد ولا يعظّم الله وحده في مشارق الأرض ومغاربها وخاصّة ذرّيّتها المطهّرة؛ وأن لايخمد شعاع الحق ولا يطفأ نور التوحيد في نسله الصفوة وبيته العظيم. وفي هذا عبرة وبلاغ وذكرى لأهل الاستبصار وأولي الألباب في مشاهدة سنّة الله الكريمة المرضيّة، وأنّه هو الوفيّ الشكور، وأنّه كيف يقدّس ويشكر عمل المخلصين وكيف يعمد إلى إحياء أوليائه الصالحين ويثني عليهم ويثبت أسماءهم وآثارهم ووفاءهم وإخلاصهم وبذلهم في سبيله مهجهم، وإتعابهم في مرضاته أنفسهم. فهذا الذكر العليّ والثناء الجليّ في هذا القرآن الكريم الّذي هو أشرف الصحف الإلهيّة والمهيمن على جميع الكتب السماويّة بين أظهر آل محمّد عليهم السّلام وأتباعهم مادام لمحمد صلّى الله عليه وآله، وآله وأوليائه عليهم السّلام في الدنيا حياة وبقاء. ألا لمثل ذلك فليعمل العاملون.

فسبحانه من إله ما أشكره! وسبحانه من شكور ما أوفاه! وسبحانه من وفي ما أعطفه بأوليائه وأهل الوفاء به. ومن هنا يتذكّر اللّبيب ناحية من أنحاء الدعوة القرآنيّة وكيف يعرّف ربّنا جلّ مجده لأولي الأبصار وفاءه الصريح وعطفه وحنانه على من يحبّه سبحانه، فهو بعينه تعريف لنفسه وتأييد وتثبيت لمن عرفه.

وحيث عرفت أنّ الموقف من أجلّ المواقف وأشرف المشاهد للخليل والذبيح عليهما السّلام حين استسلما لله وأوقفا أنفسهما في حاقّ العبوديّة له تعالى فنصبا المسألة إلى الله حنيفين مخلصين أن يجعلهما مسلمين له تعالى ومن ذرّيّتهما الطاهرة كذلك. فهذا الإسلام المسؤول لابدّ أن يكون متناسباً لهذا الموقف أي: الموقف الكريم الّذي لايمكن النيل منه، والوصول إليه، والتثبّت والتمكّن فيه إلّا بنور الله وتوفيقه وعصمته لا

الإسلام الظاهري الّذي به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث فإنّ هذا الأثر إنّما هو لهذا الإسلام الظاهري الّذي يجمع مع النفاق والضلال أي: عدم الانقياد الباطني للحقائق. في دعاء أبي حمزة الثمالي قال عليه السّلام:

فإنّ قوماً آمنوا بألسنتهم ليحقنوا به دماءهم فأدركوا ما أمّلوا وإنّا آمنّا بك بألسنتنا وقلوبنا لتعفو عنّا فأدركنا ما أمّلنا وثبت رجاءك في صدورنا...

فتلخّص أنّ المقام مقام التشكّر والتقدير لهذا العمل الخطير وأنّه دعوة إلى الله وتعظيم له، وأنّ هذا الدعاء منها وأمنيّتها المقدّسة إنّما هو لأجل الدعوة إلى التوحيد وثباته وبقائه ببقاء الدهر.

ثمّ إنّ للإسلام والإيمان مراتب ومنازل متفاوتة الأعلى فالأعلى لعدم تناهي معرفته تعالى بحسب الواقع، والسير والترقّي إلى بعض المنازل وإن كان أمراً اختياريًّا ندب ودعا إليها الأنبياء ومكّن الله تعالى بالوصول إليها بتهيئة أسبابه بفضله وكرمه إلّا أنّ المشاهد بالعيان عدم رغبة الناس فيها وإدبارهم عنها والإقبال على الدنيا والانهماك فيها ولذّاتها وشهواتها بالاختيار الصريح، فكيف يستغني الموحّد الكامل عن فضل الله وتوفيقه؟ وكيف يسوّغ على نفسه الاستبداد والاستقلال والاستغناء عن إمداد ربّه؟ هيهات ما ذلك أدب العبوديّة، كيف والصراط إلى الله أدقّ من الشعور وأحدّ من السيف؟ كم زلّت فيه أقدام السالكين وكم تاه وتحيّر في منازلها أفهام السائرين؟ وهو الله المستعان. فلا منافاة بين كون الإسلام والإيمان أمراً اختياريًّا وبين كونه مسؤولاً ومستوهباً منه تعالى بفضله وكرمه فالاهتداء بعد هداية الله والاستسلام والانقياد في قيام ماعلم من الحقّ والحقيقة واجب بضرورة العقل بالوجوب الذاتي لا بالجعل والتشريع وأمّا هدايته تعالى وإفاضته العلم والنور ولو بعد تهيئة الأسباب والعلل الدخيلة فإنّما هي بيد الله؛ يهدي من يشاء بما يشاء وليس بحيث يهتدي كلّ أحد بما شاء كيف شاء.

فالإسلام والإيمان قبول الحقّ والاهتداء المفاضة من الله؛ وقد عرفت أنّه واجب بالضرورة، وأمّا إفاضة العلم فته ما قد فعل الله وأفاضه في سنّة الفطرة بما يحتجّ به عليهم وقد وعد في كتابه الكريم وقال: «الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبلنا»

[العنكبوت (٢٩) / ٦٩] وهذا بقدر مقدّر لا جزافاً بل على طبق حكمته وقضائه سبحانه.

فبعدما علمت من أنّ الموقف الخطير للخليل وابنه عليهما السّلام، ودعاءهما لنفسهما وذرّيّتهما بالاستيهاب الإسلام لابدّ أن يكونا من سنخ واحد لما تقدّم من المناسبة الماسّة بالمقام فعليه لايمسّ هذا الإسلام إلّا المطهرون المصطفون لا الأجلاف المنافقون فدعاؤهما عليهما السّلام على أن يكون من ذرّيّتهما أئمّة التوحيد يهدون بأمر الله وأمناء العلم وحفظة الأسرار، وقد استجاب الله دعاءهما بأحسن إجابة وقرّ عيونهما بسيّد المرسلين وإمام المقرّبين وبعليّ وآله المعصومين وهم صلوات الله عليهم دعوة أبيهم إبراهيم عليه السّلام.

فلنرجع إلى تفسير مفردات الآية.

قوله تعالى: «القواعد» جمع القاعدة وهي على ماقاله الأكثر أساس البناء وماقعد منها على الأرض. وهل القواعد الّتي يرفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام ويضعان البناء عليها كانت منهما عليهما السّلام ومن عملهما أو كانت موجودة قبلهما وكشفا عنها ووضعا البناء عليها وجدّدا البناء. وقد يلوح من الآية أنّهما رفعا تلك القواعد ولم يعملا في القواعد شيئاً وكانت القواعد ثابتة قبلهما؛ فلولم تكن الآية ظاهرة في هذا المعنى بحيث يسكن القلب ويعتمد على هذا الظهور فلا محالة ليست ظاهرة في خلافها.

قوله تعالى: «إنّك أنت السميع العليم». (١٢٧)

أي: إنّك أنت السميع لندائنا ودعائنا وإنّك أنت العليم بنيّاتنا.

قوله تعالى: «ربّنا واجعلنا مسلمين لك»

أي: أعطنا من فضلك وكرمك مانرجوه منك بأن تجعلنا مستسلمين ومنقادين لك فقط لاشوب فيه بوجه أصلاً ومستخلصين عن رهانة مداخلة من يخالفك وما يخالفك.

قوله تعالى: «ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك...». (١٢٨)

أي: واجعل من أولادنا جماعة أو إماماً أو أئمّة شركاء في هذه الدعوة بأن تطهّرهم وتخلّصهم من جميع ما يشينهم من أرجاس الشرك والشك والمعاصي بحيث

يصلحون أن يكونوا دعاة للحقّ وأئمّة للتوحيد وأمناء للعلم وحفظة للأسرار. وأحي بهم ذكرنا وأدم بهم اسمنا واجعلهم لنا لسان صدق في الأمم الغابرة. وقد ذكرنا أنّ دعاءهما لهما ولذرّيّتهما عليهما السّلام إنّما ينطبق على من كان معصوماً مطهّراً عالماً بالعلم الإلهي مستسلماً ومستخلصاً عن جميع ماسواه تعالى.

قال في لسان العرب ٢٧/١٢: وقيل: الأمّة الرجل الجامع للخير.

في تفسير العيّاشي ٦٠/١، عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

قلت له: أخبرني عن أمّة محمد صلّى الله عليه آله من هم؟

قال: أمّة محمد بنوهاشم خاصّة.

قلت: فما الحجّة في أمّة محمّد أنهم أهل بيته الّذين ذكرت دون غيرهم؟

قال: قوله الله: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم * ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم». [١٢٧ـ١٢٨]

فلمّا أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذرّيّتهما أمّة مسلمة وبعث فيهم رسولاً منها ـ يعني من تلك الأمة ـ يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ردف دعوته الأولى بدعوته الأخرى فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصحّ أمره فيهم ولا تتّبعوا غيرهم فقال: «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام * ربّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم» [إبراهيم(١١٤) / ٣٥ـ٣٦] فهذه دلالة على أنّه لاتكون الأئمّة والأمّة المسلمة الّتي بعث فيها محمد صلّى الله عليه وآله إلّا من ذرّيّة إبراهيم لقوله: «واجنبني وبنيّ أن تعبد الأصنام».

وفي البحار ٢٠٠/٢٥، عن الأمالي، عن الحفّار مسنداً عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أنا دعوة أبي إبراهيم... قال النّبي صلّى الله عليه وآله: فانتهت الدعوة إليّ وإلى أخي عليّ عليه السّلام لم يسجد أحد منّا لصنم قطّ فاتّخذني الله نبيًّا وعليًّا وصيًّا.

وفي تفسير العياشي ١٩٥/١، عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبدالله عليه السّلام في قول الله: «كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» [آل عمران (٣) / ١١٠] قال:

يعني الأمّة الّتي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السّلام فهم الأمّة الّتي بعث الله فيها ومنها وإليها وهم الأمّة الوسطى وهم خير أمّة أخرجت للناس.

أقول: مضافاً إلى قوله عليه السّلام: «فهم الأمّة الوسطى» أي: الّتي يرجع إليها الغالي ويلحق بها المقصّر والقاصر، فهم بمنزلة المحور العلوم والأحكام والحقائق وبمنزلة القطب من الرحى فلابدّ أن تكون خير أمّة ممّن سواها من الأمم وهي الّتي تفضّل الله بها على جميع الناس.

قوله تعالى: «ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم».

أقول: الضمير في «فيهم» و«منهم» راجع إلى الأمّة المسلمة وقد بعث الله رسولاً في تلك الأمّة منهم وإليهم، وهذا التخصيص والاختصاص غير كون الرسول مبعوثاً إلى العالمين فإنّ الكلام في ظهور الآية استظهرناه من الاختصاص سيّما مع تصريح الروايات به فلا دلالة فيها على إرجاع الضمير إلى قريش فإنّه على هذا يكون مورد دعائهما أخصّ من الإسلام العادي كالأجلاف والأراذل من المنافقين. وعلى ماذكرنا يكون مورد دعائهما هي الأمّة المسلمة الصالحة الخاصّة من الذريّة الطاهرة المعصومة يبق بهم ذكر إبراهيم وتتحقّق أمنيّته المقدّسة.

قوله تعالى: «يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة».

بيان: إنّ للقرآن المجيد عند أوّل مايواجه الناس كلّهم ممّن يراد بالدعوة، دعوة حقّة فلسان تلك المرتبة قوله تعالى: «تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» [الفرقان (٢٥) / ١] وقوله تعالى: «وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...» [الأنعام (٦) / ١٩].

وحيث إنّ دعوة القرآن في هذه المرتبة إنّما هي لكلّ من كان أهلاً لها في كلّ عصر ومصر فالقرآن يدعوهم إلى الله العزيز ويذكرهم بحقّانيّته وكمالاته فالدعوة في هذه المرتبة إلى التوحيد وخلع الأنداد والأضداد والإقرار والإيمان به تعالى وبنعوته وكمالاته الّتي هي شرط في صحّة الايمان والإسلام، وبرسله وكتبه واليوم الآخر والمراقبة والمواظبة على التقوى والتذكير بفضائل الأخلاق ومكارمها. والرسول يعلّمهم حدود العبوديّة وآدابها ووظائفها. وفي هذه المرتبة للمؤمنين والمتقين علوم ومعارف وكمالات روحانيّة نفسيّة ولهم معارف بالنسبة إلى الحقّ الحيّ القدوس المتعال؛ فقد تجلّى الله في كلامه لخلقه ولكنهم لايبصرون.

ولا يخفى عند أولي الألباب أنّه لايمكن تحديد العلوم المتجلّية في هذه المرتبة لاختلاف الأفكار والعقول بالنسبة إلى الأشخاص والأزمان، وبالنسبة إلى الأمكنة المتناسبة بالأشخاص لاسيّما مع هذه التحوّلات والتبدّلات العجيبة في العلوم البشريّة وكيفيّة استنباط العلوم واستكشاف الحقائق؛ فإنّ علوم القرآن ومعارفه كما في عصر النزول أعجزت واقهرت الكفّار عن إتيان مثلها كذلك الآن يناديهم بأعلى صوته ويتحدّاهم عن الإتيان بمثله بالنسبة إلى كلّ زمان ومكان ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً. وواضح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أعلم الناس بهذا القرآن المعجز وأحكامه وعلومه ومعارفه إلى يوم القيامة ونحن لانقدر على تحديد علمه صلّى الله عليه وآله بالقرآن وأسراره وأحكامه وجميع نواهيه.

فإن قيل: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله بين أظهرهم مدّة رسالته ويقرأ عليهم هذا القرآن فلا محالة صاروا عارفين عالمين بالقرآن طبق ماعلّمهم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

قلت: كلّا إنّما كانت تعليماته صلّى الله عليه وآله على نحو إفتاء الفقيه للعوام فيما يحتاجون إليه من الفتوى لا أنّهم صاروا عالمين وعارفين به كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله كذلك. نعم قد كثرت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله علّم عليًّا بما يحتاج الناس إليه من فلق فيه وكتب عليّ عليه السّلام ما أملى رسول الله صلّى الله عليه وآله حتى صار كتاباً وهو من مفاخر علوم آل الرسول يرثها كابر بعد كابر حتّى انتهى إلى خاتم الأئمّة الحجّة بن الحسن

العسكري صلوات الله عليها. فعلى هذا صار الأئمّة عليهم السّلام عارفين لما يعرفه رسول الله صلّى الله عليه وآله من القرآن وراثة وخلافة ويستطيعون استنباط مايحتاج إليه الناس من القرآن كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله كذلك. فينحصر الاستقلال بالقرآن والاستنباط منه بالأئمّة الطاهرين فلايعقل الاستغناء عن رسول الله وآله الطاهرين عليهم السّلام في باب علوم القرآن ومعارفه وأحكامه.

في الكافي ٦٢/١، عن علي بن إبراهيم مسنداً عن سليم بن قيس الهلالي قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السّلام: إنّي سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذرّ شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبيّ الله صلّى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس، ثمّ سمعت منك تصديق ماسمعت منهم. ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبيّ الله صلّى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كلّه باطل؛ أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلّى الله عليه وآله متعمّدين ويفسّرون القرآن بآرائهم؟ قال: فأقبل عليّ فقال:

قد سألت فافهم الجواب: إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعامّاً وخاصّاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً. وقد كذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله على عهده حتّى قام خطيباً فقال: أيّها الناس قد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار. ثمّ كذب عليه من بعده.

وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الإيمان، متصنّع بالإسلام لايتأثّم ولا يتحرّج أن يكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله متعمّداً؛ فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه ولكنّهم قالوا: هذا قد صحب رسول الله صلّى الله عليه وآله ورآه وسمع منه؛ وأخذوا عنه وهم لايعرفون حاله. وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عزّ وجلّ: «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم» [المنافقون (٦٣) / ٤] ثمّ بقوا بعده فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والكذب والبهتان فولّوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس وأكلوا

بهم الدنيا وإنّما الناس مع الملوك والدنيا إلّا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحمله على وجهه ووهم فيه، ولم يتعمّد كذباً فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه فيقول: أنا سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله. فلو علم المسلمون أنّه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنّه وهم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله صلّى الله عليه وآله شيئاً أمر به ثمّ نهى عنه وهو لايعلم أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لايعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ ولو علم أنّه منسوخ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنّه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله، مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله صلّى الله عليه وآله، لم ينسه بل حفظ ماسمع على وجهه فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ فإنّ أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله مثل القرآن ناسخ ومنسوخ، [وخاصّ وعامّ] ومحكم ومتشابه قد كان يكون من رسول الله صلّى الله عليه وآله الكلام له وجهان: كلام عام وكلام خاصّ مثل القرآن وقال الله عزّ وجلّ في كتابه: «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» [الحشر (٥٩) / ٧] فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ماعنى الله به ورسوله صلّى الله عليه وآله وليس كلّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يسأله عن الشيء فيفهم وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه حتّى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأل رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى يسمعوا.

وقد كنت أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله كلّ يوم دخلة وكلّ ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث دار. وقد علم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه لم يصنع ذلك بأحد من

الناس غيري فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله صلّى الله عليه وآله أكثر ذلك في بيتي وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه فلايبق عنده غيري وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحد من بنيّ، وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فانزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله آية من القرآن إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها. ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته فلم أنس حرفاً واحداً، ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت: يانبي الله بأبي أنت وأمّي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا، لست أتخوّف عليك النسيان والجهل.

قوله تعالى: «الحكمة»

قال في لسان العرب ١٢/١٤٠/: الحكم: العلم والفقه قال تعالى: «وآتيناه الحكم صبيًّا» أي: علماً وفقهاً.

وفيه أيضاً ١٣/٥٢٢: الفقه: العلم بالشيء والفهم له... والفقه في الأصل الفهم.

وفي تفسير العياشي ١/١٥١، عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول:

«ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» [البقرة(٢) / ٢٦٩] قال: معرفة الإمام واجتناب الكبائر الّتي أوجب الله عليها النار.

وفيه أيضاً /١٥١، عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبدالله عليه السّلام عن قول الله: «ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» فقال:

إنّ الحكمة المعرفة والتفقّه في الدين فمن فقه منكم فهو حكيم وما من

أحد يموت من المؤمنين أحبّ إلى إبليس من فقيه.

وفي البحار ١٨٠/٦٩، عن تفسير النعماني عن النبي صلّى الله عليه وآله قال:

أنا مدينة الحكمة وعلي بابها.

وأنظر في ذلك البحار ٤١٩/١٧ وج ٣٤١/٣٩ والغدير ٧٩/٦ و٨١ و٦١ و٨٢.

أقول: الفرق بين العلم والفقه هو أنّ الفقه هو العلم مع إعمال دقّة النظر والبصيرة والفرق بين الحكمة والفقه هو أنّ الحكمة هي الفقه مع إحكام وتثبّت في موردها والله أعلم بكتابه.

قوله تعالى: «ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم». (١٢٩)

قال في لسان العرب ٣٥٨/١٤: الزكاة: الصلاح... وأصل الزكاة في اللّغة الطهارة والنماء والبركة.

أقول: تزكية النفوس البشريّة وإصلاحها إنّما هي بالعلوم والمعارف والكمالات ومعرفة الحسنات والمقبحات والأمور الجيّدة والرديئة والقيام بها والمراقبة والحذر على النفس ومنعها عن المحرّمات والقبائح وتربيتها بالحسنات والفضائل وسوقها إليها. والتعبير الجامع عن هذه الحقيقة هو التقوى.

وَمَن يَرْغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى: «ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه».

قال في لسان العرب ٤٢٣/١: رغب عن الشيء: تركه متعمّداً وزهد فيه ولم يردّه.

وفيه أيضاً ٣٣١/١١: الملّة: الشريعة والدين... وتملّل وامتل: دخل في الملّة.

وفيه أيضاً ٤٩٧/١٣: السّفه والسفاه والسفاهة: خفّة الحلم. وقيل: نقيض الحلم... وقيل: الجهل.

بيان: هذه الآية الكريمة احتجاج على الوثنيّين من قريش وتوبيخ لهم أنكم مع إقراركم أنّ إبراهيم عليه السّلام كان حنيفاً مخلصاً لله سبحانه فكيف أعرضتم عن دينه وتوحيده وعبدتم الأصنام، فإنّه من يرغب عن دينه إلى عبادة الأصنام فقد سفه نفسه.

وهل لوحظ في هذه الدّعوة من رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى ملّة إبراهيم والتأكد فيها والتمجيد لها عناية خاصّة أم لا؟

قال الرازي في تفسيره ٦٩/٤: وسؤال آخر وهو أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم لمّا اعترف بأنّ شرع إبراهيم منسوخ ولفظ الملّة يتناول الأصول والفروع فيلزم أن يكون محمّد عليه الصّلاة والسّلام راغباً أيضاً عن ملّة إبراهيم فيلزم ما ألزم عليهم.

وجوابه أنّه تعالى لمّا حكى عن إبراهيم عليه السّلام أنّه تضرّع إلى الله تعالى وطلب منه بعثة الرسول ونصرته وتأييده ونشر شريعته، عبّر عن هذا المعنى بأنّه ملّة إبراهيم فلمّا سلّم اليهود والنصارى والعرب كون إبراهيم عليه السّلام محقًّا في مقاله،

وجب عليهم الاعتراف بنبوّة هذا الشخص الّذي هو مطلوب إبراهيم عليه السّلام.

أقول: لايخفى على الباحث الخبير أنّ هذا التوجيه لاينطبق على سنّة القرآن في إقامة حججه وتنظيم براهينه في قبال خصومه، وأنّ مقامه أعلى وأجلّ من ذلك كيف وهو غنيّ بذاته عن الاستمداد بغيره وهو المهيمن على جميع الكتب والشاهد والرقيب عليها قال تعالى:

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه». [المائدة (٥) / ٤٨]

وفي الصحيفة المباركة السجاديّة في دعائه عليه السّلام عند ختم القرآن /٤٢ قال:

اللّهمّ إنّك أعنتني على ختم كتابك الّذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته وفضّلته على كل حديث قصصته.

وهو الدليل والمصدّق على جميع الأنبياء فإنّه معجز بذاته لذاته ولا تنال أيدي المبطلين والمحرّفين بعرى عصمته، فإنّه كما أنّه معجز بذاته وبرهان نوري على ذاته كذلك برهان وحجّة إلهيّة على نبوّة الأنبياء ورفعة شأنهم وعصمة أنفسهم، وليس في الكتب السماويّة معجزاً ودليلاً وبرهاناً ذاتيًّا سواه ولا دليل لنا فعلاً على حقّانيّة دين ونبيّ سواه. فالصحيح من الأديان ما أثبته القرآن وصدّقه والباطل منها ما أبطله القرآن وكذّبه. على أنّ تصديق القرآن لملّة إبراهيم والدعوة إليها ليس مختصًّا بها بل هذه سنّة القرآن بالنسبة إلى جميع الأنبياء المتقين والأولياء المخلصين وقد أشرنا غير مرّة إلى هذه العناية الإلهيّة من تقديسه تعالى أولياءه الطاهرين قال تعالى:

«أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين * أولئك الّذين هدى الله فبداهم اقتده...». [الأنعام (٦) / ٨٩ـ ٩٠]

لايقال: إنّ الملّة الّتي يدعو إليها القرآن وهي ملّة إبراهيم إذا كان المراد منها هو الدين والشريعة فكيف تكون شريعة محمد صلّى الله عليه وآله ناسخة لما كان قبلها من الشرائع والأديان كما هو المعروف المتسالم عند الناس.

قلت: ليس معنى ناسخيّة شرع محمّد صلّى الله عليه وآله لما قبله من الأديان

وكذلك ناسخيّة كلّ نبيّ لما قبله من الشرائع بالمعنى الّذي يتوهّم بل الدّين الّذي ارتضاه تعالى لأنبيائه ورسله هو الإسلام قال تعالى:

«إنّ الدّين عند الله الإسلام». [آل عمران (٣) / ١٩]

وجميع الأنبياء يدعون أممهم إلى الإسلام ويوصون بنيهم وذرّيّتهم بالإسلام والتقوى في الدين وجميع الأنبياء يصدّق بعضهم بعضاً وليس بينهم اختلاف وإنّما الاختلاف بين علماء البشريّة فإنّ العلوم البشريّة مثار التنازع والاختلاف، إذ ليس أفهامهم وعقولهم في محفظة إلهيّة وعصمة ربّانيّة ومتّكئة على ينبوع الوحي والحقيقة فتراهم يكذّب بعضهم بعضاً ويسفه بعضهم بعضاً على ماهو المحسوس المشاهد ممّن ينتحل العلم والبرهان والمكاشفة.

ويكفيك هذا الكتاب المجيد يهتف بأعلى صوته ويأمر أمّته بالتصديق لما بين يديه من الرسل والاهتداء بهداهم والاتّباع لملّتهم. فتحصّل أنّ الدين عند الله الإسلام وقد ارتضاه الله لأنبيائه وأصفيائه.

ومن الدين ماهو العلم والإيقان بالأمور والحقائق الثابتة الّتي لاتقبل النسخ والإبطال إلى يوم القيامة وهو العلم المبدأ الأعلى جلّ شأنه وتوحيده ونعوت جلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته. وهذه المعرفة عدم تناهيها بديهيّ.

ومنه مايرجع إلى الوظائف الدينيّة الذاتيّة الثابتة بين الخالق والمخلوق من وجوب احترام ذاته والخضوع لكبريائه والاستكانة لعظمته وسلطانه إلى آخر هذا الباب؛ وهو باب واسع جدًّا. ونيل هذا الباب مع مافيه من معرفة الذات الأحديّة ذو درجات ومراتب على قدر سعة العلم ومعرفة العارفين.

ومنه معرفة المعاد وما يؤول له أمر المحسنين وعاقبة المتّقين وماينقلب إليه أمر الظالمين والمجرمين. وهذا العلم الشريف ممّا يختص به الأنبياء وأممهم التابعون منهجهم، السالكون سبيلهم، المقتفون آثارهم، المادّون إليهم بصرهم، وأمّا غيرهم من المنتحلين العلم والعرفان فقد أنكروا غايته حيث إنّ منهم من لم يتمكّن من معرفة المعاد وارتكب تأويله وأنكر كون المعاد أمراً جسمانيًّا وزمانيًّا ومكانيًّا. والعجب أنّ هذا البعض منهم مع عجزه عن نيل دعوة الأنبياء والحرمان عن العلم بالمعاد وحقيقته قد ارتكب ماهو موجب لفضيحته وهو مخالفة الأنبياء.

ومنه فضائل النفس ومكارم الأخلاق والاجتهاد والمراقبة لجلال الله وكبريائه وشؤونه جلّ ثناؤه. ولايخفى أنّ تعداد أصول الإسلام وحقائقه الثابتة الّتي لاتتغيّر غير مقدورة والمهمّ التذكّر إلى أنّ الدّين والإسلام الحنيف منهج جميع الأصفياء والأنبياء غاية الأمر أنّ لبعض الأنبياء مزيّة وخصوصية بكثرة العلم وسعة دعوته والتمكّن من نشر العلم والغلبة على الجهل وإزالته عن الأفكار. وحيث إنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله أعظم النبيّين دعوة وأوضحهم محجّة وهو المكمّل والمتمّم للمعارف الإلهيّة والكمالات البشريّة.

في البحار ٢٧٨/١٦، عن أمالي الشيخ عن جماعة مسنداً عن إسماعيل بن محمّد العلوي، عن أبيه، عن جدّه إسحاق بن جعفر، عن أخيه موسى، عن آبائه، عن عليّ عليهم السّلام قال: سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول:

بعثت لمكارم الأخلاق ومحاسنها.

فالملّة هي الثابتات الّتي لابدّ من الدعوة إليها وتعليمها والإقرار والإذعان بها وحيث إنّ الدين الكامل الإلهي شرّع فيه بعض الأحكام لمصالح العباد ويعبّر عنها عند الفقهاء بالأحكام التعبديّة فهي لاتتأبّى بنفسها عن التغيير والتبديل وهي تابعة لجعل جاعلها موقّتاً ومؤبّداً ومؤجّلاً، فمورد النسخ هو تلك الأحكام. وإشباع البحث في ذلك موكول إلى مجال آخر.

قوله تعالى: «ولقد اصطفيناه في الدنيا».

بيان: اصطفاؤه تعالى عبداً من عباده قد يكون بعناياته تعالى الخاصّة يوفّقه ويسدّده طبق حكمته الجارية ويخصّه بألطاف ورحمات ونظرات رحيميّة له تعالى حتّى يرقيه إلى مراتب الفضل ومدارج الكمال. وقد يكون بالنظر إلى معنى خاصّ ومورد مخصوص كالاختصاص بمنصب النبوّة والرسالة والإمامة. وأنت ـ بعدما أصّلناه في تفسير قوله تعالى: «إنّي جاعلك للناس إماماً» ـ تعرف بحسب الظاهر أنّ المراد من اصطفائه تعالى في المقام هو اصطفاؤه بكرامة الإمامة فعلى هذا مقام الاصطفاء ينطبق على مرتبة الإمامة.

قوله تعالى: «وإنّه في الآخرة لمن الصالحين». (١٣٠)

أقول: قد جرت سنّته تعالى الكريمة الفاضلة على إكرام أحبائه وأوليائه بما يليق

بجنابه سبحانه في الدنيا والآخرة من كراماته فلا محالة ليس المتقون عنده سبحانه كالفجّار فلايضيع لديه أجر المحسنين ولايضيّع إيمان المؤمنين.

قوله تعالى: «إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين». (١٣١)

بيان: الإسلام المتناسب مع هذا الموقف ليس إلّا من أعلى مدارجه واقصى منازله، لا الإسلام العادي لعامّة المسلمين. وتشريفه تعالى إبراهيم عليه السّلام بخطاب أسلم على طريق الوحي بعد تمكّنه في موقف الاصطفاء. وليس في أمره تعالى إيّاه بالإسلام دلالة على كونه عليه السّلام قبل ذلك غير مسلم وإنّما هو حكاية حال ماضية بأنّه تعالى بعدما اصطفاه بالنّبوة والرسالة وحمّله أثقال العلم وميثاق النبوّة واجتباه بكرامة خاصّة لابدّ من أخذ الميثاق والتعهد منه عليه السّلام على القيام بما علم والتسليم في مقابل مايتنزل عليه من الابتلاءات، وهو عليه السّلام حينما قال الله تعالى له: «أسلم» بادر إلى الجواب بقوله: «أسلمت» ولم يكتف بقوله: «أسلمت» بل مع زيادة تعظيم وتمجيد متواضعاً ومستكيناً لجلاله، وأنّ الإسلام والاستسلام إنّما هو في قبال ربّ العالمين.

فتلخّص أنّ الاصطفاء هو الإقدام والتصدّي للتصفية شيئاً فشيئاً مع تحقّق التصفية لا أخذ صفوة الشيء، وأنّ الإسلام والاصطفاء متقارنان لا أنّ الإسلام أي الأمر به كان قبل البلوغ إذ لا محصّل لتوجه الخطاب إلى غير النبي ولا محصّل للإسلام العادي والبدوي للنّبي صلّى الله عليه وآله.

فعلى ماذكرناه يسقط ما أورده في مجمع البيان ٢١٢/١ : «واختلف في أنّه حتى قيل له ذلك فقال الحسن: كان هذا حين أفلت الشمس ورأى إبراهيم تلك الآيات والأدلّة فاستدلّ بها على وحدانيّة الله سبحانه وقال: «يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون * إنّي وجّهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض» [الأنعام(٦) / ٧٨ ـ ٧٩] الآية، وإنّه أسلم حينئذٍ. وهذا يدلّ على أنّه كان ذلك قبل النبوّة... وقال ابن عباس: إنّما قال ذلك إبراهيم عليه السّلام حين خرج من السرب.

أقول: لم يحصل لنا شرح حياته ومواقفه عليه السّلام وتاريخ بعثته وتاريخ نزول الوحي عليه وليس القول بكلّ واحد من هذه إلّا رجماً بالغيب.

والظاهر من الآيات أن موقف الاستسلام كان بعد النبوّة وبعد إراءة الملكوت،

والحقّ ماشرحنا أوّلاً من أنّ هذه المواقف الحميدة البارزة من الخليل صلوات الله عليه وطمأنينة صدره وثبات قدمه وما اختصّه الله من الكرامات والتشريفات من تواضعه وإخلاصه وإسلامه لله حتّى آنسه تعالى بخطابات، وأقبل جل شأنه عليه صلوات الله عليه إقبال الشفيق، وأنصت له إنصات الرفيق وأجابه إجابات الأحبّاء، وهو عليه السّلام ناجاه مناجاة الأخلاء فجلس بين يدي إكرامه تعالى بوقار المجالسة، وخضوع المخاطبة فقوله: «أسلمت لربّ العالمين» في موقف الإمامة والاصطفاء فلابدّ أن يكون الإسلام في المورد متناسباً ومسانخاً لهذا الموقف.

قوله تعالى: «ووصّى بها إبراهيم بنيه».

أقول: الضمير راجع إلى الملّة أو كلمة الإسلام. وقد اختار كل واحد منها فريق والأمر فيه سهل لأنّ الملّة هي الإسلام والإسلام هو الملّة والظاهر أنّ المراد هو الإسلام بقرينة ذيل الآية.

والظاهر أنّ كلمة «وصّى» باعتبار موارد استعمالها تستعمل غالباً في مورد العهد والإبلاغ والحكم والتشريع قال تعالى:

«ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله وإن تكفروا فإنّ لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيًّا حميداً».
[النساء (٤) / ١٣١]

و «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصّيكم الله بهذا فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً...» و «ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالّتي هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلّف نفساً إلّا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربىٰ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّيكم به لعلّكم تذكّرون». [الأنعام (٦) / ١٤٤ ـ ١٥٢]

و «ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً...». [العنكبوت (٢٩) / ٨]

و «شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والّذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه».
[الشورى (٤٢) / ١٣]

وكم فرق بين الوصيّة من شخص بما بعد موته في أمواله وأولاده أو غير ذلك، وبين الوصيّة بمعنى العهد والحكم، فالوصيّة من إبراهيم عليه السّلام بالنسبة إلى الإسلام والتوحيد بلحاظ أنّه عليه السّلام من أعاظم الموحدين وكبراء العلماء بالتوحيد، وله في هذا الباب مواقف بارزة، ومجاهدات حميدة، وخطوات صالحة، وبراهين نيّرة، ليست على حدّ سائر الوصايا المتعارفة بل هي من جملة مساعيه الجميلة في الأمم الغابرة؛ يناديهم ويدعوهم إلى الله العزيز القدّوس؛ كيف والملّة والإسلام الّذي أوصاه الله به في الأوّلين والآخرين وقام بدعوته الأنبياء المقرّبون، وقام بدعوته الخليل عليه السّلام مدّة عمره وبذل جهده في ترويجه والذبّ عنه، لاتنحصر التوصية به والتعهد عليه ببيت دون بيت بل هي بلاغ وإبلاغ وذكرى لقوم يعقلون، يهتف بهذه الدعوة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وقد شرّف الله تعالى خليله وأثنى عليه ورضي بما وصّاه وبلّغه إلى مسامع العالمين بأحسن بلاغ في هذا السفر الكريم.

وفي مجمع البيان ٢١٣/١: قرأ أهل المدينة والشام «وأوصى» بهمزة بين واوين وتخفيف الصاد.

قوله تعالى: «ويعقوب يابنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلاتموتنّ إلّا وأنتم مسلمون».

أقول: قوله: «يعقوب» عطف على فاعل وصّى لا إلى مفعوله أي: كذلك يعقوب أيضاً ويشهد عليه مضافاً إلى ماذكره في جوامع الجامع /٢٦، والصافي /٤٨، وآلاء الرحمن /١٢٩ وتفسير شبّر /٥٣، الآية التالية «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه...».

وقوله: «اصطفى لكم الدين» أي: إنّ الله اختار وارتضى لكم الدين دين الإسلام ولا يحتاج إلى القول بأنّ الله استصفاه لكم.

قوله تعالى: «فلاتموتنّ إلّا وأنتم مسلمون». (١٣٢)

هذا تحذير لهم عن أن يفاجئهم الموت وهم غير مسلمين.

قوله تعالى: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له

مسلمون». (١٣٣)

الاستفهام إنكاريّ وتوبيخ للّذين نسبوا إلى يعقوب عليه السّلام وأولاده اليهوديّة، وتبرئة لساحته وساحة ولده أيضاً عمّا قالوا فيهم وأنكروا عليهم أنّهم ليسوا حاضرين عند وفاة يعقوب كي يشاهدوا مايدّعونه ويفترونه عليه وعلى أولاده من اليهوديّة. وذكر وصيّة يعقوب لبنيه حين وفاته على طريق الاستفهام، وجوابهم بأنّا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون. وفيه تصريح بأنّ بيت يعقوب متّصل إلى بيت إبراهيم وإسماعيل؛ وأبناؤه يجرون مجرى آبائهم الكرام في التوحيد الخالص.

قوله تعالى: «تلك أمّة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم وتسألون عمّا كانوا يعملون». (١٣٤)

تذكرة وإرشاد إلى أنّ كلّ إنسان رهين ماكسبه وعمله من الحسنات والسيّئات، ولاينفعه ولا تنجيه أعمال آبائه وأجداده وكذلك لاتضرّه أعمال ذرّيّته.

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ

عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

قوله تعالى: «وقالوا كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا».

أقول: قول اليهود والنصارى في اختصاص الهدى بهما باطل لا حجّة لهما بل قامت الحجّة القيّمة على بطلان دعواهما؛ ضرورة أنّ كلّ نبيّ مكلّف بما يوحى إليه لا إلى ماقاله اليهود والنصارى سواء كان من اللاحقين أم من السابقين. فلامعنى لانحصار الحق فيهما فإنّ دين الله هو الإسلام أزلاً وأبداً غير قابل للنسخ والإبطال والأنبياء عليهم السّلام يدعون إلى متن الحق والحقيقة.

قوله تعالى: «قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين». (١٣٥)

إبطال لما قاله اليهود والنصارىٰ بعدما ثبت وتحقّق أن إبراهيم عليه السّلام كان إمام الموحّدين ويرث هذا التوحيد الخالص بعده الأنبياء الموحّدون المقرّبون واحداً بعد واحد وأممهم الصالحون الصادقون.

قوله تعالى: «قولوا آمنا بالله».

تشريع وتثبيت لمفاد الآية السابقة وتوضيح للاحتجاج على إبطال مقالة أهل الكتابين وتصريح بما استظهرناه من الآية السابقة بأنّ الامتداد لابدّ أن يكون بالهداية الحقّة وقد قامت البراهين النيّرة على إحقاق الحقّ والتوحيد وإبطال الشرك والباطل

وأنّ المدافعين عن حريم التوحيد هم الأنبياء الّذين حملوا علم التوحيد وأعلنوه في مشارق الأرض ومغاربها ولا اختلاف في علومهم فإنّهم أخذوا علومهم عن عين صافية فاللاحقون منهم مصدّقون لسابقيهم والسابقون منهم مبشّرون للاحقيهم. وأمّا تذكار إبراهيم عليه السّلام فمن حيث إنّه عليه السّلام أسوة وقدوة وإمام يتأسّىٰ ويقتدىٰ ويؤتمّ به لا من باب اختصاص الملّة والهدىٰ به عليه السّلام فإنّ جميع الأنبياء أدلّاء على الله وهداة للإسلام وحماة للتوحيد.

قال في مجمع البيان ٢١٧/١: «قولوا آمنّا بالله»... قيل: خطاب للنّبي والمؤمنين.

وقال الرازي في تفسيره ٨٢/٤: وقال القاضي: قوله «قولوا آمنّا بالله» يتناول جميع المكلّفين.

أقول: الظاهر أنّه خطاب لجميع المكلّفين.

إن قيل: إنّ «آمنّا» لايجوز إطلاقه في مورد «أسلمنا» أي: إنّ قوله: «آمنّا» يصدق إذا عقد قلبه وأقرّ ودان بجميع ماعلم وعرف من حقيقة الدين والشريعة وأدّى مافرض عليه قلباً وقالباً، وروحاً وبدناً فيجب عليه أداء ما فرض على لسانه أيضاً ولا فرق في ذلك بين جميع منازل الايمان ومراتبه. وأمّا إذا كان مستسلماً ظاهراً معانداً بما علم من الدّين والتوحيد أو كان شاكّاً متحيّراً وضالاً ومرتاباً ومتردّداً فليس قوله: «آمنا» في حقّه إلّا كذباً ونفاقاً.

وأمّا من كان مؤمناً فاسقاً وخلط عملاً صالحا وآخر سيّئاً فهذا وإن كان مؤمناً لايصح سلب اسم الايمان عنه في الجملة إلّا أنّ إظهار الايمان منه على الإطلاق بحيث لايوافق الواقع غير صحيح أيضاً. على أنّ الايمان مبثوث على الجوارح كلّها وأنّ الإيمان كلّه عمل فيجب على اللّسان الإقرار به كائناً من كان، كما يجب على كلّ جارحة من جوارح الإنسان الايمان الّذي فرض عليه قلباً أو قالباً.

قلت: نعم، هذا صحيح ونحن نلتزم بوجوب الإقرار اللّساني إلّا أنّا نقول: إنّه واجب مع جميع مايجب على القلب وغيره وجوباً نفسيًّا عقليًّا وقد فوّت على نفسه أن تصدر منه هذه الفريضة، والمنافي بالاختيار لاينافي الاختيار. وإذا عمل بهذه الفريضة الظاهريّة وعصىٰ واستكبر بالنسبة إلى ماعداها لما كان عمله إلّا كذباً ونفاقاً لا إيماناً وإذعاناً. ولا يخفىٰ أنّ هذا بالنسبة إلى المعاند المستكبر الّذي عرف الحق وأعرض عنه

وكذلك بالنسبة إلى المؤمن الفاسق المقترف. وأمّا بالنسبة إلى المتحيّر الشاك والضالّ، المرتاب المتردّد فلا يجري هذا الّذي ذكرناه فيه بل فيه طور آخر من البحث؛ والّذي نقول فيه أنّ الإنسان إذا كان له عقل سالم وبدن سالم ولم يكن مستضعفاً لوخلّى نفسه عن هوساته وشهواته وأغراضه واستمع إلى دعاء دعاة الحقّ يكون متذكّراً بذكرهم لا محالة على قد ذكاء فطرته ولا أقلّ يحصل له ماتتمّ به الحجّة عليه فإنّ دين الله والملّة الحنيفيّة يبلغها العالم والجاهل. وأمّا إذا لم يحصل له التخلي عن أغراضه وهوساته ووضع نفسه في التشكيك والترديد كي يخلّص نفسه من الائتار بأمراء الحقّ ويسوّغ على نفسه بأن يستخفّ الحقّ وأهله، ولايزال يدافع في نفسه ماهجم على قلبه من احترام الحقّ وتعظيم العلم فمقتضى عدّة من الروايات أنّ هؤلاء المخذولين لايتمكّنون من إماتة فطرتهم بحيث يحصل لهم القطع بأنّ الباطل حقّ والحقّ باطل ولايزالون في ريبهم يترددون.

فاتقدح ممّا ذكرنا أنّ قوله تعالى: «قولوا» خطاب لمن اتّبع ملّة إبراهيم بحيث لو آمن المخاصمون بمثل إيمانهم كانوا من المهتدين وفازوا بالفلاح والنجاح، ولايمكن أن يكون خطاباً لجميع من أقرّ بالدّعوة الظاهرة من الضّلال والمنافقين.

في تفسير العيّاشي ١٠٥/١، عن الفضل بن صالح عن بعض أصحابه في قوله: «قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط» أمّا قوله: «قولوا» فهم آل محمد صلّى الله عليه وآله. وقوله: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا» سائر الناس.

وفي الكافي ٤١٥/١، عن محمّد بن يحيى مسنداً عن سلام، عن أبي جعفر عليه السّلام في قوله تعالى: «قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا» قال:

> إنّما عنى بذلك عليّاً عليه السّلام وفاطمة والحسن والحسين وجرت بعدهم في الأئمّة عليهم السّلام، ثمّ يرجع القول من الله في الناس فقال: «فإن آمنوا (يعني الناس) بمثل ما آمنتم به (يعني عليّاً وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السّلام) فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّهم في شقاق».

أقول: الظاهر أنّه لا إشكال في شمول الخطاب الحقيقي للمؤمنين كما استظهرناه. والروايتان شاهد صريح على ماذكرناه وذكر أهل البيت إنّما هو من باب أفضل

المصاديق.

في الصافي/ ٤٦، عن الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السّلام في وصاياه لابنه محمّد بن الحنفيّة: وفرض على اللّسان الإقرار والتعبير عن القلب بما عقده عليه فقال عزّ وجلّ: «قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا...».

قوله تعالىٰ: «وما أُنزل إلينا وأُنزل إلى إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النّبيّون من ربّهم لانفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون». (١٣٦)

هذا تذكرة وإرشاد إلى أنّ الايمان بالله لاينفكّ عن الايمان برسله وأنبيائه من لدن آدم إلى يومنا هذا فإنّ كلّ من آمن بالله يجب عليه أن يؤمن ويصدّق جميع أنبيائه ورسله وما أنزل عليهم من الكتب والمعارف والشرائع والأحكام ولايجوز أن يؤمن بنبيّ وشريعته ويكذّب آخرين كما هو صريح الآية الكريمة.

قوله تعالىٰ: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا». فإنّ الايمان يضمن فلاحهم ونجاحهم وهو الايمان الّذي كان على حدّ إيمان الموحّدين مثل إبراهيم ومن سواه من الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام؛ ومثل الايمان بالقرآن طبق مابيّنه وبلّغه رسول الله صلّى الله عليه وآله وأوصياؤه المقرّبون من شرائط الايمان وحدوده لا ما ادّعاه المنافقون والنصّاب والضلّال وأهل البدع والأهواء من أعداء الإسلام والمسلمين. فالآية الكريمة قرينة قطعيّة على أنّ المراد من قوله: «آمنّا» هو الايمان الواقعي لا الهزلي والتصنّعي والنفاقي فإنّ المكلّف بقوله: «قولوا آمنّا» هو المخاطب في قوله تعالى: «بمثل ما آمنتم به».

قوله تعالىٰ: «وإن تولّوا فإنّما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم». (١٣٧)

أي: فإنّ تولّوا وأعرضوا بعد استماع هذه الحجج القيّمة والدلائل البيّنة ويصرّوا على اتّباع الهوى ويؤثّروا الكفر على الايمان فهم على خلافك وإبطال نورك ولن يقدروا فإنّ ربّك هو الناصر لك ويكفيك شرّهم ويغيهم بحوله وقوّته وسلطانه ولن يضرّوك شيئاً وهو يسمع ويعلم بلاغك الحسن الجميل بالبراهين القاهرة الداحضة حججهم.

في مجمع البيان ٢١٨/١، عن الصادق عليه السّلام أنّه قال في قوله تعالى: «في شقاق»: يعني في كفر.

قوله تعالى: «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون». (١٣٨)

أقول: الصبغة ـ بالكسر ـ مثل الجلسة أي: النوع من الصبغ. وفي إعرابه أقوال:

الأوّل: إنّه منصوب بالإغراء.

الثاني: إنّه بدل من قوله تعالى: «ملّة إبراهيم».

الثالث: قال في الجوامع ٢٧/: مصدر مؤكّد ينتصب عن قوله: «آمنّا بالله» كما انتصب «وعد الله» عمّا تقدّمه.

أقول: الظاهر أنّه بدل أو عطف بحذف العاطف على قوله تعالى: «آمنّا بالله» أو على قوله: «نحن له مسلمون» والمعنى آمنّا بالله نتبع صبغته، أو ونتّبع صبغته، أو يقال: ونحن له مسلمون ونتّبع صبغته.

ويظهر من كلماتهم أنّ المراد من الصبغة أي: الإيمان الّذي هو عمل اختياري لهم وفريضة من الله عليهم فيجب عليهم أن يكسبوا صبغ الإيمان وتزيّنوا بحليته ووقاره وجماله وبهائه.

قال في آلاء الرحمن ١٣١/: عن ابن عبّاس قال: «دين الله. وسمّيت صبغة باعتبار الأثر الكريم الظاهر من التوحيد ومكارم الأخلاق وزينة الشريعة.

أقول: هذا تكلّف لايلائم ولايناسب ذيل الآية: «ومن أحسن من الله صبغة» وظاهر الآية أنّ هذه الصبغة من صنع الله الكريم ومن فضله. وقوله تعالى: «ومن أحسن من الله صبغة» قرينة واضحة على ماذكرناه. أي: إنّه من صنع الله شديد الحسن. والمراد هداية الله تعالى لهم بالفطرة والجبلّة وتعريفه تعالى نفسه إليهم. وهو الصراط الحق الّذي لايتخلّف عن الواقع، وفطرة الله الّتي لاتبديل ولا تغيير فيها. والآية الكريمة قوله تعالى: «فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم» [الروم (٣٠) / ٣٠]

وبهذا البيان يتجلّى معنى الآية ويأخذ الاحتجاج على اليهود والنصارى موقعه

ومحلّه ويتمّ عليهم الاحتجاج بأنّ الأمر المخالف للفطرة خلاف البداهة والضرورة.

واعلم أنّ فاطر الخلق على توحيده ومعرفته سبحانه معرفة لاتبديل فيها ولا تغيير وصانعهم على ذلك صنعاً لايتحوّل ولايزول، هو الله سبحانه وحده لاشريك له. وهو الله الّذي فطرهم وصبغهم فطرة قيّمة لا عوج فيها ولا صبغة حسنة جميلة لا غيب فيها. فعلى ذلك يكون قوله تعالى: «ومن أحسن من الله صبغة» دالاً على شدّة حسن فعله وغاية جماله وكماله وحيث إنّه فعله تعالى مستقيماً ولايقدر عليه أحد غيره متفرّداً ومتوحّداً في ذلك، لايشترك فيه معه أحد. ويشهد على ذلك أنّ «أفعل» في صفاته تعالى منسلخ عن التفاضل، لظهور أنّ مقايسة شيء متوقفه على وحدة مرتبة الشيئين، وليس هنالك فاعل غيره سبحانه حتّى يكون هو تعالى أحسن فعلاً منه.

في الكافي ١٤/٢، عن عليّ بن إبراهيم مسنداً عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السّلام في قول الله عزّ وجلّ: «صبغة الله...» قال: الإسلام.

وفيه أيضاً /١٤، عن حميد بن زياد مسنداً عن محمد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السّلام في قوله الله عزّ وجلّ: «صبغة الله...» قال: الصبغة هي الإسلام.

وفي تفسير العيّاشي ٦٢/١، عن عمر بن عبدالرحمٰن بن كثير الهاشمي مولى أبي جعفر، عن أبي عبدالله عليه السّلام في قول الله: «صبغة الله...» قال:

الصبغة معرفة أمير المؤمنين بالولاية في الميثاق.

قوله تعالى: «قل أتحاجّوننا في الله وهو ربّنا وربّكم».

بيان: الظاهر أنّ المجادلة والمخاصمة بين المسلمين واليهود إنّما هي في أنّ اليهود زعموا وادّعوا أنّهم أولى بكرامة الله واصطفاء النبي والرسول منهم. والحال أنّ هذه الدعوى باطلة من أصلها لأنّه لايجوز لأحد تحميل عقيدته وهواه على الله سبحانه فإنّه سبحانه بعلمه غير المتناهي يعلم ماهو الأحسن في أفعاله وشؤونه، بل يجب على كلّ من عقل وعرف توحيده ونعوته تعالى، التسلم والانقياد في مقابل مايشاؤه ويريده، والإخلاص والتسليم بما يحكم ويقضي سبحانه في حقّه وكذلك في حقّ غيره أيضاً.

قوله تعالى: «ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون». (١٣٩)

أقول: العقل الضروري شاهد وصادق في أمثال المقام أنّه يجب على كلّ أحد